جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد
كلية العلوم الإسلامية

الأمثال والأقسام في ضوء (مفاهيم القرآن) للسبحاني
دراسة موضوعية

إطروحة مقدمة
إلى مجلس كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة بغداد
وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه
في العلوم الإسلامية
تخصص (تفسير)

من الطالبة
مهـا طالب عبد الله الجبوري

بإشراف
أ.م.د أحمد جلوب جاسم

١٤٣٩هـ ٢٠١٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

سورة الحشر ، من الآية / ٢١

الإهـــــداء

بعد القربى إلى الله تعالى .....

إلى :

الذي أنزله الله رحمةً للعالمين جميعاً وآلِ بيته الطيبين وصحبه المنتجبين ....

الذين حفظوا لنا كرامتنا وعزنا شهداء العراق ومنهم والدي وفاءً لدمائهم الطاهرة في كل زمان ومكان .....

التي هي الجنة تحت أقدامها (أمي) رحمها الله .....

أساتذتي ومشرفي الذين سددوا خُطا فكري وقلمي ....

إخوتي وأخواتي من المؤمنين والمؤمنات ومن دعا إليَّ بالنجاح والتوفيق ....

إلى زوجي ورفيق دربي احتراما لمواقفه الكبيرة في دعمي وتشجيعي لإتمام هذه الإطروحة.

أهدي إليهم جميعاً هذا البحث المتواضع

الباحثة

شكر وعرفان

الشكر لله تعالى شكراً لا منتهى لحده، ولا حساب لعدده، ولا انقطاع لأمده على ما أفاض عليّ من رحمته وشملني بواسع فضله، وبعد رحلة بحث وجهد واجتهاد تكللت بإنجاز هذا البحث، لا يسعنا إلا أن نخص بأسمى عبارات الشكر والتقدير للدكتور "**أحمد جلوب**" لما قدمه لي من جهد ونصح ومعرفة طيلة انجاز هذا البحث، واتقدم بالشكر الجزيل لكل من أسهم في تقديم يد العون لإنجاز هذا البحث، ونخص بالذكر أساتذتنا الكرام الذين أشرفوا على الدراسة التمهيدية، ونخص الذكر(د. محمد صالح رحمه الله) و لا ننسى أن نتقدم بأرقى وأثمن عبارات الشكر والعرفان إلى القائمين على (كلية العلوم الإسلامية) وعلى رأسهم عميد الكلية وكل العاملين بها وبالأخص قسم الدراسات العليا في قسم العقيدة والفكر الإسلامي . الذين كانوا عونا لنا في تذليل كل الصعوبات ونورا يضيء الظلمة التي كانت تقف أحيانا في طريقنا.

إلى من زرعوا التفاؤل في دربنا وقدموا لنا المساعدات والتسهيلات والمعلومات، وبالأخص أساتذتي الكرام في الجامعة المستنصرية (د. عبدالحسين عبدالله ، د. وفاء كاظم سليم) فلهم الشكر من قلب فاض بالاحترام والتقدير لهم.

وأتقدم بشكري وامتناني وعرفاني بعد الله تعالى إلى الشيخ (السبحاني) الذي خصص لي من وقته الثمين ما أثلج به صدري وقر برؤيته عيني وأمدني من علمه ومباركته بعد إطلاعه على أطروحتي، فهو كسحابة معطاءة سقت الأرض فاخضرت، ومدير مكتبه الأستاذ الجليل (حيدر البغدادي) على ما قدمه لي من مساعدة، فجزاهما الله عني خير جزاء وأثابهما برفعة منازلهما في الدنيا والآخرة أنه سميعٌ مجيب.

والشكر موصول إلى كل الذين مدوا يد العون في تهيئة المصادر والمراجع، وتقديم التوجيهات والنصح، والشكر مسبقاً إلى لجنة المناقشة الأفاضل على إغنائهم الإطروحة بتوجيهاتهم السديدة، فجزاهم الله عني وأكرمهم برضاه.

الباحثة

الرموز المستعملة

١	ت	=	وفاة
٢	(ب – ط)	=	بلا طبعة
٣	(ب – ت)	=	بلا تاريخ
٤	(ب – ط – ت)	=	بلا طبعة وتاريخ
٥	هـ	=	هجري قمري
٦	م	=	ميلادي
٧	ش	=	هجري شمسي
٨	ص	=	صفحة
٩	٢/١	=	رقم الجزء/رقم الصفحة

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الآية القرآنية	ب
إقرار المشرف	ج
قرار لجنة المناقشة	د
الإهداء	هـ
الشكر والتقدير	و
الرموز المستعملة	ز
المحتويات	ح– ي
المقدمة	١–٤
التمهيد	٥–١٩
الفصل الاول امثال القرآن الكريم	٢٠-٤٧
المبحث الأول: تعريف الأمثال وغاياتها والتأليف فيها	٢١–٣١
المطلب الأول: المثل في اللغة والاصطلاح	٢٢–٢٤
المطلب الثاني: فوائد الأمثال السائرة	٢٥–٢٧
المطلب الثالث: أهمية الأمثال ومكانتها في القرآن الكريم	٢٧–٢٨
المطلب الرابع: المراد بضرب المثل	٢٨–٣٠
المطلب الخامس: الكتب المؤلفة في الأمثال القرآنية	٣٠–٣١
المبحث الثاني: أقسام الأمثال القرآنية	٣٢–٤٧
المطلب الأول: أقسامها من حيث السياق	٣٣–٣٥
المطلب الثاني: أقسامها من حيث المعنى	٣٥–٣٧
المطلب الثالث: الأمثال القرآنية وأنسجامها مع البيئة	٣٧–٤٥
المطلب الثالث: استنكار الأمثال القرآنية	٤٥–٤٧

الفصل الثاني التمثيلات القرآنية	٤٨-٢٢٠
المبحث الأول: ضرب المثل بالكائن الحي أو بالأحياء	٤٩-١٧٠
المطلب الأول: المثل بالأنبياء وبأمهاتهم وزوجاتهم	٥٠-٧٠
المطلب الثاني: المثل بسائر الناس	٧٠-١٣٢
المطلب الثالث: المثل بالحيوان والهوام	١٣٢-١٧٠
المبحث الثاني: ضرب المثل بالجمادات والظواهر الطبيعية	١٧١-١٩٩
المطلب الأول: المثل بالأرض والسماء والقرى والحجارة والجبال	١٧٢-١٨٢
المطلب الثاني: المثل بالمحيطات والبحار والأنهار	١٨٣-١٨٧
المطلب الثالث: المثل بالظواهر الطبيعية	١٨٧-١٩٩
المبحث الثالث: ضرب المثل بأمور أخرى	٢٠٠-٢٢٠
المطلب الأول: ضرب المثل بالمشكاة	٢٠١-٢٠٤
المطلب الثاني: تمثيل الحياة الدنيا باللعب واللهو	٢٠٤-٢٠٧
المطلب الثالث: تمثيل الأعمال بالظلمات والنور	٢٠٧-٢١٣
المطلب الرابع: التمثيل بالشيطان أو الموتى	٢١٣-٢٢٠
الفصل الثالث اقسام القرآن الكريم	٢٢١-٣٦١
المبحث الأول: معنى القسم، التأليف فيه، أركانه، مناقشة أرائه	٢٢٢-٢٣٤
المطلب الأول: تعريف القسم لغة واصطلاحا وتفسيره	٢٢٣-٢٢٩
المطلب الثاني: مناقشة (الحلف بغير الله سبحانه)	٢٢٩-٢٣٤
المبحث الثاني: القسم المفرد	٢٣٥-٢٨٥
المطلب الأول: القسم بلفظ الجلالة وبالرب	٢٣٦-٢٥٥

المطلب الثاني: القسم بالنبي (ﷺ) وبوصفه	٢٥٥-٢٦٢
المطلب الثالث: القسم بالقرآن الكريم وبالحروف المقطعة	٢٦٢-٢٧٢
المطلب الرابع: القسم بالعصر والنجم والسماء	٢٧٢-٢٨٥
المبحث الثالث: القسم بالمتعدد	٢٨٦-٣٦١
المطلب الأول: القسم بالملائكة	٢٨٧-٢٩٨
المطلب الثاني: القسم بالظواهر الطبيعية وبالأمكنة	٢٩٨-٣٣٥
المطلب الثالث: القسم بالأجرام السماوية	٣٣٥-٣٤٦
المطلب الرابع: أقسام أخرى	٣٤٦-٣٦١
نتائج البحث	٣٦٣-٣٦٦
المصادر والمراجع	٣٦٧-٣٩٣
الملحقات	٣٩٤-٣٩٧
ملخص الأنكليزي	1-3

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام علـى سـيدنا محمـد سـيد النبيـين، وعلـى آله الهداة المهديّين، وصحبه المنتجبين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

بعد....

إن علمـي الأمثـال والأقسـام، مـن العلـوم الشـريفة القيمـة الضـرورية، وفـي ظلالهمـا تجـري السـعادة للإنسـان فـي الـدنيا والآخـرة، ومـن الجـدير بالـذكر أن حاجـة العبـاد اليهمـا مـن الحاجـات التـي لا غنـى عنهـا، وهـذين العلمـين يتعلقـان بمعرفـة ارادة المعنـى الـذي أراده الله تعـالى مـن ضـوب تلـك الأمثـال والأقسـام، لتـذكرهم وتعِظهـم بمـا تحمـل مـن تصـوير للنمـاذج المتنوعـة فيهمـا، وبمـا تقـدم مـن الأدلـة والبـراهين العقليـة والحسـية التـي تهـدي جميعهـا الـى الإيمـان والعمـل الصـالح. إذ تـدرجت الأمثـال والأقسـام مـع الـزمن فارتقـت فـي أحيـان كثيـرة الـى مرتبـة الأعـراف التـي يحـتكم إليهـا النـاس فـي تعـاملهم مـع بعضـهم، وفـي إقامـة علاقـاتهم فيمـا بيـنهم فـي الحـدود التـي تتناولهـا تلـك الأعـراف، وبخاصـة التـي تعبـر الأمثـال والأقسـام عـن مصـداقيتها، وفعـل تأثيرهـا. لـذلك كانـت الاسـتعانة بالأمثـال لتوضـيح فكـرة واسـتيعابها بأقصـر أداء، وأوضـح بيـان، وبالأقسـام لتثبيتهـا أو للـدفاع عنهـا وهكـذا، فمـا أحرانـا لأن نغتـرف مـن المعـين الإلهـي كلمـا احتجنـا الـى ذلـك مـن خـلال محادثاتنـا اليوميـة، وفـي ممارسـة شـؤون الحيـاة مـع الآخـرين بـأن ننهـل مـن ينبـوع الله العلـي القـدير الـذي لا تنفـد كلماتـه ولـو جئنـا مـن مـداد يمـده سـبعة أبحـر.إنَّ مصـادر تلقـي هـذين العلمـين هـو كتـاب الله تعـالى وسـنة رسـوله (ﷺ)، وتحقيقـاً للتمسـك بهمـا، فقـد شـرعت الباحثـة بعـد أن أكرمهـا الله تعـالى بإنهـاء السـنة التحضـيرية لمرحلـة الـدكتوراه فـي قسـم العقيـدة والفكـر الإسـلامي باختيارهـا بحمـد الله الأمثـال والأقسـام فـي تفسـير(مفـاهيم القـرآن) لسـماحة الشـيخ جعفـر السـبحاني، وجعلـت عنـوان أطروحتهـا: **(الأمثال والأقسام في ضوء (مفاهيم القرآن) للسبحاني دراسة موضوعية).**

وكان لإختياري هذا الموضوع أسباب منها ما يأتي:

١. اهمـال النـاس لأمثـال القـرآن وتعاطيهـا للأمثـال الأخـرى مـن غيـر القـرآن ممـا لا يحصـى لكثـرة تنوعهـا والتـي جعلوهـا تـدور علـى ألسـنتهم وتماشـي وقـائع كثيـرة فـي حيـاتهم، سـاهين أنـه سـبحانه قـد ضـرب لهـم مـن كـل مثـل، وأنـه قـد أحـاط بكـل شيء علماً . قاسمين على ذلك بما يجوز القسم به وبما لا يجوز.

٢. كثـرة فـروع موضـوعي الأمثـال والأقسـام وتنوعهـا فـي تفسـير (مفـاهيم القـرآن)، إذ أن مجلداً كاملاً خصص لهما من عشرة.

٣. الذي شدني أكثر لاختيار هذا الموضوع، هو أن أي باحث في الدراسة الأكاديمية (في الماجستير أو الدكتوراه) لم يخض في هذين العلمين دراسة كاملة في كل سور القرآن الكريم وا ٍنما تم تناولهما في بعض السور وعلى شكل بحوث تكميلية وليست دراسة معمقة كـ(الأمثال والحكم في سورة أبراهيم (عليه السلام)) في جامعة بغداد، و(آيات الأمثال في سورتي البقرة وآل عمران) في جامعة بغداد ايضاً، و(الأمثال في سورتي الكهف والنحل) في كلية الإمام الأعظمووجدت دراسة للأقسام لم تتناول تفسير آيات القسم وا ٍنما كانت دراسة توضيحية للقسم في القرآن الكريم مع أمثلة من القرآن الكريم. هي (القسم في القرآن الكريم) في جامعة بغداد، وجرى بعون الله تعالى أن يكون للباحثة الشرف في الدراسة التفصيلية لكل آيات القسم والأمثال في القرآن الكريم.

٤. استشـرت بعـض أسـاتذتي الفضـلاء، فشـجعوني علـى الكتابـة فـي هـذا الموضـوع.

فلهذه الأسباب وغيرها عزمت على إعداد خطة في هذا الموضوع.

أمـا الصـعوبات التـي واجهتنـي، فهـي قليلـة تكـاد لا تـذكر وكلهـا تهـون فـي سـبيل تحصـيل العلـم إجـلالاً لكتـاب الله تعـالى، وأرجـو أن أكـون ممـن تخطـى تلـك الصـعوبات وتمكن من تذليلها بسند ورعاية من الله وتوفيقه سبحانه.

أمـا منهجـي فـي هـذه الرسـالة فقـد سـلكت فيـه المـنهج الموضـوعي الوصـفي إذ عرضـت آراء السـبحاني أولاً ثـم أتبعتُـها بـآراء مـن سـبقه وعاصـره ممـن وافقـه أو خالفـه فـي ذلـك، مـع بيـان ردود السـبحاني، وذكـر مـن وافقـه فيهـا إن وجـدت الباحثـة ذلـك فيمـا بـين يديها من المصادر والمراجع.

وقـد اقتضـت طبيعـة هـذه الأطروحـة أن تقسـم علـى: مقدمـة، وتمهيـد، وثلاثـة فصول، وخاتمة.

فأمَّـا المقدمـة فقـد تناولـت فيهـا سـبب اختيـار الموضـوع، وبينـت منهجـي الـذي سلكته في ذلك.

وأمـا **التمهيـد** فقـد تناولـت فيـه لمحـة مـن حيـاة سـماحة الشـيخ جعفـر السـبحاني : اسـمه ونسـبته وولادتـه ونشـأته وبعـض آثـاره العلميـة ومنهجـه للعـرض الأمثـال والأقسـام فـي تفسيره (مفاهيم القرآن).

امـا **الفصــل الأول** مبحثـين، درسـتُ فـي **المبحــث الأول** تعريـف الأمثـال وغاياتهـا والتـأليف فيهـا، وفوائـد الأمثـال السـائرة، وأهميتهـا، ومكانتهـا فـي القـرآن الكـريم، والمـراد مـن ضـرب المثـل، والكتـب المؤلفـة فـي الأمثـال، **والمبحـث الثـاني** تناولـتُ فيـه دراسـة أقسـام الأمثـال القرآنيـة مـن حيـث السـياق، والمعنـى، وانسـجامها مـع البيئـة ثـم اسـتنكار الأمثـال القرآنية.

و تناولـت فـي **الفصــل الثــاني** ثلاثـة مباحـث، درسـتُ فـي **المبحــث الأول** ضـرب المثــل بالكــائن الحــي، وبســائر النــاس، وبالحيوانــات والهــوام، وبالنباتــات والبســاتين، **والمبحــث الثــاني** أشـتمل علـى دراسـة ضـرب المثـل بالجمـادات والظـواهر الطبيعيـة، وأمـا **المبحث الثالث** فاشتمل على دراسة ضرب المثل بأمور أخرى.

أمـا **الفصــل الثالــث** فقـد ضـمَّ ثلاثـة مباحـث، درسـتُ فـي **المبحــث الأول** معنـى القسـم، التـأليف فيـه، أركانـه، مناقشـة أدائـه، وفـي المبحـث الثـاني درسـت: القسـم المفـرد، أما المبحث الثالث فتناولتُ فيه دراسة القسم المتعدد.

ثـم بيَّنـتُ فـي **الخاتمــة** أهـم النتـائج التـي توصـلتُ إليهـا فـي مباحـث الأمثـال والأقسام مع سماحة الشيخ جعفر السبحاني وتفسيره (مفاهيم القرآن).

ومـن الجـدير بالـذكر أن تقسـيم البحـث بهـذه الهيئـة أنمـا هـو مسـألة منهجيـة لا أكثـر، ولا يمثـل وجهـة نظـر سـماحة الشـيخ جعفـر السـبحاني، فسـماحته ذكـر تلـك البحـوث الـواردة فـي هـذه الأطروحـة وغيرهـا فـي مجلـدات أخـرى تحمـل كـل منهـا عنوانـاً وتسلسـلاً فـي دراسـة موضـوع مـا، وبهـذا الجهـد المتواضـع حاولـتُ الكشـف عـن المباحـث فـي علمـي الأمثـال والأقسـام لسـماحته فـي تفسـيره (مفـاهيم القـرآن) آملـةً أن يـوفقني الله تعـالى لبلـوغ الصــواب، ويجنبنــي الزلل، ولا ادّعِ ــي الكمــال، فالكمــال لله وحــده، ومنــه تعــالى أســتمد العــون والسـداد، و اسـأل الله ان يـديم نعمـه علينـا وان يحفظنـا ويحفـظ وطننـا مـن كـل المكائـد ومـن كـل الشـرور و ان يهـدينا الـى السـبيل القـيم الخيـر، كمـا و أسـئلُ تعـالى ان يوفقنـا دائمـا و يجعـل لنـا مـن النجـاح حليفـاً، وجـو أن أكـون قـد وفقـتُ فـي هـذه الإطروحـة ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.[1] وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) سورة هود ، من الآية/٨٨.

ولادته : ملامح من حياة المفسر جعفر السبحاني (دام ظله)

- **اسمه ونسبهُ :**

هو جعفر بن محمد حسين بن الحاج محمد جعفر بن الحاج فرج الله الخياباني السبحاني[١]، رجل دين وعلامة شيعي معروف، ولد في تبريز[٢].

- **ولادته:**

ولد سماحة الشيخ آية الله جعفر السبحاني في (٢٨ شوال سنة ١٣٤٧ هـ) في تبريز في بيت عريق مشهور بالعلم والفضيلة والتقوى.[٣]

- **نشأته:**

نشأ الشيخ الجليل(جعفر السبحاني) في بيت عريق وترعرع في أحضان أبيه الشيخ محمد حسين السبحاني من كبار علماء تبريز.[٤] مما جعل شيخنا يحث الخطى على منهج والده في طلب العلم، فبعد إتمام الدراسة الابتدائية التحق بمكتبة المرحوم محمود فاضل المراغي، وفي هذا المكان تعلم متون الأدب الفارسي لكبار الأدباء وشيئاً من الرياضيات وغيرها، وفي الرابعة عشرة من عمره أي عام (١٣٦١ هـ) دخل المدرسة الطالبية، ودرس فيها مرحلتي المقدمات والسطوح فقرأ العلوم الأدبية على المرحوم الحاج الشيخ حسين النحوي[٥]،

---

(١) السبحاني: هو من التسبيح والتَّسبيح: التنزيه، وفي قوله تعالى: ﴿ سُبحانَ الذي ﴾ سورة الاسراء، من الآية / ١، والمعنى أُسبِّح الله تسبيحاً . ينظر: لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور(ت ٧١١ هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤٠٥ هـ: ٤٧١/٢، مادة (سبح).

(٢) تبريز هي: أشهر مدن أذربيجان: وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة، وفي وسطها عدة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها، وهي مدينة كثيرة الخيرات والأموال والصناعات، وبقربها حمامات كثيرة عجيبة النفع يقصدها المرضى ينتفعون بها، ينسب إليها أبو زكرياء التبريزي.كان أديباً فاضلاً كثير التصانيف. وكانت تبريز قرية حتى نزلها الرواد الأزدي المتغلب على أذربيجان في أيام المتوكل. ينظر: معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (ب- ط)، ١٣٩٩ هـ: ٢/ ١٣ وأثار البلاد واخبار العباد، لزكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت ٦٨٢ ه)، مطبعة مصر، (ب- ط)، ١٨٤٨ م: ص ١٣٧.

(٣) ينظر: صفحات مضيئة من حياة آية الله العظمى الشيخ جعفر السبحاني، لمؤسسة الأمـــــام الصادق(عليه السلام)، مكتبة التوحيد، قم: ص٢، المباحث العقائدية في تفسير مفاهيم القرآن للسبحاني وأهميتها التربوية، لمها طالب عبدالله، الجامعة المستنصرية، ٢٠١٣: ص٢٣٨.

(٤) ينظر: نخبة الأزهار في أحكام الخيار، لمحمد حسين السبحاني (ت ١٣٩٢ هـ)، تقديم أحمد الحسيني، مطبعة العلمية، قم، (ب- ط)، ١٣٩٢ هـ: ص١٢-١٦و موسوعة طبقات الفقهاء، للجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، تحقيق: جعفر محمد السبحاني، اعتماد، قم، ط١، ١٤١٩هـ: ص٦٩٠.

(٥) حسين النحوي: هو عبد الواسع بن موسى بن حسين النحوي الرامسري، ولد حدود سنة (١٢٥٠هـ) وتوفي أوائل القرن الرابع عشر ولد في رامسر ودرس في أصفهان ثم رجع إلى موطنه فاشتغل بالتـــدريس والتـــأليف، ولـــه تعليقات=

ودرس قسماً من المطول، ومنطق المنظومة، وشرح اللمعة على يد العلاّمة الكبير العالم الورع الميرزا محمد علي المدرس الخياباني[١]، ودرس على يد الأديب البارع الشيخ علي أكبر الأهري[٢]، وقرأ على يد والده الجليل المغفور له الشيخ محمد حسين الخياباني التبريزي، الفقه وأُصوله ، والقليل من فرائد الشيخ الأنصاري، واستمرت مدة دراسته هذه إلى خمس سنوات (أي إلى عام ١٣٦٥ هـ)،وبعد الاضطرابات السياسية والعسكرية الّتي حدثت في أذربيجان وظهور الفرقة الشيوعية الضالّة وتأسيس الحكومة العميلة للاتحاد السوفيتي (المنحل)،أصبحت الدراسة في تبريز أمراً صعباً ،ولذا فقد بات لزاماً على سماحته أن يقوم بالبحث عن مكان بديل ليستمر في دراسته،لذا شدّ الرحال إلى مدينة قم المقدّسة[٣] في حدود عام (١٣٦٦ هـ).[٤]

دخل سماحته الجامعة الإسلامية في قم المقدسة سنة (١٣٦٦ هـ)، ودرس السطوح العالية، فأتمّ (فرائد الأُصول)، ثم درس (كفاية الأُصول) عند آية الله السيد محمد رضا الكلبايكاني[٥]واهتمّ سماحته منذ أيام شبابه بتعلّم الفلسفة وعلم الكلام وحضر دروس الفلاسفة

= على بعض الكتب العلمية وكان ينظم الشعر باللغة الفارسية. ينظر: مستدركات أعيان الشيعة، لحسن محسن الأمين (ت ١٣٩٩ هـ)، دار التعارف للمطبوعات، سوريا، (ب– ط)، ١٤٠٩ هـ– ١٩٨٩م: ١٣٦/٣.

(١) الخياباني: هو محمد علي المدرس التبريزي، ولد في تبريز سنة(١٢٩٦هـ) وتوفي سنة (١٣٧٣ هـ) ودفن في (الطوبائية) في تبريز، درس على مشاهير علماء عصره، وسكن في طهران منصرفا إلى ما أخذ نفسه به من البحث والتأليف والتحقيق. ومن أهم كتبه كتاب (ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية أو اللقب) و(حياض الزلائل في شرح رياض المسائل) و (غاية المنى في تحقيق الكنى) وغيرها. ينظر: مستدركات أعيان الشيعة لحسن الأمين: ١٨٨/١.

(٢) الأهري: من تلاميذ المرجع الديني السيد أبو الحسن الانكجي قدّس سرّه، ولد سنة (١٢٩٦ هـ) في أذربيجان اشتهر في الأَدب، بصيراً في اللغة، وحافظاً للقواعد، قرأ كل ما وصل إليه من الأَدب والدواوين، وكان يقرأ القاموس بسهولة، ويدرّسه بحذاقة، توفي سنة(١٣٥٧ هـ). ينظر: تذكرة الأعيان، لجعفر محمد السبحاني، أعتماد، قم،ط١، ١٤١٩ هـ، ص٣٩٥. وللمزيد من الاطلاع على أساتذة الشيخ جعفر السبحاني ينظر: المباحث العقائدية لمها طالب: ص ٢٦٠.

(٣) مدينة قم المقدسة: هي مدينة بأرض الجبال بين ساوة وأصفهان، وهي كبيرة طيبة خصبة، وهي مدينة مستحدثة إسلامية، والحوزة العلمية في قم تعتبر واحدة من أهم المراكز العلمية الدينية للشيعة بعد النجف الأشرف، وأول من مصرها طلحة بن الأحوص الأشعري، ليس عليها سور وهي خصبة ومأوهم من الآبار وهي مالحة في الأصل. ينظر: معجم البلدان للحموي: ٣٩٧/٤ و اثار البلاد وأخبار العباد للقزويني: ص ١٨١.

(٤) ينظر: صفحات مضيئة من حياة جعفر السبحاني: ص٢–٤، الموقع الإلكتروني لمكتب سماحة آية الله العظمى جعفر السبحاني (دام ظله)،(السيرة الذاتية لسماحة آية الله العظمى جعفر السبحاني) http://imamsadeq.com/ar. وللمزيد للاطلاع: ينظر: المباحث العقائدية لمها طالب: ص ٢٣٨–٢٤٠.

(٥) الكلبايكاني: هو محمد رضا بن السيد محمد الكلبايكاني، ولد سنة (١٣١٦هـ)، وهو أحد أكابر تلامذة الشيخ عبد الكريم الحائري مؤسس الحوزة العلمية وأحد المراجع الكبار في عصره، قرأ المقامات في موطنه، ثمّ انتقل إلى مدينة = = « أراك » عام(١٣٣٦ هـ) وهو في نهاية العقد الثاني من عمره، وحضر هناك دروس الشيخ الحائري والشيخ محمد

والمتكلمين وأساتذة المنطق والمعقول في تبريز وقم، فدرس في تبريز كتاب (قواعد العقائد للعلامة الحلي) وأمّا في الحوزة العلمية في قم المقدسة فقد واصل مطالعاته الفلسفية وشارك في دروس المنطق والفلسفة لآية الله العلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي[1] ودرس عنده شرح المنظومة، وقسماً كبيراً من كتاب الأسفار، كان يحضر ليالي الخميس والجمعة إلى الجلسات الّتي يعقدها العلاّمة الطباطبائي لنقد الفلسفة المادية، ونتيجة هذه الجلسات والدروس حقق كتاب (أُصول الفلسفة) الّذي صدره سماحة السيد الطباطبائي بتقريظ قيّم.[2] ومنذ السنوات الأُولى لمراحل الدراسة الّتي قطعها آية الله السبحاني (دام ظله) اعتنى كثيراً بالتدريس والتعليم لطلبة الجامعة الإسلامية الكبرى (الحوزة العلمية)، فبدأ في عام (١٣٦١ هـ) بتدريس دروس المقدمات وهو في الرابعة عشرة من عمره، وبعد ذلك أخذ بتدريس دروس مرحلة السطوح فقد درّس خلال سبع سنوات كتاب المطول، وقام دورات متعددة من كتابي المعالم واللمعة، وسبع دورات لكتاب «فرائد الأُصول»، ودورات متعددة لكتابي (المكاسب) و(الكفاية) وخمس دورات درّس فيها كتاب شرح المنظومة وبدأ من سنة (١٣٩٤هـ) بتدريس البحث الخارج في الفقه والأُصول، وما زال يواصل التدريس فيهما.

ويعد درسه الخارج في الأُصول من أبرز الدروس في الحوزة العلمية في قم المقدسة في الوقت الحاضر، إذ يحضره أكثر من (٦٠٠ طالب)، وبهذا يكون سماحة الشيخ حفظه الله قد أكمل تدريس خمس دورات أُصولية كاملة، إذ إنّ كل دورة تستغرق حوالي (ست سنوات) وأمّا تدريسه البحث الخارج في الفقه فقد درّس حفظه الله على مدى (عشرين سنة) الكثير من المواضيع الفقهية منها: كتاب الزكاة، كتاب الحدود والديات، كتاب القضاء، كتاب المضاربة، كتاب المكاسب المحرمة والخيارات، كتاب الطلاق والنكاح، كتاب الإرث، كتاب الخمس، وأخيراً

تقي الكوكدي، توفي سنة(١٤١٤هـ) في قم المقدسة، له مصنفات كثيرة، منها: كتاب الحج، ولاية الفقيه، وغيرها. ينظر: موسوعة طبقات الفقهاء للجنة العلمية: ٤٥٧/٢.

(١) الطباطبائي: هو محمد حسين الطباطبائي عالم جليل، وفيلسوف كبير، ومفسر عارف، ولد سنة (١٣٢١ هـ) في مدينة تبريز، وأصبح المحور في الفلسفة الإسلامية في العالم الإسلامي كله، فضلاً عن فقهه وتبحره في علم الأصول والرجال، له الكثير من المؤلفات، منها: الميزان في تفسير القرآن، وأصول الفلسفة الواقعية، وتعليق على كفاية الأصول، توفي في مدينة قم المقدسة سنة (١٤٠٢هـ) يُنظر: أعيان الشيعة، لمحسن الأمين (ت١٣٧١هـ)، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، (ب-ط)، ١٤٠٣هـ .١٩٨٣م: ٥٦/٩ و مع علماء النجف الأشرف، لمحمد الغراوي، دار الثقلين، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م: ٥٦٢/٢.

(٢) ينظر: أصول الفلسفة، لمحمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ)، تحقيق وترجمة: جعفر محمد السبحاني، مؤسسة الإمام الكاظم (عليه السلام)، قم، ط١، ١٣٧٥ هـ: ٣/١.

يقوم حالياً بتدريس كتاب البيع، وقام عدد كبير من فضلاء الحوزة العلمية بتدوين محاضراته، وجرى طبع عدد كبير مما قرره في دروسه في كتب مستقلة، فضلا عن الفقه والأُصول والفلسفة فقد درّس سماحة الأُستاذ العقائد، وعلم الرجال والدراية، وتاريخ الإسلام والتشيّع والملل والنحل، والتفسير والآداب، ونتيجة هذه الدروس والمحاضرات هي إصدار مجموعة نفيسة من المؤلفات القيّمة التي لا يستغني عنها طالب العلم والمثقف المسلم.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الأُستاذ في دروس يوم الأربعاء- وطبقاً للعادة الجارية في الحوزة المباركة- يعرض شرح أحدى الروايات الأخلاقية الّتي وردت عن الأئمة الأطهار (عليهم السلام)، أو يتصدى لبيان موضوع اجتماعي أو سياسي راهن ويذكر موقف الإسلام منه ويقوم الأُستاذ ـ دام ظله- بين الحين والآخر بمطالعة ما يدوّنه طلابه من مباحث ومقالات في الفقه والأُصول والكلام (الّتي يلقيها عليهم) وقيوم بتصحيحها ويقدّمها إلى الطبع، وأنّه يتابع في مباحثه الفقهية رجال سند الروايات الإسلامية الّتي استدل بها الفقهاء السابقون على آرائهم ويعرض الفهم الدقيق لهذه الروايات، ويذكر آراء الأُصوليين ويقوم بنقدها وتقديمها وتبنّي ما يراه صحيحاً منها، أو أنّه يذكر آراءً جديدة يعدها من مختاراته في المقام.[1]

- **آثاره العلمية:**

○ **المشاركة في تأسيس مجلة مكتب الإسلام:**

في المدة الّتي سبقت سنة (١٣٧٨ هـ)، كان الشباب يعاني من الفراغ الفكري، وقد انتشر الفساد في الكثير من مؤسسات الدولة، وصدر عدد من المجلات الّتي تهدف إلى تخريب البناء الأخلاقي والثقافي لمطالعيها، وفي هذه الظروف الصعبة قام الأُستاذ وعدد من فضلاء الحوزة بتوجيه من المراجع العظام آنذاك ودعم من المؤمنين، بالعمل على إصدار مجلة تهتم بالشباب وتجيب على إشكالاتهم، وتنوّر أفكارهم، وتقرّبهم من دينهم وعقائدهم، وهكذا شقّت مجلة «دروس من مكتب الإسلام»[2] طريقها إلى النور، ومن المسؤوليات الّتي اتخذها الشيخ

---

(١) ينظر: صفحات مضيئة من حياة جعفر السبحاني: ص٨، الموقع الإلكتروني لمكتب سماحة آية الله العظمى جعفر السبحاني (دام ظله)،(السيرة الذاتية لسماحة آية الله العظمى جعفر السبحاني) http://imamsadeq.com/ar وللمزيد للاطلاع: ينظر: المباحث العقائدية لمها طالب: ص ٢٤٤.

(٢) هي مجلة شهرية تنظمة، صدر العدد الأوّل منها في جمادى الأُولى عام ١٣٧٨ هـ، وما زالت تصدر إلى الآن، وآخر ما صدر منها حمل الرقم ٥٧٩، (بتاريخ شعبان ١٤٣٠ هـ)، وهو العدد الخامس من السنة التاسعة والأربعين. ينظر: الموقع الإلكتروني لمكتب سماحة آية الله العظمى جعفر السبحاني (دام ظله) http://imamsadeq.com/ar

السبحاني على عاتقه مراجعة مواضيع المجلة وتقييمها وتصحيحها، وحث أصحاب القلم للمشاركة في الكتابة فيها ورفدها بالجيد والجديد من نتاجاتهم الفكرية والعلمية والأدبية، ومازال حفظه الله يعد هو صاحب الامتياز لإصدار هذه المجلة، ويعينه في ذلك عدد من الفضلاء ومثقفي الحوزة العلمية في قم المقدسة.[١]

- **الإجابة على الأسئلة والاستفسارات:**

منذ الأعداد الأُولى الّتي صدرت لمجلة «مكتب الإسلام» وردت إليها الاستفسارات المتعددة والأسئلة الدينية من الشباب الجامعيين ، ولذا فقد جرى تخصيص عدد من صفحات هذه المجلة للإجابة عن هذه الأسئلة والاستفسارات، وبعد افتتاح الموقع الخاص بمؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام) على شبكة الانترنت خصّص سماحته جزءاً من وقته للإجابة عن الأسئلة الّتي ترد على العنوان الالكتروني للمؤسسة،بمساعدة محقّقي المؤسسة والعاملين على الموقع، وكان يجري إرسال هذه الأجوبة على عناوين المستفسرين، ثم ينتخب عدداً من الأسئلة الهامة وأجوبتها وتوضع على شكل مقالات ثابتة في الموقع، أو تطبع مع إصدارات المؤسسة وتمتاز أجوبة سماحته بالموضوعية والابتعاد عن التعقيد والإطناب، فهو يهدف إلى هداية قلوب السائلين ورفع الشبهة عن أفكارهم والأخذ بأيديهم الى سبيل القناعة والسداد.[٢]

- **التغيير في دروس الحوزة العلمية:**

إنّ التغيير الثقافي الحاصل في المجتمع في أثر نجاح الثورة الإسلامية في إيران كان يتطلب أن يسليره تغيير طردي في منهج الدراسة في المراكز والمعاهد المرتبطة بالجامعة الإسلامية الكبرى (الحوزة العلمية)، وقد حصل هذا التغيير على يد أساتذة الحوزة الذين يؤمنون بضرورة مواكبة التطور وضرورة ملء الفراغ الفكري، وتوافر المادة العلمية الأساسية لبناء الأفكار وحفظ العقائد وتلبية المتطلبات وسد الحاجات الثقافية، وهذا ما دعا سماحة الشيخ السبحاني (حفظه الله) لحذ همّته وقلمه والبدء بالتأليف في خمسة علوم أساسية من العلوم الإسلامية، وهي: الرجال، والعقائد، والفرق والمذاهب، والفقه والأُصول.[٣]

---

(١) ينظر: الموقع الإلكتروني لمكتب سماحة آية الله العظمى جعفر السبحاني (دام ظله)، http://imamsadeq.com/ar

(٢) ينظر: صفحات مضيئة من حياة جعفر السبحاني: ص١١،المباحث العقائدية لمها طالب: ص٢٤٧.

(٣) ينظر: صفحات مضيئة من حياة جعفر السبحاني: ص١٢،الموقع الإلكتروني لمكتب سماحة آية الله العظمى جعفر السبحاني (دام ظله)، http://imamsadeq.com/ar

- **تأسيس مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)[١] التعليمية والتحقيقية:**

من أبرز ما قام به آية الله العظمى السبحاني (دام ظله) تأسيس هذا المركز العلمي البارز والحصن الإسلامي المتين وتدار المؤسسة من هيئة أُمناء بإشراف سماحته، وتتمتع بشخصية حقوقية معترف بها رسميّاً، وتشكّل التبرعات، والحقوق الشرعية، سهماً وافراً من رأس مالها.[٢]

- **تأسيس معهد الكلام الإسلامي:**

في عام (١٤١٢ هـ)، جرى افتتاح معهد يختص بالدراسات الكلامية تابع للمؤسسة، ويحتل الطابق الثالث من بنايتها، وهو مرتبط رسمياً بإدارة الحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة، ومن الجانب العلمي فهو بإشراف آية الله جعفر السبحاني، وبإدارة مجموعة من ذوي التخصص والأساتذة الكفوئين.[٣]

- **مؤلفاته:**

إنّ أفضل ما يستدل به على الكفاءة العلمية لأحد هو معرفة حجم الآثار الّتي يتركها ويخلّفها في المجتمع ،وسماحة الشيخ من هذه الثلة الّتي صرفت عمرها في سبيل العلم وتأليف الكتب وتربية جيل إسلامي واعٍ مما لا شك فيه أنّ آية الله السبحاني قد امتاز بغزارة الإنتاج العلمي والثقافي، إذ ألّف ما يربو على (٢٥٠ كتاباً ورسالة) تشتمل على موسوعات وكتب دراسية وكراريس خاصة بالشباب وشرائح المجتمع المتنوعة، وباللغتين العربية والفارسية، وتتميز مصنفاته بسعة هائل، فقد خاض في أكثر العلوم الإسلامية ولا سيّما الفقه والأُصول والتاريخ والسيرة والكلام والفلسفة والاقتصاد والحديث،[٤] وتذكر البـــــاحثة بعـــضاً منها تجنبا

---

(١) مؤسسة الأمام الصادق (عليه السلام):- هي مؤسسة إسلامية ثقافية تربوية يتركز نشاطها في مجال التأليف والتحقيق، وتربية الكوادر المتخصّصة في علم الكلام، والرد على الشبهات المثارة وغير ذلك، من أجل نشر الإسلام الأصيل والتصدّي للأفكار المنحرفة والشبهات، بأُسلوب علمي، وبلغة هادئة بعيدة عن التشنج والتطرّف، افتتحت مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام) للبحوث والدراسات الكلامية، عام(١٤٠٠ هـ)، في مدينة قم المقدسة، وتزامن افتتاحها مع عيد الغدير الأغر، يقع المبنى الرئيس للمؤسسة في مدينة قم المقدسة، شارع محمد الأمين (عليه السلام)، وهو مبنى ضخم تربو مساحته على ٢٠٠٠ متر مربع، يتألف من ثلاثة طوابق،وتبلغ مساحة كلّ طابق أكثر من ألف متر مربع. ينظر: الموقع للمؤسسة، http://imamsadeq.com/ar

(٢) ينظر: الموقع الإلكتروني لمكتب سماحة آية الله العظمى جعفر السبحاني (دام ظله)، http://imamsadeq.com/ar

(٣) ينظر: صفحات مضيئة من حياة جعفر السبحاني: ١٤- ١٥، المباحث العقائدية لمها طالب: ص٢٥٠-٢٥١.

(٤) ينظر: الموقع الإلكتروني لمكتب سماحة آية الله العظمى جعفر السبحاني (دام ظله)، http://imamsadeq.com/ar وللمزيد للاطلاع: ينظر: المباحث العقائدية لمها طالب: ص ٢٥٤-٢٥٦.

للإطالة: [١]

١. تهذيب الأُصول (في ثلاثة أجزاء)، مؤسسة العروج، ايران، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
٢. إرشاد العقول إلى مباحث الأُصول (في ٤ أجزاء). مطبوع لمؤسسة الأمام الصادق(عليه السلام)، أيران، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
٣. بحوث في الملل والنحل (في ثمانية أجزاء). مطبوع لمؤسسة الأمام الصادق(عليه السلام)، أيران، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
٤. أحكام البيع في الشريعة الإسلامية الغراء (في جزءين). مطبوع لمؤسسة الأمام الصادق(عليه السلام)، أيران، ط١، ٢٠٠٨م.
٥. الاعتصام بالكتاب والسُنّة. مطبوع لمجمع أهل البيت(عليهم السلام)، أيران، ط٣، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٦. محاضرات في الإلهيات على هدي الكتاب والسنة والعقل. مطبوع لمؤسسة الأمام الصادق(عليه السلام)، أيران، ط١، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م.
٧. مفاهيم القرآن (في عشرة مجلدات) الذي نحن بصدد دراسته وبيان مباحث الأمثال والأقسام الواردة في طياته.

ثانياً: التعريف بالتفسير (مفاهيم القرآن)

جرى تدوينه بأسلوب جديد في مجال التفسير الموضوعي، وهو عبارة عن دورة كاملة في المعارف والعقائد الإسلامية في عشرة مجلدات، وقد قام سماحته بتأليف هذا التفسير الموضوعي بمساعدة ولده الروحي الفاضل الشيخ جعفر الهادي، إذ قام بتدوين محاضرات الجزء الأول والثاني أما الأجزاء الثمانية الباقية فقد قام سماحته بتحريرها بنفسه،[٢] وكانت الحصيلة فيه بالشكل الآتي:

١. المجلد الأول: (التوحيد والشرك).
٢. المجلد الثاني: (معالم الحكومة الإسلامية).
٣. المجلد الثالث: (عالمية الرسالة المحمدية وخاتميتها واطلاعه على الغيب بإذن الله سبحانه).

---

(١) ينظر: صفحات مضيئة من حياة جعفر السبحاني:ص١٨-٢٠، الموقع الإلكتروني لمكتب سماحة آية الله العظمى جعفر السبحاني (دام ظله)، http://imamsadeq.com/ar وللمزيد للاطلاع: ينظر: المباحث العقائدية لمها طالب: ص ٢٥٤-٢٥٦.

(٢) ينظر: المصادر نفسها.

٤. المجلد الرابع: (معاجز النبي وشفاعته ورد الشبهات المثارة حولها).
٥. المجلد الخامس: (عصمة الأنبياء والأئمة (عليهم السلام)).
٦. المجلد السادس: (أسماء الله وصفاته تعالى في القرآن الكريم).
٧. المجلد السابع: (شخصية النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وحياته في القرآن الكريم).
٨. المجلد الثامن: (الحشر ومعاد الإنسان).
٩. المجلد التاسع: (الأمثال والأقسام القرآنية).
١٠. المجلد العاشر: (العدل الإلهي والإمامة).

ويتضح أن تفسير مفاهيم القرآن كتاب زاخر في أغلب أجزائه بمواضيع عدة، وعند **اطلاع الباحثة** على تلك المواضيع اتضح لها أن منهج السبحاني في دراسة تلك المواضيع ومنها موضوع الاطروحة(الأمثال والأقسام) في تفسيره مبني على جمع الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع واحد من أنحاء القرآن الكريم، ثم يعطي المعنى اللغوي والتعريف الاصطلاحي أو التعريف اللغوي فقط للألفاظ التي تحتاج إلى بيان وير تكز عليها تفسير الآية التي يشرع بتفسيرها ، وفي بعض الآحيان يبدأ بذكر سبب نزول الآيات، ثم التعريف، ثم تفسيرها فيعرج على موضوعه المناسب فيكشف محتوى الآيات ببيان أركان التمثيل (المشبه، والمشبه به) للتمثيلات القرآنية، وأركان القسم (المقسم به، والمقسم عليه، والصلة بينهما) لآيات القسم. ثم يستدل بالروايات الإسلامية الموافقة للقرآن الكريم ويطرح ما عداها.

وقد بين السبحاني ذلك بأسلوب صحيح في التفسير الموضوعي بقوله: لقد استقطب (التفسير الموضوعي) للقرآن الكريم – وهو التفسير بحسب الموضوعات الواردة فيه بمعنى جمع الآيات الواردة في سور متنوعة بموضوع واحد ، ثم تفسيرها جميعا والخروج بنتيجة واحدة–، اهتمام العلماء نظراً لأهميّة هذا النهج من التفسير ومساعدته على إدراك المفاهيم القرآنيّة، والمعارف الإلهية الدقيقة العميقة، فإنّ القرآن ذكر هذه المعارف بصورة متفرّقة تبعاً للمناسبات، ولو جمعت هذه المعارف في محل، ثمّ درس المفهوم القرآني المعيّن في ضوء كلّ ما يرتبط به من آيات، لأمكن الحصول على فكرة متكاملة وصورة شاملة لذلك المفهوم.

ويقول السبحاني: "قد اتبعنا هذا المنهج منذ عام (١٣٨٩ هـ) وكانت حصيلة هذه السنوات عشرة أجزاء من التفسير الموضوعي بعنوان (مفاهيم القرآن) ولقد لقيت هذه الدراسات إقبالا واسعا مما يكشف عن أهمية هذا المنهج في التفسير".[١]

ل التفسير الموضوعي هو تضيُّق دائرة البحث في تفسير القرآن الكريم، والتكلَّم عن ناحية واحدة من نَواحيه المتشعبة المتعددة، فمن العلماء من أفرد كتاباً من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن الكريم[٢] ومنهم أفرد كتاباً للكلام عن إعجاز القرآن الكريم،[٣] ومنهم أفرد في إعراب القرآن الكريم،[٤] ومنهم افرد في الناسخ والمنسوخ،[٥] ومنهم أفرد في أسباب النزول،[٦] ومنهم أفرد كتاباً في أحكام القرآن الكريم [٧].... وهؤلاء وغيرهم من العلماء الذين قصدوا إلى موضوع خاص في القرآن يجمعون ما تفرَّق منه، ويفردونه بالدرس والبحث، ونجد متقدمي المفسِّرين قد توسَّعوا في التفسير إلى حد كبير، جعل مَن جاء بعدهم من المفسِّرين لا يلقون عنتاً، ولا يجدون مشقة في محاولتهم لفهم كتاب الله وتدوين ما دوَّنوا من كتب في التفسير.

فمنهم مَن أخذ كلام غيره وزاد عليه، ومنهم من اختصر، ومنهم مَن علَّق الحواشي وتتبع كلام من سبقه، تارة بالكشف عن المراد، وتارة أخرى بالتفنيد والاعتراض.[٨]

والتفسير الموضوعي للقرآن الكريم عند بعضهم هو جهد علمي يقوم به المتخصصون في القرآن بجمع الآيات وتنظيم الأفكار، واستخراج وحدة فكرية وتصورية، وهو نظام فكري شامل من خلاله يفهم ما يريده القرآن، وأن القرآن قد نزل منجما في ثلاث وعشرين سنة، وكان لنزول طائفة كبيرة من آيات القرآن أسباب وعلل يسميها العلماء بأسباب النزول، ولا تكاد تفهم الآية إلا من خلالها، ومن هذه الآيات ناسخ ومنسوخ ومجمل ومبين. ولا نتمكن من أن نفهم هذه الآيات إلا إذا جمعنا بعضها إلى بعض، ووضعنا بعضها إلى جنب بعض، فإن القرآن يستعمل كثيرا طريقة الإطلاق في بيان حكم أو تصور وفي آيات أخرى يذكر الشروط والقيود،

---

(١) مفاهيم القرآن، لجعفر محمد السبحاني، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٠ م: ١/٨، ١٠/ ٣٦٠ و٣٧٩.

(٢) كأبن القيم الجوزية في(التبيان في أقسام القرآن)و جعفر السبحاني في (الأقسام في القرآن الكريم).

(٣) كعبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز، الرسالة الشافية في الإعجاز)و أبي بكر الباقلاني في (إعجاز القرآن).

(٤) كأبي إسحاق الزجاج في كتابه (إعراب القرآن)والراغب الأصفهاني في كتابه (إعراب القرآن).

(٥) كأبي جعفر النحاس في (تفسير الناسخ والمنسوخ) و أبي محمد بن حزم الظاهري في كتاب (الناسخ والمنسوخ).

(٦) كالإمام البخاري في (أسباب نزول بعض آيات القرآن الكريم)و الواحدي النيسابوري في تفسيره (أسباب نزول القرآن).

(٧) كالأمام الشافعي في تفسيره (أحكام القرآن)و القرطبي في تفسيره (أحكام القرآن).

(٨) ينظر: التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي (ت ١٩٧٧ هـ)، (ب–ط)، ١٣٩٦ هـ: ص٤.

وما لم نفسر بعضها ببعض لا نستطيع أن نفهم كتاب الله وما فيه من أحكام وسنن وتصورات ومفاهيم. ومن الخطأ أن نستخلص حكما أو تصورا من خلال آية واحدة من كتاب الله تعالى من دون أن نعرضه على سائر الآيات.[١]

وترى الباحثة: إنَّ للتفسير الموضوعي أسلوبين:

الأسلوب الأول: تناول المواضيع المتنوعة كالموضوعات العقائدية (التوحيد والمعاد و...)، وبعد ذكر بحوث فلسفية وكلامية أو أخلاقية يُذكر بعض الآيات القرآنية المرتبطة بالموضوع بعنوان الشاهد على ذلك.

الأسلوب الثاني: يأتي بالآية أو الآيات المراد تفسيرهاوقبل أي حكم أو إبداء نظر يأتي بسبب نزول الآية موضوع البحث إن وجد فيها سبب، ثم يبدأ بالتفسير بتعريف بعض كلمات الآيات لغويا واصطلاحا اذا كان بينهما أختلاف. وأحيانا أخرى يعطي المعنى اللغوي أو الاصطلاحي فقط إذ يكتفى بأحدهما لما يناسب تفسير الآيات أو إذا كان الاصطلاحي هو المعنى اللغوي نفسه للمفردة، وأحياناً أخرى يستغني عن الإثنين. وفي اثناء التفسير يأتي بالآيات االواردة في الموضوع الواحد من جميع سور القرآن الكريم ويفسرها مجتمعة في موضعها، ثم يربط بينها في مواضعها من القرآن الكريم جميعاً ، ويلاحظ العلاقة فيما بينها لإعطاء صورة متكاملة، وهنا لا يملك المفسّر شيئاً من عنده مطلقاً ، ويسير كالظل خلف آيات القرآ فيفهم كل شيء من القرآن، ويكون كل همه كشف محتوى الآيات، وإذا أراد الاستعانة بآراء الآخرين بل حتى بالروايات الإسلامية، فذلك في المرحلة الثانية بصورة مستقلة، وهذا الأسلوب هو السبيل الأمثل للوصول إلى حقائق القرآن الكريم وهذا الأسلوب أعتمده السبحاني في تفسيره (مفاهيم القرآن) ومنه تفسير آيات الأمثال والأقسام. فضلاً عن ذلك كله وضح أركان التمثيل والأقسام ومن ثم يصل الى الغاية من التمثيل والقسم والصلة بين المقسم به والمقسم عليه . تذكر الباحثة أنموذجين منهما للتوضيح على النحو الآتي:

<u>الأول: أنموذج التمثيل</u>

١. أورد الآية المراد تفسيرها وهي:

– قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.[٢]

٢. ذكر السبحاني سبب نزول الآية قائلاً :

---

(١) ينظر: البرهان في تفسير القرآن، لهاشم البحراني (١١٠٧هـ)، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم،(ب–ط–ت): ١٢/١.

(٢) سورة البقرة ، الآية/ ٢١٤ .

"نزلت الآية عندما حوصر المسلمون واشتد الخوف والفزع بهم في غزوة الأحزاب فجاءت الآية لتثبت قلوبهم وتعدهم بالنصر . وقيل : إن عبد الله بن أُبي قال للمسلمين عند فشلهم في غزوة أحد : إلى متى تتعرضون للقتل ، ولو كان محمد نبيا لما واجهتم الأسر والتقتيل ؟ ، فنزلت الآية.

٣. ثم بدأ بتفسير الآية وذلك بالتعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفردات الآية قائلاً :

وردت لفظة " أم" للإضراب عما سبق وتتضمن معنى الاستفهام ، والمعنى " بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة". و"البأساء": هي الشدة المتوجهة إلى الإنسان من خارج نفسه كالمال والجاه والأهل. و"الضراء": هي الشدة التي تصيب نفس الإنسان كالجرح والقتل ، وقيل: إن " البأساء " نقيض "النعماء" ، "الضراء": نقيض "السراء" ، و"الزلزلة": شدة الحركة، والزلزال البلية المزعجة لشدة الحركة والجمع زلازل، وأصله من قولك زل الشئ عن مكانه، ضوعف لفظه بمضاعف معناه، نحو صرى وصرصر، وصلى وصلصل، فإذا قلت زلزلته، فمعناه كررت تحريكه عن مكانه".[١]

٤. جمع الآيات الواردة في هذا الموضوع وهي:

- قولـــه ســـبحانه: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾. [٢]

- وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴾.[٣]

- وقولـــه ســـبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾.[٤]

٥. توضيح العلاقة فيما بينها قائلا:

"تدل مجموع هذه الآيات على دوام الابتلاء والامتحان في جميع الأمم خصوصا في الأمة الإسلامية. ثم إن الهدف من امتحان أبناء البشر هو تحصيل العلم بكفاءة الممتحن ، لكنه فيه سبحانه يستهدف إلى إخراج ما بالقوة من الكمال إلى الفعلية مثلا : فإن إبراهيم(عليه السلام) كان يتمتع بموهبة التفاني في الله وبذل ما يملك في سبيله غير أنه لم تكن لها ظهور وبروز ، فلما وقع في بوتقة الامتحان ظهرت تلك الموهبة إلى الوجود بعد ما كانت بالقوة. وما ذكرنا هو المستفاد من الآيات".[٥]

٦. ثم اتى بالروايات الإسلاميةالتي تؤيد ما ذهب اليه من تفسير قائلاً :

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٠٢-١٠٣، الأمثال في القرآن الكريم، لجعفر محمد السبحاني، مطبعة اعتماد، قم، ط١، ١٤٢٠ هـ، ص١٠٢-١٠٣.

(٢) سورة البقرة، من الآية/ ١٧٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية/ ٤٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية/ ٩٤.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٠٣، الأمثال للسبحاني، ص١٠٣.

"وقد صرح به الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في بعض خطبه: قال:((لا يقولن أحدكم : اللهم إني أعوذ بك من الفتنة ، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن ، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾[١]ومعنى ذلك أنه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه وا إن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب))".[٢]

٧.ثم وضح أركان التمثيل قائلاً :

"يقول سبحانه: إن الابتلاء بالبأساء والضراء سنة إلهية جارية في الأمم كافة ولا تختص بالأمة الإسلامية ، فالتمحيص وتمييز المؤمن الصابر عن غير الصابر رهن الابتلاء . فلا يتمحض إيمان المسلم إلا إذا غربل بغربلة الامتحان ليخرج نقيا . ولا يترسخ الإيمان في قلبه إلا من خلال الصمود والثبات أمام أعاصير الفتن الهوجاء .

٨.ذكر الغاية من التمثيل قائلاً :

كأن الآية تسلية لنبيه وأصحابه مما نالهم من المشركين وأمثالهم ، لأن سماع أخبار الأمم الماضية يسهل الخطب عليهم ، وأن البلية لا تختص بهم بل تعم غيرهم أيضا، ولذلك يقول: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ ﴾ أي أظننتم وخلتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة ﴿ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم ﴾، أي أن تدخلوا الجنة ولما تبتلوا وتمتحنوا بمثل ما ابتليت به الأمم السالفة وامتحنوا به . فعليكم بالصبر والثبات كما صبر هؤلاء وثبتوا .

وختم السبحاني قائلاً : وقد تبين مما ذكرنا أن المثل بمعنى التمثيل والتشبيه ، فتشبيه حال الأمة الإسلامية بالأمم السابقة في أنهم يعمهم البأساء والضراء والزلزال ، فإذا قرب نفاد طاقاتهم وصمودهم في المعارك يدعو الرسول ومن معه من المؤمنين لهم بالنصر والغلبة والنجاح".[٣]

ثانياً : أنموذج القسم

١. أورد الآية المراد تفسيرها وهي:

– قال تعالى:﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ * وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ * لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ * فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ﴾ . [٤]

٢. بدأ السبحاني تفسير الآيات بالتعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفردات الآيات قائلاً : ا"لشفق: هو الحمرة بين المغرب والعشاء الآخرة ، والمراد منه في الآية الحمرة التي تبقى عند المغرب في الأفق ، وقيل : البياض فيه. والوسق: جمع المتفرق، يقال : وسقت الشئ إذا جمعته، ويسمي القدر المعلوم من الحمل كحمل البعير وسقا ، فيكون المعنى والليل وما جمع

---

(١) سورة التغابن ، من الآية/١٥.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٠٣، الأمثال للسبحاني، ص١٠٣.

(٢) المصادران نفسهما، ٩/١٠٢– ١٠٦، ص ١٠٢– ١٠٦.

(٣) سورة الأنشقاق، الآيات/ ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١.

وضم مما كان منتشرا بالنهار، وذلك أن الليل إذا أقبل آوى كل شئ إلى مأواه ، وربما يقال: بمعنى ما ساق لان ظلمة الليل تسوق كل شئ إلى مسكنه. اتسق: من الاتساق بمعنى الاجتماع والتكامل فيكون المراد امتلاء القمر. الطبق: الحال، والمراد لتركبن حالا بعد حال، ومنزلا بعد منزل ، وأمرا بعد أمر".[١]

٣. وضح السبحاني أركان القسم مع جمع الآيات الواردة في هذا الموضوع وتوضيح العلاقة فيما بينها: إذ قال: "لا أقسم بالشفق ، معناه أقسم بالحمرة التي تظهر في الأفق الغربي عند بداية الليل وما يظهر بعد الحمرة من بياض والمعروف في الشفق في لسان الأدباء هو الحمرة ولذلك يشبهون دماء الشهداء بالشفق غير أنه ربما يستعمل في البياض الطارئ على الحمرة الذي هو آية ضعف الشفق ونهايته. وأقسم بالليل لما فيه من آثار وأسرار عظيمة ، فلولا الليل لما كان هناك حياة كالضياء ، فكل من الليل والنهار دعامتا الحياة ، قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.[٢] ثم إنه سبحانه أشار إلى ما يترتب على الليل والنهار من البركات، فقال: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾،[٣] فخلق النهار لطلب الرزق والمعاش، كما خلق الليل لرفع التعب عن البدن بالنوم فيه والسكن إليه. وأقسم بما وسق، أي بما جمع الليل ، ولعله إشارة إلى عودة الانسان والحيوانات والطيور إلى أوكارها عند حلول الليل، فيكون الليل سكنا عاما للكائنات الحية. حلف بالقمر عند اتساقه واكتماله في الليالي الأربع لما فيه من روعة وجمال، ولذلك يشبه الجميل بالقمر، مضافا إلى نوره الهادي الرقيق الذي يغطي سطح الأرض. وهو من الرقة واللطافة بمكان لا يكسر ظلمة الليل وفي الوقت نفسه ينير الطرق والصحاري. فهذه **أقسام أربعة** بينها ترتيب خاص، فان الشفق أول الليل يطلع بعده القمر في حالة البدر ، فهذه الموضوعات الأربعة أمور كونية يقع كل بعد الآخر حاكية عظمة الخالق. **وأما المقسم عليه** فهو قوله سبحانه:﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ وهي إشارة إلى المراحل التي يمر بها الانسان في حياته وأوضحها هي الحياة الدنيوية ثم الموت ثم الحياة البرزخية ثم الانتقال إلى الآخرة ثم الحياة الأخروية ثم الحساب والجزاء. وفي هذه الآية إلماع إلى ما تقدم في الآية السادسة من هذه السورة،أعني قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾.[٤] والكدح بمعنى السعي والعناء يتضمن معنى السير. فالآية تشير إلى أن الحياة البشرية تتزامن مع التعب والعناء ، ولكن الغاية منها هو لقاء الله

---

(١) مفاهيم القرآن ٩/٤٢٤– ٤٢٥، الأقسام في القرآن الكريم، لجعفر محمد السبحاني، مطبعة أعتماد، قم، ط١، ١٤٢٠ هـ، ١٤٢-١٤٣.

(٢) سورة القصص، الآيتان/٧١، ٧٢.

(٣) سورة القصص، الآية/٧٣.

(٤) سورة الأنشقاق، الآية/٦.

سبحانه، وكأن هذا الكدح باق إلى حصول الغاية ، أي لقاء جزائه من ثواب وعقاب أو لقاء الله بالشهود".[١]

٤. ذكر السبحاني وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه قائلاً :

"وأما وجه الصلة وهو بيان ان الأشواط التي يمر بها الانسان أمور مترتبة متعاقبة كما هي الحال في المقسم به أعني الشفق الذي يعقبه الليل الدامس ويليه ظهور القمر. ان القرآن يحدث عن أمور متتابعة الوقوع وبذات تسلسل خاص فعندما تغيب الشمس يظهر الشفق معلنا عن بداية حلول الليل الذي تتجه الكائنات الحية إلى بيوتها وأوكارها ثم يخرج القمر بدرا تاما ، فإذا كان المقسم به ذات أمور متسلسلة يأتي كل بعد الآخر فالطبقات التي يركبها الانسان مثل المقسم به مترتبة متتالية فيبدأ بالدنيا ثم إلى عالم البرزخ ومنه إلى يوم القيامة ومنه إلى يوم الحساب".[٢]

٥. ثم ذكر الغاية من القسم قائلاً :

"وجه استعجابه سبحانه عن عدم إيمانهم، إذ قال: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ،[٣] فان هذا النظام الرائع في الكون وحياة الانسان من صباه إلى شبابه ومن ثم إلى هرمه لدليل واضح على أن عالم الخلقة يدبر تحت نظر خالق مدبر عارف بخصوصيات الكون".[٤]

٦. استعان السبحاني بآراء الآخرين قائلاً :

"يقول أحد علماء الطبيعة في هذا الصدد : إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته وعظمته ، وعندما نقوم – نحن العلماء – بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها ، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية ، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته . ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكننا نرى آياته في أنفســـنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود".[٥]

---

(١) مفاهيم القر آن ٩/٤٢٥– ٤٢٦، الأقسام للسبحاني: ص١٤٣– ١٤٤.

(٢) المصدران نفسهما.

(٣) سورة الأنشقاق، الآية/ ٢٠.

(٤) مفاهيم القرآن ٩/٤٢٥– ٤٢٦، الأقسام للسبحاني: ص١٤٣– ١٤٤.

(٥) المصدران نفسهما.

المبحث الأول
تعريف الأمثال وغاياتها والتأليف فيها

التمهيد:

إن اهتمام العلماء والمفسرين بالأمثال سواء الأمثال في القرآن الكريم أم في الأحاديث النبوية أم بالأمثال الشعبية أم العالمية، لا يبتعد كثيرا في أسبابه عن الاهتمام بالعلوم الأخرى، إذ توجهت العناية بالأمثال لنواحي عدة منها: **الناحية اللغوية**، بوصفها شاهدا على كلام تلك الشعوب، "ووظيفتها التي لا تنكر فائدتها، فلها تأثير عجيب في الآذان، وتقرير غريب لمعانيها في الأذهان"،(١) ويصح الاحتجاج بها على صحة اللغة وعلى وجه تصاريفها وغرائبها، وكأنها فن من الفنون يكاد أن ينحصر في الفصحاء والبلغاء والأدباء والشعراء إذ قال الله تعالى:﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾،(٢) ومن **ناحية أخرى** اتخاذ المؤدبين والمعلمين المثل سبيلاً للتأديب والتعليم، إذ إن المثل هنا مادة تعليمية تصلح لتربية النشء من وجوه شتى، **ومن ناحية ثالثة** تعد الأمثال نوعاً من العلم منفردا بنفسه، إذ "يحتاج الرجل في معرفتها العلم بالغريب للوقوف على أصولها والإحاطة بأحاديثها"،(٣) وكل هذا يشير إلى شدة حضور الأمثال من وجوه مختلفة عند أولئك العلماء والمفسرين والاهتمام بتدوينها وحفظها في مؤلفات مختلفة.

---

(١) الأمثال في القرآن الكريم، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بـ(أبن قيم الجوزية) (ت٧٥١هـ)، تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، (ب –ط)، ١٩٨١ م، ص٢٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية /٤٣.

(٣) جمهرة الأمثال، للحسن بن عبد الله المعروف بـ(أبي هلال العسكري) (ت ١٠٠٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م، ٢/٥، وينظر: مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني(ت ٥١٨هـ)، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية المقدسة، ايران، (ب –ط)، ١٣٦٦ ش: ٣/١.

المطلب الأول: المثل في اللغة والاصطلاح

المثل في اللغة:

هو الشيء يضرب للشيء فيجعل مثلَهُ. والمِثْلُ: الحديث نفسه. والمِثْلُ: شَبَهُ الشيءِ في المثالِ والقَدرِ ونحوه حتى في المعنى. ويقال: ما لهذا مثيلٌ. والمِثالُ: ما جُعِل مقداراً لغيره، والتمثيلُ: تصويرُ الشيءِ كأنه تنظر إليه.(١) ويدل على مناظرة الشيء للشيء. وهذا مِثْلُ هذا أي نظيرُهُ والمِثْلُ والمِثالُ في معنى واحد.(٢) وربما قالوا مَثِيل كشبيه. والمثل بالكسر والتحريك: الشبَه. والجمع أمثال، والمَثَلُ محركة: الحجة والحديث وقد مَثلَ به تمثيلاً وأمتَثَلَهُ وتَمّثلَهُ وبه. وتَمثَّلَ بالشيءِ: ضَرَبَهُ مثلا. والمِثالُ: المِقدارُ والقِصاصُ وصفةُ الشيءِ إلى غير ذلك من المعانى.(٣)

المثل في الاصطلاح:

للمثل في الاصطلاح تعريفات متعددة تختلف بعض الشيء في ألفاظها لكنها تشترك في معانيها ودلالاتها، تذكر الباحثة بعضاً منها على النحو الآتي:

- **عرفه السبحاني أنه:** "قسم من الحكم، يرد في واقعة لمناسبة اقتضت وروده فيها، ثمّ يتداولها الناس في غير واحد من الوقائع التي تشابهها دون أدنى تغيير لما فيه من وجازة وغرابة ودقة في التصوير".(٤)
- **وعرف بأنه:** "عبارة عن تشابه المعاني المعقولة، وهو عبارة عن تشابه المعاني أو الأشخاص أو الأشياء المحسوسة، وقد يدخل أحدهما على الآخر".(٥)

أما المثل في القرآن فقد وصفه بعض العلماء إذ قالوا: "أن الامثال هي أنموذجات الحكمة لما غاب عن الاسماع والأبصار لتهتدي النفوس بما ادركت عيانا فمن عقل الامثال

---

(١) ينظر: العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي(ت ١٧٥هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة،ط٢، ١٤١٠هـ: ٢٢٩/٨، مادة (مثل).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكريا معروف بـ(ابن فارس) (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي، (ب- ط)، ١٤٠٤هـ: ٢٩٦/٥، مادة (مثل).

(٣) ينظر: القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة، ط٨، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م: ٤/ ٤٩، مادة (مثل).

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١ و١٧، الأمثال للسبحاني، ص ١١ و١٧.

(٥) معجم الأمثال في القرآن الكريم، لسميح عاطف الزين، دار الكتاب المصري، ط٢، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، ص ٢٦.

سماه الله تعالى عالما".[١] رد السبحاني هذا التعريف قائلاً: "المثل بذاك المعنى غير موجود في القرآن الكريم، لما ذكرنا من أنّ قوام الأمثال هو تداولها على الألسن وسريانها بين الشعوب، وهذه الميزة غير متوفرة في الآيات القرآنية. كيف وقد أسماه سبحانه مثلاً عند النزول قبل أن يعيها النبي (ﷺ) ويقرأها للناس ويدور على الألسن، وقد امتازت صيغة المثل القرآني بأنها لم تنقل عن حادثة معينة، أو واقعة متخيلة، أعيدت مكرورة تمثيلا، وضرب موردها تنظيرا، وإنما ابتدع المثل القرآني ابتداعا دون حذو احتذاه، وبلا مورد سبقه فهو تعبير فني جديد ابتكره القرآن الكريم حتى عاد صبغة متفردة في الأداء والتركيب والإشارة ،وعلى هذا فلا **مناص** من تفسير المثل في القرآن بمعنى آخر، وهو **التمثيل القياسي**[٢]، إذ عرفه بأنه: عبارة عن إعطاء منزلة شيء لشيء عن طريق التشبيه أو الأستعارة[٣] أو المجاز أو غير ذلك"،[٤] وتعرّض إليه علماء البلاغة في علم البيان وهو قائم بالتشبيه والاستعارة والكناية[٥]

---

(١) الأمثال من الكتاب والسنة، لابي عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي (ت ٣٢٠هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩ م، ص ١٢.

(٢) هذا التعبير للسبحاني أما الآلوسي فقد عبر عنه بالانتصاب. ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني أو (روح المعاني للألوسي)، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، (ب – ط)، ١٤١٥هـ: ١٦٣/١.

(٣) "الاستعارة" في اللغة: هي من أَعارَه الشيءَ وأَعارَه مِنْه وعَاوَرَه إِيّاه. والمُعَاوَرَةُ والتَّعاوُر: شِبْه المُدَاوَلَة. والتَّدَاوُلُ في الشيءِ يكونُ بَيْنَ اثْنَيْنِ. وتَعَوَّرَ واسْتَعَارَ: طَلَبَها، أي اسْتَعَارُوه الشَّيْءَ واسْتَعَارَه منه: طَلَبَ منه إِعَارَتَه. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٦١٩/٤، مادة (عار)، تاج العروس، لمحمد بن محمد الملقب بـ(مرتضى الزبيدي) (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، (ب – ط)، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤ م: ٢٧٥/٧، مادة (عار). أما في الاصطلاح عرفت بأنها: "نقل العبارة من موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه". الصناعتين: الكتابة والشعر، للحسن بن عبد الله المعروف بـ(أبي هلال العسكري) (ت ١٠٠٥هـ)، تحقيق: علي البجّاوي ومحمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، (ب–ط)، ١٩٨٦م، ص٢٦٨. وعرفت بأنها: "ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة وجعلت في مكان غيرها وملاكها تقريب الشبه، ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين لإحداهما إعراض عن الآخر". الوساطة بين المتنبي وخصومه، لعلي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل وعلي البجاوي، دار القلم، بيروت، (ب – ط – ت)، ص ٤١.

(٤) مفاهيم القرآن، ١٩/٩ ، الأمثال للسبحاني، ص ١٩.

(٥) "الكناية" في اللغة: هي من كَنَيت أو كَنوت، أي أن تتكلم بشيء وتريد به غيره. الصحاح، ٢٤٧٧/٦، مادة (كنى)، ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ١٣٩/٥، مادة (كنو). أما في الاصطلاح عرفت بأنها: "يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة، ولكن يجئ إلى المعنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه". دلائل الاعجاز في علم المعاني، لعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٣١هـ، ص٥٢.

والمجاز[١]،[٢] "ويجمع بين عمق الفكرة وجمال التصوير".[٣]

-**وعرف ايضاً أنه:** "مأخوذ من المثال، وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه. فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول".[٤]

-**وعرف بإنه:** "جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها، فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها، من غير تغيير يلحقها في لفظها وعما يوجه الظاهر إلى أشباهه من المعاني".[٥]

وتخلص الباحثة: الى أن المثال هو أحد أنواع التعابير الكلامية البليغة الذي لا يبعد عن المعاني الاصطلاحية الثلاثة وهي: **الشبيه والنظير وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين إلى الأخر، الثاني: المثل المضروب،** وهو القول السائر الممثل مضربه بمورده غالبا، **الثالث: الصفة،** وأضاف الآلوسي معناً **رابع له هو الانتصاب** الذي اسماه السبحاني **التمثيل القياسي** ،"وإن سبقه الى هذه التسمية كثيرون، ذلك لان التمثيل اصطلاح أدبي بلاغي، واضح الدلالة، دقيقها، في حين ان القياس اصطلاح منطقي يعفي عن الصورة الأدبية وجمالها البلاغي. وأرسطو صاحب المنطق عد المثل نوعا من الاستقراء ولم يعده نوعا من القياس".[٦]

---

(١) "المجاز" في اللغة: هي جزت الطريق، وجاز الموضع جوازا ومجازا: سار فيه وسلكه، وجاوزت الموضع بمعنى جزته. ينظر: العين للفراهيدي: ١٦٥/٦، مادة (جوز)، لسان العرب: ٣٢٦/٥، مادة (جوز). أما في الاصطلاح عرف بأنه: "كل لفظ نقل عن موضوعه". دلائل الاعجاز للجرجاني، ص٥٣.

(٢) ينظر: روح المعاني للآلوسي: ١٦٣/١، الأمثال لابن قيم: ص ٣٠، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، مطبعة أمير، قم، ط١، ١٤١١هـ: ص٣١١، مختصر المعاني، لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت ٧٩٢هـ)، مطبعة قدس، قم، ط١، ١٤١١هـ: ص٢٢٦، الامثال في النثر العربي القديم، لعبد المجيد عابدين، مكتبة مصر، ١٩٥٦ م، ص٨، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٧، الأمثال للسبحاني، ص ١٧.

(٣) مجمع الأمثال لسميح عاطف، ص ٣٦.

(٤) مجمع الأمثال للميداني، ٩/١.

(٥) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨ م، ١/ ٤٨٦، وينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، لمحمد عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ)، تحقيق: أحمد عبد الســـلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٤١٥هـ - ١٩٩٤ م: ٤٥٥/٤ ، معجم ديوان الأدب، لأبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي(ت٣٥٠هـ)، تحقيق: أحمد مختار عمر، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٤هـ،٧٤/١.

(٦) الامثال في القرآن الكريم، لمحمد جابر الفياض، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ط٢، ١٩٩٥ م، ص ٩٨.

المطلب الثاني: فوائد الأمثال السائرة

إن للأمثال فوائد جمة ذكرها بعض العلماء في هذا الصدد تذكر الباحثة منها ما يأتي:

١. "إنّ الأمثال ليست من خصائص العرب فحسب، بل لكلّ قوم أمثال وحكم يقرّبون بها مقاصدهم إلى إفهام المخاطبين ويبلغون بها حاجاتهم، وربما يشترك مَثَلٌ واحد بين أقوام مختلفة، ويصبح من الأمثال العالمية، وربما تبلغ روعة المثل بمكان يقف الشاعر أمامه مبهوراً فيصب مضمونه في قالب شعري".(١)

٢. إن الأمثال لها شان كبير في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه شاهد فضلاً عن ذلك فيه تبكيت للخصم الألد وقمع لسورة الجامح الأبي، وتشبيه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب.(٢) وهي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار، حتّى تبرزها وتكشف عنها وتصوّرها للإفهام،(٣) "وتضرب لصحة المعاني".(٤)

٣. "ضرب الأمثال يستفاد منه في أمور كثيرة كالتذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد"،(٥) "ولتقريب الأشياء للناس، وتوضيح ما التبس عليهم، ولكن لا يعقلها ويتدبّر معناها، ويدرك المراد منها إلَّا أهل العلم والمعرفة، الذين يتجرّدون من العصبية والتقليد، ويتـــأمّلون في مدلولات الأشياء. فإن قـــرين الشيء وشبيهه

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٤، الأمثال للسبحاني، ص١٤.

(٢) ينظر: الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، لحمزة بن الحسن الاصبهاني (ت ٣٥١هـ)، تحقيق: عبد المجيد قطامش، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٧٢: ١/٥٩-٦٠، الأمثال في الحديث النبوي، لعبد الله بن حبان الأصبهاني(ت٣٦٩هـ)، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد، الدار السلفية، الهند، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م، ١/ ١٢، مفاهيم القرآن: ٩/ ٢٤.

(٣) ينظر: تفسير البحر المحيط في تفسير القرآن العظيم، لمحمد بن يوسف المعروف ب(أبي حيان الأندلسي)(ت٧٤٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م: ١٤٩/٧، زبدة التفاسير، لفتح الله بن شكر الله الكاشاني (ت ٩٨٨هـ)، تحقيق: مؤسسة المعارف الإسلامية، إيران، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٢٩/٥.

(٤) عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري، لمحمود بن أحمد العيني(ت ٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت،(ب - ط- ت)، ١٤٦/١٤.

(٥) الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ٣٤٤/٢، ينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٥٦، الأمثال للسبحاني، ص ٥٦.

يوضح الأمر، ويجلي الحقيقة"؛[١] لانه كما قيل الأمثال مصابيح الأقوال.[٢]

٤. ومن فوائدها أن فيها اشارة نفسية فهي "ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه "،[٣] "هذا هو التهيؤ والانفتاح مقصود بحد ذاته مباشرة؛ لانه وسيلة أمام الغاية التي تقرع الفكر وتصطك بالسمع، والتطلع لهذه الوسيلة متعهد للوصول نفسياً الى الغاية".[٤]

٥. وفي ضرب الامثال إشارة تراثية الى سبق معرفة المخاطبين بهذا النوع من فن القول ومعرفة المتلقي بهذا الفن القوي. ويعني استعماله مسبقاً في الكتب السماوية السابقة وفي كلام العرب، فهو أسلوب من أساليبهم ومنهج من مناهجهم في الخطاب، ونهج القرآن على نهجهم وهو يعد دليلاً على إعجازه إذ خاطبهم بأفضل ما يحسنون من لغتهم ومع هذا فهم حائرون أمام بلاغته عاجزون عن أدائه لا يستطيعون ضرباً من سنخه[٥].[٦]

٦. "وفي ضرب الأمثال فائدة تشريعية بكونها منهجا من مناهج الدعوة الى الخير والحث على البر والدفع الى الاعتبار، إذ أن أمثال التنزيل وعد الله (ﷻ) بها وأوعد، وحرم وأحل، ورجى وخوف، وقرع بها المشركين وجعلها موعظة وتذكيرا، ودل على قدرته مشاهدة وعيانا، وعاجلا وآجلا".[٧]

وتذهب الباحثة إلى ما ذهب اليه إبراهيم النظام في إيجاز فوائد الأمثال: "يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة".[٨]

---

(١) التفسير الوسيط، لوهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦ م، ٣/ ١٩٦٧.

(٢) ينظر: أطياب من كلام الأعراب، لحسن نمر دندشي (ت ١٩٩٤ م)، جروس برس، لبنان، (ب –ط – ت): ص ٨٥.

(٣) أرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم، للعمادي محمد بن محمد المعروف بـ(أبي السعود) (ت ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (ب–ط–ت)، ٥٠/١ وينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ١٤، الأمثال للسبحاني، ص١٤.

(٤) الصورة الفنية في المثل القرآني، لمحمد حسين الصغير، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨١ م، ص٨٤.

(٥) "السنخ "في اللغة: الأصل من كل شيء وسنخ الكلمة بناؤها. ينظر: لسان العـــرب، لمحمد بن مكـــرم بن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ: ٢١١٤/٣، مادة (سنخ).

(٦) ينظر: الصورة الفنية للصغير: ٨٤ – ٨٥.

(٧) أمثال الحديث المروية عن النبي (ﷺ)، للحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: أحمد عبد الفتاح تمام، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٩هـ، ص ٩ وينظر: الصورة الفنية للصغير: ٨٨–٨٩ .

(٨) الأمثال في الحديث النبوي للأصبهاني، ١١/١، مجمع الأمثال للميداني، ٩/١، نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهـــاب الدين أحمد النويري (ت ٧٣٣هـ)، تحقيق: مفيد قميحة وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢/٣، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٢، الأمـــثال للسبـــحاني، ص ١٢.

المطلب الثالث: أهمية الأمثال ومكانتها في القرآن الكريم

للأمثال في الكلام مكانة كبيرة في اهتمام المفكرين والعلماء، فذكروا حولها كلمات تعرب عن أهمية الأمثال ومكانتها في القرآن نذكر منها ما يأتي:

قال السبحاني وهو ما ذهب إليه الطبرسي[١]: "إن الله ضرب الأمثال للناس للتفكير والعبرة".[٢]

وقال غيره من العلماء: "إن من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفل عنه".[٣] وتضرب الأمثال للتدبر،[٤] ولإبراز خفيات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق، وتريك المتخيل في صورة المتحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، فإنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف لما الشئ في نفسه ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال،[٥] "وتقريبا بعُد من أفهامهم"،[٦] فضرب الله الأمثال لإبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهود وتحلية المعقول بحلية المحسوس وتصوير أوابد المعاني بهيئة المأنوس لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية وفهم الدقائق

---

(١) الطبرسي هو: أمين الدين أبو علي الطبرسي، ولد عام (٤٧٠هـ) له مؤلفات حسنة، منها: كتاب مجمع البيان في تفسير القرآن، والوسيط في التفسير، والوجيز، توفى في عام (٥٤٨هـ). ينظر: مستدركات علم رجال الحديث، لعلي النمازي الشاهرودي (ت ١٤٠٥هـ)، مطبعة حيدري، طهران، ط١، ١٤١٥هـ: ٢٠٣/٦،الأعلام، لخير الدين بن محمود الزركلي(ت١٤١٠هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م: ١٤٨/٥، معجم رجال الحديث، لأبي القاسم بن علي أكبر الخوئي (ت ١٩٩٢ م)،(ب – ط)، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢ م: ٣٠٤/١٤.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٦، الأمثال للسبحاني، ص١٦وينظر: مجـــمع البيان، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت،ط١، ١٤١٥هـ– ١٩٩٥ م:٤٤٠/٩، أمثال القرآن، لناصر مكارم الشيرازي، إعداد: أبو القاسم عليان نزادي، تعريب: تحسين البدري، مطبعة معراج، قم، ط٢، ١٤٤٢ هـ: ص ١٦.

(٣) الأمثال والحكم، لأبي الحسن علي بن محمد البغدادي المعروف ب(بالماوردي)(ت ٤٥٠هـ)، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن للنشر، الرياض، ط١٤٢٠،١هـ – ١٩٩٩ م، ص ٢١ و ينظر: الإتقان للسيوطي: ٣٤٣/٢.

(٤) ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر منصور بن محمد السمعاني (ت ٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، ٤٠٨/٥.

(٥) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، لجار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٨٥هـ– ١٩٦٦ م، ١/ ١٩٥، تفسير البحر المحيط لأبي حيان: ٢٠٨/١، الإتقان للسيوطي: ٣٤٤/٢، مفاهيم القرآن: ٩/ ٢٤، الأمثال للسبحاني، ص ٢٤.

(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، لعبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٢هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨ م، ١٩٦/٤.

الأبية كي يتابعه فيما يقتضيه ويشايعه إلى ما يرتضيه ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية والكلمات النبوية وذاعت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء.(١)

وترى الباحثة: إن أهمية المثال وظرافته لا تكمن في كبره وصغره، بل تظهر أهميته في انطباق المثال على المقصود لافتا للأنظار، بقصد التوضيح أو الإقناع أو البرهان أو التأثير، لما به من الحكم العامة المستمرة التي لا ينقضي أمدها ولا علمها، أو التنفير منه بقصد بيان الفارق بين أمرين متناقضين للأخذ بأحدهما والابتعاد عن الآخر أو للبرهان على صحة أحدهما، وبطلان الآخر، ومما يبرز أهمية الأمثال القرآنية قول الرسول (ﷺ): ((إن القرآن نزل على خمسة: أوجه حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال)).(٢)

المطلب الرابع: المراد بضرب المثل

أورد السبحاني معاني اصطلاحية عدة لـ (ضرب المثل) مستندا الى أقوال العلماء في ذلك **وتذكر الباحثة** تلك الأقوال وما يراد منها وهي ما يأتي:

الأول: إنّ **الضرب** بمعنى **المَثَل**، والمراد هو التَمثيل.(٣)

الثاني: إنّ **الضرب** بمعنى **الوصف والبيان.**(٤)

---

(١) ينظر: الأمثال لابن قيم: ص٢٢، أرشاد العقل السليم لابي السعود، ٧١/١.

(٢) شعب الإيمان، لأحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤١٠،١هـ – ١٩٩٠ م، ٢/ ٤٢٧، باب (في الرجاء من الله تعالى)، فصل (في قراءة القرآن....)، رقم الحديث (٢٢٩٣)، الأمالي، لابي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق: مؤسسة البعثة، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، قم،ط١، ١٤١٤ م، ص٣٥٧، المجلس (الثاني عشر فيه أحاديث أحمد بن محمد....)، فصل تعلم القرآن، رقم الحديث (٨٢/٧٢٤)، بحار الأنوار، لمحمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت ١١١١هـ)، تحقيق: إبراهيم الميانجي ومحمد الباقر البهبودي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣ م، ١٨٦/٨٩، باب (ثواب تعلم القرآن، وتعليمه...)، رقم الحديث (٣)، وهو حديث ضعيف.

(٣) ينظر: معاني القرآن، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤٠٩هـ، ٤٨٢/٥، تفسير القرآن العزيز، لأبي عبدالله محمد بن أبي الزمنين (ت ٣٣٩هـ)، تحقيق: حسين بن عكاشة ومحمد الكنز، الفاروق الحديثة، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م: ٦١/٣،الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)، لأبي إسحاق أحمد الثعلبي النيسابوري (ت ٤٢٧هـ)، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م: ١٦٩/٦، تفسير القرآن للسمعاني: ٣٧٠/٤، مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٤، الأمثال للسبحاني، ص ٣٤.

(٤) ينظر: تفسير مقاتل بن سلمان، لأبي الحسن مقاتل بن سليمان البلخى (ت ١٥٠هـ)، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢/ ٢٤٠، بحر العلوم، لأبي الليث نصر بن محـــــمد السمـــــرقندي=

الثالث: إنّ **الضرب** بمعنى **الاعتماد والتثبيت**[١].[٢]

الرابع: إن **الضرب** في المقام من باب الضرب في الأرض وقطع المسير، وضرب المثل عبارة عن جعله **ينتشر ويذيع ويسير في البلاد** ومنه سمى المضارب مضاربا .[٣]

وفي هذا المقام عدة احتمالات لخصها أبن قيم الجوزية،[٤] إذ طرح سؤالاً هو: فما معنى ضرب المثل؟ فأجاب قائلاً في الوقت نفسه:خلاصة القول: ضرب المثل مأخوذ: إمّا من: **ضرَب في الاَرض** بمعنى: سار أو **ضربه:** نصبه للناس وأشهره. أو **ضرب:** صنع وأنشأ . أو **ضرب:** إيقاء شيء على مثال شيء.[٥]

= (ت ٣٧٣هـ)، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت،(ب – ط – ت): ٢٩٥/٢، تفسير جوامع الجامع، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، ايران، ط١، ١٤٢٠هـ: ٣٥١/٢، التفسير الكبير أو (مفاتيح الغيب)، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م: ١٢٧/٢٠، مفاهيم القرآن،٩/ ٣٥، الأمثال للسبحاني، ص ٣٥.

(١) ينظر: التبيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد حبيب العاملي، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ايران، ط١، ١٤٠٩هـ، ٣٤١/٧، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥، الأمثال للسبحاني، ص ٣٥.

(٢) ذكر السبحاني أن هذا القول هو المختار عند الزمخشري صاحب تفسير (الكشاف) والآلوسي في تفسيره (روح المعاني) ولكن لم أجد هذا هو اختيارهم في تفسير الآية المذكورة قال تعالى: ﴿يأيها ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ له﴾. سورة الحج، من الآية /٧٣، ووجدت انهم يفسروها بالقول الثاني الذي هو (الوصف والبيان) إذ يقول الزمخشري: "فإن قلت: الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا؟ قلت: قد سميت الصفة أو القصة الرائعة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلا تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم". الكشاف، ٣/شرح ص٢٣. وأما قول الآلوسي في ذلك "ان قوله تعالى: ﴿يأيها ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ بين لكم حال مستغربة أو قصة بديعة رائقة حقيقة بأن تسمى مثلاً وتسير في الأمصار والأعصار، وعبر عن بيان ذلك بلفظ الماضي لتحقق الوقوع، ومعنى المثل في الأصل المثل ثم خص بما شبه بمورده من الكلام فصار حقيقة ثم استعير لما ذكر، وقيل المثل على حقيقته و ﴿ضُرِبَ﴾ بمعنى جعل أي جعل لله سبحانه شبه في استحقاق العبادة، ﴿فَٱسْتَمِعُواْ له﴾ أي للمثل نفسه استماع تدبر وتفكر أو لأجله ما أقول فقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾. سورة الأعراف، من الآية/ ١٩٤، إلى آخره بيان للمثل وتفسير له ". روح المعـــــاني للآلوسي، ٢٠٠/١٧.

(٣) ينظر: جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ١/ ٧، مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٥-٣٦، الأمثال للسبحاني: ص ٣٥ – ٣٦.

(٤) ابن قيم الجوزية: هو محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين الشهير بأبي عبد الله وابن قيّم الجوزية، ولد عام (٦٩١هـ) في دمشق، كان حسن الخلق محبوبا عند الناس، ألف تصانيف كثيرة منها: (إعلام الموقعين) و (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) وغيرها من المؤلفات، توفي عام (٧٥١هـ). ينـــــظر: الأعلام للزركلي: ٦/ ٥٦، موسوعة طبقات الفقهاء، للجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، تحقيق: جعفر محمد حسين السبحاني، اعتماد، قم، ط١، ١٤١٩هـ: ١٥٧/٨.

(٥) ينظر: الأمثال لابن قيم: ص٢١، مفاهيم القرآن: ٣٧/٩، الأمثال للسبحاني: ص ٣٧.

أما السبحاني فلم يخالف ما ذهب إليه العلماء في مسالة المراد بـ (ضرب المثل) إذ قال: إن لكل آية المعنى المناسب لتفسيرها، وذكر الآيتين من قوله تعالى:﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾.[١] مثلاً إذ أختار لها تفسير (الضرب) بالوصف.[٢] ورد المعاني الأخرى لضرب المثل لانها لا تناسب تفسير الآية إذ قال: "وأمّا تفسيره بالتمثيل بأن يقال: انظر كيف مثّلوا لك المثال أو التمثيل، فغير تام، لاَنّ وصف النبي بكونه مسحوراً، لا مثَل سائر، ولا تمثيل قياسي ونظيره تفسيره بقطع الأرض، لاَنّ المشركين ما وصفوه به ليشهّروه حتى يصير قولهم سيراً في الأرض".[٣]

تستنتج الباحثة وبعد الاطلاع على عدة تفاسير: أن لـ(ضرب المثل) معاني عدة وردت عند العلماء وجميعها لا يتعدى الاحتمالات التي ذكرها ابن قيم الجوزية والأقوال عند السبحاني، أي لا خلاف بين العلماء في تلك المعاني ولكن الخلاف وقع في استعمالها في تفسير الآيات التي ورد فيها (الضرب)، مما أغنى التفاسير بالآراء المختلفة التي لا تخرج عن تلك الأقوال والاحتمالات.

المطلب الخامس: الكتب المؤلفة في الأمثال القرآنية

ولمكانة الأمثال وأهميتها أهتم العلماء بالتأليف فيها قديماً وحديثاً إذ جمعوها ورتبوها وشرحوا غريبها وبينوا القصص التي صدرت عنها والمناسبات التي تضرب فيها وتحكى، وذكر منها السبحاني ما وقف عليها،[٤] وتذكر الباحثة منها ما يأتي: [٥]

١. الأمثال الكامنة في القرآن الكريم، للحسين ابن الفضل (ت ٢٨٢هـ)، تحقيق: علي حسين البواب، مكتبة الروضة، الرياض، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

---

(١) سورة الفرقان، الآيتان /٨، ٩.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٣/ شرح ص ٨٣، الميزان في تفسير القرآن، لمحمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، مؤسسة إسماعيليان، ط٣، ١٤٣٠هـ: ١١٥/١٣، مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٧ – ٣٨، و ٩/ ٢١٦، الأمـــــثال للسبحاني: ص٣٧ – ٣٨ و ص ٢١٦ .

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٨، و ٩/ ٢١٦، الأمثال للسبحاني: ص ٣٨ و ص ٢١٦.

(٤) ينظر: المصدران نفسهما: ٩/ ٢٦-٢٧، ص٢٦ – ٢٧.

(٥) ينظر: المصدران نفسهما.

٢. أمثال الحديث المروية عن النبي (ﷺ)، للحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي (ت ٣٦٠هـ)، مطبوع لمؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٩هـ.
٣. الأمثال والحكم، لأبي الحسن علي بن محمد البغدادي(ت٤٥٠هـ)، مطبوع لدار الوطن للنشر، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٤. الأمثال في القرآن الكريم، لشمس الدين أبي عبد الله (أبن قيم الجوزية) (ت ٧٥١هـ)، مطبوع لدار المعرفة، بيروت،١٩٨١م.
٥. الأمثال في القرآن، لمحمود بن شريف، دار عكاظ، الرياض، ط٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٦. الامثال في القرآن الكريم، لمحمد جابر الفياض، مطبوع للدار العالمية للكتاب الاسلامي، الرياض، ط٢، ١٩٩٥م.
٧. أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، لعبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٢م.
٨. الامثال والمثل والتمثيل والمثلات في القرآن الكريم، لسميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

وهناك مؤلفات أخرى لم اذكرها للاختصار وعدم الإطالة وسأذكرها في المصادر عند الاستعمال.

المبحث الثاني
أقسام الأمثال القرآنية

التمهيد:

إن المعنى الشائع للفظة المثل، وما يتصرف إليه الذهن حين نتوقف عند أدب الأمثال، ليس هذا المعنى القصصي، بل في الغالب ينصرف الذهن إلى الجملة الموجزة المركزة، فكان للمثل أقسام لتأكيد معنى أو لبيان غاية، موجزٌ في ألفاظه مطنبٌ في معانيه، طويل وقصير وكلاهما متّصفٌ بالإيجاز من جهة اللفظ وبالإطناب من جهة الجزئيات دون إخلالٍ بغرض الإيجاز، "والأمثال القرآنية تدور بين كونها تمثيلا قصصيا، أو تمثيلا طبيعيا كونيا. والأقسام الأخرى يقول بها أهل التأويل".[١]

[١] مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١، الأمثال للسبحاني، ص ٢١.

المطلب الأول: أقسامها من حيث السياق

قسم المفسرون والعلماء الأمثال إلى أقسام عدة، وأشار إليها السبحاني في تفسيره نذكرها كالآتي:

١. الرمزي

-**عرفه السبحاني بأنه:** "ما ينقل عن لسان الطيور والنباتات والأحجار بصورة الرمز والتعمية ويكون كناية عن معاني دقيقة، وأنه كان رائجا في العهود الغابرة قبل الإسلام".[١]

-**وعرف بأنه:** "حمل الآيات على التشبيه والكناية وضرب الأمثال".[٢]

-**وعرف بأنه:** "الذي يحمّل الكلمة غير معناها، ويجري بها في غير مجالها من دون أساس للاستعارة والكناية والمجاز، بل التأويل يمثل عملية الإستيحاء للمعنى من خلال التقاء المعاني ببعضها في الأهداف التي يستهدفها القرآن في القضايا التي يثيرها أمام الناس، والمفاهيم التي يريد أن يوحيها إليهم".[٣]

وترى الباحثة: أن من يقرأ التمثيل الرمزي ينبغي أن يعرف الأسباب التي وضع له والى الغاية التي ضرب لها ، ويفهم غرضه ظاهراً وباطناً، فإن لم يفعل لم يبين ما أريد بتلك الأمثال ولا أي نتيجة تحصل له من ذلك التمثيل، وهذا ينطبق على كل الأقسام الباقية، فكأنما يتجسد فيه قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤] اي أن هؤلاء مثلهم كمثل الحمار الذي يضرب به المثل في الغباء والحماقة، وأوضح مثال يمكن أن يكشف عن قيمة العلم وأهميته.

٢. القصصي

-**عرفه السبحاني بأنه:** "بيان أحوال الأمم الماضية بغية أخذ العبر للتشابه الموجود".[٥]

---

[١] مفاهيم القرآن: ٩/ ١٩، الأمثال للسبحاني: ص١٩.

[٢] ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي)، لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م: ١١/٨، الميزان للطباطبائي: ١٧/ ١٢٤، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل أو (تفسير الأمثل)، لناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م، ٤٢/٨.

[٣] خلفيات كتاب مأساة الزهراء (عليها السلام)، لجعفر مرتضى العاملي، دار السيرة، بيروت، ط٥، ١٤٢٢هـ، ١/ ١٢٠.

[٤] سورة الجمعة، الآية /٥.

[٥] مفاهيم القران، ٩/ ٢٠، الأمثال للسبحاني: ص٢٠ و ينظر: رسائل الشريف المرتضى، لعلي بن حسين المعروف بـ(الشريف المرتضى) (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق: أحمد الحسيني، مطبعة سيد الشهداء، قم،١٤٠٥هـ: ١/ ٤٢٤، التفسير الكاشف، لمحمد جواد مغنية (١٤٠٠هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨١ م: ٢٨١/٤.

-**وعرف بأنه:** "تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها".[١]

-**وعرف بأنه:** "بيان أحوال بديعة غريبة، هي في الغرابة كالأمثال".[٢]

وترى الباحثة: إن الأسلوب القصصي من أفضل الأساليب في تنمية العواطف، وخصوصا الأسلوب المنسجم مع الإدراك والقدرات العقلية للمتلقي للقصة وما يبنى عليها من عظة وعبرة لمن يتعظ ويعتبر وان أسلوب القرآن القصصي هو سرد القصة الحقيقية التي لا خيال فيها، لذا خصها السبحاني بأحوال الأمم الماضية لأخذ العبرة .

٣. الطبيعي

-**وافق السبحاني** في تعريفه بعض المفسرين والعلماء إذ قال: "أنه عبارة عن تشبيه غير الملموس بالملموس، والمتوهم بالمشاهد، شريطة أن يكون المشبه به من الأمور التكوينية".[٣]

-**وعرف بأنه:** العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حسن أو عقل.[٤]

-**وعرف ايضاً بأنه:** "ما شبه مضربه بمورده ويستعار للأمر العجيب المستغرب".[٥]

وتخلص الباحثة الى: أن هذه الأقسام خصها السبحاني في الأمثال المضروبة في القرآن الكريم، فلا يصح ان نطلق على التمثيل الرمزي، القصصي، الطبيعي بالمثل الخرافي الذي هو حكاية ذات دلالة تحكى على لسان الحيوانات وغيرها من المخلوقات غير الإنسان وتكون لتحقيق أغراض محددة كالتعليم والتسلية والترفيه والترويح ؛لأنّ ما جاء في القرآن ليس أمراً مفترىً فهو الحقّ الذي لا يدانيه الباطل، إذ إن الصورة الواردة في المثل القرآني: إما أن تكون صورة تمثيلية من الواقع وإما ان تكون تمثيلية من الخيال بصورة المتحقق. فمن أمثلة الصورة التمثيلية من الواقع تمثيل الذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن باليوم الآخر، بزارع يزرع

---

(١) تفسير أبي السعود، ١٦١/٧.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، دار الفكر، بيروت، (ب – ط – ت)، ٣٦٤/٤.

(٣) مفاهيم القرآن، ٢٠/٩، الأمثال للسبحاني، ص ٢٠ و ينظر: الجامع لأحكام القرآن أو (تفسير القرطبي)، لإبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، دار إحياء التراث العربي، بيروت،(ب – ط)، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥ م: ٣٢٦/٨، الأمثال لأبن قيم: ص١٢، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمحمد سيد الطنطاوي، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٩٧ م: ٥٤/٧.

(٤) إعجاز القرآن، لمحمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٣، (ب –ت)، ص٢٦٤.

(٥) روح المعاني للآلوسي، ١٠٠/١١.

بزوره في تراب رقيق مبسوط على صخرة صماء ملساء، إذا نزل عليها غيث السماء سَفَحَ التراب والبزور معه، وجرفها السيل، فترك مزرعته حجرا صلدا أملس لاشيء عليه، فهو لا يطمع بنبات ولا ينتظر حصادا. فالصورة هنا تمثلت من الواقع في الأحداث الكونية. ومن أمثلة الصورة التمثيلية من الخيال، تمثيل طلع شجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم بصورة رؤوس الشياطين، إذ أن الناس لا يعرفون صورة رؤوس الشياطين، ولكن في خيالهم صورة قبيحة منفرة مخيفة للشياطين ورؤوسهم، وهي أقبح وأخوف صورة يتخيلونها.

المطلب الثاني: أقسامها من حيث اللفظ

ذهب السبحاني الى ما ذهب اليه بعض العلماء في تقسيمه الأمثال من حيث المعنى إلى قسمين رئيسين،[١] تذكرها الباحثة فيما يأتي:

١. الصريح

- **عرفه السبحاني بأنه:** التمثيل الوارد في القرآن الكريم، والذي يقترن **تارة** بكلمة المثل، **وأُخرى** يقترن به مع لفظ الضرب إذ اختار سبحانه مادة الضرب لقسم كبير من أمثال القرآن، **وثالثة** بحرف كاف التشبيه.[٢]
- **وعرف بأنه:** "عبارة عن تشبيه شيء بآخر، أو تمثيل صورة غائبة بصورة مشاهدة محسوسة ليسهل تصورها وإدراكها".[٣] كقوله تعالى:﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾.[٤]
- **وعرف بأنه:** "ظاهر وهو المصرح به".[٥]

٢. الكامن

أختلف الباحثون في تعريف الأمثال الكامنة، إذ عرفه بعضهم بأنـــــــه:"عبارة عن ورود

---

[١] والعلماء هم: بدر الدين الزركشي في تفسيره (البرهان في علوم القرآن)،السيوطي في تفسيره (الإتقان في علوم القرآن)، وأحمد الهاشمي في كتابه (جواهر الأدب)، الحسين بن الفضل في كتابه (الأمثال الكامنة في القرآن الكريم).

[٢] ينظر: مفاهيم القرآن:٩/ ٣٣، الأمثال للسبحاني: ص ٣٣.

[٣] الأمثال الكامنة في القرآن الكريم، للحسين ابن الفضل (ت ٢٨٢هـ)، تحقيق: علي حسين البواب، مكتبة الروضة، الرياض، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، ص٨.

[٤] سورة البقرة، الآية /١٧.

[٥] البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١٣٧٦،١هـ- ١٩٥٧م، ٤٨٦/١، الإتقان للسيوطي، ٢/ ٣٤٤.

أقوال وأمثال مشهورة، أي ما أشبه بالأمثال السائرة".[١] وعرفه بعضهم بأنه: "الذي لا ذكر للمثل فيه، وحكمه حكم الامثال"،[٢] وأعترض بعض الباحثين على هذه التسمية،[٣] ومنهم السبحاني إذ قال: "إن اشتمال العبارة على معنى ورد في مثل من الأمثال، لا يكفى لإطلاق لفظ المثل على تلك العبارة، فالصيغة الموروثة ركن أساس في المثل، لذلك نرى أنّ اصطلاح العلماء على تسمية هذه العبارات القرآنية (أمثالاً كامنة) محاولة لا تستند على دليل نصّي ولا تاريخي".[٤] إذ عرفه بالقول: "يمكن تفسير المثل الكامن بالتمثيلات التي وردت في الذكر الحكيم من دون أن يقترن بكلمة "مثل" أو "كاف" التشبيه، ولكنه في الواقع تمثيل رائع لحقيقة عقلية بعيدة عن الحس المجسد بما في التمثيل من الأمر المحسوس"،[٥] وأضاف قائلاً: "ومن الواضح أن الحكم الواردة في القرآن نزلت من دون سبق مثال لها، فلم تكن يوم نزولها موصوفة بوصف المثل، وإنما أضفي عليها هذا الوصف عبر مر الزمان وتداول الألسن "،[٦] وضرب أمثلة عدة: منها قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾،[٧] إذ قال فيه: "إنه سبحانه شبه بنيانهم على نار جهنم بالبناء على جانب نهر هذا صفته، فكما أن من بنى على جانب هذا النهر فإنه ينهار بناؤه في الماء ولا يثبت، فكذلك بناء هؤلاء ينهار ويسقط في نار جهنم،[٨] "فالآية تدل على أنه لا يستوي عمل المتقي وعمل المنافق، فإن عمل المؤمن المتقي ثابت مستقيم مبني

---

(١) الأمثال الكامنة لأبن الفضل، ص٩ و ينظر: الأمثال للفياض: ص٢٠٢، تطور الاساليب النثرية في الأدب العربي، لأنيس المقدسي (ت ١٩٧٧ م)، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٠ م: ص ٦٠.

(٢) البرهان للزركشي، ٤٨٦/١ و ينظر: الإتقان للسيوطي: ٢/ ٣٤٤، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، لأحمد الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)، تحقيق: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت،ط٢، (ب – ت): ١/ ٢٨٨.

(٣) أبو أسماعيل عبد الملك ابن منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) أذ قال: "أَمْثَال الْعَرَب والعجم والخاصة والعامة جَاءَت فِي مَعَانِيهَا أَلْفَاظ من الْقُرْآن، فَهيَ أحسن وأبلغ وأشرف وَأولى بالاقتباس والتمثل بها". التمثيل والمحاضرة في الحكم والمناضرة، لأبي أسماعيل عبد الملك الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية، القاهرة، ط١٤٠١،٢هـ، ص١٥، وأبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) إذ قال: "(كم كلمة تدور على السنة الناس مثلا، جاء القرآن بألخص منها وأحسن". المدهش، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، ص١٧-١٨.

(٤) مفاهيم القرآن: ٩/ ٣١، الأمثال للسبحاني، ص٣١. ينظر: الأمثال للفياض: ص٢٠٢، الصور الفنية للصغير، ص١١٨.

(٥) مفاهيم القرآن ٩/ ٣١، الأمثال للسبحاني، ص٣١.

(٦) المصدران نفسهما، ٩/ ٥٨ و ص٥٨.

(٧) سورة التوبة، الآية / ١٠٩.

(٨) مفاهيم القرآن ٩/ ٥٨، الأمثال للسبحاني، ص٥٨.

على أصل صحيح ثابت، وعمل المنافق ليس بثابت وهو واه ساقط".[١] ومنها قـــوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾.[٢] إن هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فأخبر بأن الأرض كلها جنس واحد، إلا أن منها طيبة تلين بالمطر، ويحسن نباتها ويكثر ريعها، ومنها سبخة لا تنبت شيئا، فإن أنبتت فمما لا منفعة فيه، وكذلك القلوب كلها لحم ودم ثم منها لين يقبل الوعظ ومنها قاس جاف لا يقبل الوعظ، فليشكر الله تعالى من لان قلبه بذكره.[٣] على أن هذه الآيات والكثير غيرها[٤] "لم تكن أمثالا يوم نزولها، بل كانت حِكماً وإنما جاءت مثلا حسب مر الزمان".[٥]

ومما يؤيد رأي السبحاني هو إن كثيراً ما كانوا يقولون: إن في القرآن الكريم ما للعرب والعجم، والخاصة والعامة ،من أمثال سائرة ، وإن ما في القرآن لا تشبه أمثال هولاء فحسب، وإنما تفضلها جميعا.[٦]

نستنتج من ذلك كله: إن الامثال الكامنة هي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل، ولكنها تدلّ على معانٍ رائعة في إيجاز ويكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها.

المطلب الثالث: الأمثال القرآنية وانسجامها مع البيئة

إن الأمثـــال لها تأثير في بناء شخصية الإنسان التي تتأثر بالعوامل الثلاثة (الوراثة – التعليم – البيئة) وهذا ما ذهب الـيه باحثون آخرون،[٧] يقول السبـحاني في أثـر الوراثة: "يرث الأولاد من آبـائهم وأمهـاتهم السجايا العليا أو الصفات الدنيـئة، ومن خيوطـهما تنسج خيــوط

---

(١) مجمـع البيـان للطبرسـي، ٣/ ٧٣، زبـدة التفاسـير لفـتح الله،٣/ ١٦٩، مفاهـيم القـرآن، ٣١/٩، الأمثـال للسـبحاني، ص٣١.

(٢) سورة الاعراف، الآية ٥٨.

(٣) ينظر: مجمع البيان للطبرسي: ٧٣/٣، مفاهيم القرآن، ٩ / ٣٢، الأمثال للسبحاني، ص٣٢.

(٤) كقولـه تعالى: ﴿ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾. سورة الاعراف، من الآية /٣١، وكقولـه تعالى: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾. سورة الكهف، من الآية /٧٨.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٦١-٦٢، الأمثال للسبحاني، ص ٦١ – ٦٢ .

(٦) ينظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي: ص ١٥، زهر الآداب وثمر الألباب، لإبراهيم بن علي الحصري القيـــــــرواني (ت٤٥٣هـ)، تحقيق: زكي مبارك ومحمد محي الدين، دار الجيل للنشر، بيروت، ط٤، ١٩٧٢ م، ١١٠٦/٤، المدهش لابن الجوزي: ص١٧-١٨، الإتقان للسيوطي: ٣٤٦/٢، الامثال للفياض، ص٢٠٤ .

(٧) ينظر: معاني القرآن للنحاس: ٤٦/٣، مستدركات أعيان الشيعة، لحسن محسن الأمين (ت ١٣٩٩هـ)، دار التعارف للمطبوعات، (ب –ط)، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩ م: ٦/ ٨٢، الامثال للفياض: ص ٣٦٨، الطفل بين الوراثة والتربية، لمحمد تقي فلسفي (ت١٤١٨هـ)، تحقيق: فاضل الحسيني الميلاني، دار سبط النبي، ط٢، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م: ١١٤/٢، مفاهيم القرآن: ٢/ ٤٢١، الائمة الاثنى عشر، لجعفر محمد السبحاني، (ب –ط –ت): ص٣، رسالة في التحسين والتقبيح، لجعفر محمد السبحاني، أعتماد، قم، ط١٤٢٠،١هـ، ص١٥٤.

شخصيته، وبحسبها يكون سلوكه".[١]

ويرى ابن قيم الجوزية فيها: ان التعليم لن يثمر ما لم يكن الطبع والاستعداد موجودين في الطفل، إذ قال: "والله ما ينفع تأديب الولد إذا لم يسبق أختيار الخالق لذلك الولد"،[٢] وأنَّ للوراثة دوراً كبيراً في إعطاء القابليات الطَّبيعية التي قد تهيّئ الانسان، سلباً أو إيجاباً، ولكنها لا تشلّ حركته، ولا تلغي أثر (التعليم والبيئة) اللذان يُفترض بهما ان يستوعبا تلك القابليات.[٣] أما أثر التعليم فأنه واضح جلي في التأثير بشخصية الفرد أو نموه، بينها السبحاني بالقول: "من هذا الطريق تزرع في كيانه الشخصي الأفكار الخاصة من توحيد أو إلحاد، وثورة أو خمود، وقناعة أو حرص، إلى غير ذلك من الروحيات التي لها اقتضاء خاص وبحسبها يميل الإنسان إلى سلوك معين"،[٤] "وانه يكسب من خلاله العادات المختلفة، سواء المعرفية أو الانفعالية أو الحركية التي تساعده على إحداث التغيرات اللازمة في بيئته، وتساعده على ايجاد التوازن بينه وبين بيئته".[٥] وللبيئة تأثير بينه السبحاني بالقول: "الإنسان وليد بيئته في سلوكه وخلقه، ولأجل ذلك نجد اختلاف السلوك في المجتمعات حسب اختلاف البيئات"،[٦] وضرب مثلاً لذلك فقال: "أن كل خطيب يتأثر بالظروف التي يعيش فيها، وبسهولة يمكن فرز كلام المدني عن القروي، وكلامهما عن كلام البدوي، وما ذاك إلا لأن البيئة تعد أحد الأضلاع الثلاثة التي تكون شخصية الإنسان"،[٧] إذ ان "البيئة الطبيعية الملائمة لتربية الانسان فيما يتنفسه أو ما ينظر اليه أو ما يسمعه أو ما الى ذلك ينفتح به على عالم من الفرح والطمأنينة والاسترخاء، والبيئة غير الملائمة تثير في داخله الضيق والتشنج والحزن"،[٨] وأضاف السبحاني قائلاً: "من هذا الجانب أصبح بإمكان المحقق الخبير بالتاريخ أن يميز الشعر الجاهلي عن الشعر في العصر

---

(١) الالهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، لجعفر محمد السبحاني، تحقيق: حسن محمد مكي العاملي، مطبعة القدس، قم، ط٤، ١٤١٣هـ، ٦٦١/١ و ينظر: عصمة الانبياء في القرآن الكريم، لجعفر محمد السبحاني، مؤسسة الأمام الصادق (عليه السلام)، إعتماد، قم، ط٢، ١٤٢٠هـ: ص ٣٢.

(٢) صيد الخاطر، لشمس الدين محمد المعروف بـ (أبن قيم الجوزية) (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: ناجي الطنطاوي، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٣٨٤هـ، ص٢٥٢ .

(٣) ينظر: دنيا الطفل، لمحمد حسين فضل الله (ت ٢٠١٠ م)، دار الملاك، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م، ص٥٥ –٥٦، الوراثة والإنسان، لمحمد علي الربيعي، عالم المعرفة، الكويت، ط١، ١٩٧٨م: ص١٣٦.

(٤) الالهيات للسبحاني، ١/ ٦٦١.

(٥) السلوك الانساني، لأنتصار يونس، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٩٣ م، ص ٧٥.

(٦) الالهيات للسبحاني، ١/ ٦٦١.

(٧) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٨، الأمثال للسبحاني: ص٣٨.

(٨) دنيا الطفل لفضل الله، ص ٦٣.

الإسلامي، والشعر في العصر الأموي عن الشعر في العصر العباسي، وما هذا إلا نتيجة انعكاسات البيئة على التراث الأدبي".[١]

تستنتج الباحثة: أن تأثير تلك العوامل الثلاثة (الوراثة، التعليم، البيئة) واضح كوضوح الشمس في النهار لا جدل فيها وان اختلف في نسب التأثير وكيفيته، إذ ان نفسية كل إنسان وروحانيته تتكون في ظل هذه العوامل الثلاثة، فتنعكس على سلوكه، وبدراسة تلك العوامل لأي عصر نستطيع تميز انتاجات ذلك العصر ونسبتها اليه، لتأثيرها فيهم عن طريق (الوراثة) الفكرية و (الايحاء) الثقافي والميل النفسي للبيئة التي نشأ فيها.

ويطرح السبحاني هنا سؤالاً هو: هل الأمثال القرآنية تتأثر في تلك البيئة ؟ فيجيب قائلاً في الوقت نفسه: "القرآن بما أنه كلامه سبحانه قد تنزه عن هذه الوصمة، لأن الله سبحانه خالق كل شيء فهو منزه من أن يتأثر بشيء سواه، اذ ان الأمثال القرآنية نزلت لهداية الناس ولذلك روعي فيها الغايات التي نزلت لأجلها"،[٢] إذ "يستعرض القرآن الكريم تعاليمه بأبسط المستويات التي تناسب العامة ويتكلم في حدود فهمهم ومداركهم الساذجة. ان هذه الطريقة الحكيمة نتيجتها أن تبث المعارف العالية بلغة ساذجة يفهمها عامة الناس، وتبقى الحقائق المعنوية وراء ستار الظواهر فتتجلى حسب الأفهام ويدرك منها كل شخص بقدر عقله ومداركه"،[٣] وأن "تصاريف الرب الحكيم منزهة عن العبث، لذا كان اللجوء الى ضرب الامثال في القرآن لا يخلو عن غرض يدعو اليه"،[٤] وأنها أكثر من غيرها ملائمة لأمزجة العرب إن صح التعبير وظروفهم الاجتماعية وأساليبهم في العيش.[٥] إذ ان ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، يختلف عما ندبهم إليه في آخر الإسلام، وما افترض الله في أول الإسلام، وما زاد عليه من الفرائض في آخره فلكل منهما غايات وأهداف مختلفة، فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكي المدني، لأن المنسوخ هو المتقدم في النزول قبل الناسخ له.[٦] "الطابع المكي يعلو هامة الأمثال المكية، والطابع المدني يعلو هامة الأمثال المدنية. والأمثال المكية كانت دائرتها مدار معالجة الأدواء التي ابتلي بها المجتمع المكي لا سيما وانّ النبي (ﷺ) كان يجادل

---

[١] مفاهيم القرآن، ٣٨/٩، الأمثال للسبحاني، ص٣٨.

[٢] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٨ و١/ ٢٧٤، الأمثال للسبحاني، ص٣٨ وينظر: الإلهيات للسبحاني: ٣/ ٣٦٧-٣٧٥، جواهر الحسان للثعلبي: ١٩١/١، علوم القرآن، لمحمد باقر الحكيم (ت ١٤٢٥هـ)، مؤسسة الهادي، قم ط٣، ١٤١٧هـ:ص٤٦.

[٣] القرآن في الإسلام، لمحمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، تحقيق: أحمد الحسيني، (ب- ط-ت)، ص٣١.

[٤] أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، لعبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٢ م، ص ٦٠.

[٥] ينظر: الأمثال للفياض: ص ٣٧١.

[٦] ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي:٢١/١.

المشركين ويسفّه أحلامهم ويدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، وترك عبادة غيره، والإيمان باليوم الآخر"،[١] وروعي فيها الصعيد البدائي فيما عليه الناس، والاصل التشريعي فيما تقتضيه الرسالة السماوية من ضرورة الاهتداء، ومعركة التغيير الجذري في العقائد والعادات،[٢] "ففي خِضمّ هذا الصراع يأتي القرآن بأروع مثل ويشبّه آلهتهم المزعومة التي تمسّكوا بأهدابها ببيت العنكبوت الذي لا يظهر أدنى مقاومة أمام النسيم الهادئ، وقطرات المطر، وهبوب الرياح".[٣] إذ يقول الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.[٤] "إذ شبّه آلهتهم التي اتخذوها حصوناً منيعة لأنفسهم **بخيوط العنكبوت**، وبذلك صغّرهم وذلّلهم"،[٥] هذا ما قاله السبحاني. **وترى الباحثة** خلاف ما ذهب إليه السبحاني إذ ان الله تعالى لم يشبه الآلهة التي اتخذوها بخيوط العنكبوت وإنما شبهها ببيت العنكبوت حصراً والدليل على ذلك هو ما أورده الرازي [٦] في تفسيره (مفاتيح الغيب) لهذه الآية نوردها كالآتي:

"مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتاً ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين **أحدهما:** أن نسجه فيه فائدة له، لولاه لما حصل وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه، الوجه **الثاني:** هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتاً أمر باطل

---

(١) مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٨ – ٣٩، الأمثال للسبحاني، ص ٣٨ – ٣٩ وينظر:علوم القرآن للحكيم: ص٩٤ –٩٦، المواجهة مع رسول الله (القصة الكاملة)، لأحمد حسين يعقوب، الغدير للطابعة والنشر، ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦ م: ص٣٠.

(٢) ينظر: آيات الامثال في سورتي البقرة وآل عمران، لبشير حميد، جامعة بغداد / كلية العلوم الاسلامية، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣ م: ص١٧.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٩، الأمثال للسبحاني، ص٣٩ وينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: خليل الميس، دار الفكر للطباعة، بيروت، (ب –ط)، ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م: ٢٠/ ١٨٦، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٣/ ٣٤٨، مفاتيح الغيب للرازي: ٦٨/٢٥.

(٤) سورة العنكبوت، الآية / ٤١.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٩، الأمثال للسبحاني، ص٣٩.

(٦) الرازي هو: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القرشي العلامة الكبير، ذو الفنون، الأصولي، المفسر، كبير الأذكياء والحكماء والمصنفين، ولد سنة (٥٤٤هـ)، فتعمق في المنطق والفلسفة، وبرز في علم الكلام، اهم مؤلفاته: (التفسير الكبير) او ما يعرف (بمفاتيح الغيب) ومات بهراة، يوم عيد الفطر، سنة (٦٠٦هـ)،. ينظر: سير أعلام النبلاء، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف ومحيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣ هـ:٢١/٥٠١.

فكذلك هم لو اتخذوا الأوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت إكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة، لكنهم اتخذوها أولياء".[١]

وترى الباحثة: إن لتلك الخيوط وذلك النسيج من الخواص العجيبة والفوائد الجمة التي يستحيل تمثيلها وضربها مثلا للآلهة المزعومة التي لا فائدة منها تذكر؛ لأنها: "أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات، وأقوى من بيت الحرير وأكثر مرونة"،[٢] "إذا وضع على الجراحات الطرية في ظاهر البدن حفظها بلا ورم، ويقطع سيلان الدم إذا وضع عليه، وإذا دلكت الفضة المتغيرة بنسجه جلاها. والعنكبوت الذي ينسج على الكنيف، إذا علق على المحموم يبرأ بإذن اللَّه تعالى. وإن لف في خرقة وعلق على صاحب حمى الربع نفعه وأذهبها، وكذلك إذا سحق العنكبوت وهو حي، ومرخ به صاحب الحميات أذهبها".[٣]

تستنتج الباحثة: إن ما يقصد به في الآية الكريمة من وهن وضعف لبيت العنكبوت لا لخيوط العنكبوت، بل يقصد به ضعف في بيت العنكبوت ضعف ووهن معنوي حيث تطلق العرب كلمة بيت أيضًا على الزوجة والأولاد، وبذلك يثبت أن بيت العنكبوت من الناحية المعنوية هو أوهن بيت على الإطلاق فهو بيت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت سعيد، إذ تقوم الأُنثى بقتل الذكر وأكله بعد الانتهاء من عملية التلقيح، وفي بعض أنواع العناكب تترك الأنثى الذكر ليعيش في العش بعد عملية التلقيح ليقوم الأبناء بقتله وأكله بعد أن يخرجوا من البيض، وفي بعض الأنواع الأخرى تقوم الأنثى بتغذية صغارها حتى إذا اشتد عودهم قتلوا أمهم وأكلوها، وفي حالات أُخرى تلتهم الأنثى صغارها دون أدنى رحمة، وعندما يفقس البيض تخرج فتجد نفسها في مكان شديد الازدحام بالأفراد داخل كيس البيض، فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام أو من أجل المكان أو من أجلهما معا فيقتل الأخ أخاه وأخته، وتقتل الأخت أختها وأخاها حتى تنتهي المعركة ببقاء عدد قليل من العنيكبات التي تنسلخ من جلدها، وتمزق جدار كيس البيض لتخرج الواحدة تلو الأخرى.[٤]

---

[١] مفاتيح الغيب للرازي، ٢٥/ ٦٨، القرآن وإعجازه العلمي، لمحمد اسماعيل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، (ب-ط -ت)، ص١٥٨.

[٢] القرآن وقضايا الأنسان، لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ (ت ١٩٩٨ م)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩ م، ص ٣٦١.

[٣] حياة الحيوان الكبرى، لكمال الدين الدميري (ت ٨٠٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ٢/ ٢٢٨ وينظر: الموقع الالكتروني: ابحاث علمية للكاتبين غودرون هايزي وميشائيل إنغل، تاريخ النشر، ١٧/ ١٢/ ٢٠١٢ م.

[٤] ينظر: الاعجاز العلمي في بيت العنكبوت، من الموقع الالكتروني: https://ar.wikipedia.org/wiki .

وشبّه سبحانه في آية أخرى آلهتهم بالذباب، إذ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾،[١] فقد كانت قريش تعبد ٣٦٠ إلهاً يطلونها بالزعفران فيجفّ، فيأتى الذباب فيختلسه فلا يقدرون (أي الاصنام) الدفاع عن أنفسهم، ففي هذا الصدد، قال سبحانه: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ أي الذباب والمدعوّ (الاصنام).[٢] فأي مثل أقرع من تشبيه آلهتهم بهذه الحشرة الحقيرة، حقارتها لا من جانب خلق الله تعالى تنزه سبحانه الذي اعجز العلماء لصنع جزء صغير مماثل منها، لكن من جانب مكان تواجدها للحصول على غذائها وتكاثرها: فهي حشرة مقرفة ومقززة اذ تبقى الذبابة موجودة في الاغلب في الحاويات، والحمامات، والمزابل، والمقابر، واماكن وجود الجثث لتتغذى عليها إذ تأتي أنثى الذباب فتبيض فيما لا يقل عن مائة بيضة ترمي بها عند روث البهائم والقاذورات، وفي غضون يوم واحد فقط يفقس ذلك البيض ناتجا عن يرقات تتغذي على القاذورات، وفي أقل من أسبوعين يكتمل نموها منتجا الشكل المعروف للذباب، تحمل في أجنحتها الملايين من الجراثيم، وتنقل الكثير من الامراض، ووجودها في مكان يدل على قذارة ذلك المكان وانه يحتاج الى التنظيف.[٣] لذلك "هو من ابلغ ما انزل الله تعالى في تجهيل قريش".[٤] لقد مضى على الناس منذ ضرب لهم كتاب الإسلام هذا المثل أربعة عشر قرناً، وما يزال المثل القرآني يتحدَّى كل جبروت الغزاة وعبقرية العلماء، وما يزال على الذين غرّهم الغرور بما حقّق إنسان العصر الحديث من معجزات العلم، أن ينسخوا ذلك، بأن يجتمعوا فيخلقوا ذبابا، أو يستنقذوا شيئا سلبتهم إياه هذه الحشرة الضئيلة التي تقتلها ذرة من هواء مشبع بمبيد الحشرات، وتستطيع مع ذلك أن

---

(١) سورة الحج، الآية /٧٣.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي (٥٣٧هـ)، تحقيق: مروان محمد الشعار، دار النفائس، بيروت،(ب–ط)، ٢٠٠٥ م: ٣/ ١١٤/٣، الكشاف للزمخشري: ٣/ شرح ص٢٣، البحر المحيط للآندلسي: ٣٦٠/٦، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤١٧/٤، روح المعاني للآلوسي: ٢٠٢/١٧، مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٩، الأمثال للسبحاني: ص ٣٩.

(٣) ينظر: الإعجاز القرآني في الذباب، لمحمد الحكمي، نقلاً عن موقع الالكتروني: http://weqa.hawaaworld.com/modules.php?name=News&file=article&sid=

(٤) مدارك التنزيل للنسفي، ١١٣/٣، الكشاف للزمخشري، ٣/ شرح ص٢٣، حياة الحيوان الكبرى للدميري، ١ /٤٩٣ وينظر: الامثال في كتاب حياة الحيوان الكبرى، لصلاح حسون جبار، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العددان (٣–٤)، المجلد (٦)، ٢٠٠٧ م، ص ١٣٥.

تسلب مخترع المبيد حياته، بلمسة هينة خاطفة تحمل إليه جرثومة داء مميت.[١] "هذا بعض ما يمكن أن يقال حول الأمثال التي نزلت في مكة. وأما الأمثال التي نزلت في المدينة، نجد فيها الطابع المدني لأجل أنها بصدد علاج الأدواء التي ابتلي بها المجتمع يوم ذاك وهي الأدواء الخلقية مكان الشرك والوثنية، أو مكان إنكار الحياة الأخروية، إذ ركز الوحي على معالجة هذا النوع من الأدواء ببعض التمثيلات، فضلاً عن آيات كثيرة التي تطرقت إلى المنافقين وبينت خطورة موقفهم على الإسلام والمسلمين"،[٢] ومن ظاهرهم من اليهود وشراذم المشركين حينا آخر إذ جاءت في الكتاب المجيد على تعدد صورها وتراكم أساليبها وزخم مفاهيمها المتنوعة جاءت مؤمنة بالمرحلة الزمنية والقيم المكانية بغية تحديد المسؤولية والاعلان عنها في مجابهة الظروف المعادية للدين الجديد،[٣] **تذكر الباحثة** منها ما ياتي:

-قال تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾،[٤] ذكر أغلب المفسرين ومنهم السبحاني الى أنه: كان النبي(ﷺ) في مهجره مبتليا بالمنافقين الذين كانوا يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام بغية الإطاحة بالحكومة الإسلامية الفتية، فتارة يضرب الله سبحانه لهم **مثلا بالنار** وأخرى **بالمطر**.[٥]

-وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.[٦]

قال السبحاني في سبب التشبيه في هذه الآية أنه: "كان المجتمع المدني يضم في طياته طوائف ثلاث من اليهود وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وقد جبلوا على المكر

---

(١) ينظر: القرآن وقضايا الانسان بنت الشاطئ: ص٣٩٢، الصورة الفنية للصغير، ص ٩٩، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٩، الأمثال للسبحاني، ص ٣٩.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٠، الأمثال للسبحاني، ص ٤٠ وينظر: القرآن وأعجازه العلمي لمحمد إسماعيل: ص٤١.

(٣) ينظر: آيات الامثال في سورتي البقرة وآل عمران لبشير حميد: ص١٧.

(٤) سورة البقرة، الآيات / ١٧، ١٨، ١٩.

(٥) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٠٢/١، زبدة التفاسير لفتح الله:٦٩/١، تفسير الأصفى، لمحمد محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ ه)، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط١، ١٤١٨ ه، ١٧/١، آلآء الرحمن في تفسير القرآن، لمحمد جواد البلاغي (ت ١٣٥٢ ه)، مطبعة العرفان، صيداء، (ب- ط)، ١٣٥٢ ه - ١٩٣٣م: ١/ ٧٢ ، مفاهيم القرآن،٤٠/٩، الأمثال للسبحاني، ص٤٠.

(٦) سورة الجمعة، الآية /٥.

والحيلة والغدر، وكانوا يقرؤون سمات النبي (ﷺ) في توراتهم، ويمرون عليها مرار الأمي الذي لا يجيد القراءة والكتابة، وهذه السمة أدت إلى أن يشبههم سبحانه بالحمار الذي يحمل أسفارا قيمة دون أن يستفيدوا منها شيئا".[١] فخص السبب في أن اليهود لم يؤمنوا بمحمد (ﷺ) مع وجود سماته والبشارة به، وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين[٢]، وذهب أغلب المفسرين الى سبب التشبيه عامة: "هو ان اليهود كلفوا القيام بالتوراة والعمل بما فيها ثم لم يعملوا بما فيها ولم يؤدوا حقها فشبههم الله تعالى بالحمار الذي يحمل أسفارا فيها علم، فهو لا يعقلها ولا ينتفع بها".[٣]

تخلص الباحثة بعد الاطلاع على المصادر المتوافرة بين يديها: إن الله سبحانه وتعالى في هذا المثل وإن كان قد ضربه لليهود الذين ضيعوا كتاب الله (التوراة) ولم يعملوا بموجبها، ولم يؤدوا حقها، فشبههم بالحمار لا يعقل ما يحمل، إذ لم ينتفعوا بما في التوراة من نعوت للرسول (ﷺ)، والبشارة بمقدمه، والدخول في دينه ؛ فهو متناول من حيث المعنى للطوائف الآخرى إذ انه يعم اليهود والنصارى، قال الطبري في هذه الآية: "مثل الذين أوتوا التوراة من اليهود والنصارى، فحملوا العمل بها ثم لم يحملوها يقول: ثم لم يعملوا بما فيها".[٤] وقال آخرون انه يعم المسلمين ومن يفهم معاني القرآن ولم يعمل به، وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه.[٥] وهذا الراي هو الارجح لي إذ ان هذا المثل فيه تعريض لما سيؤول اليه المسلمون من أمة محمد (ﷺ) في آخر الزمان من ترك العمل بالقرآن الكريم.

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤١ و ٩/ ٢٦٧، الأمثال للسبحاني، ص٤١ و ص٢٦٧ وينظر: البرهان للزركشي: ٤٩٣/١، روح المعاني للآلوسي: ٩٥/٢٨، تفسير الجلالين، لجلال الدين محمد السيوطي (ت ٨٦٤هـ)، تحقيق: مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، (ب –ط – ت):ص ٧٤١.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري، ٢٨ / ١٢٤، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير الواحدي)، لعلي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ٢ /١٠٩٦، الكشاف للزمخشري: ٤/شرح ص١٠٣،، مفاتيح الغيب للرازي: ٣٠/ ٥، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٩٤/١٨ .

(٣) معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٠/٤ وينظر: مدارك التنزيل للنسفي:٢٤٥/٤، زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن المعروف ب(ابن الجوزي) (ت ٥٩٧ ﻫ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن، دار الفكر للطباعة، ط١، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧ م: ٢١/٨، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥/ ٣٣٨، البرهان في تفسير القرآن، لهاشم البحراني (ت ١١٠٧هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الاسلامية، مؤسسة البعثة، قم، (ب –ط – ت): ٥/ ٣٧٦، تفسير نور الثقلين، للحويزي (ت ١١١٢هـ)، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، مؤسسة إسماعيليان، قم، ط٤، ١٤١٢هـ: ٥/ ٣٢٤، الميزان للطباطبائي: ٢٦٦/١٩،

(٤) جامع البيان للطبري، ٢٨/ ١٢٤.

(٥) ينظر: الامثال لابن قيم: ص٢٦، جواهر الحسان للثعالبي: ٨٩/٥ ، مفاهيم القرآن: ٩/ ٢٦٨، الأمثـــال للسبحاني: ص ٢٦٨.

أضاف السبحاني إلى ذاك التفسير عبارة تدل على ما أراد إثباته إذ قال: "وأما المسلمون الذين عاصروا النبي (ﷺ) فكانوا بحاجة إلى هداية إلهية تصلح أخلاقهم فأنـــزل الله تعـــالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾،[١] إذ كان البعض منهم ينفقون أموالهم رئاء دون ابتغاء مرضاة الله، أو ينفقونها بالمن والأذى، فنزل الوحي الإلهي بمثل خاص يبين موقف المنفق في سبيل الله، والمنفق بالمن والأذى أو رئاء الناس، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ﴾.[٢] وهاتان الآيتان من المتفق ايضا على تفسيرها والاختلاف في التعبير لايغير معانيها الواضحة".[٣]

المطلب الرابع: استنكار الامثال القرآنية

إن من أساليب الاستهزاء وتكذيب الرسول (ﷺ) من معارضي الرسالة هو استنكار واستغراب الأمثال القرآنية التي ضربها الله تعالى للمخاطبين، وان إنكارهم واستغرابهم للأمثال ترصدا وتحينا لا واقعا وموضوعا، فهم يتصنعون الاستنكار ويظهرون الاستغراب، والدليل هو أن: ضرب الأمثال كان من الأمور المستحسنة في العقول ويدل عليه وجوه: **أحدها:** إطباق العرب والعجم على ذلك أما العرب فذلك مشهور عندهم وقد تمثلوا بأصغر الأشياء، فقالوا في التمثيل بالذرة: أجمع من ذرة، وأضبط من ذرة، وفي التمثيل بالذباب: أجرأ من الذباب، وفي البعوضة. أضعف من بعوضة. وأما العجم فيدل عليه "كتاب كليلة ودمنة"[٤] وأمثاله، وفي

---

(١) سورة البقرة، الآية /٢٦١.

(٢) سورة البقرة، الآية / ٢٦٤.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٠-٤١، الأمثال للسبحاني، ص٤٠ -٤١ وينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ٢٥٧/٢، الكشاف للزمخشري: ٣٩٣/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٧/ ٤٦ .

(٤) كتاب "كليلة ودمنة": هو كتاب يتضمّن مجموعة من القصص، وقد تمت ترجمته ونقله إلى اللغة العربية في العصر العباسي وتحديداً في القرن الثاني الهجري الموافق للقرن الثامن الميلادي على يد (عبد الله بن المقفع) متصرفاً فيه بأسلوبه عن الكتاب الأصلي، أجمع العديد من الباحثين على أن الكتاب يعود لأصول هندية، وتمت كتابته باللغة السنسكريتية في القرن الرابع الميلادي، ومن ثم تمت ترجمته إلى اللغة الفهلوية في أوائل القرن السادس الميلادي بأمر من كسرى الأول. ينظر: كليلة ودمنة، لبيدبا الهندي، المكتبة الثقافية، بيروت، مقدمة الكتاب: ص٥، مفاهيم القرآن: ١٩/٩، والأمثال للسبحاني: ص١٩.

بعضها: قالت البعوضة، وقد وقعت على نخلة عالية وأرادت أن تطير عنها؛ يا هذه استمسكي فإني أريد أن أطير، فقالت النخلة: والله ما شعرت بوقوعك فكيف أشعر بطيرانك،[١] **وثانيها:** أنه ضرب الأمثال في إنجيل عيسى (عليه السلام) بالأشياء المستحقرة كالزوان والنخالة وحبة الخردل والحصاة والأرضة والدود والزنابير والتمثيل بهذه الأشياء وبأحقر منها مما لا تغبى استقامته وصحته على من به أدنى مسكة.[٢] فلماذا ذاك الاستنكار والاستغراب منها؟ الا لسبب أفصح عنه السبحاني بقوله: "أن المثل كان يكشف عن نواياهم ويبين واقع عقيدتهم، ويسفه أحلامهم، فيبعث فيهم القلق والاضطراب ذلك عندما يجمع سبحانه في أمثاله تارة بين الذباب والعنكبوت والبعوضة وأخرى بين الكلب والحمار: كقوله سبحانه: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.[٣] وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾،[٤] إذ نقل سبحانه استنكارهم، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٥]"،[٦] "والتمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني، وإدناء المتوهم من الشاهد، فإن كان المتمثل له عظيما كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك".[٧] والله رب الصغير والكبير وخالق البعوضة والفيل، والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل، إنها معجزة الحياة، معجزة السر المغلق الذي لا يعلمه إلا الله على أن العبرة في المثل ليست في الحجم، إنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير، وليس في ضرب الأمثال ما يعاب، وما من شأنه الاستحياء من ذكره. والله جلت حكمته يريد بها اختبار القلوب وامتحان النفوس".[٨]

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٣٣/٢، معجم الأدباء، لشهاب الدين ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٤٠٠هـ: ٦٥/١٧، البداية والنهاية، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨ م: ٨٤/١٣.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٢٥٦/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٢/ ١٣٣.

(٣) سورة الأعراف، من الآية / ١٧٦.

(٤) سورة الجمعة، من الآية / ٥.

(٥) سورة البقرة، الآية / ٢٦.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٣، الأمثال للسبحاني، ص ٤٣.

(٧) الكشاف للزمخشري، ٢٤٩/١، ينظر: البرهان للزركشي: ١/ ٤٨٨، الاتقان للسيوطي: ٣٤٤/٢، الأمثل للشيرازي: ١٣٤/١، مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٣، الأمثال للسبحاني، ص ٤٣.

(٨) في ظلال القرآن، لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت ١٣٨٥هـ)، دار الشروق، بيروت، ط١٧، ١٤١٢هـ، ٥٠/١.

وأضاف السبحاني قائلاً: "وربما سرت تلك الشبهة إلى عصرنا الحاضر، فقد استغرب بعضهم من ضرب المثل بالحشرات والأمور الحقيرة الضئيلة، ولكنه غفل عن أن العبرة في ضرب الأمثال ليس بأدواتها وآلاتها، وإنما بمكنوناتها وغاياتها، وما يدرينا بسر الإعجاز في التركيب الجثماني للبعوضة، مثلا، وما فيه من إبداع وتحد وإعداد، ولعل فيه من الإنجاز الخلقي ما لا نشاهده بأكثر الأجسام ضخامة وكبرا، على أن المبدع لها جميعا هو الله وكفى"،[١] "وأنهم لو أنصفوا وأمعنوا النظر في هذا الجسم الصغير، لرأوا فيه من عجائب الخلقة وعظيم الصنع والدقة ما يحير العقول والألباب".[٢]

وتخلص الباحثة: الى أن ما ضُرب من الأمثال في السور إنما هو خبرٌ منه جلّ ذكره؛ إذ أنه لا يستحي، لا يستنكف، لا يخشى أن يضرب في الحقّ من الأمثال صغيرِها وكبيرِها، ابتلاءً بذلك عبادَه واختبارًا منه لهم، ليميز به أهل الإيمان والتصديق به من أهل الضلال والكفر به، إضلالا منه به لقوم، وهدايةً منه به لآخرين، ولا يستصغر شيئًا يَضْرب به مثلا ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، إذ يقول الأمام جعفر الصادق (عليه السلام): ((إنما ضرب الله المثل بالبعوضة لأنها على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق الله في الفيل مع كبره وزيادة عضوين آخرين، فأراد الله أن ينبه بذلك المؤمنين على لطيف خلقه وعجيب صنعه)).[٣] والقرآن لم يستعمل كل هذه الاجناس المتعارفة لديهم وإنما أقتصر على بعض منها بما تمليه ضرورة مخاطبتهم بأفضل ما يتمثلون به وأعرف ما يضربون به المثل راصدا المثل ليس الا. إذ أن: الأمثال صناعة، والمتمثل به كالصانع الذي يثمن صناعته.

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٣، الأمثال للسبحاني، ص ٤٣.

(٢) الأمثل للشيرازي،١٣٨/١ وينظر: أمثال القرآن للشيرازي: ص ١٩.

(٣) بحار الانوار للمجلسي، ٣١٠/٦١، كتاب (في الاحتجاجات...)، باب (الذباب والبق والبرغوث)، مستدرك سفينة البحار، لعلي النمازي الشاهرودي (ت ١٤٠٥ ه)، تحقيق: حسن بن علي النمازي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، (ب-ط)، ١٤١٨ ه، ٣٧٧/١، باب (أخبار في خلقة البعوضة)، وهو حديث صحيح.

المبحث الأول
ضرب المثل بالكائن الحي أو بالأحياء

التمهيد:

إن الكائنات الحية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم على أنواع، منها عالم الملائكة، ومنها عالم الجان، ومنها ما يعيش في هذه الأرض، وهذا النوع الثالث منه ما يحيا بالماء كالحيوان والنبات والإنسان، ومنه ما يحيا بالنار.[١] آية عظمى من آيات الله سبحانه. وهنا نستذكر العبارة المعروفة المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي (عليه السلام) مخاطباً الإنسان بوصفه كائناً حياً إذ قال: ((أتحسب انك جرم صغير، وفيك انطوى العالم الأكبر))،[٢] فكل ما هو موجود في ذلك العالم الكبير يوجد منه أنموذج مصغر في داخل جسم الإنسان وروحه، وإن خصاله وصفاته مركبة من خصال الكائنات الحية وصفاتها. إن بناء خلية من خلاياه كبناء مدينة صناعية عظيمة مليئة بالأسرار. وإذا تجاوزنا الإنسان، فإن مئات الآلاف من أنواع الكائنات الحية، ابتداء من الحيوانات المجهرية وحتى الحيوانات العملاقة بخصائصها وبناء أجهزتها المختلفة تماما، والتي قد يصرف جمع من العلماء كل أعمارهم أحيانا لمطالعة حياة وسلوك نوع واحد منها، كل واحد من هذه المخلوقات آية بنفسه، ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم ﴾،[٣] ودليل على علم مبدئ الخلقة وحكمته وقدرته اللامتناهية.[٤] فضرب الله الأمثال بتلك الكائنات الحية التي هي آيات خاصة للمؤمنين وطلاب اليقين وأصحاب الفكر والعقل، ولأولئك الذين فتحوا أبواب قلوبهم لمعرفة الحقيقة، بكل وجودهم الظامئ للعلم واليقين ليرتووا من صافي نبعه وفيضه، ويفكرون فيه الساعات الطوال، ليجعلوا منه سلما للارتقاء إلى الله سبحانه، وسجلا لمعرفته جل وعلا.[٥]

---

(١) ينظر: التفسير الكاشف لمغنية، ٣٠٨/٣.

(٢) روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، لمحمد تقي المجلسي (ت ١٠٧٠ هـ)، تحقيق: حسين الموسوي الكرماني وعلي پناه الإشتهاردي، الناشر: بنياد فرهنك اسلامي، ط ١، (ب – ت)، ٨١/٢، باب (ركود الشمس.....)، الوافي، لمحمد محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ ه) ، تحقيق: ضياء الدين الأصفهاني، أفست نشاط، أصفهان، ط١، ١٤٠٩ه، ٣١٩/٢، باب (الإشارة والنص....).

(٣) سورة الأنعام، من الآية / ٣٨.

(٤) ينظر: روح المعاني للآلوسي: ١٤/١٨ و ١٠٤/٣٠، الأمثل للشيرازي، ١٨٦/١٦.

(٥) ينظر: الأمثل للشيرازي: ١٨٧/١٦.

المطلب الأول: المثل بالأنبياء وبأممهم وزوجاتهم

ذكر السبحاني الأمثال حسب ترتيب ورودها في السور القرآنية ونذكرها كالآتي:

التمثيل الأول: مثل خلق عيسى عند الله كمثل آدم

-قال تعالى:﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.(١)

ذهب السبحاني في تفسيره لهذه الآية الى ما ذهب اليه أغلب المفسرين(٢) إذ قال: "لما احتج النصارى أمام النبي (ﷺ)، بان المسيح هو الاله وانه يؤلف أحد أضلاع مثلث الألوهية (الرب والابن وروح القدس)، وأنه ابن الرب، لأنه ولد من مريم بلا أب، وافاه الوحي مجيبا على استدلالهم بأن كيفية خلق المسيح يضاهي كيفية خلق آدم، إذ إن آدم خلق من تراب بلا أب وأم، فإذا كان هذا أمرا ممكنا، فمثله المسيح حيث ولد من أم بلا أب فهو أهون بالإمكان".(٣) "إن شبه عيسى في خلق الله إياه من غير فحل كشبه آدم الذي خلقه من تراب، من غير فحل، ولا ذكر، ولا أنثى. فليس خلق عيسى من أمه من غير فحل، بأعجب من خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى".(٤) وأضاف السبحاني قائلاً: "إن المسيح مثل آدم في أحد الطرفين، ويكفي في المماثلة المشاركة في بعض الأوصاف، ففي الحقيقة هو من قبيل تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة الشبهة"،(٥) وهذا ما ذهب اليه النسفي وآخرون إذ قال: "أن شان عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم (عليه السلام) خلقه من تراب قدره جسدا من طين وهى جملة مفسرة لحالة شبه عيسى(عليه السلام) بآدم ولا موضع لها أي خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم فكذلك حال عيسى مع أن الوجود من غير أب و أم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان / ٥٩، ٦٠.

(٢) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٢٤٤/١، تفسير القرآن للسمعاني: ٣٢٦/١، التبيان للطوسي: ٤٨٢/٢، الكشف والبيان للثعلبي: ٨٤/٣ ، مجمع البيان للطبرسي: ٣١٠/٢، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٩٥/١ ،الأصفى للفيض الكاشاني: ١٥٣/١، معجم الأمثال لسميح عاطف: ص٤٤، أمثال القرآن لحنبكة: ص٢٦، عصمة الأنبياء للسبحاني: ص٢١٠، رسائل ومقالات، لجعفر محمد السبحاني، اعتماد، قم، ط١، ١٤١٩ هـ: ص٢٧٧.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٢٧ -١٢٨ و١٠/ ٢٢٤ الأمثال للسبحاني، ص ١٢٧ – ١٢٨.

(٤) جامع البيان للطبري، ٣/ ٤٠١.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٢٨، الأمثال للسبحاني، ص١٢٨.

أغرب مما استعر به".[١] "إن هذه الآية دليل على أن الشيء يشبه بالشيء وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا في وصف واحد وأنه خلق آدم من تراب ولم يخلق عيسى من تراب وكان بينهما فرق من هذا الوجه ولكن الشبه بينهما أنه خلقهما من غير أب ولأن أصل خلقهما جميعا من تراب لأن آدم لم يخلق من نفس التراب ولكنه جعل التراب طينا ثم جعله صلصالا ثم خلقه منه فكذلك عيسى (عليه السلام) حوله من حال إلى حال ثم خلقه بشرا من غير أب".[٢] وقال السبحاني: " إنه قد ثبت عـــدم افتقاره "،[٣] "ليعبر عن حقيقة فأنه يطلق على ذات الشي، فأدم (عليه السلام) هو حقيقة ثابتة في حياة البشر جميعاً، وكذلك عيسى (عليه السلام) حقيقة لاجدال فيها، وقد كان خلقهما خروجا على النظام المألوف لدى الناس، وخروجا على السنن التي خلق الله (عز وجل) بموجبها السموات والأرض، وجعلها سنناً ثابتة، لايطرأ عليها اي تحويل أو تبديل، فيكون قد قرب الى أذهاننا فكرة الخالق، وقدرته على الخلق من صميم واقع حياتنا البشرية"،[٤] وإنه من مسائل العقيدة إذ كان لابد لمن يهمه أن يبطل هذا الأعتقاد، أن يبرهن على أن طريقة خلق المسيح (عليه السلام) ليست مدعاة لاتخاذه إلها أو أبنا للإله.[٥] وان التمثيل في الآية دليل على ابطال إلوهية المسيح بوجوه مختلفة، منها هو تشبيه ولادة المسيح بآدم (عليه السلام)،[٦] إذ كانت شبهة النصارى في عيسى (عليه السلام) تستند الى أنه جاء من أم بلا أب، فإن آدم أحرى بذلك منه، إذ خلقه الله (عز وجل) من تراب مباشرة من غير أب ولا أم، وإذ يوافق النصارى على أن هذا في آدم باطل فحجتهم في عيسى أشد بطلانا ؛ إذ ان وجودها في عيسى أضعف من وجودها في آدم.[٧] "أن في الآية حجتين تفي كل واحدة منهما بنفي الإلوهية عن المسيح. **إحداهما:** إن عيسى مخلوق لله على ما يعلمه الله لا يضل في علمه خلقة بشر وإن فقد الأب ومن كان كذلك كان عبدا لا ربا. **وثانيـــــهما:** إن خلقته لا تزيد على خلقة آدم، فلو أن لا يقولوا بها في

---

(١) مدارك التنزيل للنسفي، ١٥٧/١، الكشاف للزمخشري: ١/ ٤٣٣، انوار التنزيل للبيضاوي: ٢٠/٢، تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، لمحمد بن محمد رضا المشهدي (ت ١١٢٥ هـ)، تحقيق: حسين درگاهي، وزارة الثقافة والإرشاد الاسلامي، طهران، ط١، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠ م: ٣/ ١١٥، معجم الأمثال لسميح عاطف: ص٤٤.

(٢) بحر العلوم للسمرقندي، ٢٤٤/١ وينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٣٢٤/٥، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي، ١٠٣/٤.

(٣) مفاهيم القرآن،١٢٩/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٢٩.

(٤) معجم الامثال لسميح عاطف، ص٤٤-٤٥.

(٥) الأمثال للفياض، ص١٢٥.

(٦) ينظر: مفاهيم القرآن: ١٢٩/٩، الأمثال للسبحاني: ص١٢٩.

(٧) ينظر: أمثال القرآن لحنبكة: ص٢٦، الصورة الفنية للصغير: ص٣٦.

عيسى (عليه السلام) أيضا لمكان المماثلة".[١]

بعد الاطلاع على تفاسير عدة **تبين للباحثة:** أن هذه الآية الكريمة فيها تعريض يلامس حقيقة ما كان عليه المشركون أو القائلون من أن لله ولداً، إذ أنها من الوضوح كانت محل إتفاق بين المفسرين في سبب النزول والمعنى العام، وهي مخاصمة وفد نجران من النصارى للنبي (ﷺ)، في أمر عيسى، انتهت الى ما انتهت عليه مع الأختلاف في وصف هذه الحادثة، إذ قال الواحدي وآخرون: "أن وفد نجران قالوا لرسول الله (ﷺ):مالك تشتم صاحبنا ؟ قال، وما أقول ؟ قالوا: تقول إنه عبد، قال: أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانا قط من غير أب، فإن كنت صادقا فأرنا مثله، فأنزل الله (عز وجل) هذه الآية".[٢] وأكد الرازي على اجماع المفسرين على سبب نزول هذه الآية إذ قال: "أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران على الرسول (ﷺ)، وكان من جملة شبههم أن قالوا: يا محمد، لما سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى، فقال: إن آدم ما كان له أب ولا أم ولم يلزم أن يكون ابناً لله تعالى، فكذا القول في عيسى (عليه السلام)، هذا حاصل الكلام."[٣]

التمثيل الثاني: تمثيل الإسراف ببسط اليد والتقتير بالغلول

-قال تعالى:﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.[٤]

---

(١) الميزان للطباطبائي، ٢١٢/٣، وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١١٥/١١، الأمثال في القرآن، لمحمود بن شريف، دار عكاظ، الرياض، ط٢، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م: ص٣٨، ميزان الحكمة، لمحمد الريشهري، دار الحديث للطباعة، ط١، ١٤١٦ هـ: ٣١٦٢/٤، الانحرافات الكبرى، لسعيد أيوب، دار الهادي للطباعة، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢م: ص٣٨٥، مفاهيم القرآن: ٩/ ١٢٩، الأمثال للسبحاني: ص١٢٩.

(٢) أسباب نزول الآيات، لعلي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ)، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، (ب- ط)، ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٨ م، ص٦٧، معالم التنزيل فى تفسير القرآن أو (تفسير البغوي)، للحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ)، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، ط٤، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م، ٣٠٩/١، العجاب في بيان الأسباب، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، تحقيق: عبد الحكيم محمد، دار ابن الجوزي، المملكة السعودية، ط١، ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧ م: ٦٧٩/٢.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ٧٩/٨ وينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ١١٤/١، التبيان للطوسي: ٤٨٢/٢، مجمع البيان للطبرسي: ٣١٠/٢، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، دار المعرفة، بيروت،(ب- ط- ت): ٣٨/٢.

(٤) سورة الإسراء، الآيتان / ٢٩، ٣٠.

أشار السبحاني الى المعنى العام للآية، بعد التعريف اللغوي لبعض مفرداتها[١] إذ قال: " تتضمن تمثيلاً لمنع الشحيح وإعطاء المسرف، والأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير، فشبه منع الشحيح بمن تكون يده مغلولة إلى عنقه لا يقدر على الإعطاء والبذل، فيكون تشبيهاً لغاية المبالغة في النهي عن الشح والإمساك، كما شبه إعطاء المسرف بجميع ما عنده بمن بسط يده حتى لا يستقر فيها شيء، وهذا كناية عن الإسراف، فيبقى الثالث وهو المفهوم من الآية وإن لم يكن منطوقا، وهو الاقتصاد في البذل والعطاء"،[٢] وهو رآي أغلب المفسرين[٣]: "لا تمسك يدك في النفقة من البخل بمنزلة المغلولة يده إلى عنقه ولا تبسطها كل البسط في الإسراف فتعطي جميع ما عندك فيجيء الآخرون ويسألونك فلا تجد ما تعطيهم"،[٤] "هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى للممتنع من الانفاق في الحقوق التي أوجبها في أموال ذوي الأموال، فجعله كالمشدودة يده إلى عنقه، الذي لا يقدر على الاخذ بها والإعطاء"،[٥] "إن لكل خلق طرفي إفراط وتفريط وهما مذمومان، فالبخل إفراط في الإمساك، والتبذير إفراط في الإنفاق وهما مذمومان، والخلق الفاضل هو العدل والوسط"،[٦] إذ إن العرب تصف البخيل بضيق اليد

---

(١) "الغل": "ما يقيد به، فيجعل الأعضاء وسطه، وجمعه أغلال، ومعنى قوله: (مغلولة إلى عنقك) أي مقيدة به. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٥٠٤/١١، مادة (غل). "الحسرة": الغم على ما فاته والندم عليه. ينظر: العين للفراهيدي: ١٣٣/٣، مادة (حسر)، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٨٩، الأمثال للسبحاني، ص ١٨٩.

(٢) مفاهيم القرآن،١٩٠/٩، الأمثال للسبحاني: ص٤٦١،١٩٠.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ٩٨/١٥ ،مدارك التنزيل للنسفي: ٥٢٨/٢، المنتخب من تفسير القرآن والنكت المستخرجة من كتاب التبيان، لابن إدريس الحلي (ت ٥٩٨ هـ)، تحقيق: مهدي الرجائي، مطبعة سيد الشهداء (عليه السلام)، ط١، ١٤٠٩ هـ: ٦٦/٢، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٣/ ٢٥٣، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن الجزي الغرناطي الكلبي (ت ٧٤١ هـ)، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، (ب –ط – ت): ١/ ٤٥٥، إرشاد العقل السليم لابي السعود: ١٦٨/٥، الأصفى للفيض الكاشاني: ٦٧٨/١، روح المعاني للآلوسي: ٦٥/١٥ ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، لمحمد الأمين بن محمد الشنقيطي(ت ١٣٩٣ ه) ، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة، بيروت ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م: ١١/١ ، الأمثل للشيرازي: ٤٦١/٨.

(٤) بحر العلوم للسمرقندي، ٣٠٩/٢ وينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ٩٦/٦، تفسير القرآن للسمعاني: ٢٣٦/٣، معالم التنزيل للبغوي: ١١٢/٣، زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي المعروف بـ (إبن الجوزي) (ت ٥٩٧ هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن، دار الفكر للطباعة، ط١، ١٤٠٧ هـ: ٢٢/٥.

(٥) جامع البيان للطبري، ٩٨/١٥ وينظر: أحكام القرآن، لأحمد بن على الرازى الجصاص (ت ٣٧٠ ه) ، تحقيق: عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية ،بيروت ، ط١، ١٤١٥ هـ: ٢٥٨/٣، معالم التنزيل للبغوي: ١١٢/٣.

(٦) شرح نهج البلاغة، لابن ميثم البحراني (ت ٦٧٩ هـ)، تحقيق: عدة من الأفاضل، چاپخانه دفتر تبليغات اسلامي، قم، ط١، ١٣٦٢ ش: ٥/ ٢٥٦ وينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي: ١١٠/١، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢٥٤/١.

فتقول: "فلان جعد اليدين"،[١] إذا كان بخيلا، ويقولون في ضده: "فلان رحب الذراع"،[٢] وقولهم" خير الأمور أوسطها"،[٣] وتمثيل ذلك باليد، وليس المراد بها اليد التي هي الجارحة على الحقيقة، وإنما الكلام الأول كناية عن التقتير، والكلام الآخر كناية عن التبذير. وكلاهما مذموم، حتى يقف كل منهما عند حده، ولا يجرى إلا إلى أمده،[٤] وهو في قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾.[٥]

أورد السبحاني سبب نزول الآية وهو ما أورده أغلب المفسرين[٦] إذ قال: "إن امرأة بعثت ابنها إلى رسول الله (ﷺ)، وقالت: قل له إن أمي تستكسيك درعا، فإن قال: حتى يأتينا شيء، فقل له: إنها تستكسيك قميصك! فأتاه فقال ما قالت له. فنزع قميصه فدفعه إليه، ويقال إنه (عليه السلام) بقي في البيت إذ لم يجد شيئا يلبسه ولم يمكنه الخروج إلى الصلاة فلامه الكفار، وقالوا: إن محمدا اشتغل بالنوم واللهو عن الصلاة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾[٧] : أي يوسع مرة ويضيق مرة، بحسب المصلحة مع سعة خزائنه".[٨] ثم أضاف قائلاً: "هذا الدستور الإله تمخض عن سنة إلهية في عالم الكون، فقد جرت سنته سبحانه على وجود التقارن بين أجزاء العالم وأن كل شئ يبذل ما يزيد على حاجته إلى من ينتفع به، فالشمس ترسل ٤٥٠ ألف مليون طن من جرمها بصورة أشعة حرارية إلى أطراف المنظومة الشمسية وتنال الأرض منها سهما محدودا فتتبدل حرارة تلك الأشعة إلى مواد غذائية

---

(١) مجمع الأمثال للميداني، ٢٨٩/١ وينظر: شرح أدب الكاتب، لموهوب بن أحمد الجواليقي (ت ٥٣٩ هـ)، مكتبة المقدسي، القاهرة، (ب –ط)، ١٣٥٠ هـ: ص٣٣٢.

(٢) أساس البلاغة، لمحمود بن عمرو الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، دار ومطابع الشعب، القاهرة، (ب – ط)، ١٩٦٠ م، ص٣٢٨، أحكام القرآن للجصاص، ٢٥٨/٣.

(٣) الأمثال الكامنة في القرآن الكريم لابن الفضل، ص٢٦، جمهرة الامثال للعسكري، ٤١٩/١، مجمع الامثال للميداني، ٢٥٤/١، الأمثال لابن قيم، ص٥٨.

(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن، لمحمد بن الحسين الشريف الرضي(ت ٤٠٦ هـ)، تحقيق: محمد عبد الغني، دار أحياء الكتب العالمية، القاهرة، ط١ ١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥م، ص٤٧ و٢٠٠ وينظر: مجاز القرآن، لمعمر بن المثنى التميمي (ت ٢١٠ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد سزگين، دار الفكر، مصر، ط٢، ١٣٩٠ هـ– ١٩٧٠ م: ١/ ٣٧٥، التبيان للطوسي: ٤٧٠/٦، مجمع البيان للطبرسي: ٢٤٤/٦.

(٥) سورة الفرقان، الآية / ٦٧.

(٦) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣٠٩/٢، الكشف والبيان للثعلبي: ٩٦/٦ ، اسباب النزول للواحدي: ص١٩٤، معالم التنزيل للبغوي: ١١٢/٣، الكشاف للزمخشري: ٢/ ٤٤٧، مجمع البيان للطبرسي: ٢٤٤/٦، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٢٥٣/٢، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢٩/٤.

(٧) سورة الأسراء، الآية /٣٠.

(٨) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٩٠، الأمثال للسبحاني، ص ١٩٠.

كامنة في النبات والحيوان وغيرهما، حتى أن الأشجار والأزهار ما كان لها أن تظهر إلى الوجود لولا تلك الأشعة"،[١] وأورد مثلاً آخر إذ قال: "إن النحل يمتص رحيق الأزهار فيستفيد منه بقدر حاجته ويبدل الباقي عسلا"،[٢] "كل ذلك يدل على أن التعاون بل بذل ما زاد عن الحاجة، سنة إلهية وعليها قامت الحياة الإنسانية، والإسلام حدد الإنفاق ونبذ الإفراط والتفريط، فمنع عن الشح، كما منع عن الإسراف في البذل"،[٣] إذ إن هذه السنة تجلت في غير واحد من شؤون حياة الإنسان، إذ ينقل سبحانه عن لقمان الحكيم أنه نصح ابنه إلى التوسط في الأفعال والأقوال، وأراد إرشاد إبنه إلى السداد في الأوصاف الإنسانية[٤] بقوله:﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾.[٥] فضلاً عن تجلي الاقتصاد في مجال العاطفة الإنسانية، فمن جانب روى أنس بن مالك قال: سمعت بإذني هاتين وإلا صمتا أن رسول الله (ﷺ) يقول في حق علي بن أبي طالب (عليه السلام): ((عنوان صحيفة المؤمن يوم القيامة حب علي بن أبي طالب (عليه السلام))).[٦] ومن جانب آخر يقول الإمام علي (عليه السلام) موضحاً حدود ذلك الحب: ((هلك فيَّ اثنان محب غال، ومبغض قال)).[٧] فالإمعان في مجموع ما ورد في الآيات

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٩١، الأمثال للسبحاني، ص ١٩١ وينظر: القرآن وأعجازه العلمي لمحمد اسماعيل: ص ١٥٢.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٩١، الأمثال للسبحاني، ص ١٩١ وينظر: الميزان للطباطبائي: ٥/٢٧٠.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٥٠/٢٥، البحر المحيط لابي حيان: ١٨٤/٧، تفسير مقتنيات الدرر، لعلي الحائري الطهراني (ت ١٣٥٣ هـ)، تحقيق: محـــمد وحيد الحائري، مؤسسة الكتاب الاســـــلامي، طهران، ط١، ٢٠١٢ م: ٨/ ٢٤٣، مفاهيم القرآن: ٩/ ١٩١، الأمثال للسبحاني، ص ١٩١.

(٥) سورة لقمان، الآية /١٩.

(٦) تاريخ بغداد، لأحمد بن عبدالمجيد المعروف بـ (الخطيب البغدادي) (ت ٤٦٣ هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م، ١٧٧/٥، باب (أحمد بن محمد....)، رقم الحديث (٢٦٢٩)، لسان الميزان، لشهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني المعروف بـ (أبن حجر) (ت ٨٥٢ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٢، ١٣٩٠ هـ – ١٩٧١ م، ٤٧١/٤، رقم الحديث (١٤٧١)، الجامع الصغير، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط١، ١٤٠١ هـ– ١٩٨١ م، ١٨٢/٢، رقم الحديث (٥٦٣٣)، بحار الأنوار للمجلسي، ٣٩/ ٢٢٩، باب (في الأعراف ومعناه وأصحابه)، رقم الحديث (٣)، فيض القدير للمناوي، ٤٨١/٤، رقم الحديث (٥٦٣٣)، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٩١، الأمثال للسبحاني، ص ١٩١.

(٧) نهج البلاغة، لعلي ابن أبي طالب (عليه السلام) (ت ٤٠ هـ)، تحقيق: محمد عبده، النهضة، قم، ط١، ١٤١٢ هـ– ١٣٧٠ ش، ٢٨/٤، باب (المختار من حكم أمير المؤمنين)، رقم الحكمة (١١٧)، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، لجار الله محمود بن عمر الزمخشرى(ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ– ١٩٩٢ م، ٣٧٩/١، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٩١ –١٩٢، الأمثال للسبحاني، ص ١٩١– ١٩٢.

والروايات يدل بوضوح على أن الاقتصاد في الحياة هو الأصل الأساس في الإسلام، ولعله بذلك سميت الأمة الإسلامية بالأمة الوسط [١]، قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾.[٢]

وترى الباحثة مما تقدم ذكره هو: إن التوسط والاعتدال، هي سياسة الإسلام المالية والاجتماعية والعاطفية والدينية وجميع جوانب الحياة، وهو المقياس في تقييم الفضائل الخلقية (فعلاً – قولاً)، وتحديد واقعها، فالخلق الرضيّ هو: ما كان وسطاً بين المغالاة والإهمال والإفراط والتفريط، اللذين يحجبان صاحبها عن المعارف الإلهية والنفحات القدسية إذ هـــــما "بمنزلة الغطاء للنفوس والحجب لها عن الله وفيوضاته فإذا أزيل هذا الغطاء أو الحجاب منها استعدت لقبول الفيوضات من رب الأرباب ولم يبق لشدة القرب بينهما حجاب فترتسم فيها حينئذٍ صور حقائق الموجودات على ما هي عليها ويبقى صاحبها سائراً على الطريق السوي"،[٣] وبدونهما تستحيل سلامة الحياة وسعادتها في الدارين.

التمثيل الثالث: الجدال والمخاصمة في خلق عيسى (عليه السلام)

-قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.[٤]

بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفردات[٥] الآيات. ذكر السبحاني سبب نزولـــها وهـــو: "أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما قرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) ينظر: الأمثل للشيرازي: ٤٠٦/١، مفاهيم القرآن، ١٩٢/٩، الأمثال للسبحاني، ص ١٩٢.

(٢) سورة البقرة، من الآية /١٤٣.

(٣) الشفاء الروحي، لعبد اللطيف البغدادي (ت ١٩٩٩ م)، دار الزهراء، (ب – ط – ت)، ص ١٠٦.

(٤) سورة الزخرف، الآيات / ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١.

(٥) "يصدون" في اللغة: من الـ (صد)، أي أعرض.الصحاح للجوهري، ٤٩٦/٢، مادة (صد). وصَدَّ يَصِدُّ صَدّاً: ضَجَّ وعَجَّ. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٢٤٦/٣، مادة (صد). وعرفها السبحاني أصطلاحا بأنها: ضجة المجادل إذا أحس الأنتصار. مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٤٢، الأمثال للسبحاني، ص ٢٤٢. "تمترن" في اللغة: هي من المِرْيةُ والمُرْيةُ: أي الشَّكُّ والجدَل.ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٥/ ٣١٥، مادة (مري). وعرفها اصطلاحا بأنها: التردد بالأمر. مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٤٢، الأمثال للسبحاني، ص ٢٤٢.

حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾.[١] امتعضت قريش من ذلك امتعاضا شديدا، فقال عبد الله بن الزبعرى[٢]: يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال (ﷺ): ((هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم)).[٣] فقال: خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبي وتثني عليه خيرا، وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما، وعزير يعبد، والملائكة يعبدون، فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا وضحكوا".[٤] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين.[٥]

اختَلف المفسرون في تفسير الآيةِ على وجُوه **تذكر الباحثة** منها ما يأتي:

أَحدها: إنَّه لمَّا نَزَلَ قَولُه تعالى:﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ قَال المشركون: ألسْت تزعم أنَّ عيسى نبي؟ وقد علِمت أنَّ النَّصارى يعبدونه، وعزير يعبد، والملائكةُ يعبدونَ، فإنْ كانَ هؤلاء في النار فَقَد رَضَيْنَا أن نكونَ نحنُ وآلهتُنَا في النار معهم. والمعنى: وَلَما ضربوا عِيسَى بنَ مَرْيَمَ مَثَلاً بعبادةِ النَّصارى إيَّاه إذا قُريش من هذا المَثَلِ (يَصِدُّونَ) بالكسر، أي: يَرتَفعُ لَهُم جَلَبَةٌ وضَجيجٌ فَرَحاً وجَدَلاً وضَحِكاً، وبالضمِّ من الصُّدودِ أي: يصُدُّونَ عن الحق ويعرضونَ عنْهُ من أجلِ هذا المَثَلِ، ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي: ليستْ آلهتُنا عندَكَ خَيْراً من عيسى، فإذا كانَ عيسى من حصب النار كانَ أَمْر آلهتِنا هيِّناً. ما ضربوا هذا المَثَلَ لكَ إلاَّ لأَجْلِ الجَدَلِ والغَلَبةِ في القَولِ لا لِطَلَبِ المعرفةِ ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ دأبهم الخصومة واللجاج. وذلك أَنَّ قوله:﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ ما أُرِيدَ بِهِ

---

(١) سورة الانبياء، الآيات /٩٨، ٩٩، ١٠٠.

(٢) عبد الله بن الزبعري هو: بن قيس السهمي القرشي، أبو سعد: شاعر قريش في الجاهلية، كان شديدا على المسلمين إلى أن فتحت مكة، فهرب إلى نجران، فقال فيه"حسان"أبياتا، فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر، ومدح النبي (ﷺ) فأمر له بحلة عبد الله بن الزبير ،توفي عام ١٥ هـ. الأعلام للزركلي، ٨٧/٤.

(٣) تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، لجمال الدين عبد الله الزيلعي (ت ٧٦٢ هـ)، تحقيق: عبد الله السعد، دار أبن خزيمة، ط١، ١٤١٤ هـ، ٢٥٤/٣، رقم الحديث (١١٦٤).

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٤٢-٢٤٣، الأمثال للسبحاني، ص ٢٤٢ – ٢٤٣.

(٥) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٤٤٢/٢، الكشف والبيان للثعلبي: ٣١٠/٦، اسباب النزول للواحدي: ص٢٠٦، تفسيرالقرآن للسمعاني: ١١٠/٥، الكشاف للزمخشري: ٣/ ٤٩٣، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٢٣/٢٢، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١٠٣/١٦، الدر المنثور للسيوطي: ٢٣٨/٤، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢٦١/٦، التفسير الكاشف لمغنية: ٥٥٥/٦.

إلاَّ الأَصنَامُ، ومحَالٌ أن يُقْصَدَ بهِ الأنبياءُ والملائكةُ.وهذا ما ذهب اليه أكثر المفسرين ومنهم السبحاني.(١) وأضاف السبحاني قائلاً:إن المشركين هم الذين ضربوا المثل إذ جعلوا شبها ومثلا لآلهتهم، ورضوا بأن تكون آلهتهم في النار إذا كان المسيح كذلك. ازداد فرح المشركين وظنوا أنهم التجأوا إلى ركن ركين أمام منطق النبي (ﷺ).(٢)

ثانيها: "إنَّهم لمَّا سَمعُوا ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾، قَالُوا:نحنُ أَهْدى من النَّصارى؛ لأنَّهم عَبَدُوا آدَميّاً ونَحنُ نَعبُدُ الملائكةَ، فَنَزَلَت. فعلى هذا يكُونُ في قَولِهِم:﴿ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ ﴾ تفْضيلُ آلهتِهِم على عيسى، والضارب هو تعالى شأنه أي ولما بين الله سبحانه حاله العجيبة اتخذه قومك ذريعة إلى ترويج ما هم فيه من الباطل بأنه مع كونه مخلوقاً بشراً قد عبد فنحن أهدى حيث عبدنا ملائكة مطهرين مكرمين. وهو الذي عنوه بقولهم:﴿ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ ﴾ فأبطل الله تعالى ذلك بأنه مقايسة باطل بباطل وأنهم في اتخاذهم العبد المنعم عليه إلهاً مبطلون مثلكم في اتخاذ الملائكة وهم عباد مكرمون، ثم قوله سبحانه:﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ ﴾ دلالة على أن الملائكة (عليهم السلام) مخلوقون مثله وأنه سبحانه قادر على أعجب من خلق عيسى (عليه السلام) وأنه لا فرق في ذلك بين المخلوق توالداً وإبداعاً فلا يصلح القسمان للإلهية"، وهذا ما ذهب اليه الالوسي.(٣)

ثالثها: إنَّ النبي (ﷺ) لما مدح المسيح وأُمه قَالُوا:ما يُريدُ محمدٌ (ﷺ) بهذا إلاَّ أَن نعبدَهُ كَمَا عبدت النَّصارَى المَسِيحَ. ومعنى (يَصدُّونَ):يَضْجرُونَ ويضجُّونَ، والضَّميرُ في (أَمْ هُو) لمحمد (ﷺ)، وغرضهم بالمُوازَنَة بينَه وبينَ آلهتهم السخْرية والاستهْزاء، وهذا ما ذهب اليه الطبري وآخرون.(٤)

الرابع: ذكره الطبرسي وآخرون إذ قال: "ما رواه سادة أهل البيت عن علي، (عليهم أفضل الصلوات)، أنه قال: جئت إلى رسول الله (عليه السلام) يوما، فوجدته في ملأ من قريش، فنظر

---

(١) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣/ ٢٤٨، تفسير القرآن للسمعاني: ١١٠/٥، التبيان للطوسي: ٢٠٩/٩، القرآن العزيز لأبن زمنين: ١٨٩/٤، مجمع البيان للطبرسي: ٨٨/٩، الكشاف للزمخشري: ٣/ ٤٩٤، زبدة التفاسير لفتح الله: ٦/ ٢٦١، أرشاد العقل السليم لابي السعود: ٥١/٨، التفسير الكاشف لمغنية: ٥٥٤/٦، الميـــــــزان للطباطبائي: ١٨/ ١١٤– ١١٥، مفاهيم القرآن، ٢٤٣/٩، الأمثال للسبحاني، ص ٢٤٣.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٤٣، الأمثال للسبحاني، ص ٢٤٣ وينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ١١٠/٥، مدارك التنزيل للنسفي: ١١٧/٤، الأمثل للشيرازي: ٧٩/١٦.

(٣) روح المعاني للآلوسي: ٩٤/٢٥ وينظر: الامثال لابن شريف: ص٣٨–٣٩.

(٤) جامع البيان للطبري ١١٠/٢٥، معاني القرآن للنحاس: ٣٧٤/٦، الكشف والبيان للثعلبي: ٣٤٠/٨.

إليّ ثم قال: ((يا علي إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى بن مريم، أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا، وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا)).[١] فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا: يشبهه بالأنبياء والرسل".[٢]

والذي يبدو لي: أن ما ورد سابقاً من الآراء هو المشهور بين المفسرين، وأن الرأي الأول الذي ذهب اليه أغلب المفسرين ومنهم السبحاني هو أشهر الأقوال لموافقته للقرائن الموجودة في الآيات نفسها، وآيات القرآن الكريم الأخرى، وينسجم مع ظاهر الآية أكثر من الجميع، وباقي التفاسير بعيدة. إذ ترى الباحثة: ان الرآي الثاني الذي ذهب اليه الآلوسي؛ وفيه أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ مدنية. وهذه الآيات أعني قوله تعالى:﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ الخ، آيات مكية من سورة مكية. على أن الأساس في قولهم على هذا الوجه تفضيلهم أنفسهم على النصارى فلا يرتبط على هذا قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ الخ، بما تقدمه".[٣] وفيه ايضاً إن تساؤلهم قائم على ما كانوا يرونه من اتساق المنطق في صلة اللَّه الأبوية بالملائكة التي كانوا يقولون بها وهي كون الملائكة بنات اللَّه أكثر من صلة اللَّه الأبوية بعيسى (عليه السلام) التي كان يقول النصارى بها وهي كون عيسى (عليه السلام) ابن اللَّه من حيث كون أوصاف الملائكة وحقيقتهم أكثر انسجاما أو تماثلا مع أوصاف اللَّه من وصف عيسى (عليه السلام) وحقيقته لأنه ولد وعاش ومات كما يولد ويعيش ويموت سائر البشر كما يقرره النصارى أنفسهم. في حين أن الملائكة نورانيين غير ماديين وغير مرئيين لا يموتون ولا يتزاوجون ولا يتوالدون وكل هذا من صفات اللَّه، وقد نسفت الآيات بردها هذا الأساس الذي أقاموا عليه حجتهم.[٤] والرأي الثالث، فيه ما في سابقه. أما الرابع فضلاً عن " نقلها جمع من علماء السنة، وكبار علماء الشيعة في كتب عدة، الا إن القرائن الموجودة في

---

(١) الأمالي ، لعلي بن الحسين بن بابوية الصدوق القمي (ت ٣٢٩ ﻫ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ، مؤسسة البعثة ، قم، ط١ ، ١٤١٤ﻫ، ص٣٤٥، باب (ركبان يوم القيامة)، رقم الحديث (٤٩/٧٠٩)، بحار الانوار للمجلسي، ٢٨٤/٢٥، باب (نفي الغلو في النبي...)، رقم الحديث (٣٤).

(٢) مجمع البيان للطبرسي، ٨٩/٩، الأصفى للفيض الكاشاني: ١١٤٥/٢، التفسير الصافي، لمحمد محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ ﻫ)، تحقيق: حسين الأعلمي، مؤسسة الهادي، قم، ط٢، ١٤١٦ هـ: ٤/ ٣٩٧، البرهان للبحراني: ٨٧٩/٤، مقتنيات الدرر للحائري: ٦١/١٠.

(٣) الميزان للطباطبائي، ١٨ / ١١٥.

(٤) التفسير الحديث، لمحمد عزة دروزة (ت ١٤٠٤ هـ)، دار الغرب الإسلامية، بيروت، ط٢، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠ م، ٥١٥/٤، ينظر: الميزان للطباطبائي: ١١٦/١٨.

الآيات توحي بأن هذا الحديث المعروف من قبيل تطبيق المصداق، لا أنه سبب النزول، وبتعبير آخر: فإن سبب نزول الآية هو قصة عيسى وقول المشركين وأصنامهم، والرواية غير متعرضة لتوجيه قولهم: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ﴾، ولئن كانت القصة سببا للنزول فمعنى الجملة: لئن نتبع آلهتنا ونطيع كبراءنا خير من أن نتولى عليا فيتحكم علينا أو خير من أن نتبع محمدا فيحكم علينا ابن عمه".(١)

أضاف السبحاني الى تفسير الآيات قائلاً: "إن سبحانه يشير في الآيات السابقة إلى القصة على وجه الإجمال، ويجيب على استدلال ابن الزبعرى في أمرين".(٢) **تذكرها الباحثة** على النحو الآتي:

الأول: إنهم ما أرادوا بهذا التمثيل إلا المجادلة والمغالبة لا لطلب الحق، وذلك لأن طبعهم على اللجاج والعناد، يقول سبحانه:﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين.(٣) "ما ضربوا هذا المثل الا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب التمييز بين الحق والباطل لشداد الخصومة دأبهم اللجاج"،(٤) وقال آخرون: "ما بقومك يا محمد هؤلاء المشركين في محاجتهم إياك بما يحاجونك به طلب الحق بل هم قوم خصمون يلتمسون الخصومة بالباطل".(٥)

الثاني: "إنهم ما تمسكوا بهذا المثل إلا جدلا وهم يعلمون بطلان دليلهم، إذ ليس كل معبود حصب جهنم، بل المعبود الذي دعا الناس إلى عبادته كفرعون لا كالمسيح الذي كان عابدا لله رافضا للشرك، فاســـتدلالهم كان مبنيا على الجدل وإنكار الحقيقة، وهذا هو المراد من قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ "، وهذا ما ذكره أيضاً الشيرازي في تفسيره.(٦)

---

(١) الأمثل للشيرازي، ٨١/١٦ وينظر: الميزان للطباطبائي: ١٨ /١١٦.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٤٤، الأمثال للسبحاني، ص ٢٤٤.

(٣) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ١١٨/٤، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٢١/٢٧-٢٢٢، أنوار التنزيل للبيضاوي: ١٤٩/٥، البحر المحيط لأبي حيان: ٢٤/٨، إرشاد العقل السليم لابي السعود: ٥١/٨، مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٤٤، الأمثال للسبحاني، ص ٢٤٤.

(٤) مدارك التنزيل للنسفي، ١١٨/٤، مفاتيح الغيب للرازي، ٢٢١/٢٧-٢٢٢، أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٩/٥ وينظر: تفسير البحر المحيط لابي حيان: ٢٤/٨ ، إرشاد العقل السليم لابي السعود: ٥١/٨.

(٥) جامع البيان للطبري، ١١٣/٢٥، الكشف والبيان للثعلبي: ٣٤١/٨، التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ٢١٠/٩، تفسير القرآن للسمعاني: ١١٢/٥، مجمع البيان للطبرسي: ٩٠/٩، معالم التنزيل للبغوي: ١٤٣/٤.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٤٤، الأمثال للسبحاني، ص٢٤٤، الأمثل للشيرازي، ٨٠/١٦ و٢٩١/٨.

أختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فأغلب المفسرين عَدَّ (المثل) آية من آيات الله تعالى ومنهم السبحاني إذ قال: "ان الآية تشير الى موقف المسيح وعبادته وتقواه وأنه كان آية من آيات الله سبحانه لبني إسرائيل، فولادته كانت معجزة، وكلامه في المهد معجزة ثانية وإحياؤه الموتى معجزة ثالثة، فلم يكن يدعو قط إلى عبادة نفسه، وانه عظة وعبرة لبني إسرائيل."(١) ومنهم من فسرها بان جعله آية عجيبة إلهية يسير ذكره كالأمثال السائرة.(٢)

والذي يبدو لي: أن هذا المثل هو من الامثال القياسية التي يؤدي الى أعتبار احدهما بالآخر لغرض التأديب أو التهذيب، أي" لتوضيح الفكرة عن طريق التشبيه والتمثيل"،(٣) ويجوز ان يكون معنى ﴿مَثَلًا﴾: "أنه بشر مثلهم، فضل عليهم".(٤)

ولتحجيم شبهة حاجة الله سبحانه إلى عبادة الناس، يقول (ﷻ): ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾، أختلف المفسرون بتفسيرها على فريقين تبعا لمعنى قوله:﴿مِنكُم﴾: **الفريق الأول:** قال به أغلب المفسرين هو: أن تكون ﴿مِنكُم﴾ للبدلية، فيكون المعنى: لجعلنا بدلا منكم معاشر بني آدم ملائكة في الأرض يخلفون بني آدم، ولو نشاء أهلكناكم، وجعلنا الملائكة بدلكم سكان الأرض، يعمرونها، ويعبدون الله.(٥) **الفريق الثاني:** قالوا: يصح أن تكون للتبعيض فيكون المعنى: لولدنا منكم يا رجال ﴿مَلائِكَةً﴾ كما ولدنا عيسى من غير أب،

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٤٤، الأمثال للسبحاني، ص ٢٤٤ وينظر: جامع البيان للطبري: ١١٤/٢٥ ، بحر العلوم للسمرقندي: ٢٤٩/٣، تفسير القرآن للسمعاني: ٥/ ١١٢، الكشف والبيان للثعلبي: ٣٤١/٨، الوجيز للواحدي: ٩٧٧/٢، زاد المسير لابن الجوزي: ١٠٢/٧، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١٠٤/١٦، التفسير الكاشف لمغنية: ٥٥٦/٦، الأمثل للشيرازي ٨٠/١٦.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ١١٨/٤، إرشاد العقل السليم لابي السعود: ٥٢/٨، الميزان للطباطبائي، ١١٧/١٨.

(٣) الأمثال لابن قيم: ص ٢٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس، ٣٧٩/٦.

(٥) تفسير مجاهد، لمجاهد بن جبر (ت ١٠٤ هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام، دار الفكر الإسلامي الحديثة، (ب – ط)، ١٤١٠ هـ- ١٩٨٩م: ٥٨٣/٢، جامع البيان للطبري: ١١٤/٢٥، معاني القرآن للنحاس: ٦/ ٣٧٩، التبيان للطوسي، ٢١١/٩، ينظر: مجمع البيان للطبرسي: ٨٧/٩، مقتنيات الدرر للحائري: ٦٢/١٠، التفسير الكاشف لمغنية: ٥٥٤/٦، تقريب القرآن إلى الأذهان، لمحمد الحسيني الشيرازي (ت ١٤٢٢ هـ)، دار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م: ٧٣/٥، تيسير الكريم الرحمن في كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦ هـ)، تحقيق: ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، (ب –ط)، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م: ص٧٦٨، الأمثل للشيرازي، ٨٢/١٦.

لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر، أي لو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ملائكة تخضع لأوامر الله، ولا تعرف عملا إلا طاعته وعبادته.[١]وهذا ما ذهب اليه السبحاني إذ قال: "ففي وسعه سبحانه ان يخلقكم ملائكة خاضعين لاوامره".[٢]

التمثيل الرابع: مثل محمد (ﷺ) وأصحابه في التوراة والأنجيل

-قال تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا * مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾.[٣]

شرع السبحاني بتفسير الآيات بعد المعنى اللغوي والتعريف الاصطلاحي لبعض مفردات[٤] الآيات إذ قال: " القرآن يتكلم في هاتين الآيتين عن النبي تارة وأصحابه أخرى: أما **الأول** فيعرفه بقوله:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ والضمير في (ليظهره) يرجع إلى دين الحق لا الرسول، لأن الغاية ظهور دين على دين لا ظهور شخص على الدين، والمراد من الظهور هو الغلبة في مجال البرهنة والانتشار، وقد تحقق بفضله سبحانه وسوف تزداد رقعة انتشاره فيضرب الإسلام بجرانه في

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٣/ ٤٩٤، انوار التنزيل للبيضاوي: ٩٤/٥، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢٦١/٦، مفاهيم القرآن: ٩/ ٢٤٤، الامثال في القرآن للسبحاني: ص٢٤٤.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٤٤، الامثال في القرآن للسبحاني: ص٢٤٤.

(٣) سورة الفتح، الآيتان / ٢٨، ٢٩.

(٤) "السيماء" في اللغة: العلامة. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٢/ ٣١٢، مادة (سيماء). وفي الأصطلاح: عرفها السبحاني بأنها: فقوله: "علامة إيمانهم في وجوههم". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٥١، الأمثال للسبحاني، ص ٢٥١."شطأ الزرع"في اللغة: فروخ الزرع. ينظر: الصحاح، لسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣ هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م: ٥٧/١، مادة (شطأ). وفي الاصطلاح عرفها السبحاني بأنها: ما خرج من الزرع، وتفرع في شاطئيه أي في جانبيه وجمعه أشطاء، وهو ما يعبر عنه بالبراعم. ينظر: مفاهيم القرآن: ٢٥١/٩، الأمثال للسبحاني، ص ٢٥١. "الأزر"في اللغة: القوة الشديدة، آزره أي أعانه وقواه. ينظر: الصحاح للجوهري: ٥٧٨/٢، مادة (أزر)."الغلظة" في الاصطلاح عرفها السبحاني: "ضد الرقة". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٥١، الأمثال للسبحاني، ص ٢٥١."السوق" في اللغة: هو جمع ساق. ينظر: معجم مقاييس اللغة لأبن فارس: ١١٧/٣، مادة (سوق).

أرجاء المعمورة، ولا سيما عند قيام الإمام المهدي المنتظر (عليه السلام)، يقول سبحانه في هذا الصدد: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي الرسول الذي سوف يغلب دينه على الدين كله، وقد صرح باسمه في هذه الآية، إلا أنه أجمل في الآية الأولى، وقال: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ وإلى هنا تم بيان صفات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وسماته"،[١] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين [٢]: "هو الذي أرسل رسوله محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) بالبيان الواضح، ودين الحق، وهو الاسلام الذي أرسله داعيا خلقه إليه ليبطل به الملل كلها، حتى لا يكون دين سواه"،[٣] "ليُعليه على جنس الدين كله يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب، ولقد حقق ذلك سبحانه فإنك لا ترى دينا قط إلا وللإسلام دونه العز والغلبة".[٤]

بيّن السبحاني صفات أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) التي جاءت ذكرها في التوراة والإنجيل إذ قال: " أما التوراة فقد جاء فيها وصفهم مايأتي:

١. ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، الذين لا يفهمون إلا منطق القوة، فلذلك يكونون أشداء عليهم، "غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم"[٥] "لا تأخذهم فيهم رأفة".[٦]

٢. ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ فهم رحماء يعطف بعضهم على بعض، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى))[٧] "وبلـغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٥٢، الأمثال للسبحاني، ص٢٥٢.

(٢) ينظر: التبيان للطوسي: ٣٣٦/٩، الكشف والبيان للثعلبي: ٩/٩، تفسير القرآن للسمعاني: ٢٠٨/٥، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٨/ ١٠٦، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٠٣/٦.

(٣) جامع البيان للطبري، ١٤١/٢٦.

(٤) الكشاف للزمخشري، ٣/ ٥٥٠، ينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٠٣/٦.

(٥) جامع البيان للطبري، ١٤٢/٢٦.

(٦) الكشف والبيان للثعلبي، ٦٥/٩.

(٧) صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٨ / ٢٠، كتاب (البر والصلة والآداب)، باب (تراحم المؤمنين...)، مسند أحمد، لأبي عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م، ٢٧٠/٤، (أول مسند الكوفيين....)، (حديث حنظلة الكاتب الأسدي....)، سنن البيهقي الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الباز، مكة المكرمة، (ب – ط)، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م، ٣٥٣/٣، كتاب (صلاة الأستسقاء)، باب (استسقاء امام الناحية.....)، وهو حديث صحيح.

إلا صافحه وعانقه"،[١] "هذه معاملتهم مع الخلق".[٢]

٣. ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾، هذا الوصف يجسد ظاهر حالهم وأنهم منهمكون في العبادة، فلذلك يقول:﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾، أي تراهم في عبادة، التي هي آية التسليم لله سبحانه. ومع ذلك لا يبتغون لعبادتهم أجرا وإنما يأملون فضل الله، كما يقول:﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾، ولعل القيد الأخير إشارة إلى أن الحافز لأعمالهم هو كسب رضاه سبحانه، " أخبار عن كثْرة صلاتهم ومدَاومتهم عليها يلْتمسون بذلك زيادة نعمة من الله يطلبونَ مرضَاتَه".[٣]

٤. ومن علائمهم الأخرى أن أثر السجود في جباههم، إذ يقول: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ فسيماهم ووجوههم تلمح إلى كثرة عبادتهم وسجودهم وخضوعهم لله سبحانه، وهذه الصفات مذكورة أيضاً في الأنجيل"،[٤]" ظهرت أثار أعمالهم الصالحة على صفحات وجوههم، وهكذا المؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله، أصلح الله ظاهره للناس".[٥]

ذهب عدداً من المفسرين ومنهم السبحاني الى تمثيل أصحاب محمد (ﷺ) في التوراة والأنجيل بتمثيل واحد وهو: إن أصحاب محمد لم يزالوا يزيدون باطراد في العدة والقوة وبذلك يغيظون الكفار، فهم كزرع قوي غلظ وقام على سوقه يعجب الزارعين بجودة رشده. ولم يزالوا في حركة دائبة ونشيطة، فمن جانب يعبدون الله مخلصين له الدين بلا رياء ولا سمعة، ومن جانب آخر يجاهدون في سبيل الله بغية نشر الإسلام ورفع راية التوحيد في أقطار العالم. فعملهم هذا يغيظ الكفار ويسر المؤمنين، قال سبحانه:﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ فالمجتمع الإسلامي بإيمانه وعمله

---

(١) الكشاف للزمخشري، ٣/ ٥٥٠ وينظر: جوامع الجامع للطبرسي: ٣٩٤/٣.

(٢) تيسير الكريم للسعدي، ص٧٩٥.

(٣) جوامع الجامع للطبرسي، ٣٩٤/٣.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٥٢ –٢٥٣، الأمثال للسبحاني، ص٢٥٢ –٢٥٣.

(٥) عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، لعلي أحمد عبد العال الطهطاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م، ص ٢٥٧ وينظر: تفسير القرآن العظيم، لعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤ هـ)، قدم له يوسف عبد الرحمن المرعلشي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥ هـ– ٢٠٠٤م: ٤ / ٢١٩.

وجهاده وحركته الدؤوبة نحو التكامل يثير إعجاب الأخلاء وغيظ الألداء.(١)

وتذهب الباحثة الى ما ذهب اليه بعضهم الآخر وهو: أن لهم مثلين **أحدهما:** في التوراة **والثاني:** في الإنجيل فتلك الصفات مقولة قبلا ووردت في كتاب سماوي نزل منذ أكثر من ألفي عام. ثم يتحدث القرآن الكريم عن مثلهم في كتاب سماوي كبير آخر وهو الإنجيل، "كزرع أخرج فراخه، وإنما مثلهم بالزرع المشطئ، لأنهم ابتدأوا في الدخول في الاسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمى"،(٢) جاء وصفهم على **خمسة أمور** هي: ١- **أخراج الشطأ**، ٢- **والمؤازرة للنمو**، ٣- **والاستغلاظ**، ٤- **والاستواء**، ٥- **والنمو المعجب**.

<u>التمثيل الخامس: ضرب المثل بالمرأة الكافرة</u>

-قال تعالى:﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾. (٣)

عدّ السبحاني هذا التمثيل من أحد أساليب التربية إذ قال: "إن إحدى الأساليب التربوية هي عرض نماذج واقعية لمن بلغ القمة في مكارم الأخلاق وجلائلها أو سقط في حضيض مساوئ الأخلاق، والقرآن في هذه الآية يعرض زوجتين من زوجات الأنبياء ابتليتا بالنفاق والخيانة ولم ينفعهما قربهما من أنبياء الله"،(٤) وهذا المبدأ الاسلامي قد قرره القرآن بادئ ذي بدء عندما عرض لنا شرائح للكفر في محيط العقيدة السليمة الصحيحة، فلا شفاعة ولا استثناء في شأن الكفر والإيمان.(٥)

ذكر بعض المفسرين سببا عاما فضلاً عن السبب الخاص: "إن كفار مكة استهزؤوا وقالوا: إن محمدا (ﷺ) يشفع لنا، فبين الله تعالى أن شفاعته لا تنفع كفار مكة وإن كانوا

---

(١) ينظر: الوجيز للواحدي: ١٠١٤/٢، جوامع الجامع للطبرسي: ٣/ ٣٩٤، عون الحنان للطهطاوي: ص٢٥٧، مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٥٣، الأمثال للسبحاني، ص٢٥٣.

(٢) جامع البيان للطبري، ٢٦/ ١٤٥ وينظر: معاني القرآن للنحاس: ٥١٥/٦، بحر العلوم للسمرقندي: ٣٠٥/٣، التبيان للطوسي: ٩/ ٣٣٧.

(٣) سورة التحريم، الآية /١٠.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٩، الأمثال للسبحاني، ص ٢٦٩.

(٥) ينظر: الأمثال في القرآن لمحمود شريف: ص١١٩ -١٢٠.

أقرباء، كما لا تنفع شفاعة نوح لامرأته وشفاعة لوط لامرأته، مع قربهما لهما لكفرهما"،[١] ومنهم من قال أنه: " مثل الله (ﷻ) حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم من النسب والمصاهرة وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا، بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين بإفشاء أسرارهما فلم يغن الرسولان عنهما، وقيل لهما عند موتهما أو يوم القيامة ادخلا النار مع سائر الداخلين الذين لا صلة بينهم وبين الأنبياء أو مع داخليها من اخوانكما".[٢]

وتخلص الباحثة: إن الله تعالى ضرب هذا المثل تنبيهاً على أنه لا يغني أحد في الآخرة عن قريب ولا نسيب إذا فرق بينهما الدين والعمل إذ قال الشاعر[٣]:

لعمرك ما الانسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

فقد رفع الاسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك الشريف أبا لهب.[٤]

التمثيل السادس: ضرب المثل بالمرأة المؤمنة

-قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾[٥].

استـــهل السبحاني تفسير الآية: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن

---

(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي، ٢٠٢/١٨.

(٢) مدارك التنزيل للنسفي، ٢٦١/٤ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٤٩/٣٠، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٣٥٨/٥، الأمثال لابن قيم، ص ٥٥، القرآن العظيم لابن كثير: ٤١٩/٤، فتح القدير للشوكاني: ٢٥٥/٥، الوسيط للطنطاوي: ٢٦٩٣/٣.

(٣) الصاحب بن عباد: هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن عباس بن عباد الطالقاني، المعروف بـ (الصاحب بن عباد) و(كافي الكفاة)، ولد سنة (٣٢٦ هـ) في طلقان، كان من كبار العلماء، مشارك في مختلف العلوم كالحكمة والطب والمنطق، وكان محدثاً ثقة، شاعراً مبدعا، وأحد أعيان العصر البويهي، له من المؤلفات (المحيط في اللغة، ديوان رسائل، الكافي،...)، توفي سنة (٣٨٥ هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٥١١/١٦، البداية والنهاية لابن كثير: ٣٥٩/١١.

(٤) ديوان الصاحب بن عباد، للصاحب بن عباد(ت٣٨٥هـ)، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف،١٩٦٥م، بغداد، ص١٨٣.

(٥) سورة التحريم، الآيتان /١١، ١٢.

رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾،[١] بالتعريف اللغوي لبعض مفرداتها.[٢] ثم أردف قائلاً: ضرب الله مثلا للمؤمنات (مريم ابنة عمران)، إذ وصفها الله تعالى بالصفات الآتية:

١. ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ فصارت عفيفة كريمة وهذا بإزاء ما افتعله اليهود من البهتان عليها،[٣] إذ يقول عنه سبحانه:﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾.[٤] وفي قوله تعالى:﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾.[٥]

وانقسم المفسرون فيها على قولين: **الاول:** أنها أحصنت فرجها (الفرج بعينه) إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً، إذ قالت:﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾.[٦] وهذا ماذهب اليه بعض المفسرين[٧]. **والثاني:** من نفخة جبريل (عليه السلام) إذ منعته من (جيب درعها) قبل أن تعرفه. وهو ما ذهب اليه البعض الآخر.[٨]

وترى الباحثة: إن الأول هو الاشهر والأولى لانه الظاهر من اللفظ.

٢. ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾: "أي كونها عفيفة محصنة صارت مستحقة للثناء والجزاء، فأجرى سبحانه روح المسيح فيها، وإضافة الروح إليه إضافة تشريفية، فهي امرأة لا زوج لها

---

(١) سورة التحريم، الآية /١٢.

(٢) "الحصن" جمعه حصون وهي القلاع، ويطلق على المرأة العفيفة لانها تحصن نفسها بالعفاف وتارة بالتزويج أخرى. ينظر: الصحاح للجوهري: ٢١٠١/٥، مادة (حصن)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ١٥٣/١، مادة (حصن)، مفاهيم القرآن: ٢٧٣/٩، الامثال في الفرآن الكريم للسبحاني: ص٢٧٣."القنوت": لزوم الطاعة مع الخضوع. ينظر: الصحاح للجوهري: ٢٦١/١، مادة (قنت)، مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٧٣، الأمثال للسبحاني، ص٢٧٣.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩ /٢٧٤ –٢٧٥، الأمثال للسبحاني، ص ٢٧٤ –٢٧٥ وينظر: الميزان للطباطبائي: ٣٤٥/١٩.

(٤) سورة النساء، الآية / ١٥٦.

(٥) سورة الانبياء، من الآية /٩١.

(٦) سورة مريم، من الآية / ٢٠.

(٧) ينظر: جامع البيان للطبري: ١١١/١٧، الكشاف للزمخشري: ٤/ ١٣٢، التبيان للطوسي: ٢٧٦/٧، مفاتيح الغيب للرازي: ٢١٨/٢٢، زبدة التفاسير لفتح الله: ١١٨/٧، الأصفى للفيض الكاشاني: ١٣٢٥/٢، التفسير الحديث لدروزة: ٨/ ٥٣٩، التفسير الوسيط للزحيلي: ٢٦٩٣/٣.

(٨) ينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ١٠/٥، الكشف والبيان للثعلبي: ٩/ ٣٥٢، جوامع الجامع للطبرسي: ٥٣٧/٢، معالم التنزيل للبغوي: ٣٦٨/٤، زاد المسير لابن الجوزي: ٥٥/٨، فتح القدير للشوكاني: ٢٥٦/٥ ،البحر المحيط لابي حيان: ٣١٢/٦.

أنجبت ولدا صار نبيا من أنبياء الله العظام، إذ أشير إلى هذين الوصفين في قولـــه تعـــالى: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[١]"،[٢] وهذا رأي الطبرسي إذ قال: "أجرينا فيها روح المسيح، كما يجري الهواء بالنفخ، وأضاف الروح إلى نفسه على وجه الملك، تشريفا له في الإختصاص بالذكر".[٣]

وذهب الزمخشري وآخرون الى: أن النفخ عبارة عن الإحياء وليس هناك نفخ حقيقةً. إذ قـــال: "نفـــخ الـــروح فـــي الجســـد عبـــارة عـــن إحيائـــه قـــال الله تعـــالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾،[٤] أي أحييته، معناه نفخنا الروح في عيسى فيها:أي أحييناه في جوفها"،[٥]

وتذهب الباحثة الى ما ذهب اليه الزمخشري وتؤيده للدليل الذي أورده الزمخشري وعلماء عدة وهو: "إن الاحياء لعيسى (عليه السلام) وهو في بطن مريم (عليها السلام) صح أن يقال: نفخنا فيها فإن ما يكون فيما في الشيء يكون فيه فلا يلزم أن يكون المعنى أحييناها وليس بمراد، وهذا كما يقول الزمار: نفخت في بيت فلان وهو قد نفخ في المزمار في بيته"، [٦] وقال أبو حيان[٧]: "الكلام على تقدير حذف مضاف أي (فنفخنا فيه) ابنها".[٨] والنفخ في عيسى (عليه السلام) يكن تكريما لمريم (عليها السلام) لحملها بنبي مرسل.

٣. ﴿ وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾: "ولعل المراد من الكلمات الشرائع المتقدمة، والكتب: الكتب النازلة، كما يحتمل أن يكون المراد الوحي الذي لم يكن على شكل كـــتاب"،[٩] ما ذهب اليه بعض المفسرين.[١٠]

---

(١) سورة الانبياء، الآية /٩١.

(٢) مفاهيم القرآن، ٢٧٤/٩ –٢٧٥، الأمثال للسبحاني، ص ٢٧٤–٢٧٥ وينظر: الأمثل للشيرازي: ١٨/ ٤٦٨

(٣) مجمع البيان للطبرسي، ١١١/٧.

(٤) سورة الحجر، من الآية /٢٩.

(٥) الكشاف للزمخشري، ٢/ ٥٨٢، جوامع الجامع للطبرسي، ٢/ ٥٣٧، مفاتيح الغيب للرازي، ٢١٨/٢٢، البحر المحيط لابن حيان، ٣١٢/٦، زبدة التقاسير لفتح الله الكاشاني، ٣٥٢/٤ وينظر: التفسير الكاشف لمغنية: ٣٦٧/٧.

(٦) الكشاف للزمخشري، ٢/ ٥٨٢، جوامع الجامع للطبرسي، ٢/ ٥٣٧، مفاتيح الغيب للرازي، ٢١٨/٢٢، زبدة التقاسير لفتح الله الكاشاني، ٣٥٢/٤، روح المعاني للآلوسي، ٣٥٢/٤.

(٧) ابو حيان هو: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان الغرناطي الأندلسي النفزي، من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. ولد عام (٦٥٤ هـ) في غرناطة، اشهرتصانيفه في حياته وقرئت عليه (البحر المحيط) في تفسير القرآن، توفي في القاهرة عام (٧٤٥ هـ). ينظر: الاعلام للزركلي: ١٥٢/٧.

(٨) البحر المحيط لأبي حيان، ٣١٢/٦ وينظر: روح المعاني للآلوسي: ٣٥٢/٤.

(٩) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٧٥، الامثال في القرآن للسبحاني، ص٢٧٥.

(١٠) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ٣٦٨/٤، فتح القديرللشوكاني: ٢٥٦/٥، الأمثل للشيرازي: ٤٦٨/١٨.

إختلف المفسرون في تفسير قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِ﴾ الى تفاسير عدة تبعا للاختلاف في القراءات إذ قرئت بالمفرد (كلمةِ ربها) فكان معناها: آمنت بعيسى، وهو كلمة الله،(١) وقرئت بالجمع فكانت لها معاني عدة **تذكر الباحثة** منها ماياتي: بصحفه المنزّلة، أو بما أوحي إلى أنبيائه،(٢) ومنها: وعده تعالى ووعيده وأمره ونهيه،(٣) فضلا عن الرأي الذي ذكره السبحاني وآخرون انفاً.

إختلف المفسرون بتفسير معنى ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ باختلاف القراءة لها إذ قرئت بالإفراد (كتابه) فإنها تعني انها آمنت بالإنجيل، وإن قرئت بالجمع فلها معاني عدة **تذكر الباحثة** منها ما ياتي: "كتب الله المنزلة على أنبيائه مثل التوراة والإنجيل، أي جنس الكتب المنزلة".(٤) إنها "المشتملة على شرائع الله المنزلة من السماء كالتوراة والإنجيل كما هو مصطلح القرآن"،(٥) ومنهم قال: "(وكتابه) على التوحيد، والمراد منه الكثرة أيضا وأراد الكتب التي أنزلت على إبراهيم وموسى وداود وعيسى (عليهم السلام)". (٦)

٤. ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾: "أي كانت مطيعة لله سبحانه، ومن القوم المطيعين لله الخاضعين له الدائمين عليه، إذ جيء بصيغة المذكر تغليبا"،(٧) إذ أجمع المفسرون على أنه: "لم يقل من القانتات لتغليب المذكر على المؤنث"،(٨) واختلفوا في معنى ﴿ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ الى معانٍ عدة كـ:

---

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٨٠/٣، جامع البيان للطبري: ٢١٩/٢٨، تفسير القرآن للسمعاني: ٤٨٠/٥، مفاتيح الغيب للرازي: ٣٠ /٥٠.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٢٦٢/٤، الكشاف للزمخشري: ٤/ ١٣٢، كنز الدقائق للمشهدي: ٣٤٤/١٣، مقتنيات الدرر للحائري: ١٩١/١١، تقريب القرآن لمحمد الشيرازي: ٤٦١/٥.

(٣) ينظر: مجمع البيان للطبرسي: ٦٥/١٠، الميزان للطباطبائي: ٣٤٥/١٩.

(٤) مجمع البيان للطبرسي، ١٠/ ٦٥ وينظر: جامع البيان للطبري: ٢١٩/٢٨، تفسير القرآن للسمعاني: ٥/ ٤٧٩ مع أضافته (الزبور) الى الكتب الآخرى، زبدة التفاسير لفتح الله: ١١٩/٧، مقتنيات الدرر للحائري: ١٩١/١١، الأمثل للشيرازي: ٤٦٨/١٨.

(٥) الميزان للطباطبائي، ٣٤٥/١٩.

(٦) معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٨/٤ وينظر: الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٢٠٣/١٨.

(٧) مفاهيم القرآن، ٢٧٥/٩، الأمثال للسبحاني، ص٢٧٥ وينظر: الميزان للطباطبائي: ٣٤٦/١٩.

(٨) مجمع البيان للطبرسي، ٦٥/١٠، التبيان للطوسي، ٥٥/١٠، مفاتيح الغيب للرازي، ٥٠/٣٠، أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/٥، زبدة التفاسير لفتح الله، ١١٩/٧ وينظر: الأصفى للفيض الكاشاني: ١٣٢٦/٢، الميزان للطباطبائي، ٣٤٦/١٩.

المقيم على طاعة الله والدائم على طاعته،[١] وقيل: "معناه الداعي لله في كل حال".[٢]ومنها للإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين، حتّى عدّت من جملتهم أو من نسلهم. فتكون « من » ابتدائيّة. والمعنى: إنّها ولدت من القانتين، لأنّها من أعقاب هارون أخي موسى (عليه السلام)".[٣]

وتخلص الباحثة الى: أن الله تعالى ضرب هذا المثل للمؤمنين بامرأة لم يضرها قول الناس فيها، وتكذيب أعداء اللّه اليهود إذ قالوا فيها ما هم أحق به وأحرى، إذ هي الطاهرة النقية التي ﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾دلالة على أن عمل غيرهم وقوله السيء لا يؤثر في المؤمن شيئا بعد أن كان هو بنفسه مؤمنا صالحا ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ فأصبحت منارة يقتدى بها لكل من يريد التكامل في الطريق الى الله. إذ روى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: ((كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء الا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون)).[٤]

المطلب الثاني: المثل بسائر الناس

اعتنى القرآن الكريم بضرب الأمثال بسائر الناس الثلاثة: المؤمنة، والكافرة، والمنافقة، أفرادا وأمماً موضّحاً ملامح كلّ فئة واتجاهها ونهايتها، بقصد الهداية والإصلاح. وبأساليب مختلفة، وسوف تحاول الباحثة توزيع هذه الأمثال على مجموعتين هما:

أ. بالمقارنة بين اثنين

التمثيل الأول: تشبيه الكفر والإيمان

- قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ

---

(١) ينظر: الوجيز للواحدي: ١١١٥/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٤٨٠/٥، معالم التنزيل للبغوي: ٣٦٨/٤، مجمع البيان للطبرسي: ٦٥/١٠.

(٢) التبيان للطوسي، ٥٥/١٠، تفسير نور الثقلين، عبد علي الحويزي (ت ١١١٢ هـ)، تحقيق: هاشم الرسولي، مؤسسة إسماعيليان، قم، ط٤، ١٤١٢ هـ - ١٣٧٠ ش: ٣٧٧/٥.

(٣) مدارك التنزيل للنسفي، ٢٦٢/٤، الكشاف للزمخشري، ٤/ ١٣٢، أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/٥، زبدة التفاسير لفتح الله، ١١٩/٧ وينظر: الأصفى للفيض الكاشاني: ١٣٢٦/٢، مقتنيات الدرر للحائري: ١٩١/١١،

(٤) صحيح البخاري، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤١٦ هـ، ١٣١/٤، كتاب (بدء الخلق)، باب (قوله تعالى: ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة... ﴾، مسند احمد، ٤٠٩/٤، (أول مسند المدنيين....)، (حديث أبى موسى الأشعري (رضي الله عنه))، وهو حديث صحيح.

لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.[١]

أختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية على **أقوال:**

- **أحدهما:** إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وأبي جهل، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله (ﷺ) بالحجارة، وحمزة لم يؤمن بعد، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل، فأقبل حتى علا أبا جهل بالقوس، وقال حمزة:أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، فنزلت هذه الآية.
- **وثانيهما:** إنها نزلت في عمار بن ياسر، وأبي جهل.
- **وثالثهما:** إنها عامة في كل مؤمن وكافر.[٢] وهذه الاقوال ذهب اليها بعض المفسرين ومنهم السبحاني إذ قال: "نزلت الآية في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل بن هشام، وذلك أن أبا جهل آذى رسول الله (ﷺ) فأخبر بذلك حمزة، وهو على دين قومه، فغضب وجاء ومعه قوس فضرب بها رأس أبي جهل وآمن. وقيل: إنها نزلت في عمار بن ياسر حين آمن وأبي جهل".[٣]
- **ورابعهما:** في عمر بن الخطاب، وأبي جهل، وهذا ما ذهب اليه البعض الآخر.[٤] ثم رجح السبحاني سبباً أعم إذ قال: "الظاهر انها عامة في كل مؤمن وكافر، ومع ذلك لا يمنع هذا نزولها في شخصين خاصين"،[٥] وهو ما رجحه أغلب المفسرين،[٦] **وتذهب اليه الباحثة؛**

---

(١) سورة الانعام، الآية /١٢٢.

(٢) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ١٨٦/٤، أسباب النزول للواحدي: ص١٥٠، مدارك التنزيل للنسفي: ٣٤٣/١، البحر المحيط لابي حيان: ٢١٦/٤، الدر المنثور للسيوطي: ٤٣/٣.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٣٢، الأمثال للسبحاني، ص١٣٢.

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠/٨ ، تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله (ﷺ)والصحابة والتابعين أو (تفسير ابن أبي حاتم الرازي)، لعبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي (ت ٩٣٨ هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطبيب، دار الفكر للطباعة، بيروت، (ب –ط –ت): ١٣٨١/٤، أسباب النزول للواحدي: ص١٥٠، الدر المنثور للسيوطي: ٤٣/٣، لباب النقول، لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، (ب –ط – ت): ص٩٢، فتح القدير للشوكاني: ١٦٠/٢.

(٥) مفاهيم القرآن، ١٣٢/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٣٢.

(٦) ينظر: جامع البيان للطبري: ٨ / ٢٩، مجمع البيان للطبرسي: ٤ / ١٥١، مفاتيح الغيب للرازي: ١٣ / ١٧٠، التفسير العظيم، للعز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ)، تحقيق: عبد الله الوهبي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ: ١ / ٤٥٩، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٧ / ٧٨، القرآن العظيم لابن كثير: ٢ / ١٧٨، جواهر الحسان للثعالبي: ٢ / ٥١٢.

"لأنه أعم فائدة، فيدخل فيه جميع الأقوال المذكورة"،[١] "إذ إن هذه الآية مثل الآيات الأخرى لا تختص بواقعة نزولها، بل هي ذات مفهوم واسع يصدق على كل مؤمن صادق وكل معاند لجوج".[٢]

قسم السبحاني هذه الآية على تمثيلات وتشبيهات جعلتها تبدو وكانها تشبيه مركب **تذكره الباحثة** كالآتي:

١. يقول سبحانه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ إذ شبه الكافر بـ(الميت) والمؤمن بـ(الحي)، وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٣]: "من كان ميتا بالكفر فصار حيا بالإسلام بعد الكفر"،[٤] وكافرا فأحييناه، بأن هديناه إلى الإيمان، إذ شبه سبحانه الكفر بالموت، والإيمان بالحياة.[٥] وأنقسم باقي المفسرين فيها على قولين:

-**أحدهما:** "كان ضالا فهديناه".[٦]

-**وثانيهما:** "كان جاهلا، فعلمناه"،[٧] إذ "جعل الله الكفر الناتج عن الجهل بمثابة الموت، لان الكفر للقلوب والنفوس كالموت للأجساد وأنواع الإحساسات الجسدية".[٨]

وترى الباحثة: إن وصف الكفار بأنهم أموات وصف رائع؛ لأن الغارق في الضلال والكفر والجهل ميت مجازا وإن كان في الظاهر حياً.

٢. يقول سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ "فقد شبه القرآن بالنور، إذ إن المؤمن على ضوء القرآن يشق طريق السعادة، فالقرآن ينور الدرب للمؤمن".[٩] وهذا أشهر

---

(١) التبيان للطوسي، ٤/ ٢٥٨، مجمع البيان للطبرسي، ١٥١/٤.

(٢) الأمثل للشيرازي، ٤/ ٤٥٣.

(٣) ينظر: تلخيص البيان للرضي: ص١٨، مدارك التنزيل للنسفي، ٣٤٣/١، التفسير الكاشف لمغنية: ٣/ ٢٥٦، تقريب القرآن لمحمد لشيرازي: ١٢٤/٢، الأمثل للشيرازي: ٤٥٢/٤، مفاهيم القرآن، ١٣٢/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٣٢.

(٤) التبيان للطوسي، ٢٥٩/٤.

(٥) ينظر: مجمع البيان للطبرسي: ١٥١/٤، شرح العقيدة الطحاوية، لإبن أبي العز الحنفي (ت ٧٩٢ هـ) ، المكتب الإسلامي، بيروت ، ط٤ ، ١٣٩١ هـ: ص ٣٠٦.

(٦) تفسير مجاهد لابن جبر، ٢٢٢/١ معاني القرآن للنحاس، ٤٨٣/٢، بحر العلوم للسمرقندي، ٤٩٨/١، تفسير القرآن للسمعاني، ١٤٠/٢ وينظر: الكشاف للزمخشري: ٤٨/٢ ، الأصفى للفيض الكاشاني: ٣٤٢/١.

(٧) تفسير القرآن للسمعاني، ١٤٠/٢، مفاتيح الغيب للرازي، ١٧١/١٣.

(٨) أمثال القرآن لحنبكة، ص ٢٥٤.

(٩) مفاهيم القرآن، ١٣٣/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٣٣.

أقوال المفسرين: "يعني بالنور: (القرآن) من صدق به وعمل به".[١] وهناك أقوال أخرى لمعنى (النور) **تذكر الباحثة** منها ما يأتي:

الأول: أنه المعرفة والهدى أو الايمان. [٢]

الثاني: العلم والحكمة.[٣]

وفي قوله تعالى: ﴿يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ أقوال عدة **تذكر الباحثة** منها ما يأتي:

-**أحدهما:** يستضيء به في دينه بين الناس.[٤]

-**وثانيهما:** يمشي به على الصراط مع المؤمنين الى الجنة.[٥]

-**وثالثهما:** ينشر به دينه في الناس، فيصير كالماشي.[٦]

٣. يقول سبحانه ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾، "فالمراد من الظلمة إما الكفر أو الجهل، ويؤيد الأول قوله سبحانه:﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾،[٧] إذ إنه سبحانه شبه الكافر بالذي يمكث في الظلمات لا يهتدي إلى شيء بقوله: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ولم يقل: كمن هو في الظلمات، بل توسط لفظ المثل فيه، ولعل الوجه هو تبيين أنه بلغ في الكفر والحيرة غاية يضرب به المثل"،[٨] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٩]: "هذا الكافر الضال في ظلمات الكفر لا يبصر رشدا ولا يعرف حقا،

---

(١) جامع البيان للطبري، ٣١/٨ وينظر: التفسير العظيم لعبد السلام: ٤٥٩/١، البحر المحيط لابي حيان: ٢١٦/٤، القرآن العظيم لابن كثير: ١٧٨/٢، الدر المنثور للسيوطي: ٤٣/٣.

(٢) ينظر: معاني القرآن للنحاس: ٤٨٣/٢، مفاتيح الغيب للرازي: ١٧٣/١٣، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٧٨/٧، جواهر الحسان للثعالبي: ٥١٢/٢، التفسير الكاشف لمغنية: ٢٥٦/٣.

(٣) ينظر: التبيان للطوسي: ٤/ ٢٥٨، مجمع البيان للطبرسي: ١٥٢/٥، التفسير العظيم لعبد السلام: ١/ ٤٥٩، تفسير المحيط الأعظم والبحر الخظم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم، لحيدر الآملي (ت ٧٨٢ هـ)، تحقيق: محسن الموسوي، الاسوة، ط١، ١٤٢٢ هـ: ٣ / ٣٠٨، تفسير الصراط المستقيم، لحسين البروجردي (ت ١٩٦١ م)، صححه وعلق عليه: غلام رضا، مؤسسة المعارف الإسلامية، طهران، ط١، ١٩٩٥ م.

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٢/٨، الوجيز للواحدي: ٣٧٣/١، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٥٣/٢.

(٥) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٤٩٨/١.

(٦) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٧٩/٣.

(٧) سورة البقرة، من الآية /٢٥٧.

(٨) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٣٣، الأمثال للسبحاني، ص١٣٣.

(٩) ينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ١٣٨٢/٤، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٩٥/٢، معالم التنزيل للبغوي: ١٢٨/٢، مجمع البيان للطبرسي: ١٥٢/٤، زاد المسير لابن الجوزي: ٨٠/٣، تفسير المحيط الأعظم للآملي: ٣/ ٣٠٨، مقتنيات الدرر للحائري، ٢٥٢/٤.

يعني في ظلمات الكفر"[١] "لم يقل سبحانه كمن هو في الظلمات تقديره كمن مثله مثل من هو في الظلمات، يعني به الكافر الذي هو في ظلمة الكفر. وقيل: معناه كمن هو في ظلمات الكفر ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ لكنه ذكره بلفظ المثل ليبين أنه بلغ في الكفر والحيرة غاية يضرب به المثل فيها".[٢] وذهب مفسرون آخرون الى أن ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ هي الجهل: "والجهل ظلمة وموت، لان العلم يهتدى به إلى الرشاد، كما يهتدى بالنور في الظلمات، وتدرك به الأمور كما تدرك بالحياة".[٣]

أضاف السبحاني الى تفسير الآية ملخَصاً ذكره الزمخشري قائلاً: " وحاصل الآية: إن مثل من هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به بين المحق والمبطل، والمهتدي والضال، مثله من كان ميتا فأحياه الله وجعل له نورا يمشي به في الناس مستضيئا به، فيميز بعضه من بعض".[٤] ثم قال: "هذا هو مثل المؤمن، ولا يصح قياس المؤمن بالباقي على كفره غير الخارج عنه، الخابط في الظلمات المتحير الذي لا يهتدي سبيل الرشاد، وفي الحقيقة الآية تشتمل على تشبيهين: الأول: تشبيه المؤمن بالميت المحيا الذي معه نور، والثاني: تشبيه الكافر بالميت الفاقد للنور، الباقي في الظلمات".[٥]

وتخلص الباحثة الى:

اولاً: إن المثال يشير إلى طائفة من الناس كانوا من الضالين، ثم غيروا مسيرتهم باعتناق الإسلام فهؤلاء أشبه بالميت الذي يحييه ذلك النور.

ثانياً: ذلك النور بمثابة روح باصرة تحل في تلك النفوس الميتة غير المؤمنة، فتؤثر فيها في جميع شؤونها إذ إن لابد للبصيرة من أمرين: سلامة حاسة العقل، ومن بزوغ نور الوحي والتنزيل في القلب.

ثالثاً: إن المؤمن الذي له ذلك التنزيل (القرآن) كالنور يمشي به بين الناس متبصرا في أموره، مهتديا لسبيله، عارفا للخير، مؤثرا فيه وفي غيره، وتكحل بأنوار القرب فلا يرى غير الله

---

(١) جامع البيان للطبري، ٣٠/٨.

(٢) مجمع البيان للطبرسي، ١٥٢/٤.

(٣) التبيان للطوسي: ٢٥٩/٤، الصراط المستقيم للبرجوردي، ١٩٣/١ وينظر: التفسير الحديث لدروزة: ١٥١/٤.

(٤) الكشاف للزمخشري، ٢ / ٤٨، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٣٤، الأمثال للسبحاني، ص١٣٤.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٣٤، الأمثال للسبحاني، ص١٣٤.

ولا يلتفت إلى سواه، ليس مثل الكافر الذي في ظلمات متــراكمة (ذاته وصفاته وأفعاله) ليس بخارج منها لسوء استعداده وعمله وغاية ضلاله وعناده.

التمثيل الثاني: مثل مسجد ضرار ومسجد قباء

-قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.(١)

بعد تعريف السبحاني لبعض كلمات(٢) الآيات اصطلاحا، ذكر سبب نزول الآيات إذ قال: "إن بني (عمرو بن عوف) اتخذوا مسجد قباء، وبعثوا إلى رسول الله (ﷺ) أن يأتيهم، فأتاهم وصلى فيه، فحسدهم جماعة من المنافقين من بني (غنم بن عوف)، فقالوا: نبني مسجدا فنصلي فيه ولا نحضر جماعة محمد وكانوا اثني عشر رجلا، وقيل خمسة عشر رجلا، منهم:(ثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، ونبتل بن الحرث)، فبنوا مسجدا إلى جنب مسجد قباء، فلما فرغوا منه، أتوا رسول الله (ﷺ) وهو يتجهز إلى تبوك. فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلي فيه لنا وتدعو بالبركة، فقال (ﷺ): ((إني على جناح سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه))،(٣) فلما انصرف رسول الله (ﷺ) إلى تبوك نزلت عليه الآية في شأن المسجد".(٤) إذ ذكر

---

(١) سورة التوبة، الآيات ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩.

(٢) عرف السبحاني هذه الكلمات اصطلاحا قائلاً: "الضرار": هو إيجاد الضرر عن عناد، "الأرصاد": الإعداد، "البنيان": بنى."التقوى": خصلة من الطاعة يحترز بها عن العقوبة. و"شفا": شفا البئر وغيره، جرفه. و"الجرف"جرف الوادي جانبه الذي يتحفر أصله بالماء، وتجرفه السيول فيبقى واهيا. مفاهيم القرآن، ٩/ ١٤٤، الأمثال للسبحاني، ص١٤٤.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي، ٨٠ / ٣٤٣، باب (فضل المساجد وأحكامها...)، تفسير أية ﴿ والذين اتخذوا مسجدا... ﴾، مستدرك الوسائل، لميرزا حسين النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، بيروت، ط٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ٣ / ٤٣٩، باب (نوادر ما يتعلق باحكام المساجد)، رقم الحديث (٦).

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٤٤، الأمثال للسبحاني، ص١٤٤ وينظر: التبيان للطوسي: ٢٩٧/٥، اسباب النزول للواحدي، ص١٧٥: معالم التنزيل للبغوي: ٣٢٦/٢، الكشاف للزمخشري: ٢/ ٢١٣، زاد المسير لابن الجوزي: ٣٣٨/٣، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٩٧/٣، البحر المحيط لابي حيان: ١٠١/٥.

هذا الحادث أغلب المفســـرين، وكثير من كتب التاريخ والحديث،[١] مع وجود اختـــلافات في جزئياته. نذكر بعض ما قيل: "نزلت في إثنى عشر رجلاً من المنافقين، وهم من الأنصار كلهم، من بني (عمرو بن عوف)، منهم: حرج بن خشف، وحارثة بن عمرو، وابنه زيد بن حارثة، قالوا: نبني مسجداً نتحدث فيه ونخلوا فيه، فإذا رجع أبو عامر الراهب اليهودي من الشام، قلنا له: بنيناه لتكون إمامنا فيه. وأنهم أتوا النبي (ﷺ)، فقالوا: يبعد علينا المشي إلى الصلاة، فأذن لنا في بناء مسجد، فأذن لهم، ففرغوا منه يوم الجمعة، فقالوا للنبي (ﷺ): من يؤمهم؟ قال: (رجل منهم) فأمر مجمع بن حارثة أن يؤمهم، فنزلت هذه الآية".[٢] وقيل: "انّ بني (عمر بن عوف) اتخذوا مسجد قبا وبعثوا إلى رسول الله (ﷺ) يأتيهم فأتاهم فصلى فيهم فحسدهم إخوتهم بنو (غنم ابن عوف)، وقالوا: نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله (ﷺ) يصلي فيه كما صلى في مسجد إخوتنا وليصلي فيه أبو عامر النعمان الراهب إذا قدم من الشام وكان أبو عامر رجلاً منهم وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة وكان قد ترهّب في الجاهلية وتنصّر ولبس المسوح. وكان الذين بنوه اثنا عشر رجلاً منهم: خذام بن خالد ومن داره أخرج المسجد، وثعلبة بن حاطب، وكان يصلي بهم مجمع بن يسار، فلما فرغوا أتوا رسول الله (ﷺ) وهو يتجهز إلى تبوك، وقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه وتدعو بالبركة، فقال رسول الله (ﷺ): ((إني على جناح السفر ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه)). فلما انصرف رسول الله (ﷺ) من تبوك ونزل (بذي أوان) نزل عليه القرآن فأخبره الله عزّ وجلّ خبر مسجد الضرار".[٣]

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام الحميري (ت ٢١٨ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين، المدني، القاهرة، (ب–ط)، ١٣٨٣ هـ – ١٩٦٣ م، ٩٥٦/٤، التبيان للطوسي، ٢٩٧/٥، اسباب النزول للواحدي، ص١٧٥، معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٦/٢، الكشاف للزمخشري، ٢/ ٢١٣، زاد المسير لابن الجوزي، ٣٣٨/٣، أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٧/٣، السيرة النبوية، لعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤ هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، (ب –ط)، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٦ م، ٣٨/٤، البحر المحيط لابي حيان، ١٠١/٥، السيرة الحلبية، لعلي بن برهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤ هـ)، دار المعرفة، بيروت، (ب –ط)، ١٤٠٠ هـ، ١٢٢/٣، بحـــــار الأنوار للمجلسي، ٨٠ / ٣٤٣، باب (فضل المساجد وأحكامها...)، تفسير أية ﴿ والذين اتخذوا مسجدا... ﴾، مستدرك الوسائل للطبرسي، ٣ / ٤٣٩، باب (نوادر ما يتعلق باحكام المساجد)، رقم الحديث (٦)، جواهر التاريخ (السيرة النبوية)، لعلي الكوراني العاملي، مطبعة وفا، بيروت، ط١، ١٤٣٠ هـ، ٥٠٦/١.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان، ٧١/٢.

(٣) الكشف والبيان للثعلبي، ٩٢/٥، التبيان للطوسي، ٢٩٧/٥، جوامع الجامع للطبرسي، ٩٤/٢، اسباب النزول للواحدي، ص١٧٥، معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٦/٢، الكشاف للزمخشري، ٢/ ٢١٣، زاد المسير لابن الجوزي، ٣٣٨/٣، أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٧/٣.

فسر السبحاني المثل في الآية بالقول: "إن الفرق الشاسع بين من بنى بنيانا على أساس محكم، ومن بناه على شفا جرف، فالأول يبقى عبر العصور ويحتفظ بكيانه في الحوادث المدمرة، بخلاف الثاني فإنه سوف ينهار لا محالة بأدنى ضربة".(١) وفسره الزمخشري بالقول: "أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهى الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ﴾ أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ في قلة الثبات والاستمساك، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى لأنه جعل مجازا عما ينافي التقوى".(٢) وهذا ماذهب اليه السبحاني إذ قال: "المؤمن هو الذي يعقد إيمانه على قاعدة محكمة وهو الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه، بخلاف المنافق فإنه يبني إيمانه على أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بناء وهو الباطل، فإيمان المؤمن ودينه من مصاديق قولـــــــه تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ ولكن دين المنافق كمن ﴿أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ فلا محالة ينهار به في نار جهنم".(٣) وذهب المفسرون في تأويل المثل على أقوال عدة تصب في المعنى نفسه:

- **القول الأول:** "مجاز التمثيل، لان ما بنوه على التقوى أثبت أساسا من البناء الذي بنوه على الكفر والنفاق، فهو على شفا جرف، وهو ما يجرف من الأودية، فلا يثبت البناء عليه".(٤)
- **القول الثاني:** إن الآية فيها إستعارة مكنية وأستعارة تصريحية: "الاستعارة مكنية حيث شبهت فيه التقوى بقواعد البناء تشبيهاً مضمراً في النفس ودل عليه ما هو من روادفه ولوازمه وهو التأسيس والبنيان، وفيها استعارة تصريحية تحقيقية حيث شبه الباطل والنفاق بشفا جرف هار في قلة الثبات".(٥)
- **القول الثالث:** "إن معنى الآية أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة هي التقوى وطلب الرضا بالطاعة خير أم من أسس على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها فأدى به ذلك لخوره وقلة استمساكه إلى السقوط في النار".(٦) "وهو يشبه المؤمنين بمن أراد أن يبني بناء،

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٤٥، الأمثال للسبحاني، ص١٤٥.

(٢) الكشاف للزمخشري، ١٢٥/٢ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٩٧/١٦.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٤٥، الأمثال للسبحاني، ص١٤٥.

(٤) جواهر الحسان للثعالبي، ٩٠/١.

(٥) روح المعاني للآلوسي، ٢٢/١١.

(٦) أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٨/٣، مقتنيات الدرر للحائري، ١٨٧/٥ وينظر: جواهر الحسان للثعالبي: ٩٠/١، روح المعاني للآلوسي: ٢٢/١١، الميزان للطباطبائي، ٣٩١/٩.

فإنه ينتخب الأرض الجيدة القوية التي تتحمل البناء، ومختار من مواد البناء الأولية ما كان جيدا. أما المنافقون فإنه يشبههم بمن يبني بيته على حافة النهر. ومثل هذه الأرض جوفاء لأن جريان الماء قد نخرها، وبالتالي فهي عرضة للسقوط في أي لحظة، وكذلك النفاق، فإن ظاهره حسن لكنه عديم المحتوى كالبناية الجميلة ذات الأساس النخر".[١]

وتخلص الباحثة الى:

١. إن رسالة الإسلام هي رسالة بناء وإصلاح واستقامة في الدين والعقيدة والعمل، فمن التزم بأصولها وعمل بموجبها، ظفر بخير الدنيا والآخرة.
٢. إن أحد البناءين قصد بانيه ببنائه تقوى الله ورضوانه، والبناء الثاني قصد بانيه ببنائه المعصية والكفر، فكان البناء الأول شريفاً واجب الإبقاء، وكان الثاني خسيساً واجب الهدم. إذ أن تأسيس البناء على تقوى الله ورضوانه: هو بحسن وصفاء النية فيه، وقصد القربى للَّه، وإظهار شرعه، والتأسيس على شفا جرف هار: هو بخبث النية، وقصد الرياء والسمعة، والتفريق بين المؤمنين.

التمثيل الثالث: مثل الكافر والمؤمن

-قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ * مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.[٢]

قال السبحاني في تفسيرها: "يصور سبحانه الكافر كالأعمى والأصم، والمؤمن بالبصير والسميع"،[٣] وهو ما أجمع عليه المفسرون[٤]: الأعمى والأصم: الكافر، والبصير والسميع: المؤمن.[٥] ثم أضاف قائلاً:"ينفي الله تعالى التسوية بينهما إذ إن هذا التمثيل يستقي مما وصف

---

(١) الأمثل للشيرازي، ٢٢٢/٦.

(٢) سورة هود، الآيتان / ٢٣، ٢٤.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩ / ١٥٠، الأمثال للسبحاني، ص١٥٠.

(٤) ينظر: مجاز القرآن للتميمي، ٢٨٧/١، جامع البيان للطبري، ٣٤/١٢، القرآن العظيم لأبي حاتم، ٢٠٢٠/٦، معاني القرآن للنحاس، ٣٤٠/٣، بحر العلوم للسمرقندي، ١٤٥/٢ ، القرآن العزيز لأبن زمنين، ٢٨٥/٢، الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٥/٥، الوجيز للواحدي، ٥١٧/١، معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٩/٢، التبيان للطوسي، ٤٦٧/٥، جوامع الجامع للطبرسي، ١٦٢/٢، تفسير غريب القرآن، لفخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥ هـ)، تحقيق: محمد كاظم الطريحي، انتشارات زاهدي، قم، ص٤٢٦، الأصفى للفيض الكاشاني، ص٥٣٥، الأمثال لابن قيم، ص١٣.

(٥) ينظر: مجاز القرآن للتميمي، ٢٨٧/١، جامع البيان للطبري، ٣٤/١٢، القرآن العظيم لأبي حاتم، ٦ /٢٠٢٠، معاني القرآن للنحاس، ٣٤٠/٣، بحر العلوم للسمرقندي، ١٤٥/٢ ، القرآن العزيز لأبن زمنين، ٢٨٥/٢، الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٥/٥، الوجيز للواحدي، ٥١٧/١، معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٩/٢، التبيان للطوسي، ٤٦٧/٥، جـــوامع=

وصف به سبحانه كلا الفريقين بأوصاف خاصة. فقال في حق الكافر: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾، [١] والمراد كان لهم أسماعا وأبصارا ولكنهم لم يكونوا يستخدمونها في سماع الآيات ورؤية الحقائق، فنفي الاستطاعة كناية عن عدم استخدام الأسماع، كما أن نفي الأبصار كناية عنه".[٢] ويعود ذلك "لما للاستعارة المكنية من تلميح وإيحاء، ولما فيها من تشخيص وتخييل وانتداب في التركيب"،[٣] وأن" مثل الكافر وهو الأعمى الذي لا يبصر الهدى والحق ولا أمر اللَّه وإن كان ينظر، وهو الأصم الذي لا يسمع الحق ولا أمر اللَّه وإن كان يسمع بأذنه"،[٤] فـ "مثل فريقي الكفر والايمان كمثل الأعمى الذي لا يرى بعينه شيئا، والأصم الذي لا يسمع شيئا فكذلك فريق الكفر لا يبصر الحق فيتبعه ويعمل به، لشغله بكفره بالله وغلبة خذلان الله عليه، لا يسمع داعي الله إلى الرشاد فيجيبه إلى الهدى فيهتدي به، فهو مقيم في ضلالته، يتردد في حيرته".[٥] "ووجه التشبيه هو أنه سبحانه خلق الإنسان مركباً من الجسد ومن النفس، وكما أن للجسد بصراً وسمعاً فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر، وكما أن الجسد إذا كان أعمى أصم بقي متحيراً لا يهتدي إلى شيء من المصالح، بل يكون كالتائه في حضيض الظلمات لا يبصر نوراً يهتدي به ولا يسمع صوتاً، فكذلك الجاهل الضال المضل، يكون أعمى وأصم القلب، فيبقى في ظلمات الضلالات حائراً تائهاً"،[٦] و"شبه الفريق الكافر بالأعمى والاصم، ولم يذكر الأبكم لان هذا الفريق يتكلم فهم كذبوا على الله ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهذا إنما يكون في الكلام".[٧]

= الجامع للطبرسي، ١٦٢/٢، تفسيرغريب القرآن للطريحي، ص٤٢٦، الأصفى للفيض الكاشاني، ص٥٣٥، كنز الدقائق للمشهدي، ص ١٤٦، الأمثال لابن قيم، ص١٣، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، (ب –ط – ت)، ص١٨٣، أمثال القرآن لحنبكة: ص ١١٨.

(١) سورة هود، من الآية / ٢٠.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٥٠، الأمثال للسبحاني، ص١٥٠.

(٣) الإشارة الجمالية في المثل القرآني، لعشتار داود محمد، منشورات أتحاد كتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥، ص٧٣.

(٤) مجاز القرآن للتميمي: ٢٨٧/١ وينظر: تنوير المقباس للفيروزآبادي: ص١٨٣، الامثال في القرآن لمحمود شريف: ص٥٧.

(٥) جامع البيان للطبري، ٣٤/١٢.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٠٩/١٧، وينظر: البحر المحيط لابي حيان: ٢١٤/٥، علم الإمام، لكمال الحيدري، تحقيق: علي حمود العبادي، ستارة، قم، ط١، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م: ص١٨٩، الأمثال للفياض: ص٥٧.

(٧) على طريق التفسير البياني، لفاضل صالح السامرائي، النشر العلمي، جامعة الشارقة، الامارات العربية المتحدة، ط١، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م، ٣/ ٧٧.

ذكـر السـبحاني وصـف الله تعـالى للمـؤمن فـي آيـة التمثيـل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ بأوصـاف ثلاثـة **تـذكرها الباحثة** وهي كالآتي:

أ. "**الإيمان بالله.**

ب. العمل الصالح.

ج. **التسليم إلى الله.** إذ قال: "﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾. فالمؤمن الصالح ثمرة من شجرة الإيمان كما أن التسليم والانقياد والخضوع والاطمئنان لما وعد الله من آثاره أيضا، إذ إن المؤمن هو الذي يسمع آياته ويبصرها في سبيل ترسيخ الإيمان في قلبه وإثماره. ثم إنه مثل الكافر والمؤمن بالتمثيل التالي، وقال: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.أي مثل فريق المسلِّمين كالبصير والسميع. ومثل فريق الكافرين كالأعمى والأصم، لأن المؤمن ينتفع بحواسه بأعمالها في معرفة المنعم وصفاته وأفعاله، والكافر لا ينتفع بها فصارت بمنزلة المعدومة. ثم إنه وصف الوضع بين الأعمى والأصم كما وصفها بين البصير والسميع، وذلك لإفادة تعدد التشبيه بمعنى: أن حال الكافر كحال الأعمى. وحال الكافر أيضا كحال الأصم. كما أن حال المؤمن كالبصير. وحاله أيضا كالسميع. وحاصل الكلام: إنه لا يستوي البصير والسميع مع الأعمى والأصم، والمؤمن والكافر أيضا لا يستويان".[١] وهذا ما ذهب اليه الطبرسي وآخرون إذ قال: "مثل فريق المسلِّمين كالبصير والسميع، ومثل فريق الكافرين كالأعمى والأصم، لأن المؤمن ينتفع بحواسه لاستعماله إياها في الدين، والكافر لا ينتفع بها، فصارت حواسه بمنزلة المعدوم، ودخل الواو ليبين أن حال الكافر كحال الأعمى على حدة، وكحال الأصم على حدة، وحال من يكون قد جمع بين الصفتين جميعا (هل يستويان مثلا) أي: هل يستوي حال الأعمى الأصم، وحال البصير السميع، عند عاقل ؟ فكما لا تستوي هاتان الحالتان عند العقلاء، كذلك لا تستوي حال الكافر والمؤمن".[٢] "وهل يستوي هذان الفريقان على اختلاف حالتيهما في أنفسهما عندكم أيها الناس ؟ فإنهما لا يستويان عندكم، فكذلك حال الكافر والمؤمن لا

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٥٠ –١٥١، الأمثال للسبحاني، ص١٥٠.

(٢) مجمع البيان للطبرسي، ٢٥٩/٥، مقتنيات الدرر للحائري، ٥/ ٣٠٥ وينظر: التفسير الكاشف لمغنية: ٢٢٢/٤، الوسيط للطنطاوي: ١٨٦/٧.

يستويان عند الله. فتعلموا حقيقة اختلاف أمريهما، فتنزجروا عما أنتم عليه من الضلال إلى الهدى ومن الكفر إلى الايمان".[١] "إن الشك في عدم استوائهما لا يليق بعاقل وإنما اللائق به هو اعتقاد تباين صفتيهما والدخول في صفوف المؤمنين الذين عملوا الأعمال الصالحات وأخبتوا إلى ربهم".[٢] "وان هذا الأمر من الوضوح إذ لا يحتاج الى قدر طويل من التذكر والتأمل فأنك إذا سألت أي فرد من عقلاء خلق الله: هل يستوي رجل أعمى أصم ورجل بصير سميع؟ كان جوابه: كلا لا يستويان"[٣] "ولا يستوي ما يعكسه الكفر من عمى القلب والروح والشعور، وما يعبّر عنه الإيمان من إشراقة الفكر والعقل والعاطفة، أو بما يمثّله الكفر من صممٍ عن نداء الله، ورفض للاستماع إليه، وما يوحي به الإيمان من انفتاح القلب على كلمات الله في كل قضايا الحياة، لتطّلعوا على عمق الأفكار والمواقف بنتائجها الإيجابية والسلبية، وما ينتهي إليه أمر الإنسان في عالم الرفض والقبول".[٤]

إختلف المفسرون في معنى الإخبات في الآية ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾، فقال بعضهم: معنى ذلك: "وأنابوا إلى ربهم".[٥] وقال آخرون معنى ذلك: خافوا ربهم.[٦] وقال آخرون: معناه: اطمأنوا.[٧] وقال آخرون: معنى ذلك: خشعوا وتواضعوا.[٨] "وهذه الأقوال متقاربة المعاني وإن اختلفت ألفاظها، لأن الإنابة إلى الله من خوف الله، ومن الخشوع والتواضع لله بالطاعة،

---

(١) جامع البيان للطبري، ٣٥/١٢.

(٢) الوسيط للطنطاوي، ١٨٧/٧.

(٣) على طريق التفسير البياني لفاضل السامرائي، ص ٧٨.

(٤) تفسير من وحي القرآن، لمحمد حسين فضل الله (ت ٢٠١٠ م)، دار الملاك، بيروت، ط٣، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م، ص ٤٨.

(٥) جامع البيان للطبري، ٣٣/١٢ وينظر :القرآن العزيز لأبن زمنين: ٢٨٥/٢، مجمع البيان للطبرسي: ٢٥٨/٥.

(٦) ينظر: حقائق التفسير، لأبي عبد الرحمن بن الازدي السلمي (ت٤١٢ هـ)، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م: ٣١٦/١ ، زاد المسير لابن الجوزي، ٤/ ٧٦.

(٧) ينظر :الوجيز للواحدي: ٥١٧/١، مدارك التنزيل للنسفي: ١٥٠/٢، الكشاف للزمخشري: ٢/ ٢٦٤.

(٨) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لسهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣ هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٣ هـ: ص٧٨، تفسير القمي، لعلي بن إبراهيم القمي (ت ٣٢٩ هـ)، تحقيق: طيب الموسوي الجزائري، دار الكتاب للطباعة، قم، ط٣، ١٤٠٤ هـ: ٣٢٥/١، بحر المحيط لأبي حيان، ١٤٥/٢، المفردات في غريب القرآن، للحسين بن محمد بن المفضل المعروف بـ (الراغب الأصفهاني) (ت ٤٢٥ هـ)، ط٢، ١٤٠٤ هـ: ص١٤١ ، التبيان للطوسي: ٤٦٦/٥، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٠٧/١٧، انوار التنزيل للبيضاوي: ١٣٢/٣، أمثال القرآن لحنبكة: ص ٦٣ و ١١٧، الامثال لأبن شريف: ص٥٨.

والطمأنينة إليه من الخشوع له".[١] "وفي كل صورة من تلك الصور إشارة إلى واحدة من أعلى الصفات الإنسانية في المؤمنين التي ينعكس أثرها على كامل حياتهم".[٢]

وتذهب الباحثة الى ماذهب اليه العلماء في: إن العالم الإنساني حصر في **فريقين:**

- **الفريق الأول:** الذين اتصفوا بصفات ثلاث **أحدها:** الإيمان، **ثانيها:** عمل الصالحات أشارة الى جميع أعمال الجوارح، **ثالثها:** الاخبات إلى ربهم إشارة إلى أعمال القلوب وهي الخشوع والخضوع والاستسلام والانابة لله تعالى كل ذلك من آثار الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن الاعتقاد الصحيح والعمل النقي أساس وجود هذه الصفات (البصير السميع)، وكل الملكات العالية في المحتوى الداخلي للإنسان.
- **الفريق الثاني:** الكافرون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين العمى والصمم؛ لأنهم مع كونهم يرون ويسمعون لكنهم لم ينتفعوا بذلك فصاروا كالفاقد لهما. "إن القرآن الكريم اتبع طريقة تجسيم الحقائق العقلية وتوضيحها وتبيينها لعامة الناس من خلال تشبه المعقولات بالمحسوسات، "بوصفه أحد توظيفاته الإعجازية المكثفة"،[٣] وهذا المثال من هذا القبيل، إذ أن الملاحظ فيه دقة التصوير، وصدق المماثلة بين المثل والممثل له، الا وهو تمثيل شيء معنوي بشيء مدرك بالحس الظاهر.[٤] "لأن أحسن الوسائل التي لها أثرها في معرفة الحقائق الحسية في عالم الطبيعة هي(العين والأذن) ولذلك لا يمكن أن يتصور أن أفرادا يولدون صما وعميانا يستطيعون إدراك مواضيع هذا العالم بصورة صحيحة، فهم يعيشون في عالم غامض ومجهول، كذلك حال الكافرين، فبسبب لجاجتهم وعدائهم للحق ووقوعهم أسرى بمخالب التعصب والأنانية وعبادة الذات، فقدوا بصرهم وسمعهم للحقيقة البينة، فلا يستطيعون ادراك الحقائق المرتبطة بعالم الغيب، وتأثير الإيمان، والتلذذ بعبادة الله، وعظمة التسليم لأمره. هؤلاء الأفراد يعيشون أبدا عميانا صما في ظلام مطبق وسكوت مميت. في حين أن المؤمنين الصادقين يرون كل حركة بأعين بصيرة، ويسمعون كل صوت بآذان سميعة، وبالتوجه إلى طريقهم يكون مصيرهم السعادة".[٥]

---

(١) جامع البيان للطبري، ٣٤/١٢، الوسيط للطنطاوي، ٧/ ١٨٦.

(٢) الأمثل للشيرازي، ٥١٠/٦.

(٣) الإشارة الجمالية في المثل القرآني لعشتار داود، ص٧٣.

(٤) ينظر :أمثال القرآن الكريم وصور من أدبه الرفيع لحسن حنبكة: ص١١٨.

(٥) الأمثل للشيرازي، ٥١١/٦.

التمثيل الرابع: تشبيه أعمال الكافرين بالرماد

-قال تعالى:﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾.(١)

بعد تعريف السبحاني لمعنى (العاصف)(٢) اصطلاحا بدأ بتفسير المثل قائلاً: "إنه سبحانه يشبه عمل الكافرين في عدم الانتفاع به برماد في مهب الريح العاصف، إذ لا يقدر أحد على جمع ذلك الرماد المتفرق، فكذلك هؤلاء الكفار لا يقدرون مما كسبوا على شئ فلا ينتفعون بأعمالهم البتة".(٣) إذ قال سبحانه في آية أخرى: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾،(٤) وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين وهو: "إن الذين كفروا بربهم وعبدوا غيره فأعمالهم يوم القيامة كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون على شيء من أعمالهم ينفعهم كما لا يقدر على الرماد إذا أرسل عليه الريح في يوم عاصف"،(٥) "وان كل ما تقرب به الكافر إلى الله تعالى فمحبط غير منتفع به لأنهم أشركوا فيها غير الله سبحانه وتعالى كالرماد الذي ذرته الريح وصار هباء لا ينتفع به".(٦) "وأن الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر، فكذا كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق من تلك الأعمال معهم خبر ولا أثر"،(٧) "فشبه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف، فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلا كالهباء المنثور لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان وكونها لغير الله عز وجل وعلى غير أمره برماد طيرته الريح العاصف فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه

---

(١) سورة ابراهيم، الآية / ١٨.

(٢) "العاصف": هو من"العصف": شدة الريح، يوم عاصف أي شديد الريح، وإنما جعل العصف صفة لليوم مع أنه صفة للريح لأجل المبالغة، وكأن عصف الريح صار بمنزلة جعل اليوم عاصفا. مفاهيم القرآن، ١٦٢/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٦٢.

(٣) مفاهيم القرآن، ١٦٢/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٦٢.

(٤) سورة الفرقان، الآية /٢٣.

(٥) جامع البيان للطبري، ٢٦٠/١٣ وينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم، ٧/ ٢٢٣٧، البحر المحيط لابي حيان: ٢٠١/١، مدارك التنزيل للنسفي: ٢٢٧/٢، الكشاف للزمخشري: ٢/ ٣٧٢، مقتنيات الدرر للحائري: ١١١/٦.

(٦) الوجيز للواحدي، ٥٨٠/١ وينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ١١٠/٣.

(٧) مفاتيح الغيب للرازي، ١٠٥/١٩ وينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٢٦٩/٤، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٧٥/٣، التفسير الصافي للكاشاني: ٨٣/٣، الميزان للطباطبائي: ٣٦/١٢.

فلذلك لا يقدرون مما كسبوا على شئ لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شئ فلا يرون لها أثرا من ثواب ولا فائدة نافعة فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه موافقا لشرعه".(١)

التمثيل الخامس: تشبيه الظالمين بالظالمين قبلهم

- قال تعـــالى:﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾.(٢)

قال السبحاني: "إن الآية تمثل حال قوم شاهدوا نزول جزء من العذاب والبلاء فعادوا يظهرون الندم على أعمالهم البغيضة ويطلبون الإمهال حتى يتلافوا ما فاتهم من الإيمان والعمل الصالح، إذ يحكي عنه سبحانه، ويقول: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾: أي مشاهدة نزول العذاب في الدنيا بشهادة استمهالهم، في قوله تعالى: ﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾. فيرد دعوتهم بأن هذا الطلب ليس طلبا صادقا وإنما ألجأهم إليه رؤية العذاب".(٣)وهذا ما ذهب اليه بعض العلماء في تفسير ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾: "أنذرهم في الدنيا قبل أن يأتيهم العذاب".(٤) "وهو نزول جزء من العذاب والبلاء الدنيوي، كعذاب قوم لوط وعاد وثمود وقوم نوح وفرعون، والذي تم من خلال الطوفان أو الزلازل والعواصف والريح وغيرها".(٥) وبعضهم الآخر ذهب الى ان المراد: "يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى فإنهم يسألون يؤمنذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب".(٦) وذهب أغلب المفسرين الى أن العذاب ليس في الدنيا وأنما في يوم القيامة إذ قالوا: "هو يوم

---

(١) الأمثال لابن قيم، ص٣٤ وينظر: القرآن العظيم لابن كثير: ٥٤٦/٢، الدر المنثور للسيوطي: ٧٤/٤.

(٢) سورة أبراهيم، الآيات / ٤٤، ٤٥، ٤٦.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٧٠، الأمثال للسبحاني، ص١٧٠ وينظر: الميزان للطباطبائي: ٨٣/١٢.

(٤) جامع البيان للطبري، ٣١٧/١٣، القرآن العظيم لأبي حاتم، ٢٢٥١/٧.

(٥) الأمثل للشيرازي، ٥٣٦/٧.

(٦) مدارك التنزيل للنسفي، ٢٣٤/٢.

القيامة"،[١] "وإنما خصهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثواب، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي".[٢]

ثم أضاف السبحاني قائلاً: "فيخاطبهم سبحانه بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾. إذ يكون مفاد الآية: حلفتم قبل نزول العذاب بأنه ليس لكم زوال من الراحة إلى العذاب، وظننتم أنكم بما تمتلكون من القوة والسطوة أمة خالدة مالكة لزمام الأمور، فلماذا تستمهلون؟"،[٣] وهو ما ذهب اليه الطباطبائي إذ قال: "والمعنى يقال لهم توبيخا ألم تكونوا أقسمتم من قبل نزول العذاب ما لكم من زوال وإنكم بما عندكم من القوة والسطوة ووسائل الدفاع أمة خالدة مسيطرة على الحوادث فما لكم تستمهلون إلى اجل قريب".[٤] وذهب أغلب المفسرين الى أن معنى الآية هو: إنكار البعث بعد الموت. إذ قالوا: "أو لم تكونوا في الدنيا أقسمتم من قبل ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، وأنكم إنما تموتون، ثم لا تبعثون".[٥] "وحلفتم في الدنيا انكم إذا متم لا تزالون عن تلك الحالة ولا تنتقلون إلى دار أخرى يعنى كفرتم بالبعث".[٦] "ذلك بطرا وأشرا ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال حيث بنوا شديدا وأملوا بعيدا، أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء".[٧] ثم فسر السبحاني قوله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ بالقول: "سكنتم ديار من كذب الرسل فأهلكهم الله وعرفتم ما نزل بهم من البلاء والهلاك والعذاب كقوم عاد وثمود، وضربنا لكم الأمثال وأخبرناكم بأحوال الماضين لتعتبروا فلم تتعظوا "،[٨] وهذا ما ذهب اليه الطبرسي وآخرون إذ قال: "وسكنتم ديار من كذب

---

(١) التبيان للطوسي، ٣٠٥/٦، جوامع الجامع للطبرسي، ٢٨٨/٢، الكشاف للزمخشري، ٢/ ٣٨٣، زاد المسير لابن الجوزي، ٢٧٣/٤، مفاتيح الغيب للرازي، ١٤٢/١٩، مقتنيات الدرر للحائري، ١٢٤/٦.

(٢) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي، ٩/ ٣٧٨.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩ / ١٧٠، الأمثال للسبحاني، ص١٧٠.

(٤) الميزان للطباطبائي، ٨٤/١٢.

(٥) جامع البيان للطبري، ٣١٨/١٣، القرآن العزيز لأبن زمنين، ٢/ ٣٧٥، الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٦/٥ وينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ١٢٣/٣، التبيان للطوسي: ٣٠٥/٦، زاد المسير لابن الجوزي: ٢٧٣/٤.

(٦) مدارك التنزيل للنسفي، ٢٣٤/٢.

(٧) الكشاف للزمخشري، ٢/ ٣٨٢ وينظر: جوامع الجامع للطبرسي: ٢٨٩/٢، مجمع البيان للطبرسي: ٨٧/٦، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٩٥/٣.

(٨) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٧١، الأمثال للسبحاني، ص١٧١.

الرسل قبلكم، فأهلكهم الله، وعرفتم ما نزل بهم من البلاء، والهلاك، والعذاب المعجل، وأخبرناكم بأحوال الماضين قبلكم، لتعتبروا بها، فلم تعتبروا، ولم تتعظوا".[١] وقال آخرون: "سكنوا من السكون أي قروا فيها واطمأنوا طيبي النفوس سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد لا يحدثونها بما لقى الأولون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا، بالأخبار أو المشاهدة، فأهلكناهم وانتقمنا منهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم".[٢] "ظلموا بذلك أنفسهم من الأمم التي كانت قبلكم. وعلمتم كيف أهلكناهم حين عتوا على ربهم وتمادوا في طغيانهم وكفرهم، ومثلنا لكم فيما كنتم عليه من الشرك بالله مقيمين الأشباه، فلم تنيبوا ولم تتوبوا من كفركم، فالآن تسألون التأخير للتوبة حين نزل بكم ما قد نزل بكم من العذاب، إن ذلك لغير كائن".[٣] وختم السبحاني ببيان أركان التمثيل بالقول: "المشبه به هو حال الأمم الهالكة بأفعالهم الظالمة. والمشبه هو الأمم اللاحقة لهم الذين رأوا العذاب فاستمهلوا الأجل وندموا ولات حين مناص".[٤] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين: "الأشباه، ومعناه: بينا أن مثلكم كمثلهم".[٥] وذهب بعض المفسرين في تفسير الآية ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ إن هذا ليس تمثيلاً وإنما وصف: "وصفنا لكم عذاب الأمم الخالية"،[٦] "صفات ما فعلوا وما فعل بهم وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم".[٧]

تخلص الباحثة: إن من لم يعتبر بأحوال الامم الماضية من خطأ وصواب، وسقوط ونهوض، وزيادة ونقصان ويتعرف على السنن الفاعلة في حياتها، والقوانين التي تحكم أفعالها، لم تتحقق العبرة التي تختزل لنا التجربة، وتطوي مسافة الزمان والمكان، وتمد أعمارنا إلى الماضي البعيد، وتوجه أبصارنا إلى أفق المستقبل.

---

(١) تفسير مجمع البيان للطبرسي، ٦/ ٩٠ وينظر: الصافي للفيض الكاشاني: ٩٦/٣، كنز الدقائق للمشهدي: ٧/ ٨٤، الدر المنثور للسيوطي: ٨٩/٤، مقتنيات الدرر للحائري: ٦/ ١٢٤.

(٢) مدارك التنزيل للنسفي، ٢٣٥/٢، الكشاف للزمخشري، ٢/ ٣٨٣ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٩/ ١٤٣، تفسير البحر المحيط لابي حيان: ٨٧/٤، فتح القدير للشوكاني: ١١٦/٣، روح المعاني للآلوسي: ٢٤٦/١٣.

(٣) جامع البيان للطبري، ٣١٩/١٣.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٧١، الأمثال للسبحاني، ص١٧١.

(٥) تفسير القرآن للسمعاني، ١٢٤/٣.

(٦) القرآن العزيز لأبن زمنين، ٣٧٥/٢ وينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٩٥/٢.

(٧) مدارك التنزيل للنسفي، ٢٣٥/٢، الكشاف للزمخشري، ٣٧٣/٢.

التمثيل السادس: النهي عن جعل الأشباه لله

-قال تعالى:﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.(١)

قال السبحاني في تفسير الآيات: "ندد سبحانه بعمل المشركين الذين يعبدون غير الله سبحانه، بأن معبوداتهم لا تملك لهم رزقا ولا نفعا ولا ضرا، فكيف يعبدونها مع أنها أشبه بجماد لا يرجى منها الخير والشر، وإنما العبادة للإله الرازق المعطي المجيب للدعوة. إذ إنه سبحانه يمثل لمعبود المشركين والمعبود الحق بالتمثيل التالي: افرض مملوكا لا يقدر على شيء ولا يملك شيئا حتى نفسه، فهو بتمام معنى الكلمة مظهر الفقر والحاجة، ومالكا يملك الرزق ويقدر على التصرف فيه، فيتصرف في ماله كيف شاء وينعم كيف شاء. فهل هذان متساويان؟ كلا وفي ضوء ذلك تمثل معبوداتهم الكاذبة مثل العبد الرق المملوك غير المالك لشيء، ومثله سبحانه كمثل المالك للنعمة الباذل لها المتصرف فيها كيف شاء".(٢) وهذا القول **الأول:** وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين: "هو مثل ضرب لعبادتهم الأوثان التي لا تملك شيئا والعدول عن عبادة الله الذي يملك كل شيء"،(٣) "ضرب مثلا لنفسه ولمن دونه، مثّل ما يشرك به المملوك العاجز عن التّصرّف رأسا، ومثّل نفسه بالحرّ المالك الَّذي رزقه اللَّه مالا كثيرا فهو يتصرّف فيه كيف يشاء. واحتجّ بامتناع الاشتراك والتّسوية بينهما، مع تشاركهما في الجنسيّة والمخلوقيّة، على امتناع التّسوية بين الأصنام الَّتي هي أعجز المخلوقات وبين اللَّه الغنيّ القادر على الإطلاق"،(٤) "مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن

---

(١) سورة النحل، الآيات /٧٣، ٧٤، ٧٥.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٧٦ – ١٧٧، الأمثال للسبحاني، ص١٧٦ – ١٧٧.

(٣) أحكام القرآن للجصاص، ٣/ ٢٤٢، التبيان للطوسي، ٦/ ٤٠٩.

(٤) كنز الدقائق للمشهدي، ٧/ ٢٤٠ و ينظر: معاني القرآن للنحاس: ٩١/٤، الوجيز للواحدي: ٦١٣/١، التبيان للطوسي: ٦/ ٤٠٩، مجمع البيان للطبرسي: ١٨١/٦، الأمثال لابن قيم: ص٢١، زبدة التفاسير لفتح الله: ٣/ ٥٨٩، الصافي للفيض الكاشاني: ١٤٧/٣، تفسير القرآن الكريم (تفسير شبر)، لعبد الله شبر (ت ١٢٤٢ هـ)، تحقيق: حامد حفني داود، ط ٣، ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٦ م: شرح ص ٢٧٣، مقتنيات الدرر للحائري: ١٨٣/٦، تيسير الكريم للسعدي: ص٤٤٤.

التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء".[١] **والثاني:** وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين من ان التمثيل للكافر والمؤمن وليس للمعبودات إذ: "هو الكافر لا يعمل بطاعة الله ولا ينفق خيرا والمؤمن يطيع الله في نفسه وماله".[٢] "هذا مثل ضربه الله للكافر، رزقه مالا فلم يقدم فيه خيرا ولم يعمل فيه بطاعة الله، هذا المؤمن أعطاه الله مالا، فعمل فيه بطاعة الله وأخذ بالشكر ومعرفة حق الله، فأثابه الله على ما رزقه الرزق المقيم الدائم لأهله في الجنة".[٣]

وتذهب الباحثة الى: ما رجحه الرازي من الأقوال وهو القول الأول وللحجج التي ذكرها: إذ قال: "واعلم أن القول الأول أقرب، لان ما قبل هذه الآية: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ وما بعدها: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾.[٤] أنما ورد في اثبات التوحيد، وفى الرد على القائلين بالشرك فحمل هذه الآية على هذا المعنى أولى".[٥] "وهذا التأويل أصوب، لأن الآية تكون من معنى ما قبلها، ومدارها في تبيين أمر الله والرد على أمر الأصنام".[٦]

<u>التمثيل السابع: العبد الأبكم والحر المتكلم</u>

-قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٧].

إن في معنى هذا المثل **قولين:**

-**أحدهما:** انه مثل للكافر والمؤمن. وهذا ما ذهب اليه السبحاني وآخرون إذ قال: "هذا التمثيل جاء لبيان موقف عبدة الأصنام والمشركين وموقف المؤمنين والصادقين، فيشبه

---

(١) الكشاف للزمخشري، ٢/ ٤٢٠.

(٢) تفسير القرآن أو (تفسير عبد الرزاق)، لعبد الرزاق الصنعاني (ت ٢١١ هـ)، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م، ٣٥٩/٢.

(٣) جامع البيان للطبري، ١٤/ ١٩٥، القرآن العظيم لأبي حاتم، ٧/ ٢٢٩٢ وينظر: تنوير المقباس للفيروزآبادي: ص٢٢٧، فتح القدير للشوكاني: ١٨٠/٣، الامثال لأبن شريف: ص٦١.

(٤) سورة النحل، من الآية / ٧٦.

(٥) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٠ /٨٤.

(٦) جواهر الحسان للثعالبي، ٤٣٥/٣.

(٧) سورة النحل، الآية /٧٦.

الأول بالعبد الأبكم الذي لا يقدر على شئ ويشبه الآخر بإنسان حر يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم"،[١] "فالكافر المشرك كالعبد الأبكم الأعمى والمؤمن الموحد كالحر العاقل الرشيد".[٢]

-**وثانيهما:** إنه مثل ضربه الله سبحانه لنفسه ولما يعبدون.[٣] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين إذ: "هل يستوي هذا الأبكم الكل على مولاه الذي لا يأتي بخير إذ توجه، ومن هو ناطق متكلم يأمر بالحق ويدعو إليه وهو الله الواحد القهار الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته ؟"[٤] "ان الأخرس العاجز الكل لا يكون مساويا للناطق القادر. إذن فكيف ساويتم أيها المشركون في العبادة بين اللَّه الجامع لجميع صفات الجلال والكمال وبين الأحجار التي ليست بشيء ؟".[٥] "فالصنم الذي يعبدون من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق بل هو أبكم القلب واللسان قد عدم النطق القلبي واللساني ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة والله سبحانه حي قادر متكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم"،[٦] "به يثبت ان ما يعبدونه من دون الله من الأصنام والأوثان وهو مسلوب القدرة لا يستطيع أن يهتدى من نفسه ولا ان يهدي غيره لا يساوى الله تعالى وهو على صراط مستقيم في نفسه هاد لغيره بإرسال الرسل وتشريع الشرائع".[٧]

ذكر السبحاني صفات العبد الرق **تذكرها الباحثة** بإيجاز:

١. "أبكم لا ينطق وبالطبع لا يسمع لما في الملازمة بين البكم وعدم السماع، بل الأول نتيجة الثاني، فإذا عطل جهاز السمع يسري العطل إلى اللسان أيضا، لأنه إذا فقد السمع فليس بمقدوره أن يتعلم اللغة".[٨] وذكر الرازي: إن في تفسير الأبكم أقوال: "**الأول:** الأبكم الأقطع

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٧٨، الأمثال للسبحاني، ص١٧٨ وينظر: الوجيز للواحدي: ٦١٤/١، الأمثـــــل للشيرازي: ٨/ ٢٦٥، عون الحنان للطهطاوي: ص١٩٨.

(٢) الأمثال لأبن شريف، ص ٦١.

(٣) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٢٣١/٢.

(٤) جامع البيان للطبري، ١٩٧/١٤ وينظر: معاني القرآن للنحاس: ٩٢/٤، احكام القرآن للجصاص: ٢٤٣/٣، تفسير القرآن العزيز لابن زمنيين: ٤١٢/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ١٩٠/٣، معالم التنزيل للبغوي: ٧٨/٣.

(٥) التفسير الكاشف لمغنية، ٥٣٤/٤ وينظر: التفسير المبين، لمحمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠ هـ)، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م: ص٣٥٥.

(٦) الأمثال لابن قيم، ص٢٣.

(٧) الميزان للطباطبائي، ٣٠٢/١٢.

(٨) مفاهيم القرآن، ١٧٨/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٧٨.

اللسان وهو الذي لا يحسن الكلام. **الثاني:** الأبكم الذي لا يعقل. **الثالث:** الأبكم المطبق الذي لا يسمع ولا يبصر".[١] "أي محروم من أن يَفهم الكلام ويُفهِم غيره بالكلام لكونه أبكم لا يسمع ولا ينطق فهو فاقد لجميع الفعاليات والمزايا التي يكتسبها الانسان من طريق السمع الذي هو أوسع الحواس نطاقا، به يتمكن الانسان من العلم باخبار من مضى وما غاب عن البصر من الحوادث وما في ضمائر الناس ويعلم العلوم والصناعات، وبه يتمكن من القاء ما يدركه من المعاني الجليلة والدقيقة إلى غيره ولا يقوى الابكم على درك شيء منها إلا النزر اليسير مما يساعد عليه البصر بإعانة من الإشارة".[٢] "والأبكم الأخرس الذي ماتت فيه حاسة السمع والنطق، وتعطلت قواه العقلية فغدا مبتور المنفعة ضيق التفكير، وأصبح عالة على ولي أمره أينما يوجهه لا يأتي بخير، فهو عديم النفع، ضائع النجح".[٣]

٢. وعاجز لا يقدر على شيء، ولو قلنا بإطلاق هذا القيد فهو أيضا لا يبصر، إذ لو أبصر لا يصح في حقه أنه لا يقدر على شيء، "لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر منذ الولادة".[٤]

٣. ﴿كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾: أي ثقل ووبال على وليه الذي يتولى أمره، " ثقل على وليه وقرابته، ووبال على صاحبه وابن عمه".[٥]

٤. ﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾ "لعدم استطاعته أن يجلب الخير، فلا ينفع مولاه، فلو أرسل إلى أمر لا يرجع بخير فهذا الرق الفاقد لكل كمال لا يرجى نفعه ولا يرجع بخير".[٦]

وتخلص الباحثة الى: أن الصفات المذكورة علة ومعلول لبعضها الآخر ولكنها ترسم صورة إنسان سلبي مائة في المائة حيث أن وجوده لا ينم عن أي خير أو بركة، إضافة لكونه ثقل على أهله ومجتمعه، لقد سمى الله السلبي في هذه الآية ﴿كَلٌّ﴾، وهذه الشخصية ضعيفة الفاعلية في مجالات الحياة كافة، فهي عيلة عليها.

ثم ذكر السبحاني صفات الحر بالقول: "وهناك إنسان حر له الوصفان الآتيان:

١. يأمر بالعدل.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي، ٨٦/٢٠.

(٢) الميزان للطباطبائي، ٣٠١/١٢.

(٣) الأمثال لابن شريف، ص٦١.

(٤) الأمثل للشيرازي، ٢٦٦/٨.

(٥) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي، ١٤٩/١٠.

(٦) ينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ١٧٨ – ١٧٩، الأمثال للسبحاني: ص١٧٨ –١٧٩.

٢. وهو على صراط مستقيم.

واختلف المفسرون في تفسير هذين الوصفين بإختلاف تفسير معنى المثل إذ قال السبحاني: **الأول:** فهو حاك عن كونه ذا لسان ناطق، وإرادة قوية، وشهامة عالية يريد إصلاح المجتمع، فمثل هذا يكون مجمعا لصفات عليا، فليس هو أبكم ولا جبانا ولا ضعيفا ولا غير مدرك لما يصلح الأمة والمجتمع. فلو كان يأمر بالعدل فهو لعلمه به فيكون معتدلا في حياته وعبادته ومعاشرته التي هي رمز الحياة "،[١] وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين إذ: "هو فصيح يأمر بالعدل والحق، ويدعو إلى الثواب والبر"،[٢]"فَهِمٌ منطيق ذو كفاية ورشد، ينفع الناس بحثّهم على العدل الشامل لمجامع الفضائل".[٣] وذهب بعضهم الى أنه: "هو الله الواحد القهار الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته"[٤] وأما **الثاني:** فقال السبحاني عنه: "أي كونه على صراط مستقيم، أي يتمتع بسيرة صالحة ودين قويم"،[٥] وهو ماذهب اليه النسفي وآخرون إذ قال: "على سيرة صالحة ودين قويم"،[٦] وقال الرازي: "كونه عادلا مبرأ عن الجور والعبث".[٧] ثم ختم السبحاني تفسير المثل بالقول: "فهذا المثل يبين موقف المؤمن والكافر من الهداية الإلهية، وقد أشار سبحانه إلى مغزى هذا التمثيل في آية أخرى، وقال:﴿ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾[٨]."[٩]

وتخلص الباحثة الى: أن التمثيل لرجلين **أحدهما:** أبكم لا ينطق ولا يتكلم بخير ولا بشيء، ولا يقدر على شيء متعلق بنفسه أو بغيره، وهو عالة على مولاه الذي يعوله، أينما يوجهه لا يحقق خيرا مطلقا، لعدم فهمه ما يقال له، ولا إفهام غيره، كذلك الكافر. **وثانيهما:**

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٧٨ – ١٧٩، الأمثال للسبحاني، ص١٧٨ –١٧٩.

(٢) مجمع البيان للطبرسي، ١٨٦/٦.

(٣) أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/ ٤١٢، زبدة التفاسير لفتح الله، ٥٩١/٣، أرشاد العقل السليم لابي السعود: ١٣٠/٥ وينظر: تفسير الجلالين للسيوطي: ص٣٥٦.

(٤) جامع البيان للطبري، ١٩٧/١٤ وينظر: معاني القرآن للنحاس: ٩٢/٤، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٤١٢/٢، الكشف والبيان للثعلبي: ٣١/٦، معالم التنزيل للبغوي: ٧٨/٣.

(٥) مفاهيم القرآن، ١٧٩/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٧٩.

(٦) مدارك التنزيل للنسفي، ٢٦٤/٢، جوامع الجامع للطبرسي، ٣٤٠/٢، زبدة التفاسير لفتح الله، ٥٩١/٣، الأصفى للفيض الكاشاني، ٦٥٧/١.

(٧) مفاتيح الغيب للرازي، ٨٦/٢٠.

(٨) سورة يونس، من الآية /٣٥.

(٩) مفاهيم القرآن، ١٧٩/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٧٩.

رجل كامل المواهب والحواس، ينفع نفسه وغيره، يأمر بالعدل، ويسير على منهج الحق والطريق القويم والدين الصحيح، هو المؤمن، هل يستوي هذان الرجلان ؟ وإن الأول عديم النفع، وهو كالصنّم لا يسمع ولا ينطق، والثاني كامل النفع، والكمال لله تعالى بالطبع والأمثال تضرب لتقريب فكرة ما، وهو كالإله الواحد الذي يدعو إلى الخير، ويأمر بالعدل، يجب أن يكون موصوفا بالنطق وإلا لم يكن آمرا به. ويجب أن يكون قادرا، ويجب أن يكون عالما حتى يمكنه التمييز بين العدل وبين الجور، فثبت أن وصفه بأنه يأمر بالعدل يتضمن وصفه قادرا عالما، وكونه آمرا يناقض كون الأول أبكم، وكونه قادراً يناقض وصف الأول بأنه لا يقدر على شئ وبأنه كل على مولاه، وكونه عالما يناقض وصف الأول بأنه لا يأتي بخير. فإذا كان هذان الرجلان لا يتساويان بداهة، فلا تساوي أصلا بين الله تعالى، وبين ما يزعمون أنه شريكاً له سبحانه.

التمثيل الثامن: تمثيل الكافر الغني والمؤمن الفقير

-قال تعالى:﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا * كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا * وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞۚ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا * وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا * قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا * لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا * وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا * فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا * أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا *وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا * وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ﴾.[1]

أستهل السبحاني تفسير آيات التمثيل بالتعريف اللغوي لبعض مفرداتها[2] ثم بدأ التفسير

---

(١) سورة الكهف، الآيات / ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣.

(٢) "الحف": من حف القوم بالشئ إذا أطافوا به، وحفاف الشئ جانباه كأنهما أطافا به، فقوله في الآية (فحففناهما بنخل) أي جعلنا النخل مطيفا بهما. ينظر: تاج العروس للزبيدي: ١٤٢/١٢، مادة (حفف). "تبيد": فهو من باد الشئ، يبيد بيادا إذا تفرق وتوزع في البيداء أي المفازة. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٩٧/٣، مادة (بيد)، تاج العروس للزبيدي: ٣٦٧/٤، مادة (بيد). "حسبانا": أصل الحسبان السهام التي ترمى، الحسبان ما يحاسب عليه، فيجازى بحسبه فيكون النار والريح من مصاديقه. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٣١٥/١، مادة (حسب). "الصـــعيد":=

قائلاً: "هو تمثيل للمؤمن والكافر بالله"،[١] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين.[٢] ثم ذكر السبحاني سبب نزول الآيات وهو ما أشار اليه الرازي في تفسيره إذ قال: " افتخر بعض الكافرين بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، فضرب الله سبحانه ذلك المثل يبين فيها بأنه لا اعتبار بالغنى الموقت وأنه سوف يذهب سدى، أما الذي يجب المفاخرة به هو تسليم الإنسان لربه وإطاعته لمولاه "،[٣] ومنهم من قال: "اضرب يا محمد لهؤلاء المشركين بالله، الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، مثلا مثل رجلين...."،[٤] "يروى أن اليهود قالوا: سلوه عن أصحاب الكهف، وعن الروح، وعن رجلين؟ فأنزل الله عز وجل هذا، وجعله مثلا لجميع الناس".[٥] ثم بدأ ببيان ذلك المثل بذكر قصة صاحب الجنتين وهي قصة متفق عليها عند جميع المفسرين مع تفصيلات وجزئيات لا تبعد عن مراد التمثيل تذكرها الباحثة في خلال فقراتها. إذ قال: "وحقيقة ذلك التمثيل أن رجلين "كانا أخوين"[٦] مات أبوهما، ومنهم من قال: أنهما "جارين كان لاحدهما بستانان كبيران، وكان له جار فقير، فافتخر الغني على ذلك الفقير".[٧] وترك مالا وافرا فأخذ أحدهما حقه منه وهو المؤمن منهما فتقرب إلى الله بالإحسان والصدقة، وأخذ الآخر حقه فتملك به ضياعا بين الجنتين فافتخر الأخ الغني على الفقير، وقال: ﴿ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ وما هذا إلا لأنه كان يملك "جنتين"،[٨] أو "بستانين"[٩] من أعناب ونخل مطيفا بهما وبين الجنتين زرع وافر، وقد تعلقت مشيئته بأن

= يقال لوجه الأرض.ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٢٨٧/٣، مادة (صعد). "زلق" أي دحضا لا نبات فيه. ينظر: الصحاح للجوهري: ١٤٩١/٤، مادة (زلق).

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٩٣ الأمثال للسبحاني، ص ١٩٣.

(٢) بحر العلوم للسمرقندي: ٣٤٦/٢، الكشف والبيان للثعلبي: ١٦٩/٦، الوجيز للواحدي: ٦٦٠/٢، جوامع الجامع للطبرسي: ٤١٤/٢، زبدة التفاسير لفتح الله: ١٠٨/٤ وينظر: الشارة الجمالية لعشتار داود: ص١٢٠.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ٢١ / ١٢٢، مفاهيم القرآن، ١٩٤/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٩٤ وينظر: القرآن العظيم لابن كثير: ٨٧/٣.

(٤) جامع البيان للطبري، ٣٠٣/١٥ وينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ١٦٩/٦، جواهر الحسان للثعالبي: ٥٢٣/٣، التفسير الوسيط للزحيلي: ١٤٢٣/٢.

(٥) معاني القرآن للنحاس، ٢٣٨/٤.

(٦) مقتنيات الدرر للحائري،٦/ ٣٠١.

(٧) تفسير القمي للقمي، ٣٥/٢ ، مجمع البيان للطبرسي، ٦/ ٣٤٢ وينظر:الصافي للفيض الكاشاني: ٢٤٢/٣.

(٨) القرآن العزيز لأبن زمنين، ٦١/٣، الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٩/٦، مفاهيم القرآن، ١٩٥/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٩٥.

(٩) مجمع البيان للطبرسي، ٦/ ٣٤٢، زبدة التفاسير لفتح الله، ١١٠/٤، الأصفى للفيض الكاشاني، ٧١٥/٢.

تـأتي الجنتـان أُكلهمـا ولـم تـنقص شـيئا وقـد تخللهـا نهـر غزيـر المـاء وراح صـاحب الجنتـين المثمرتين يفتخر على صاحبه بكثرة المال"والخدَّمة"[١] أو"أعز عشيرة ورهطا"[٢] أو "أولادا"[٣]. وكان كلما يدخل جنته يقول: ما أظن أن تفنى هذه الجنة وهذه الثمار أو المال– أي تبقى أبدا – وأخذ يكذب بالساعة، ويقول: ما أحسب القيامة آتية، ولو افترض صحة ما يقوله الموحدون من وجود القيامة، فلئن بعثت يومذاك، لآتاني ربي خيرا من هذه الجنة، بشهادة أعطائي الجنة في هذه الدنيا دونكم، وهذا دليل على كرامتي عليه. هذا ما كان يتفوه به وهو يمشي في جنته مختالا، وعند ذاك يواجهه أخوه بالحكمة والموعظة الحسنة. ويقول: كيف كفرت بالله سبحانه مع أنك كنت ترابا فصرت نطفة، ثم رجلا سويا، فمن نقلك من حال إلى حال وجعلك سويا معتدل الخلقة ؟ وبما أنه ليس في عبارته إنكار للصانع صراحة، بل إنكار للمعاد، فكأنه يلازم إنكار الرب فإن افتخرت أنت بالمال، فأنا أفتخر بأني عبد من عباد الله لا أشرك به أحدا ثم ذكره بسوء العاقبة، وأنك لماذا لم تقل حين دخولك البستان ما شاء الله، فإن الجنتين نعمة من نعم الله سبحانه، فلو بذلت جهدا في عمارتها فإنما هو بقدرة الله تبارك وتعالى ثم أشار إلى نفسه، وقال: أنا وإن كنت أقل منك مالا وولدا، ولكن أرجو أن يجزيني ربي في الآخرة خيرا من جنتك، كما أترقب أن يرسل عذابا من السماء على جنتك فتصبح أرضا صلبة لا ينبت فيها شيء، أو يجعل ماءها غائرا ذاهبا في باطن الأرض على وجه لا تستطيع أن تستحصله قالها أخوه وهو يندد به ويحذره من مغبة تماديه في كفره وغيه ويتكهن له بمستقبل مظلم. فعندما جاء العذاب وأحاط بثمره، ففي ذلك الوقت استيقظ الأخ الكافر من رقدته، فأخذ يقلب كفيه تأسفا وتحسرا على ما أنفق من الأموال في عمارة جنتيه، وأخذ يندم على شركه، ويقول: يا ليتني لم أكن مشركا بربي، ولكن لم ينفعه ندمه ولم يكن هناك من يدفع عنه عذاب الله ولم يكن منتصرا من جانب الذين افتخر بهم حين قال وأعز نفرا هذه حصيلة التمثيل"،[٤] وقد بينه سبحانه على وجه الإيجاز، بقوله:﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾.[٥] وبهذه

---

(١) بحر العلوم للسمرقندي، ٣٤٧/٢، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٩٥، الأمثال للسبحاني، ص١٩٥.

(٢) جامع البيان للطبري، ٣٠٦/١٥، التبيان للطوسي، ٤٢/٧، مجمع البيان للطبرسي، ٣٤٣/٦، تقريب القرآن لمحمد الشيرازي، ٣/ شرح ص ٣٨٥.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٨٩/٢، الأصفى للفيض الكاشاني، ٧١٦/٢، الميزان للطباطبائي، ٣٠٩/١٣.

(٤) مفاهيم القرآن، ١٩٤/٩– ١٩٦، الأمثال للسبحاني، ص١٩٤–١٩٦ وينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠٣/١٥–٣٠٤، مجمع البيان للطبرسي: ٣٤٢/٦–٣٤٣، الوجيز للواحدي: ٢/ ٦٦٢، الأمثال للفياض: ص٤٠٨ – ٤٠٩.

(٥) سورة الكهف، الآية /٤٦.

الآية يكون السبحاني قد خالف المفسرين بـ "أنه سبحانه أشار إلى هذا التمثيل في سورة الصافات في آيات أخرى"،[١] وقال: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾،[٢] "وهذا المثل ضربه الله تعالى في وصف حال الكافر الغني، وما يجره إليه البطر من كفران حق المنعم، وحال المؤمن الذي ملأ الإيمان والثقة بالله صدره، فلا ينظر للمال والحطام إلا نظرة للأمور المتنقلة والأغراض الزائلة المتحولة ؛ فلو منحها شكر، ولو حرمها صبر، وهو في كل ذلك كبير الفؤاد عزيز النفس، بعيد من الدنايا وأرتكاب الخطايا"،[٣] "لقنه الله درساً يتناسب ومداركه، التي تقف عند الظواهر المحسوسة، ففاجأه بفناء جنته، ليوقن ان الله على كل شيء قدير، وان لا حول ولا قوة ولا سلطان على ما أجتمع لديه من مال وولد".[٤]

ختم السبحاني مفهوم المثل بالقول: "إلى هنا تبين مفهوم المثل وأما تفسير مفردات الآية وجملها، فالإمعان فيما ذكرنا يغني الباحث عن تفسير الآية ثانيا".[٥]

ويبدو للباحثة: إن الرجل الكافر، لم يتورع أن يسن قانونا أبديا، ليس خاصاً به فحسب، وإنما بموجودات هذا الكون جميعاً. مستنداً إلى مقدمة واهيـــة ﴿ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾ و ﴿ مَّآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴾وهذا القانون الأبدي الذي جاء نتيجة للاستناد إلى تلك المقدمة الخاطئة. فجاء الرد على ما نسجه من أوهام ذلك الغني المغرور العديم الإيمان، نسمعها تجري على لسان أخيه المؤمن: ﴿ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا..... ﴾. فكانت العاقبة السوداء بعد إنتهاء الحوار بين الرجلين دون أن يؤثر الشخص الموحد المؤمن في أعماق الغني المغرور، الذي رجع إلى بيته وهو يعيش نفس الحالة الروحية والفكرية، وغافل أن الأوامر الإلهية إذ صدرت بإبادة بساتينه ومزروعاته الخضراء، وأنه وجب أن ينال جزاء غروره وشركه في هذه الدنيا، لتكون عاقبته عبرة للآخرين.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي، ٢١ /١٢٣، البحر المحيط لابي حيان، ١١٨/٦ ، فتح القدير للشوكاني، ٢٨٦/٣.

(٢) سورة الصافات، الآيات /٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥.

(٣) العظات الدينية في الامثال القرآنية والنبوية والعربية، لعلي فكري جامع، مكتبة الجامعة الاردنية، الاردن، ٢٠١٤ م، ص٧٨.

(٤) الأمثال للفياض، ص ٤١٣ – ٤١٤.

(٥) مفاهيم القرآن، ١٩٦/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٩٦.

التمثيل التاسع: تمثيل الكافر والمؤمن بالأضداد

-قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾.(١)

شرع السبحاني تفسير التمثيل بعد التعريف اللغوي لبعض مفردات(٢)آياته إذ قال:"هذا تمثيل للكافر والمؤمن"،(٣) وهو ما ذهب إليه أغلب المفسرين.(٤) ثم ذكر صفات كلا الطرفين قائلاً: "أما الكافر فقد شبهه بالصفات الآتية:١- **الأعمى، ٢- الظلمات، ٣- الحرور، ٤- الأموات. وشبه المؤمن بأضدادها التالية: أ- البصير، ب- النور، ج- الظل، د- الأحياء.** وما ذلك إلا لأن الكافر عدم إيمانه بالله سبحانه وصفاته وأفعاله، فهو أعمى البصر تغمره ظلمة دامسة لا يرى ما وراء الدنيا شيئا، وتحيط به نار، قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾،(٥) وظاهر الآية أن النار محيطة بهم في هذه الدنيا وإن لم يشعروا بها، كما أنه مَيت لا يسمع نداء الأنبياء وإن كان حيا يمشي، وهذا بخلاف المؤمن فإنه يبصر بنور الله يغمره نور زاهر. يرى دوام الحياة إلى ما بعد الموت، فهو في ظل ظليل رحمته، وأنه يسمع نداء الأنبياء ويؤمن به. وبعبارة واضحة: الكافر مجالد مكابر، والمؤمن واع متدبر".(٦) فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى، مآلهما ومرجعهما هو الظل والحرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة والكافر بكفره في حر وتعب، كرر كلمة النفي بين الظلمات والنور والظل والحرور والأحياء والأموات، ولم يكرر بين الأعمى والبصير؛ لأن التكرير لتأكيد النفي.(٧) ومنهم من ذهب الى أنه: "هو مثل ضربه الله لأهل الطاعة وأهل المعصية. يقول: وما يستوي الأعمى والظلمات والحرور، ولا الأموات، فهو مثل أهل المعصية.

---

(١) سورة فاطر، الآيات /١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢.

(٢) "الحرور": حر الشمس، وهو السموم في النهار، وهي الريح الحارة. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٧٧/٤، مادة (حرر).

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٦، الأمثال للسبحاني، ص٢٢٦.

(٤) ينظر: تفسير القرآن للصنعاني، ١٣٥/٣، تفسير القمي للقمي، ٢٠٨/٢، زبدة التفاسير لفتح الله، ٤٧٥/٥، الأصفى للفيض الكاشاني، ١٠٢٤/٢، البرهان للبحراني، ٥٤٣/٤، نور الثقلين للحويزي، ٣٥٨/٤، الميزان للطباطبائي، ٣٦/١٧.

(٥) سورة التوبة، من الآية /٤٩.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٦ – ٢٢٧، الأمثال للسبحاني، ص ٢٢٦ –٢٢٧.

(٧) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٦/٢٦ – ١٧، الميزان للطباطبائي: ٣٦/١٧.

ولا يستوي البصير ولا النور، ولا الظل والاحياء، فهو مثل أهل الطاعة".[١] "وهذه الأمثال أمثال ضربها الله لعبادة الله وعبادة الأوثان، وبين أنه كما لا تتماثل هذه الأشياء ولا تتشاكل ولا تتساوى، فكذلك عبادة الله لا تشبه عبادة الأصنام".[٢] "مثل للجاهل والعالم".[٣] "أو للصنم والله (ﷻ)، الظلمات والنور، والظل والحرور مثلان للحق والباطل وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب، والاحياء والأموات مثل للذين دخلوا في الاسلام والذين لم يدخلوا فيه وأصروا على الكفر".[٤]

وتخلص الباحثة: إن الإيمان نور وإشراق، يعطي البصيرة والمعرفة للإنسان في النظرة إلى العالم، وفي الاعتقاد، والعمل وفي كل الحياة، فيجعله ذو عقيدة قوية ثابته في الحياة الدنيا ويقين بالآخرة، فيكون له حسن العاقبة في الدارين. أما الكفر فظلمة فوق الظلمات، فلا اعتقاد صحيح ولا نظرة سليمة عن العالم، ولا عمل صالح ينتفع به، خسران في خسران.

التمثيل العاشر: المثل بأصحاب القرية

-قال تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ * إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ * قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ * قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ * قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ * وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ * إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ * قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ * وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ * يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾.[٥]

---

(١) جامع البيان للطبري، ١٥٤/٢٢ وينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٢٠٢/٣.

(٢) التبيان للطوسي، ٤٢٣/٨ وينظر: مجمع البيان للطبرسي: ٨/ ٢٤٠، الكشاف للزمخشري، ٣/ ٣٠٦.

(٣) الكشف والبيان للثعلبي، ٨/ ١٠٥ وينظر: معالم التنزيل للبغوي: ٥٦٨/٣، مدارك التنزيل للنسفي: ٣/ ٣٤١.

(٤) الكشاف للزمخشري، ٣/ ٣٠٦.

(٥) سورة يس، الآيات /١٣-٣٠

بـدأ السبـحاني تفسير الآيـات بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفرداتها[١] إذ قال: "هذا التمثيل تمثيل إخباري يشرح حال قوم بعث الله إليهم الرسل، فكذبوهم وجادلوهم بوجوه واهية. إذ أقبل إليهم رجل من أقصى المدينة يدعوهم إلى متابعة الرسل بحجة أن رسالتهم رسالة حقة، ولكن القوم ما أمهلوه حتى قتلوه، وفي هذه الساعة عمت الكاذبين الصيحة فأهلكتهم عامة، فإذا هم خامدون".[٢]

ذكر السبحاني تفصيل قصة التمثيل وهو ما ذهب اليه مفسرون عدة إذ قال: " أن المسيح (عليه السلام) بعث إلى قرية أنطاكية رسولين من الحواريين باسم: "شمعون ويوحنا"،[٣] فدعوا إلى التوحيد ونددا بالوثنية، وكان القوم وملكهم غارقين في الوثنية. وناديا أهل القرية بأنا إليكم مرسلون، فواجها تكذيب القوم وضربهما، فعززهما سبحانه برسول ثالث، فعند ذلك أخذ القوم بالمكابرة والمجادلة والعناد، محتجين بوجوه واهية:

أ. أنكم بشر مثلنا ولا مزية لكم علينا، وما تدعون من الرسالة من الرحمن ادعاء كاذب، فأجابهم الرسل بأنه سبحانه يعلم أنا لمرسلون إليكم، وليس لنا إلا البلاغ كما هو حق الرسل.[٤]

ب. إنا نتشاءم بكم، "وهذه حجة العاجز التي لا يستطيع أن يحتج بشيء، فيلوذ إلى اتهامهم بالتشاؤم والتطير".[٥]

ج. التهديد بالقتل رجماً بالحجارة إذا أصروا على إبلاغ رسالتهم والدعوة إلى التوحيد والنهي عن عبادة الأوثان وليقعن بكم منا عذاب أليم.[٦] وقد أجاب الرسل **بجوابين:**

---

(١) "التعزيز" في الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "النصرة مع التعظيم". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٩. "طير" في اللغة: تطير فلان واطير، أصله التفاؤل بالطير، ثم يستعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٥١٢/٤، مادة (طير). وفي الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "الذي ينبغي أن تتشاءموا به هو معكم، أعني: حالة إعراضكم عن الحق الذي هو التوحيد وإقبالكم على الباطل". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٩."الرجم" في اللغة: الرمي بالحجارة. ينظر: العين للفراهيدي: ١١٩/٦، مادة (رجم)."الصيحة" في الاصطلاح عرفها السبحاني بأنها: "رفع الصوت". مفاهيم القرآن، ٢٢٩/٩، الأمثال للسبحاني، ص ٢٢٩.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٩، الأمثال للسبحاني، ص٢٢٩.

(٣) مجمع البيان للطبرسي،٢٦٣/٨،مقتنيات الدرر للحائري،٧٣/٩، الأتقان للسيوطي،٣٩٢/٢.

(٤) ينظر: قصص الأنبياء، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير(ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثة، مصر، ط١،١٣٨٨ هـ- ١٩٦٨ م:٣٨١/١، الأمثال للسبحاني، ص٢٣٠.

(٥) مفاهيم القرآن، ٢٣٠/٩، الأمثال للسبحاني، ص٢٣٠.

(٦) ينظر: معاني القرآن للنحاس:٤٨٤/٥، مفاتـــيح الغيب للرازي: ٥٣/٢٦، الميـــزان للطباطبائي: ٧٤/١٧، الأمـــثل للشيرازي: ١٥٣/١٤، مفاهيم القرآن: ٢٣٠/٩، الأمثال للسبحاني: ص٢٣٠.

الأول: "إن التشاؤم والتطير معكم، أي أعمالكم وأحوالكم، وابتعادكم عن الحق، وانكبابكم على الباطل هو الذي يجر إليكم الويل والويلات".[١]

الثاني: إنكم قوم مسرفون، أي متجاوزون عن الحد، عادتكم الإسراف في العصيان.[٢]

أضاف السبحاني قائلاً: "كان الرسل يحتجون بدلائل ناصعة وهم يردون عليهم بما ذكر، وفي خضم هذه الأجواء جاء رجل من أقصى المدينة نصر وعزز قول الرسل ودعوتهم محتجا بأن هؤلاء رسل الحق، وذلك للأمور الآتية:

١. إن دعوتهم غير مرفقة بشيء من طلب المال والجاه والمقام، وهذا دليل على إخلاصهم في الدعوة، وقد تحملوا عناء السفر وهم لا يسألون شيئا.
٢. إن اللائق بالعبادة من يكون خالقا أو مدبرا للعالم، ومن بيده مصيره في الدنيا والآخرة وليس هو إلا الله سبحانه الذي ينفعني، فكيف أترك عبادة الخالق الذي بيده كل شيء، وأتوجه إلى عبادة المخلوق (الآلهة المزيفة) التي لا تستطيع أن تدفع عني ضرا ولا تنفعني شفاعتهم؟! فلو اتخذت إلها غيره سبحانه كنت في ضلال مبين، فلما تم حجاجه مع القوم وعزز الرسل وبين برهان لزوم اتباعهم، أعلن، وقال: أيها الناس:﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾".[٣]

وأتم السبحاني قصة القرية قائلاً: "إذ يظهر من القرائن إن القوم هجموا عليه وقتلوه، ولكنه سبحانه جزاه، فأدخله الجنة، وهو فرح مستبشر يود لو علم قومه بمصيره عند الله. فلما تبين عناد القوم وقتل من احتج عليهم بحجج قوية نزل عذابه سبحانه، فعمتهم صيحة واحدة أخمدت حياتهم وصيرتهم جمادا".[٤] "ففي هذه اللحظة الحاسمة التي يختار الإنسان الضلالة على الهداية، والباطل على الحق، يصح أن يخاطبهم سبحانـــــــه، ويقول:﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾".[٥]

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/٢٣٠، الأمثال للسبحاني، ص٢٣٠ وينظر: معالم التنزيل للبغوي:٩/٤، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦ هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣م: ٤/٤٤٩.

(٢) ينظر:أنوار التنزيل للبيضاوي:٤/٢٦٥، البحر المحيط لأبي حيان: ٧/٣١٤، مفاهيم القرآن: ٩/٢٣٠.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/٢٣٠، الأمثال للسبحاني، ص٢٣٠.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٩- ٢٣١، الأمثال للسبحاني، ص٢٢٩-٢٣١ وينظر:عمدة القارئ للعيني: ١٩/١٦، جامع البيان للطبري: ١٨٦/٢٢ – ١٩٣، معاني القرآن للنحاس: ٤٨٢/٥ – ٤٨٩، التبيان للطوسي: ٨/ ٤٤٦ -٤٤٩، زاد المسير لابن الجوزي: ٢٦٥/٦ – ٢٦٦، قصص الأنبياء لابن كثير: ٣٨١/١.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/٢٣١، الأمثال للسبحاني، ص٢٣١.

أشار السبحاني الى النكات الموجودة في الآيات **تذكر الباحثة** بعضاً منها كما يأتي:

الأولى: "إن الرسولين لم يكونا مبعوثين من الله مباشرة، وإنما بعثا من قبل المسيح (عليه السلام). مثل الرسول الثالث، ولما كان بعث المسيح بأمر من الله سبحانه، نسب فعل المسيح إليه سبحانه، وقال:﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ ﴾"،[١] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٢]: "أن عيسى ابن مريم بعث إلى أهل القرية أهل أنطاكية رجلين من الحواريين ثم أتبعهم بثالث"،[٣] "أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى بإذن الله فكان عليهما إنهاء الأمر إلى عيسى والإتيان بما أمر الله، والله عالم بكل شيء لا يحتاج إلى شاهد يشهد عنده، وأما عيسى فهو بشر فأمره الله بإرسال اثنين ثم عززه بثالث ليكون قولهم على القوم عند عيسى حجة تامة".[٤]

الثانيـة: لقد وقفت على أن القوم قاموا بالجدال والعناد، فقالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾، والجملة تحتمل وجهين:

الوجه الأول: أنتم أيها الرسل بشر، والبشر لا يكون رسولا من الله، وعلى هذا فالمانع من قبول رسالاتهم كون أصحابها بشرا، وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين[٥]: "ما أنتم أيها القوم إلا أناس مثلنا، ولو كنتم رسلا كما تقولون، لكنتم ملائكة".[٦]

الوجه الثاني: إن المانع من قبول دعوة الرسالة هي عدم توافر أي مزية في الرسل ترجحهم، ويشعر بذلك قوله:﴿مِّثْلُنَا ﴾ وإلا فلو كان الرسل مزودين بشيء آخر ربما لم يصح لهم جعل المماثلة عذرا للرب. وهذا ما ذهب اليه بعضهم[٧]: "لا فضل بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا".[٨]

الثالثة: إن القصة تنم عن أن منطق القوة كان منطق أهل اللجاج، فالقوم لما عجزوا عن رد برهانهم التجأوا إلى منطق القوة، بقتل دعاة الحق وصلحائه، وقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٣١، الأمثال للسبحاني، ص٢٣١.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٨٦/٢٢، معاني القرآن للنحاس: ٤٨٢/٥، بحر العلوم للسمرقندي: ١١٢/٣، الكشف والبيان للثعلبي: ١٢٣/٨، معالم التنزيل للبغوي: ٩/٤.

(٣) تفسير القرآن للصنعاني، ٣/ ١٤١.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي، ٥١/٢٦.

(٥) ينظر: جامع البيان للطبري، ١٨٧/٢٢، التبيان للطوسي: ٤٤٨/٨، مفاتيح الغيب للرازي: ٥٢/٢٦، القرآن العظيم لابن كثير: ٣/ ٥٧٤.

(٦) جامع البيان للطبري، ١٨٧/٢٢.

(٧) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٢٢٥/٢، زاد المسير لابن الجوزي: ٢٦٥/٦، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٤٢٩/٤.

(٨) مدارك التنزيل للنسفي، ٢٢٥/٢.

لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ ﴾"،[١] وهذا ما أجمع عليه المفسرون[٢]: "انه لما جابه قومه بهذه الحقيقة قتلوه رميا بالحجارة وما وجد من يدافع عنه. وليس هذا ببعيد عن سيرة الطغاة وأهل الفساد".[٣]

وترى الباحثة: إن هذا التمثيل يتحدث حول تأريخ عدد من الأنبياء السابقين الذين بعثوا لهداية المشركين عباد الأوثان الذين سماهم القرآن الكريم أصحاب القرية وكيف أنهم نهضوا لمخالفة أولئك الأنبياء، وتكذيبهم، وكانت خاتمتهم أن نزل بهم العذاب وما أسرع ما يعود البغي والظلم والإعتداء على أصحابه، لتكون تنبيها لمشركي مكة من جهة، وتسلية للرسول الأكرم (ﷺ) وفئة المؤمنين القليلة به في ذلك اليوم، ويقارن بينهما بسبب تشابه ظروف تلك القصة مع ظروف المسلمين في ذلك اليوم. وتذهب الباحثة الى أن أركان التشبيه حاضرة لكل معتبر فتختلف الظروف ويبقى الموضوع يطبق في كل مكان وزمان فهل من معتبر؟.

التمثيل الحادي عشر: هلاك الطغاة

-قال تعالى:﴿ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ * وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ * فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.[٤]

بدأ السبحاني تفسير الآيات بعد المعنى اللغوي والتعريف الاصطلاحي لمفردة(البطش)[٥] إذ قال: "يذكر سبحانه في هذه الآيات الأمم الماضية التي بعث الله سبحانه رسله إليهم، فكفروا بأنبيائه وسخروا منهم لفرط جهالتهم وغباوتهم فأهلكهم الله سبحانه بأنواع العذاب مع ما لهم من القوة والنجدة"،[٦] "أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء، فلا ينبغي أن تتأذى من قومك بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء لأن المصيبة إذا عمت خفت".[٧]

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٣١ – ٢٣٢، الأمثال للسبحاني، ص٢٣١-٢٣٢ وينظر: الحديث النبوي بين الرواية والدراية، لجعفر محمد حسين السبحاني، أعتماد، قم، ط١، ١٤١٩ هـ: ص٢٨١.

(٢) ينظر: روح المعاني للآلوسي: ٢٢٣/٢٢، التفسير الكاشف لمغنية: ٣٠٧/٦، الميزان للطباطبائي: ١٧/ ٧٤، تقريب القرآن لمحمد الشيرازي: ٤/ ٤٣٩، الأمثل للشيرازي: ١٤/ ١٥٣.

(٣) التفسير الكاشف لمغنية، ٣٠٧/٦.

(٤) سورة الزخرف، الآيات /٦، ٧، ٨.

(٥) "البطش" في اللغةً: التناول عند الصولة.العين للفراهيدي، ٢٤٠/٦، مادة (بطش). وعرفه السبحاني أصطلاحا بانه: "القوة والمنعة". مفاهيم القرآن، ٢٣٨/٩، الأمثال للسبحاني، ص ٢٣٨.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٣٨، الأمثال للسبحاني، ص ٢٣٨ وينظر: المحرر الوجيز لأبن عطية: ٤٦/٥، مجمع البيان للطبرسي: ٦٨/٩، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢٣٦/٦، مقتنيات الدرر للحائري: ٤٢/١٠.

(٧) مفاتيح الغيب للرازي، ١٩٥/٢٧ وينظر: الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٦٣/١٦.

أوضح السبحاني أركان التمثيل قائلاً: "هذا هو حال المشبه به، والمشبه عبارة عن مشركي عصر الرسالة الذين كانوا يستهزؤون بالنبي (ﷺ) فيوعدهم سبحانه بما مضى على الأولين، بأنه سبحانه أهلك من هو أشد قوة ومنعة من قريش وأتباعهم فليعتبروا بحالهم"،[١] إذ يقول سبحانه:﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ فكانت هذه سيرة الأمم الماضية، ولكنه سبحانه لم يضرب عنهم صفحا فأهلكهم، كما قال:﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾. أي مضى في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تصير مسير المثل، وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٢]: "فأهلكنا أشد من هؤلاء المستهزئين بأنبيائهم بطشا إذا بطشوا فلم يعجزونا بقواهم وشدة بطشهم، ولم يقدروا على الامتناع من بأسنا إذ أتاهم، فالذين هم أضعف منهم قوة أحرى أن لا يقدروا على الامتناع من نقمتنا إذا حلت بهم ومضى مثل الأولين يقول جل ثناؤه: ومضى لهؤلاء المشركين المستهزئين بك ولمن قبلهم من ضربائهم مثلنا لهم في أمثالهم من مكذبي رسلنا الذين أهلكناهم، يقول: فليتوقع هؤلاء الذين يستهزءون بك يا محمد من عقوبتنا مثل الذي أحللناه بأولئك الذين أقاموا على تكذيبك"،[٣] "سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل، وهذا وعد لرسول الله (ﷺ) ووعيد لهم".[٤]

قال السبحاني وهو ما ذهب اليه الرازي في تفسيره لهذه الآية وهو: " أن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم فليحذروا أن ينزل بهم من الخزي مثل ما نزل بهم فقد ضربنا لهم مثلهم إذ قال: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾[٥] ".[٦]

تخلص الباحثة: إن هذا المثل خطابٌ لكل الطغاة المعاندين بكل عصر وزمان أنكم لستم بمأمن من عذاب الله الأليم أبدا مهما تكن قوتكم وجبروتكم فلكم في الامم الغابرة خير عبرة.

---

(١) مفاهيم القرآن، ١٣٩/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٣٩.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ١٠٩/٤، الكشاف للزمخشري: ٣/ ٤٧٨، جوامع الجامع للطبرسي: ٣/ ٢٩٧، إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٤٠/٨، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢٤٠/٦ ، روح المعاني للآلوسي: ٢٥/ ٦٦، مقتنيات الدرر للحائري: ٤٣/١٠، مفاهيم القرآن، ٢٣٨/٩ – ٢٣٩، الأمثال للسبحاني: ص٢٣٨ – ٢٣٩.

(٣) جامع البيان للطبري، ٦٦/٢٥.

(٤) الكشاف للزمخشري، ٣/ ٤٧٨ وينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٨٩/٧.

(٥) سورة الفرقان، من الآية /٣٩.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ١٩٥/٢٧ وينظر: مجمع البيان للطبرسي: ٦٨/٩ ، البحر المحيط لأبي حيان: ٨/٨، القرآن العظيم لابن كثير: ١٣٣/٤، مفاهيم القرآن، ٢٣٩/٩، الأمثال للسبحاني، ص ٢٣٩.

التمثيل الثاني عشر: إطاعة الطغاة

-قال تعالى:﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ *فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾. (١)

فسر السبحاني الآيات بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفرداتها(٢) إذ قال: "إنه سبحانه يخبر عن انتقامه من فرعون وقومه، ويقول: فلما أغضبونا، وذلك بالإفراط في المعاصي والتجاوز عن الحد، فاستوجبوا العذاب، إذ قال سبحانه:﴿ ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ ثم بين كيفية الانتقام، وقال: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فما نجا منهم أحد ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾، أي جعلناهم عبرة وموعظة لمن يأتي من بعدهم حتى يتعظوا بهم".(٣) وهذا ما ذهب اليه الطبرسي وآخرون إذ قال: "أخبر سبحانه عن انتقامه من فرعون وقومه فقال: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ أي أغضبونا، وغضب الله سبحانه على العصاة إرادة عقوبتهم، ورضاه عن المطيعين. إرادة ثوابهم الذي يستحقونه على طاعتهم. ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي انتقمنا لأوليائنا منهم ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ما نجا منهم أحد. أي متقدمين إلى النار ﴿وَمَثَلًا ﴾ أي عبرة وموعظة ﴿لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ أي لمن جاء بعدهم يتعظون بهم. والمعنى: إن حال غيرهم يشبه حالهم إذ أقاموا على العصيان".(٤) "استهان فرعون بعقول قومه ورعيته، ودعاهم إلى الضلالة، فاستجابوا له، وأطاعوه فيما أمرهم به، وكذبوا موسى ورسالته فكانوا فاسقين، أي خارجين عن طاعة اللَّه تعالى. فلما أسخطوا اللَّه، وأغضبوه بالتمادي في الضلال والعناد، انتقم اللَّه منهم انتقاما شديدا، بالإغراق جميعا في البحر، وكان الإغراق مناسبا لتفاخرهم وتباهيهم واغترارهم. وبذلك جعلهم اللَّه عبرة لمن عمل بعملهم من الكافرين، في استحقاق العذاب، وعظة لمن يأتي بعدهم من الكفار، يعتبرون بهم، أو يقعون فيما وقعوا فيه".(٥)

ختم السبحاني تفسير الآيات بتوضيح أركان التمثيل إذ قال: "فالمشبه به هو قوم فرعون واستئصالهم، والمشبه هو مشركو أهل مكة وكفارهم، فليأخذوا حال المتقدمين نموذجا متقدما لمصيرهم"، (٦) "والمثل بيان عن أن حال الثاني كحال الأول بما قد صار في الشهرة كالعلم،

---

(١) سورة الزخرف، الآيات / ٥٤، ٥٥، ٥٦.

(٢) "آسفونا "في اللغة: من أسف أسفا إذا اشتد غضبه، الحزن والغضب معا. ينظر: العين للفراهيدي: ٣١١/٧، مادة (اسف). وفي الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "الغضب". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٤١. "السلف" في الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "المتقدم". مفاهيم القرآن، ٢٤١/٩، الأمثال للسبحاني، ص ٢٤١.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٤١، الأمثال للسبحاني، ص٢٤١.

(٤) مجمع البيان للطبرسي، ٨٨/٩ وينظر: الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١٠١/١٦، القرآن العظيم لابن كثير: ١٤٠/٤، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢٥٧/٦، فتح القدير للشوكاني: ٥٦٠/٤.

(٥) التفسير الوسيط للزحيلي، ٢٣٦٨/٣.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٤١، الأمثال للسبحاني، ص٢٤١.

فحال هؤلاء المشركين كحال من تقدم في الاشراك بما يقتضي أن يجروا مجراهم في الاهلاك إن أقاموا على الطغيان".[١]

تخلص الباحثة: إنه لا معنى للغضب أو للسخط بالنسبة إلى الله سبحانه، ولا بالمعنى المتعارف بيننا، بل إن غضب الله يعني (إرادة العقاب). وإن هذا الأسلوب الفرعوني – وهو استخفاف العقول– حاكم على كل المجتمعات الفاسدة في عصرنا الحاضر، بكل قوة واستحكام، وإذا كان تحت تصرف فرعون وسائل محدودة توصله إلى نيل هدفه، فإن طواغيت اليوم يستخفون عقول الشعوب بواسطة وسائل الاتصال الجماعية، من مواقع التواصل الأجتماعي بأنواعها كافة، والصحف والمطبوعات، شبكات الراديو والتلفزيون، أنواع الأفلام، بل وحتى الرياضة في قالب الانحراف، وابتداع أنواع الأساليب المضحكة المستهجنة، لتغرق هذه الشعوب في بحر الغفلة، فيطيعوهم ويستسلموا لهم، ولهذا كانت المسؤولية الملقاة على عاتق العلماء والمثقفين، والذين يحيون خط الأنبياء العقائدي والفكري ثقيلة في محاربة تلك النماذج الفرعونية بتسخير هذه الوسائل بالطريق المعاكس وليكونوا الحصن الحصين للأمة.

التمثيل الثالث عشر: عاقبة الإغترار[٢]

–قال تعالى: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ * كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾.[٣]

شرع السبحاني بتفسير الآيات بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفرداتها[٤] إذ قال: "الآية تصف حال بني النضير من اليهود الذين أجلاهم الرسول وقد تآمروا على قتله، فأمرهم النبي (ﷺ) بالجلاء وترك الأموال وقد كانوا امتنعوا من تنفيذ أمر الرسول، وكان المنافقون يصرون عليهم بعدم الجلاء وأنهم يناصرونهم عند نشوب حرب بينهم وبين المسلمين، فبقي بنو النضير أياما قلائل في قلاعهم لا يجلون عنها بغية وصول إمدادات تعزز قواهم".[٥]

---

(١) التبيان للطوسي، ٢٠٩/٩.

(٢) "الأغترار" في اللغة: هو من غرّه يغُرُّه غَرًّا وغُروراً وغِرّة، فهو مَغرور وغرير: خدعه وأَطعمه بالباطل. ينظر: لسان العرب لابن منظور:١١/٥، مادة(غرر).

(٣) سورة الحشر، الآيتان / ١٤، ١٥.

(٤) "الحصن" في الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "القرى المحصنة التي تحيطها القلاع المنيعة التي تمنع من دخول الأعداء". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦١، الأمثال للسبحاني، ص٢٦١. "البأس والبأساء" في اللغة: الشدة. ينظر: الصحاح للجوهري: ٩٠٦/٣، مادة (بأس). "الوبال" في اللغة: الأمر الذي يخاف ضرره. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٧٢٠/١١، مادة (وبال).

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦١، الأمثال للسبحاني، ص٢٦١ وينظر: التبيان للطوسي: ٩/ ٥٦٩، مجمع البيان للطبرسي: ٤٣٦/٩.

ثـم أضـاف السـبحاني قـائلاً: "الآيـات تشـرح حـالهم بإمعـان وتخبـر بـأنهم ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ معاشر المؤمنين ﴿جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي لا يبرزون لحربكم خوفا منكم، وإنما يقاتلونكم متدرعين بحصونهم، ﴿أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾، أي يرمونكم من وراء الجدر بالنبل والحجر. ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞ﴾، أي عداوة بعضهم لبعض شديدة، فليسوا متفقي القلوب، ولذلك يعقبه بقوله:﴿وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾، ثم يعلل ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾"،[١] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٢]: "إن اليهود لا يجابهون المؤمنين وجها لوجه في ميدان القتال، بل يقبعون في أحيائهم وقراهم ويتسترون وراء الحصون والجدران، ويرشقون المؤمنين بالنبال والأحجار، كما هو شأن الجبان الخائر، انهم أقوياء في عدتهم وعددهم، ولكن المصالح والأهواء فرقت بينهم، فهم منحلون متخاذلون، وان تظاهروا بالألفة والمحبة".[٣] ومنهم من ذهب ان هذه الآيات تشرح حال (اليهود والمنافقين).[٤]

وتذهب الباحثة الى: أن هذه الآيات عامة تعم اليهود وغيرهم (حتى المسلمين) إذ إن الاتفاق قوة وان قلّ العدد وضعفت العدة، والتخاذل وهن وذل لا يجدي معه عدد ولا عدة. وقد شاهدنا انتصار أهل الباطل وهم أقلاء على المحقين وهم كثيرون، والسر تفرّق هؤلاء عن حقهم، واجتماع أولئك على باطلهم لانهم لم يفهموا الدرس والعبرة وهي: بأن الوحدة سبب الفوز والنجاح، والتفرقة سبب الفشل والخذلان.

ختم السبحاني التفسير بتوضيح المثل إذ قال: "إن مثلهم في اغترارهم بعددهم وعدتهم وقوتهم ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، والمراد مشركو قريش الذين قتلوا ببدر قبل جلاء بني النضير بستة أشهر، وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين،[٥] وأستبعده أهل السير ومفسرون عدة[٦] وهو **ما ترجحه الباحثة:** بأن المراد هو قبيلة بني قينقاع إذ نقضوا العهد فأجلاهم رسول الله بعد رجوعه من بدر. إذ أنه: "أنسب للسياق من الأول"،[٧] "متلائما أكثر مع يهود بني النضير، لأن

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٢، الأمثال للسبحاني، ص٢٦٢ .

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري: ٦٠/٢٨، الكشف والبيان للثعلبي: ٢٨٣/٩، التبيان للطوسي: ٩/ ٥٦٩، الوجيز للواحدي: ١٠٨٤/٢، مفاهيم القرآن: ٩/ ٢٦٢، الأمثال للسبحاني: ص٢٦٢.

(٣) التفسير الكاشف لمغنية، ٢٩٢/٧ وينظر: التفسير المبين لمغنية، ص٧٣٢.

(٤) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي: زبدة التفاسير لفتح الله: ١٦/٧، تفسير القرآن الكريم لعبدالله شبر: ص٥١١.

(٥) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ٣٢٢/٤، مدارك التنزيل للنسفي: ٢٣٣/٤، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٩٠/٢٩، مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٢، الأمثال للسبحاني، ص٢٦٢.

(٦) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٦٨٦/٣، السيرة النبوية لابن كثير: ٥/٣، الميزان للطباطبائي، ٢١٣/١٩، الأمثل للشيرازي: ٢٠٨/١٨.

(٧) الميزان للطباطبائي، ٢١٣/١٩، الأمثل للشيرازي: ٢٠٨/١٨.

يهود بني قينقاع كيهود بني النضير كانوا ذوي ثراء ومغرورين بقدرتهم القتالية".[١] فهـــؤلاء ﴿ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ ﴾، أي عقوبة كفرهم ولهم عذاب أليم"،[٢] عاقبة كفرهم في الدنيا، كالقتل والسبي والإجلاء، وفي الآخرة عذاب اليم.[٣]

ب – بالإفراد.

<u>التمثيل الأول: تشبيه الكافرين بالناعق أو البهائم</u>

-قال تعالى:﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾.[٤]

من التعريف اللغوي لبعض مفردات[٥] الآية بدأ السبحاني تفسيرها قائلاً: "في تفسير الآية وجوه:

الأول: إن الآية بصدد تشبيه الكافرين بالناعق الذي ينعق بالغنم، وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٦] ثم أشترط السبحاني لصحة هذا الوجه أن يكون الناعق أصم أذ قال: "ولا يصح التشبيه عندئذ إلا إذا كان الناعق أصم، ويكون معنى الآية: إن الذين كفروا الذين لا يتفكرون في الدعوة الإلهية، كمثل الأصم الذي ينعق بما لا يسمع نفسه ولا يميز من مداليل نعاقه معنى معقولا إلا دعاء ونداء وصوتا بلا معنى. وجه التشبيه: إن الناعق أصم كما أن هؤلاء الكافرين صم بكم عمي لا يعقلون. وفي هذا المعنى المشبه هو الكافرون الذين لا يفهمون من الدعوة النبوية إلا صوتا ودعوة فارغة من المعنى. والمشبه به: هو الناعق الأصم الذي ينعق بالغنم، ولكن لا يسمع من نعاقه إلا دعاء ونداء".[٧] ورفض السبحاني هذا الوجه وإن كان

---

(١) الأمثل للشيرازي، ٢٠٨/١٨.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٢، الأمثال للسبحاني، ص٢٦٢ وينظر: مقتنيات الدرر للحائري: ٩٦/١١.

(٣) ينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ١٩/٧.

(٤) سورة البقرة، الآية /١٧١.

(٥) "النعيق": صوت الراعي لغنمه زجرا، يقال: نعق الراعي بالغنم، ينعق نعيقا، إذا صاح بها زجرا. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٠ /٣٥٦، مادة (نعق)، ينظر: مجمع البحرين للطريحي: ٢٣٩/٥، مادة (نعق). "النداء": مصدر نادى ينادي مناداة، وهو أخص من الدعاء، ففيه الجهر بالصوت. ينظر: الصحاح للجوهري: ٢٥٠٥/٦ ، مادة (ندا) و ينظر:مفاهيم القرآن: ٩/ ٩٩، الأمثال للسبحاني: ص ٩٩.

(٦) ينظر:التحقيق في كلمات القرآن الكريم، لحسن المصطفوي، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، قم، ط١، ١٤١٧ هـ، ١٧٣/١٢: أمثال القرآن لحنبكة: ص ١١٩.

(٧) مفاهيم القرآن، ٩ /٩٩-١٠٠، الأمثال للسبحاني، ص٩٩-١٠٠.

ينطبق على ظاهر الآية، ولكنه بعيد من حيث المعنى، إذ قال: "لو كان الهدف هو التركيز على أن الكافرين صم بكم عمي لا يعقلون لكفى تشبيههم بالحيوان الذي هو أيضا كذلك، فما هو الوجه لتشبيههم بإنسان عاقل أخذ منه سمعه لا يسمع من نعاقه إلا صوتا ونداء؟"،[١] ولم تَرَ الباحثة من يؤيده في رفضه بل العكس فان تشبيههم "بمنزل الأنعام، ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسراً لقلبه، وتضييقاً لصدره، حيث صيره كالبهيمة فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه".[٢] في هذا الوجه تفرعات لم يذكرها السبحاني وأشار اليها مفسرون عدة **تذكرها الباحثة** للفائدة وهي ما يأتي:

أ. مثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم من الأوثان **كمثل الناعق في دعائه ما لا يسمع كالغنم،** "وما يجرى مجراه من الكلام والبهائم لا تفهم: فشبه الأصنام في أنها لا تفهم بهذه البهائم".[٣] وهذا القول مردود بقوله تعالى:﴿ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾، لا يساعد عليه لأن الأصنام لا تسمع شيئاً.[٤]

ب. "مثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم **كمثل الناعق في دعائه عند الجبل،** فإنه لا يسمع إلا صدى صوته، فكذلك هؤلاء الكفار إذا دعوا هذه الأوثان لا يسمعون إلا ما تلفظوا به من الدعاء والنداء".[٥]

ج. مثل الذين كفروا في قلة عقلهم في عبادتهم لهذه الأوثان، **كمثل الراعي إذا تكلم مع البهائم** فكما أنه يقضي على ذلك الراعي بقلة العقل، فكذا الاول.[٦]

د. مثل الذين كفروا في **اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم بالبهائم،** شبّه من يدعوهم إلى الحق كمثل الراعي إذا تكلم مع البهائم، وهو ما ذهب اليه مفسرون عدة: "مثل الكافر في قلة فهمه

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ /٩٩-١٠٠، الأمثال للسبحاني، ص٩٩-١٠٠.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ٩/٥.

(٣) جامع البيان للطبري، ١٠٩/٢ وينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ٢٨٢/١، تفسير القرآن للصنعاني: ٦٥/١، المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٣٨/١.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي، ٩/٥ ،أنوار التنزيل للبيضاوي: ٤٤٨/١.

(٥) المنتخب والنكت لابن أدريس، ٤١/١ وينظر: التفسير العظيم لعبد السلام: ١٧٩/١، الشارة الجمالية لعشتار داود: هامش ص ٤٢.

(٦) ينظر: تفسير الامام العسكري، للحسن بن علي العسكري (ت ٢٦٠هـ)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي (عليه السلام)، مطبعة مهر، قم، ط١، ١٤٠٩ م: ص٥٨٣، المنتخب والنكت لأبن أدريس: ٤١/١ ، الأمثال لابن قيم: ص٤٨.

عن الله ما يتلى عليه في كتابه وسوء قبوله لما يدعى إليه من توحيد الله ويوعظ به، مثل البهيمة التي تسمع الصوت إذا نعق بها ولا تعقل ما يقال لها".[١] فكما أن الكلام مع البهائم عبث عديم الفائدة، فكذا التقليد عبث عديم الفائدة.[٢] "إن مثلك في دعوة هؤلاء المشركين إلى الايمان ونبذ الخرافات والتقليد الأعمى كمن يصيح بقطيع الغنم (لإنقاذهم من الخطر) ولكن الأغنام لا تدرك منه سوى أصوات غير مفهومة. فهؤلاء الكفار والمشركون كالحيوانات والانعام التي لا تسمع من راعيها الذي يريد لها الخير سوى أصوات مبهمة. ثم تضيف الآية لمزيد من التأكيد والتوضيح أن هؤلاء صم بكم عمي فهم لا يعقلون. ولذلك يتمسكون بالتقاليد الخاطئة لآبائهم، ويعرضون عن كل دعوة بناءة".[٣]

هـ- مثل الذين كفروا **كمثل البهائم التي ينعق بها الراعي**، والمعنى:ومثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت.[٤]

الثاني: إن المشبه هو النبي (ﷺ)، والمشبه به هو الناعق للغنم، وهو ما ذهب اليه جمع من المفسرين ومنهم السبحاني.[٥] "مثل واعظ الذين كفروا والداعي لهم إلى الإيمان والطاعة كمثل الراعي الذي ينعق بالغنم وهي لا تعقل معنى دعائه إنما تسمع صوته ولا تفهم غرضه"،[٦] مثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق والمعنى: ومثل داعيهم إلى الايمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوي الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار كمثل الناعق بالبهائم التي لا تسمع الا دعاء الناعق ونداءه الذي هو تصويت بها وزجر لها ولا

---

(١) جامع البيان للطبري، ١٠٩/٢ وينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ٢٨٢/١، تفسير القرآن للصنعاني: ٦٥/١، عون الحنان للطهطاوي: ص ١٩٩ -٢٠٠.

(٢) ينظر: التفسير الكاشف لمغنية: ٢٦٢/١ وينظر: التفسير الحديث لدروزة: ٢٧٨/٦، التفسير الوسيط للزحيلي: ٧٧/١.

(٣) الأمثل للشيرازي، ٤٨٢/١.

(٤) ينظر: مجاز القرآن للتميمي: ٦٤/١، تفسير القرآن للصنعاني: ٦٥/١، تفسير القمي للقمي، ٦٤/١، وجوه البيان في أمثال القرآن، رسالة دكتوراه، لسميرة عدلي محمد رزق، اشراف: حسن محمد باجودة، السعودية، الرياض، ١٩٨٧ م: ص٦٦.

(٥) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ١٦٨/١، التبيان للطوسي: ٧٧/٢، جوامع الجامع للطبرسي: ١٧٤/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٩/٥ ،الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٢١٤/٢، البرهان للبحراني: ٣٧٢/١، نور الثقلين للحويزي: ١٥٢/١، تنوير المقباس للفيروزآبادي: ص٢٣، الميزان للطباطبائي: ٤٢٠/١، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٠٠، الأمثال للسبحاني، ص١٠٠.

(٦) متشابه القرآن ومختلفه، لابن شهر آشوب (ت ٥٨٨ هـ)، شركة سهامي، قم، ط١، ١٣٢٨ ش، ١٣/١، مقتنيات الدرر للحائري: ٥/٢ وينظر: معالم التنزيل للبغوي: ١٣٩/١.

تفقه شيئا آخر ولا تعي كما يفهم العقلاء ويعون".[١] وأورد السبحاني قول الطباطبائي لتوضيح المعنى الذي ارتاءه قائلاً: "ومثلك أيها النبي في دعاء الذين كفروا كمثل الذي ينعق في البهائم التي لا تسمع من نعيقه إلا دعاء ونداء ما، فتنزجر بمجرد قرع الصوت سمعها من غير أن تعقل شيئا، فهم الكافرون صم لا يسمعون كلاما يفيدهم، وبكم لا يتكلمون بما ينفع، وعمي لا يبصرون، فهم لا يعقلون شيئا، لأن الطرق المؤدية إلى التعقل موصدة عليهم. ومن ذلك ظهر أن في الكلام قلبا أو عناية أخرى يعود إليه، فإن المثل بالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء مثل الذي يدعوهم إلى الهدى لا مثل الكافرين المدعوين إلى الهدى، إلا أن الأوصاف الثلاثة التي استنتجت واستخرجت من المثل وذكرت بعده، وهي قوله:﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾، لما كانت أوصافا للذين كفروا لا لمن يدعوهم إلى الحق استوجب ذلك أن ينسب المثل إلى الذين كفروا لا إلى رسول الله تعالى فأنتج ما أشبه القلب".[٢]

إن من فسر الآية على الوجه الأول وقال: "ينعق بالغنم فلا تدري ما يقول لها إلا إنها تنزجر بالصوت عما هي فيه".[٣] "﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي صفتهم في تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم كمثل الذي لا يسمع إلا دعاء ونداء، أي كصفة الراعي للبهائم السائمة ينعق ويصيح بها في سوقها إلى المرعى ودعوتها إلى الماء وجزها عن الحمى، فتجيب دعوته وتنزجر بزجره بما ألفت من نعاقه بالتكرار. شبه حالهم بحال الغنم مع الراعي يدعوها فتقبل، ويزجرها فتنزجر، وهي لا تعقل مما يقول شيئا، ولا تفهم له معنى وإنما تسمع أصواتا تقبل لبعضها وتدبر للآخر بالتعويد، ولا تعقل سببا للإقبال ولا للإدبار".[٤] "هؤلاء المقلدون مثلهم القرآن بالسوائم والبهائم تطيع صيحات راعيها من غير تفكير في مدلولاتها الوضعية، لا تفهم أوامره، ولا تفقه نواهيه ولا تعقل صيحاته ونداءاته، بل تسمع أصواتا منه اعتادت عليها. تدعى بصوت فتأتي وتقبل، وتصرف بآخر فتدبر وتعود".[٥]

---

(١) الكشاف للزمخشري، ١/ ٣٢٨ وينظر: نور الثقلين للحويزي: ١٥٢/١، كنز الدقائق للمشهدي: ٢/ ٢١٧.

(٢) الميزان للطباطبائي، ٤٢٠/١، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٠٠، الأمثال للسبحاني، ص١٠٠.

(٣) تفسير غريب القرآن للطريحي، ص٤٢٨.

(٤) تفسير المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤هـ)، الهيـــئة المصـــرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٠ م، ٩٣/٢-٩٤ مفاهيم القرآن، ٩/ ١٠١، الأمثال للسبحاني، ص١٠١.

(٥) الأمثال لأبن شريف، ص٢٢، الامثال والمثل والتمثيل والمثلات في القرآن الكريم، لسميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، ص٣٢١.

ذكر السبحاني ملاحظة على تلك الاقوال بالقول: "يلاحظ عليه: أن الآية بصدد ذمهم وأنهم لا يعتنقون الإيمان ولا يمتثلون الأوامر الإلهية ونواهيها، وعلى ذلك تصبح الآية نوع مدح لهم، لأنهم لو كانوا كالبهائم السائمة يجيبون دعوة النبي كقبولها دعوة الراعي وينزجرون بزجره (ﷺ) كانتهائها عن نهي الراعي، فيكون ذلك على خلاف المقصود، فإن المقصود بشهادة قوله: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ أنهم لا يسمعون كلام النبي (ﷺ) ولا ينطقون بالحق ولا ينظرون إلى آيات الله وأنهم في واد والنبي (ﷺ) في واد آخر. وأين هم من البهائم السائمة التي تقع تحت يد الراعي فتنتهي بنهيه ؟ !".[١]

وتذهب الباحثة: إلى خلاف ما ذهب اليه السبحاني في ملاحظته وذلك لان تمثيلهم بتلك الحالة ليس مدحا إذ أن تلك الدواب في حال دعائهم إلى الايمان أضل من الانعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ولا تفقه ما يقول إذ أنها تستجيب لراعيها وإن لم تفقه كلامه؛ لإنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به ولهذا كانت الدواب أتم منه ولهذا قال تعالى:﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾،[٢] ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾،[٣] وليس التشبيه يقتضي حفظ المشبه به بالمشبه من جميع الجهات، بل جهة واحدة تكفي لصحة التشبيه.

وترجح الباحثة الوجه الرابع (د) القائل: بتمثيل الذين كفروا في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم بالبهائم، لإكتمال أطراف التشبيه وقوة وجه الشبه، إذ إن الإسلام أدان المنطق الرجعي القائم على تقديس ما عليه الآباء والأجداد، لأنه ينفي العقل الإنساني. ويرفض تطور التجارب البشرية، ويصادر الموضوعية في معالجة قضايا السلف بحجة "آثار الآباء"، مشكلا بذلك أهم عامل لإنتقال الخرافات من جيل إلى جيل آخر. لا مانع طبعا من تحليل عادات الآباء وتقاليدهم، فما انسجم منها مع العقل والمنطق حفظ، وما كان وهما وخرافة رفض. المقدار المنسجم مع العقل والمنطق من العادات والتقاليد يستحق الحفظ والصيانة باعتباره تراثا قوميا. أما الاستسلام التام الأعمى لتلك العادات والتقاليد فليس إلا الرجعية والحماقة والبهيمية. وذلك ما تؤيده الروايات الإسلامية ومن الروايات ما روى عن الامام موسى بن جعفر(عليه السلام) يخاطب هشام بن الحكم قائلاً: ((يا هشام ثم ذم الذين لا يعقلون فقال:﴿ وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٠١، الأمثال للسبحاني، ص١٠١.

(٢) سورة الفرقان، من الآية / ٤٤.

(٣) سورة الاعراف، من الآية /١٧٩.

قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾.[١] وقـــال: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَنِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾)).[٢] ولم أذهب الى الوجه الثاني وذلك؛ حاشا الله وبلاغة القرآن أن يصف وعظ الواعظ الهادي وإرشاده الشافي بالنعيق المهمل، ويعيب إرشاده بعيب غيره.

التمثيل الثاني: إبطال الإنفاق بالمن والأذى

-قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.[٣]

بدأ السبحاني تفسير التمثيل بعد التعريف اللغوي لبعض مفردات[٤] الآية قائلاً: "أن المن والأذى[٥] يبطل الإنفاق، لأن ترتب الأجر على الإنفاق مشروط بترك تعقبه بهما، فإذا اتبع عمله بأحد الأمرين فقد افتقد العمل شرط استحقاق الأجر".[٦] وهذا ما ذهب إليه مفسرون عدة:وهو "إن السيئات لا تبطل الحسنات، إن الصدقة التي يعلم الله في صاحبها أن يمن أو يؤذي فإنها لا تتقبل صدقة وقيل بل جعل الله للملك عليها أمارة فلا يكتبها"،[٧] "ضرب الله

---

(١) سورة البقرة، الآية /١٧٠.

(٢) أصول الكافي، لمحمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني (ت ٣٢٩ ﻫ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مطبعة حيدري، طهران، ط٣ ،١٣٦٧ ش، ١٤/١، كتاب (العقل والجهل)، رقم الحديث (١٢)، الوافي للفيض الكاشاني، ٨٨/١، كتاب (العقل والجهل)، رقم الحديث (١٦)، وهو حديث صحيح.

(٣) سورة البقرة، الآية /٢٦٤.

(٤) "رئاء": من الروية، وسمي المرائي مرائيا، كأنه يفعل ليرى غيره ذلك. ينظر: تاج العروس للزبيدي: ٤٣٦/١٩، مادة (رأى). "صفوان": واحدته صفوانة، وهي الحجر الأملس لا تنبت شيئا. ينظر: العين للفراهيدي: ١٦٣/٧، مادة (صفا). "وابل": المطر الشديد الوقع. ينظر: الصحاح للجوهري: ١٨٤٠/٥، مادة (وبل). "صلدا": الحجر الأملس أي الصلب، و"الصلد" من الأرض ما لا ينبت فيه شيئا لصلابته. ينظر: تاج العروس للزبيدي: ٦٤/٥، مادة (صلد) و ينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ١١٢، الأمثال للسبحاني: ص١١٢.

(٥) "المن" في اللغة: هي الإعْياء والفَتْرَةُ، وتعتدّ بما أعطيت كأنك تقصد به الاعتداد. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٣/ ٤١٥، مادة (منٌّ). والأَذى في اللغة: أَن تُوَبِّخَ المعطَى. ينظر: المصدر نفسه: ٤١٨/١٣، مادة (آذى).

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٢، الأمثال للسبحاني، ص١١٢، وينظر: روح المعاني للآلوسي: ٣٤/٣.

(٧) المحرر الوجيز لابن عطية، ٣٥٧/١، جواهر الحسان للثعالبي، ٥١٩/١ وينظر: روح المعاني للآلوسي: ٣٤/٣.

تعالى مثلا لعمل المنان، وعمل المنافق جميعا، فإنهما إذا فعلا الفعل على غير الوجه المأمور به، فإنهما لا يستحقان عليه ثوابا. وهذا هو معنى الإبطال: وهو إيقاع العمل على غير الوجه الذي يستحق عليه الثواب".[١] "المراد به أن يأتي بهذا العمل باطلاً، وذلك لأنه إذا قصد به غير وجه الله تعالى فقد أتى به من الابتداء على نعت البطلان"،[٢] ثم أورد السبحاني دلالة الآية بالقول: "إن الآية لا تدل على حبط الحسنة بالسيئة، لأن معنى الحبط: هو إبطال العمل السيء الثواب المكتوب المفروض، والآية لا تدل عليه لما قلنا من احتمال أن يكون ترتب الثواب على الإنفاق مشروطا من أول الأمر بعدم متابعته بالمن والأذى في المستقبل، فإذا تابع عمله بأحدهما فلم يأت بالواجب أو المستحب على النحو المطلوب، فلا يكون هناك ثواب مكتوب حتى يزيله المن والأذى. وأما استخدام كلمة الإبطال، فيكفي في ذلك وجود المقتضي للأجر وهو الإنفاق، ولا يتوقف على تحقق الأجر ومفروضيته على الله بالنسبة إلى العبد".[٣] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين: "أن إبطالها هو إحباط ثوابها فيكون فيها بمنزلة من لم يتصدق"،[٤] "لا تحبطوا أجور صدقاتكم وثواب نفقاتكم بالمنّ على السائل".[٥] "أنه تعالى أكد النهي عن إبطال الصدقة بالمن والأذى وأزال كل شبهة، بأن بيّن أن المراد أن المن والأذى يبطلان الصدقة، ومعلوم أن الصدقة قد وقعت وتقدمت، فلا يصح أن تبطل فالمراد إبطال أجرها وثوابها، لأن الأجر لم يحصل بعد وهو مستقبل فيصح إبطاله بما يأتيه من المن والأذى".[٦] ثم أورد السبحاني أدلته على بطلان القائلين بالإحباط وهو ما أورده الطوسي قائلاً: "إن الحبط

---

(١) مجمع البيان للطبرسي، ١٨٤/٢، وينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١/ ١٤٢، متشابه القرآن ومختلفه لابن شهر: ٨٦/٢، المنتخب والنكت لأبن أدريس: ١٠١/١، إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري(ت٦١٦ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م: ٢٧٢/٢.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ٥٤/٧.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩ / ١١٣، الأمثال للسبحاني، ص١١٣.

(٤) أحكام القرآن للجصاص، ٥٥٣/١ ، ينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ٢٥٨/١، الكشف والبيان للثعلبي: ٢٦١/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٢٦٩/١.

(٥) الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦١/٢.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٥٣/٧ وينظر: شرح المقاصد في علم الكلام ، لسعد الدين مسعود التفتازاني(ت ٧٩٢ ﻫ) ، دار المعارف النعمانية ، باكستان ، ط١، ١٤٠١ﻫ – ١٩٨١ م: ٢٣٢/٢، شرح المواقف، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني (ت ٨١٦ هـ)، تحقيق: علي بن محمد الجرجاني، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٣٢٥ هـ – ١٩٠٧ م: ٨/ شرح ص٣٠٩، الأمثال لأبن شريف: ص ٣١.

باطل عقلا وشرعا. أما **الأول** فلما قرر في محله من استلزامه الظلم، لأن معنى الحبط أن مطلق السيئة يذهب الحسنات وثوابها على وجه الإطلاق مع أنه مستلزم للظلم، لأن من أساء وأطاع وكانت إساءته أكثر فعلى القول بالإحباط يكون بمنزلة من لم يحسن. وإن كان إحسانه أكثر يكون بمنزلة من لم يسئ، وإن تساويا يكون مساويا لمن يصدر عنهما. **وأما شرعا** فلقوله سبحانه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[١]".[٢] قسم السبحاني الآية الى تشبيه وتمثيل إذ قال: "إنه سبحانه شبه أصحاب المن والأذى بالمرائي الذي لا يبتغي بعمله مرضاة الله تعالى، ولا يقصد به وجه الله غير أن المان والمؤذي يقصد بعمله مرضاة الله ثم يتبعهما بما يبطله بالمعنى الذي عرفت، والمرائي لا يقصد بأعماله وجه الله سبحانه فيقع عمله باطلا من رأس، ولذلك صح تشبيههما بالمرائي مثل تشبيه الضعيف بالقوي".[٣] وهذا ما ذهب اليه الرازي ومفسرين عدة إذ قال: "الكاف في قوله (كالذي) فيه **قولان:**

الأول: إنه متعلق بمحذوف والتقدير: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كإبطال الذي ينفق ماله رئاء الناس، فبيّن تعالى أن المن والأذى يبطلان الصدقة، كما أن النفاق والرياء يبطلانها، وتحقيق القول فيه أن المنافق والمرائي يأتيان بالصدقة لا لوجه الله تعالى، ومن يقرن الصدقة بالمن والأذى، فقد أتى بتلك الصدقة لا لوجه الله أيضاً إذ لو كان غرضه من تلك الصدقة مرضاة الله تعالى لما من على الفقير ولا آذاه، فثبت اشتراك الصورتين في كون تلك الصدقة ما أتى بها لوجه الله تعالى، وهذا يحقق ما قلنا أن المقصود من الابطال الإتيان به باطلاً، لا أن المقصود الإتيان به صحيحاً، ثم إزالته وإحباطه بسبب المن والأذى.

الثاني: إن يكون الكاف في محل النصب على الحال، أي لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذي ينفق ماله رئاء الناس".[٤] وأختلف المفسرون في تحديد المرائي فأن السبحاني لم يحدد

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان / ٧، ٨.

(٢) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، لنصير الدين محمد بن الحسن الطوسي (ت ٦٧٢ هـ)، شرح: جمال الدين الحسن بن يوسف، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، (ب – ط – ت)، ص٣٩٠ وينظر، مفاهيم القرآن: ٩/ ١١٣، الأمثال للسبحاني، ص١١٣.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٣ – ١١٤، الأمثال للسبحاني، ص١١٣ – ١١٤ وينظر: كنز العرفان في فقه القرآن، للمقداد السيوري(ت ٨٢٦ هـ)، تحقيق: محمد باقر (شريف زاده)، مطبعة حيدري، طهران، (ب – ط)، ١٣٨٤هـ– ١٣٤٣ش: ٢٤٦/١.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي، ٥٧/٧ وينظر: انوار التنزيل للبيضاوي: ٥٦٦/١، جواهر الحسان للثعالبي: ٥١٩/١، الإتقان للسيوطي: ٥٣٤/١، ارشاد العقل السليم لابي السعود: ٢٥٩/١.

وباقي المفسرين حددوه بالمشرك الكافر أو المنافق أو المؤمن: "يعني مثل الذي يمن بصدقته، كمثل مشرك أنفق ماله في غير إيمان، فأبطل شركه الصدقة كما أبطل المن والأذى صدقة المؤمن"،(١) "أن هذين يبطلان الصدقة، كما تبطل صدقة المنافق الذي يعطي رياء، ليوهم أنه مؤمن"،(٢) "وهذا يدخل فيه المؤمن والكافر إذا أخرجا المال للرئاء".(٣)

وتؤيد الباحثة رأي الطبري القائل: "إن هذه صفة المنافق؛ لان المظهر كفره والمعلن شركه معلوم أنه لا يكون بشيء من أعماله مرائيا، لان المرائي هو الذي يرائي الناس بالعمل الذي هو في الظاهر لله وفي الباطن عامله مراده به حمد الناس عليه، والكافر لا يخيل على أحد أمره أن أفعاله كلها إنما هي للشيطان -إذا كان معلنا كفره- لا لله، ومن كان كذلك فغير كائن مرائيا بأعماله".(٤)

أما التمثيل فوضحه السبحاني بالبيان الآتي قائلاً: "نفترض أرضا صفوانا أملس عليها تراب ضئيل يخيل لأول وهلة أنها أرض نافعة صالحة للنبات، فأصابها مطر غزير جرف التراب عنها فتركها صلدا صلبا أملس لا تصلح لشيء من الزرع، كما قال سبحانه:﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. فعمل المرائي له ظاهر جميل وباطن ردئ، فالإنسان غير العارف بحقيقة نية العامل يتخيل أن عمله منتج، كما يتصور الإنسان الحجر الأملس الذي عليه تراب قليل فيتخيل أنه صالح للنبات، فعند ما أصابه مطر غزير شديد الوقع ونفض التراب عن وجه الحجر تبين أنه حجر أملس لا يصلح للزراعة، فهكذا عمل المرائي إذا انكشفت الوقائع ورفعت الأستار تبين أنه عمل ردئ عقيم غير ناتج. ثم (إن المان والمؤذي بعد الإنفاق أشبه بعمل المرائي)".(٥) وهذا ماذهب اليه أغلب المفسرين(٦): "مثل المنافق الذي ينفق ماله رئاء الناس ونفقته التي لا ينتفع بها ألبته بحجر أملس عليه تراب فأصابه مطر عظيم القطر فتركه أجرد نقيا من التراب الذي

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان، ١٤٣/١، بحر العلوم للسمرقندي، ٢٠١/١ وينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٢٧٦/١.

(٢) معاني القرآن للنحاس، ٢٩٠/١ وينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ٢٥٨/١، الكشف والبيان للثعلبي: ٢٦١/٢، التبيان للطوسي: ٣٣٥/٢، مدارك التنزيل للنسفي: ١٢٩/١، المنتخب والنكت لأبن أدريس: ١٠١/١.

(٣) مجمع البيان للطبرسي، ١٨٤/٢ وينظر: الشارة الجمالية لعشتار داود: ص٥٢ -٥٣.

(٤) جامع البيان للطبري، ٩٠/٣.

(٥) مفاهيم القرآن، ١١٤/٩ - ١١٥، الأمثال للسبحاني، ص١١٤ - ١١٥.

(٦) ينظر: جامع البيان للطبري: ٨٩/٣، القرآن العظيم لأبي حاتم: ٥١٨/٢، بحر العلوم للسمرقندي: ٢٠١/١، الكشف والبيان للثعلبي: ٢٦١/٢.

كان عليه لا يجدون ثواب شيء مما أنفقوا"،[١] مثل هذا المنفق رئاء بصفوان عليه تراب فيظنه الظان أرضا منبتة طيبة كما يظن قوم أن صدقة هذا المرائي لها قدر أو معنى فإذا أصاب الصفوان وابل من المطر انكشف ذلك التراب وبقي صلدا فكذلك هذا المرئي إذا كان يوم القيامة وحصلت الأعمال انكشف سره وظهر أنه لا قدر لصدقته ولا معنى فالمن والأذى والرياء يكشف عن النية فيبطل الصدقة كما يكشف الوابل الصفا فيذهب ما ظن أرضا"،[٢] "شبه سبحانه فعل المنافق والمنان، بالصفا (الحجر الأملس) الذي أزال المطر ما عليه من التراب، فإنه لا يقدر أحد على رد ذلك التراب عليه، كذلك إذا دفع المنان صدقة، وقرن بها المن، فقد أوقعها على وجه لا طريق له إلى استدراكه وتلافيه، لوقوعها على الوجه الذي لا يستحق عليه الثواب، فإن وجوه الأفعال تابعة لحدوث الأفعال، فإذا فاتت، فلا طريق إلى تلافيها".[٣] وفصل الرازي القول في ضمير قوله:﴿ فَمَثَلُهُۥ ﴾ الى **وجهين:**

- **أحدهما:** إنه عائد إلى المنافق، فيكون المعنى أن الله تعالى شبه المان والمؤذي بالمنافق، ثم شبه المنافق بالحجر، أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المان المؤذي، ولعمل المنافق، فإن الناس يرون في الظاهر أن لهؤلاء أعمالاً، كما يرى التراب على هذا الصفوان، فإذا كان يوم القيامة اضمحل كله وبطل لأنه تبين أن تلك الأعمال ما كانت لله تعالى، كما أذهب الوابل ما كان على الصفوان من التراب.
- **وثانيهما:** في التشبيه، وهو أن أعمال العباد ذخائر لهم يوم القيامة، فمن عمل بإخلاص فكأنه طرح بذراً في أرض فهو يضاعف له وينمو حتى يحصده في وقته، ويجده وقت حاجته، والصفوان محل بذر المنافق، ومعلوم أنه لا ينمو فيه شيء ولا يكون فيه قبول للبذر، والمعنى أن عمل المان والمؤذي والمنافق يشبه إذا طرح بذراً في صفوان صلد عليه غبار قليل، فإذا أصابه مطر جود بقي مستودعاً بذره خالياً لا شيء فيه، ألا ترى أنه تعالى ضرب مثل المخلص بجنة فوق ربوة، والجنة ما يكون فيه أشجار ونخيل، فمن أخلص لله تعالى كان كمن غرس بستاناً في ربوة من الأرض، فهو يجني ثمر غراسه في أوجات الحاجة وهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها متضاعفة زائدة، وأما عمل المان والمؤذي والمنافق، فهو كمن بذر في الصفوان الذي عليه تراب، فعند الحاجة إلى الزرع لا يجد فيه شيئاً.[٤]

---

(١) مدارك التنزيل للنسفي، ١٢٩/١، الكشاف للزمخشري، ١/ ٣٩٤.
(٢) المحرر الوجيز لابن عطية، ٣٥٨/١ وينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٢٧٦/١.
(٣) مجمع البيان للطبرسي، ١٨٤/٢.
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٥٧/٧.

تخلص الباحثة: إن عبارة لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى تفيد بأن بعض الأعمال التي نراها صغيرة تافهة ومتجاوز عنها لها القدرة على أن تبدد نتائج الأعمال الحسنة. "لا تتبعوا صدقاتكم بما يبطلها من الأقوال التي تتضمن التبجح بها، والامتنان بفعلها، لان في ذلك أذى لمن تقصدونه بالعطاء، يغض من الصنيعة وينقصها، ويكسف ضياءها وينغصها"،[١] "وخير للإنسان الذي لا يملك ما يقدمه أن يرد ردا جميلاً فلا يلفظ بما يجرح كبرياء الانسان، أو يهين كرامته".[٢] وأنه تعالى ذكر لكيفية إبطال أجر الصدقة بالمن والأذى مثلين، فمثله **أولاً:** بمن ينفق ماله رئاء الناس، ثم مثله **ثانياً:** بالصفوان الذي وقع عليه تراب وغبار، ثم أصابه المطر القوي، فيزيل ذلك الغبار عنه حتى يصير كأنه ما كان عليه غبار ولا تراب أصلاً.

التمثيل الثالث: تشبيه المرابي بالمجنون

-قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾. [٣]

شرع السبحاني تفسير آية المثل بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفردات[٤] الآية قائلاً: "وحاصل معنى الآية أن آكل الربا لا يقوم إلا كقيام من يتخبطه الشيطان فيصرعه،

---

(١) حقائق التأويل، للشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)، تحقيق: محمد رضا آل كاشف الغطاء، دار المهاجر للطباعة، بيروت، ط١، ١٣٥٤ هـ، ص٢٢٦ وينظر: مجمع الأمثال للميداني: ٢٤١/٢.

(٢) عون الحنان للطهطاوي، ص٢٢٦.

(٣) سورة البقرة، الآية /٢٧٥.

(٤) "الربا" في اللغة: الزيادة كما في قولهم ربا الشئ يربو إذا زاد ونما. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٣٠٤/١٤، مادة (ربا). وفي الاصطلاح عرفها السبحاني بأنها: "الزيادة على رأس المال، فلو أقرض أحد أحدا عشرة إلى سنة فأخذ منه في نهاية الأجل أكثر مما دفع فهو ربا إذا شرطه في العقد". مفاهيم القرآن: ٩/ ١٢١، الأمثال للسبحاني، ص ١٢١. "التخبط" في اللغة: والخبط بمعنى واحد في اللغة وهو المشي على غير استواء. يقال: خبط البصير إذا اختلت جهة مشيه، ويقال للذي يتصرف في أمر ولا يهتدي فيه: هو يخبط خبطة عشواء، أي يضرب على غير اتساق. ينظر: تاج العروس للزبيدي: ٢٣٣/١٠، مادة (خبط). وفي الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "يخبطه الشيطان ويضربه، وبالتالي يصرعه". مفاهيم القرآن، ٩/ ١٢١. "السلف" في اللغة: أي الماضي يقال سلف يسلف سلوفا، ومنه الأمم السالفة أي الماضية. ينظر: العين للفراهيدي: ٢٥٨/٧، مادة (سلف). وعرف السبحاني قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ في الاصطلاح قائلاً: "فالظرف متعلق بيقوم، أي لا يقومون إلا كما يقوم المصروع من المس". مفاهيم القرآن، ٩/ ١٢١، الأمثال للسبحاني، ص١٢١.

إذ أن قيامه على غير استواء فهكذا آكل الربا. فالتشبيه وقع بين قيام آكل الربا وقيام المصروع من خبط الشيطان".[١]

طرح السبحاني سؤالين متعلقين بالآية وهما: **الأول:** ما المراد من أن آكل الربا لا يقوم إلا كقيام المصروع ؟. **الثاني:** ما هو المراد من كون الصرع من مس الشيطان ؟. فأجاب في الوقت نفسه على الأول وهو ما أورده الرازي في تفسيره: أنه اختلف فيه المفسرون على وجوه **تذكرها الباحثة** على النحو الآتي:

١. ذهب أغلب المفسرين إلى أن المراد قيامهم يوم القيامة قيام المتخبطين، فكأن آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا، وذلك كالعلامة المخصوصة بآكل الربا، فيعرفه أهل الموقف أنه آكل الربا في الدنيا. وفي ضوء هذا يكون معنى الآية أنهم يقومون مجانين كمن أصابه الشيطان بمس.[٢]

٢. إنهم إذا بعثوا من قبورهم خرجوا مسرعين لقوله: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾.[٣] إلا آكلة الربا فإنهم يقومون ويسقطون، لأنه سبحانه أرباه في بطونهم يوم القيامة حتى أثقلهم فهم ينهضون ويسقطون ويريدون الإسراع ولا يقدرون. ويؤيده ما روي عن النبي (ﷺ) أنه قال: ((أسري بي إلى السماء رأيت رجالا بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء آكلة الربا))[٤].[٥]

٣. إن المراد من المس ليس هو الجنون، وإن كان المس يستعمل فيه، بل المراد من تبع الشيطان وأجاب دعوته، كما هي الحال في قوله سبحانه:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٢٢، الأمثال للسبحاني، ص١٢٢.

(٢) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤٨/١، جامع البيان للطبري: ١٤٠/٣، معاني القرآن للنحاس: ٣٠٥/١، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٢٦٣/١، التبيان للطوسي: ٣٦٠/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٢٧٩/١، الكشـــــاف للزمخشري: ١/ ٣٩٨، مجمع البيان للطبرسي: ٢٠٥/٢، الامثال والمثل لسميح عاطف: ص ٥٦٤.

(٣) سورة المعارج، من الآية /٤٣.

(٤) سنن ابن ماجة ، لمحمد بن يزيد أبي عبدالله القزويني (٢٧٥ ه) ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ، بيروت ، (ب–ط–ت)، كتاب (التجارات.....)، باب (الغليظ في الربا)، رقم الحديث (٢٢٧٣)، مجمع الزوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، (ب –ط)، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م، ١١٧/٤، كتاب (البيوع)، باب (ماجاء في الربا)، وهو حديث ضعيف.

(٥) ينظر: معاني القرآن للنحاس، ٣٠٥/١، زاد المسير لابن الجوزي: ٢٨٥/١، تقريب القرآن لمحمد الشيرازي: ١/شرح ص ٢٦٩.

طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾،[١] وذلك لأن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله، فهذا هو المراد من مس الشيطان، ومن كان كذلك كان في أمر الدنيا متخبطا، فتارة يجره الشيطان إلى اتباع النفس والهوى، وتارة تجره الفطرة إلى الدين والتقوى فتضطرب حياته ويسودها القلق. فلا شك أن آكل الربا يكون مفرطا في حب الدنيا متهالكا عليها، ولذلك تكون حياته الدنيوية حياة غير منظمة وعلى غير استواء.[٢]

ثم ذكر السبحاني **وجهاً رابعاً** ذكره الطباطبائي وهو: إن الإنسان الممسوس الذي اختلت قوته المميزة لا يفرق بين الحسن والقبيح، والنافع والضار، والخير والشر، فهكذا حال المرابي في أخذه للربا فإن الذي تدعو إليه الفطرة أن يعامل بمعاوضة ما عنده من المال الذي يستغني عنه مما عند غيره من المال الذي يحتاج إليه. وأما إعطاء المال وأخذ ما يماثله بعينه مع زيادة، فهذا شيء ينهدم به قضاء الفطرة وأساس المعيشة، فإن ذلك ينجر من جانب المرابي إلى اختلاس المال من يد المدين وتجمعه وتراكمه عند المرابي، فإن هذا المال لا يزال ينمو ويزيد، ولا ينمو إلا من مال الغير، فهو بالانتقاص والانفصال من جانب، والزيادة والانضمام من جانب آخر. وينجر من جانب المدين المؤدي للربا إلى تزايد المصرف بمرور الزمان تزايدا لا يتداركه شيء مع تزايد الحاجة، وكلما زاد المصرف أي نما الربا بالتصاعد زادت الحاجة من غير أمر يجبر النقص ويتداركه وفي ذلك انهدام حياة المدين. فالربا يضاد التوازن والتعادل الاجتماعي ويفسد الانتظام الحاكم على هذا الصراط المستقيم الإنساني الذي هدته إليه الفطرة الإلهية. وهذا هو الخبط الذي يبتلى به المرابي كخبط الممسوس، فإن المراباة يضطره أن يختل عنده أصل المعاملة والمعاوضة فلا يفرق بين البيع والربا، فإذا دعي إلى أن يترك الربا ويأخذ بالبيع، أجاب: إن البيع مثل الربا لا يزيد على الربا بمزية، فلا موجب لترك الربا وأخذ البيع، ولذلك استدل تعالى على خبط المرابين بما حكاه من قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾، ومن هذا البيان يظهر: ان المراد بالقيام في قوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ﴾، هو الاستواء على الحياة والقيام بأمر المعيشة.[٣]

---

(١) سورة الأعراف، الآية /٢٠١.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٧/ ٩٦، الأمثل للشيرازي: ٣٣٨/٢، الوسيط للطنطاوي: ٦٣١/١، مفـــــاهيم القرآن، ٩/ ١٢٢ -١٢٣، الأمثال للسبحاني، ص ١٢٢ – ١٢٣.

(٣) ينظر: الميزان للطباطبائي: ٤١٠/٢، مفاهيم القرآن: ٩ / ١٢٣ -١٢٤، الأمثال للسبحاني: ص١٢٣-١٢٤.

طرح السبحاني سؤالاً آخر أورده مفسرون عدة في تفسيرهم للآية هو: إنه لماذا قيل البيع مثل الربا بل كان عليهم القول بأن الربا مثل البيع، لأن الكلام في الربا لا في البيع فوجب عليهم أن يشبهوا الربا بالبيع، لا على العكس؟.[١] فأجاب في الوقت نفسه وهو ما ذهب اليه النسفي وآخرون: أنهم شبهوا البيع بالربا لأجل المبالغة وهو أنهم جعلوا حلية الربا أصلا، وحلية البيع فرعا، فقالوا: إن البيع مثل الربا.[٢] "بل كان غرضهم أن الربا والبيع متماثلان من جميع الوجوه المطلوبة فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين بالحل والثاني بالحرمة وعلى هذا التقدير فأيهما قدم أو أخر جاز".[٣] وأما السؤال الثاني وهو المراد من كون الصرع من مس الشيطان؟ فأجاب في الوقت نفسه: "إن ظاهر الآية أن الجنون نتيجة تصرف الجن في المجانين، مع أن العلم الحديث كشف علة الجنون وهو حدوث اختلالات في الأعصاب الإدراكية، فكيف يجمع بين مفاد الآية وما عليه العلم الحديث، وهذا من قبيل تعارض النقل والعقل".[٤] وأجاب عنه بعض المفسرين: بأن هذا التشبيه من قبيل المجاراة مع عامة الناس في بعض اعتقاداتهم الفاسدة حيث كان اعتقادهم بتصرف الجن في المجانين، ولا ضير في ذلك، لأنه مجرد تشبيه خال عن الحكم حتى يكون خطأ غير مطابق للواقع. فحقيقة معنى الآية هو أن هؤلاء الآكلين للربا حالهم حال المجنون الذي يتخبطه الشيطان من المس، وأما كون الجنون مستندا إلى مس الشيطان فأمر غير ممكن، لأن الله سبحانه أعدل من أن يسلط الشيطان على عقل عبده، أو على عبده المؤمن،[٥] "المصروع وتخبط الشيطان من زعمات العرب يزعمون أن الشيطان يخبط الانسان فيصرع، والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء فورد على ما كانوا يعتقدون، والمس الجنون، ورجل ممسوس، وهذا أيضا من زعماتهم وأن الجني يمسه فيختلط عقله، وكذلك جن الرجل معناه ضربته الجن ورؤيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: مدارك التنزيل للنسفي: ١٣٤/١، الكشاف للزمخشري: ١/ ٣٩٩، انوار التنزيل للبيضاوي: ٥٧٤/١، التسهيل لعلوم التنزيل لابن الجزي: ١٣٧/١، مفاهيم القران: ٩/ ١٢٤.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ١٣٤/١، الكشاف للزمخشري: ٤٠١/١، انوار التنزيل للبيضاوي: ٥٧٤/١، التسهيل لعلوم التنزيل لابن الجزي: ١٣٧/١، فتح القدير للشوكاني: ٢٩٥/١، مفاهيم القرآن: ٩ / ١٢٤، الأمثال للسبحاني: ص١٢٤.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ٩٨/٧.

(٤) مفاهيم القرآن: ٩ / ١٢٤ – ١٢٥، الأمثال للسبحاني: ص١٢٤ –١٢٥.

(٥) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي: ١٦٢/١، تفسير المنار لمحمد رشيد: ٣/ ٩٥، التفسير الحديث لدروزة: ٤٩٠/٦، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٢٥، الأمثال للسبحاني، ص١٢٥.

عندهم كإنكار المشاهدات".[١] وأجاب بعضهم: أن التشبيه في الآية الكريمة على الحقيقة، بمعنى أن الآية تشبه حال المرابين بحال المجنون الذي مسه الشيطان، لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالصرع والجنون، فيكون ذلك أمارة لأهل الموقف على أنهم أكلة الربا.[٢] وهذا ما أيده السبحاني عندما أورد جواب الطباطبائي إذ قال: "أن الله تعالى أجل من أن يستند في كلامه إلى الباطل، ولغو القول بأي نحو كان من الاستناد إلا مع بيان بطلانه ورده على قائله، وقد قال تعالى في وصف كلامه: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.[٣] وقال تعالى:﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ *وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾.[٤] وأما أن استناد الجنون إلى تصرف الشيطان وذهاب العقل ينافي عدله تعالى، ففيه أن الإشكال بعينه مقلوب عليهم في إسنادهم ذهاب العقل إلى الأسباب الطبيعية فإنها مستندة أخيرا إلى الله تعالى مع إذهابها العقل. وهناك كلام آخر للسيد الطباطبائي ولعله يقلع الشبهة: إن استناد الجنون إلى الشيطان ليس على نحو الاستقامة ومن غير واسطة بل الأسباب الطبيعية كاختلال الأعصاب والآفة الدماغية أسباب قريبة وراءها الشيطان، كما أن أنواع الكرامات تستند إلى الملك مع تخلل الأسباب الطبيعية في البين، وقد ورد نظير ذلك فيما حكاه الله عن أيوب (عليه السلام) إذ قال:﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾،[٥] وقال:﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.[٦] الضر هو المرض وله أسباب طبيعية ظاهرة في البدن، فنسب ما به من المرض المستند إلى أسبابه الطبيعية إلى الشيطان".[٧]

وترى الباحثة: إنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرابين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا في قلق مستمر، وانزعاج دائم، واضطراب ظاهر بسبب جشعهم وشرههم في جمع المال، ومن يتتبع أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين في أقوالهم وحركاتهم، فهم يفتقرون إلى التفكير الاجتماعي السليم، بل أنهم لا يشخصون حتى منافعهم الخاصة، ولذلك

---

(١) الكشاف للزمخشري، ١/ ٣٩٩ وينظر: كنز العرفان للسيوري: ٢/ ٣٥، أمثال القرآن لحنبكة: ص ١٨٠.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٣٩/٣، مجمع البيان للطبرسي: ٢٠٥/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٢٧٩/١، فتح القدير للشوكاني: ٢٩٥/١، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٢٨/١.

(٣) سورة فصلت، الآية /٤٢.

(٤) سورة الطارق، الآيتان / ١٣، ١٤.

(٥) سورة ص، من الآية / ٤١.

(٦) سورة الانبياء، من الآية / ٨٣.

(٧) الميزان للطباطبائي، ٤١٣/٢ ، مفاهيم القرآن: ٩/ ١٢٥ -١٢٦، الأمثال للسبحاني، ص١٢٥-١٢٦.

فإنه يجني على نفسه أيضا بعمله الجنوني هذا. ولكن بما أن وضع الإنسان في العالم الآخر تجسيد لأعماله في هذا العالم فيحتمل أن تكون الآية إشارة إلى المعنيين. والأحاديث والروايات تشير إلى كلا المفهومين. ففي حديث عن النبي (ﷺ) قال: ((اللهم إني أعوذ بك ان أموت غما أو هماً أو أن أموت غرقا أو أن يتخبطني الشيطان عند الموت))،[١] وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير هذه الآية أنه قال: ((آكل الربا لا يخرج من الدنيا حتى يتخبطه الشيطان)).[٢] وفي رواية أخرى عن رسول الله (ﷺ) بشأن تجسيد حال المرابين في يوم القيامة قال: ((لما أسري بي إلى السماء رأيت قوما يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عظم بطنه، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل! قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس))[٣] وهذا ما رجحه الرازي إذ قال: "أن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله، فهذا هو المراد من مس الشيطان، ومن كان كذلك كان في أمر الدنيا متخبطاً، فتارة الشيطان يجره إلى النفس والهوى، وتارة الملك يجره إلى الدين والتقوى، فحدثت هناك حركات مضطربة، وأفعال مختلفة، فهذا هو الخبط الحاصل بفعل الشيطان وآكل الربا لا شك أنه يكون مفرطاً في حب الدنيا متهالكاً فيها، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك الحب حجاباً بينه وبين الله تعالى، فالخبط الذي كان حاصلاً في الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط في الآخرة، وأوقعه في ذل الحجاب".[٤]

التمثيل الرابع: استجابة الدعاء

- قال تعـالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ

(١) مسند أحمد، ٣/ ٤٢٧، (مسند المكيين)، حديث (أبى اليسر الأنصاري....)، سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ)، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة، ط١، ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠م، ٣٤٦/١، كتاب (الصلاة)، باب (في الاستعاذة)، رقم الحديث (١٥٥٢)، بحار الأنوار للمجلسي، ٩٢/ ٣٦٢، باب (الدعوات المأثورة....)، رقم الحديث (٢١)، وهو حديث صحيح.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت)، لمحمد بن الحسن بن علي المعروف بـ (الحر العاملي) (ت ١١٠٤ هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، مطبعة مهر، قم، ط٢، ١٤١٤ هـ، ١٨/ ١٢٤، باب(تحريم الربا)، رقم الحديث (٢٣)، بحار الأنوار للمجلسي، ١٠٠/ ١٢٠، باب (علة تحريم الربا)، رقم الحديث (٣٠)، وهو حديث ضعيف.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي، ٢٤٠/٦، باب (أحوال البرزخ والقبر...)، رقم الحديث (٥٩)، مستدرك الوسائل للطبرسي، ٣٣١/١٣، أبواب الربا، رقم الحديث (٦) ، وهو حديث ضعيف.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي، ٩٦/٧، وينظر: الوسيط للطنطاوي: ٦٣٣/١.

وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾.[١]

بدأ السبحاني تفسير الآية بتوضيح أن الدعوة على قسمين:**(دعوة حقة ودعوة باطلة)** إذ قال: "تقدم الظرف في قوله:﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾ لأجل إفادة الحصر، ويؤيده ما بعده من نفي الدعوة عن غيره. إذ إن إضافة الدعوة إلى الحق من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، أي الدعوة الحقة له، لأن الدعوة عبارة عن توجيه نظر المدعو إلى الداعي، والإجابة عبارة عن إقبال المدعو إليه، وكلا الأمرين يختصان بالله عز اسمه. وأما غيره فلا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا . وعند ذاك كيف يمكن أن يجيب دعوة الداعي. فالنتيجة أن الدعوة الحقة التي تستعقبها الإجابة هي لله تبارك وتعالى، فهو حي لا يموت، ومريد غير مكره، قادر على كل شيء، غني عمن سواه. وبذلك يعلم أن الدعوة على قسمين: دعوة حقة ودعوة باطلة".[٢] وهذا ما ذهب اليه الزمخشري إذ قال: "﴿ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾ فيه وجهان: **أحدهما:** إن تضاف الدعوة إلى الحق للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به وأنها بمعزل من الباطل. والمعنى: أن الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ويعطى الداعي سؤاله إن كان مصلحة له فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقا بأن يوجه إليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف مالا ينفع ولا يجدى دعاؤه. **وثانيهما:** أن تضاف إلى الحق الذي هو الله عز وعلا على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب، الحق هو الله، وكل دعاء إليه دعوة الحق".[٣] وذهب أغلب المفسرين: إنها كلمة التوحيد، وهي: لا إله إلا الله، أو الله هو الحق فدعاؤه دعوة الحق، أو الإخلاص في الدعاء.[٤]

أضاف السبحاني الى تفسير الآية قائلاً: "إن الدعوة الحقة لله ودعوة غيره دعوة باطلة، إما لأنه لا يسمع ولا يريد، أو يسمع ولا يقدر. وأشار إلى القسم الباطل بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ ﴾، وقد عرفت وجه عدم الاستجابة".[٥] وذهب أغلب المفسرين في

---

(١) سورة الرعد، الآية / ١٤.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٥٢ –١٥٣، الأمثال للسبحاني، ص١٥٢ –١٥٣ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٣/ ٤٣٤.

(٣) الكشاف للزمخشري، ٢/ ٣٥٤ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٩/ ٢٨.

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٦٨/١٣، التبيان للطوسي: ٢٣٢/٦، تفسير القرآن للسمعاني: ٨٥/٣، زاد المسير لابن الجوزي: ٢٣٤/٤، التفسير العظيم لعبد السلام: ١٤٩/٢، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٣٠٠/٩، القرآن العظيم لابن كثير: ٥٢٥/٢، تيسير الكريم للسعدي: ص٤١٥.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٥٣، الأمثال للسبحاني، ص١٥٣.

تفسير قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الى: الذين يعبدون الأصنام والذين يعبدون آلهة من دون الله، والذين يدعون من الأوثان لحاجاتهم، الذين يدعون أربابا.[١] ثم أكمل قائلاً: "إنه سبحانه استثنى صورة واحدة من عدم الاستجابة، لكنه استثناء صوري وهو في الحقيقة تأكيد لعدم الاستجابة، وقال:﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾. فدعوة الأصنام والأوثان وطلب الحاجة منهم، أشبه بحال الظمآن البعيد من الماء كالجالس على حافة البئر والباسط كفه داخل البئر ليبلغ الماء فاه، مع البون البعيد بينه وبين الماء".[٢] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٣]: "لا تجيب الآلهة من يعبدها ولا تنفعهم، كما لا ينفع العطشان الماء يبسط يده إلى الماء وهو على شفير بئر، يدعوه أن يرتفع إلى فيه، وما هو ببالغه، حتى يموت من العطش، فكذلك لا تجيب الأصنام"،[٤] "هذا مثل ضربه الله لكل من عبد غير الله ودعاه رجاء أن ينفعه، فإن مثله كمثل رجل بسط كفيه إلى الماء من مكان بعيد ليتناوله ويسكن به غلته، وذلك الماء لا يبلغ فاه لبعد المسافة بينهما، فكذلك ما كان يعبده المشركون من الأصنام لا يصل نفعها إليهم ولا يستجيب دعاءهم".[٥] ومنهم من فسر الآية بوجه آخر: "لا يستجيبون إلا استجابة الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم".[٦]

رجح السبـــحاني الوجه الأول وذلك: " لأن الآلهة بين جماد لا يشعر أو ملك أو جن أو

---

(١) ينظر: تفسير سفيان الثوري، لأبي عبد الله سفيان بن سعيد بن سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٣ هـ: ص١٥٢، تفسير القمي للقمي: ٣٦١/١، معاني القرآن للنحاس: ٤٨٦/٣، التبيان للطوسي: ٢٣٣/٦، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٨/١٩، نور الثقلين للحويزي: ٤٩١/٢، الامثال لأبن شريف: ص٧٧.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٥٣، الأمثال للسبحاني، ص١٥٣ وينظر: تفسير سفيان الثوري: ص١٥٢، تفسير القرآن للصنعاني: ٣٣٤/٢، أمثال القرآن لحنبكة: ص١٨٥.

(٣) ينظر: تفسير سفيان الثوري: ص١٥٢، تفسير القرآن للصنعاني: ٣٣٤/٢، تفسير القمي للقمي: ٣٦١/١، تفسير القرآن للسمعاني: ٨٥/٣، تفسير القرآن لابن كثير: ٥٢٥/٢.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان، ١٧٢/٢ وينظر: جامع البيان للطبري: ١٧٠/١٣.

(٥) مجمع البيان للطبرسي، ٢٤/٦.

(٦) مدارك التنزيل للنسفي، ٢١٣/٢، الكشاف للزمخشري، ٢/ ٣٥٤، مفاتيح الغيب للرازي: ١٩/ ٢٨، التسهيل لعلوم التنزيل لابن الجزي: ٤٠٢/١ وينظر: الأمثال للفياض: ص٤٠٤.

روح يشعر ولكن لا يملك شيئا، فهذا الوجه يختص بما إذا كان الإله جمادا لا غير".[١]

تؤيد الباحثة ترجيح السبحاني وذلك لوجود أصناف عدة قد أُلهت ولازال كذلك.

ختم السبحاني تفسير الآية بتفسير ذيلها:﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ إذ قال: "إن الضلال عبارة عن الخروج عن الطريق وسلوك ما لا يوصل إلى المطلوب، ودعاء غيره خروج عن الطريق الموصل إلى المطلوب، لأن الغاية من الدعاء هو إيجاد التوجه ثم الإجابة، فالآلهة الكاذبة إما فاقدة للتوجه، وإما غير قادرة على الاستجابة، فأي ضلال أوضح من ذلك".[٢]

وترى الباحثة: إن الدعاء صلة روحية بين العبد وبارئه، وعبادة يمارسها الإنسان في جميع حالاته، لأنه يترجم عمق تلك الصلة، ويعكس حالة الافتقار المتأصلة في ذات الإنسان إلى الله سبحانه، والإحساس العميق بالحاجة إليه والرغبة فيما عنده. وهو الباب الذي خوله تعالى لعباده كي يلجأوا إلى ذخائر رحمته وخزائن مغفرته، وقضاء حوائجهم. فمن لا يستخدم وسيلة صحيحة لذلك، فلا الماء بالغ الى فمه، ولا هو عائد الى رشده، فأنى يستجاب له ؟.

<u>التمثيل الخامس: تشبيه ناقض العهد بناقضة الغزل</u>

-قال تعالى:﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.[٣]

بدأ السبحاني تفسير الآيات بشأن نزولها بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفرداتها[٤] إذ قال: "إنها امرأة حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواريها إلى انتصاف النهار، ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن ولا يزال ذلك دأبها، واسمها" ريطة" بنت عمرو بن كعب بن سعد

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٥٣ -١٥٤، الأمثال للسبحاني، ص ١٥٣ -١٥٤.

(٢) المصدران نفسهما.

(٣) سورة النحل الآيتان / ٩١، ٩٢.

(٤) "توكيدها" في اللغة: هي من التوكيد، أي التشديد. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٧٤/٣ ، ٣/ ٢٩٧، مادة (أكد). "الإنكاث" لغة: الإنقاض. ينظر: العين للفراهيدي: ٣٥١/٥، مادة (نكث). وفي الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "كل شئ نقض بعد الفتح، فقد انكاث حبلا كان أو غزلا". مفاهيم القرآن، ٩/ ١٨٠، الأمثال للسبحاني، ص ١٨٠. "الدخل" في اللغة: ما أدخل في الشئ على فساد، وربما يطلق على الخديعة. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٢٤١/١١، مادة (دخل). وفي الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "استعمل لفظ الدخل في نقض العهد، لأنه داخل القلب على ترك البقاء، وكل ما دخله عيب فهو مدخول". مفاهيم القرآن، ٩/ ١٨٠، الأمثال للسبحاني، ص ١٨٠.

بن تميم بن مرة، وكانت تسمى فرقاء مكة"،[١] وهذا ما أورده أغلب المفسرين.[٢] ثم ذكر السبحاني تمهيدا للآية قائلا: "إن لزوم العمل بالميثاق من الأمور الفطرية التي جبل عليها الإنسان، ولذلك نرى أن الوالد إذا وعد ولده شيئا، ولم يف به فسوف يعترض عليه الولد، وهذا كاشف أن لزوم العمل بالمواثيق والعهود أمر فطر عليه الإنسان. ولذلك صار العمل بالميثاق من المحاسن الأخلاقية التي اتفق عليها العقلاء كافة".[٣]

ثم أتم السبحاني تفسير الآية قائلاً: "إنه سبحانه يرسم عمل ناقض العهد بامرأة تنقض غزلها من بعد قوة أنكاثا، قال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ مشيرا إلى المرأة التي مضى ذكرها وبيان عملها حيث كانت تغزل ما عندها من الصوف والشعر، ثم تنقض ما غزلته، وقد عرفت في قوله ب(الحمقاء) فكذلك حال من أبرم عهدا مع الله وباسمه ثم يقدم على نقضه، فعمله هذا كعملها بل أسوأ منها حيث يدل على سقوط شخصيته وانحطاط منزلته"،[٤] وذهب أغلب المفسرين الى أنه تمثيل لنقض العهد: "ضرب الله مثلاً لمن ينقض العهد، فقال: ﴿ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ "،[٥] ومنهم من ذهب الى أنه تمثيل لناقض الأيمان: "ولا تكونوا في نقض الأيمان كالمرأة التي غزلت ثم نقضت غزلها بعد إمراره وإحكامه فجعلته أنكاثا، وهو ما ينكث فتله، وهي ريطة بنت سعد بن تيم بن مرة من قريش، كانت تغزل مع جواريها إلى انتصاف النهار ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن".[٦] ومنهم من ذهب الى أنه مثل للعموم أي نقض الأيمان والعهود: "ممثلا ناقض ذلك بناقضة غزلها من بعد إبرامه وناكثته من بعد إحكامه: ولا تكونوا أيها الناس في نقضكم أيمانكم بعد توكيدها وإعطائكم الله بالوفاء بذلك العهود والمواثيق كالتي نقضت غزلها من بعد قوة يعني: من بعد إبرام".[٧]

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٨١، الأمثال للسبحاني، ص١٨١.

(٢) ينظر: معاني القرآن للنحاس: ١٠٢/٤، بحر العلوم للسمرقندي: ٢٨٩/٢، الكشف والبيان للثعلبي: ٣٨/٦، معالم التنزيل للبغوي: ٨٢/٣، مجمع البيان للطبرسي، ١٩٤/٦، زبدة التفاسير لفتح الله، ٦٠٢/٣، الأصفى للفيض الكاشاني: ٦٦١/١، نور الثقلين للحويزي: ٨٢/٣، مقتنيات الدرر للحائري: ١٩٢/٦.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٨١، الأمثال للسبحاني، ص١٨١.

(٤) المصدران نفسهما.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٣٥/٢ وينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٢٨٩/٢، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٤١٦/٢، الكشف والبيان للثعلبي: ٣٨/٦، معالم التنزيل للبغوي: ٨٢/٣، الأصفى للفيض الكاشاني: ٦٦١/١.

(٦) جوامع الجامع للطبرسي، ٣٤٥/٢ وينظر: معاني القرآن للنحاس: ١٠٢/٤، مدارك التنزيل للنسفي: ٢٦٨/٢، زبدة التفاسير لفتح الله: ٦٠٢/٣.

(٧) جامع البيان للطبري، ٢١٧/١٤ وينظر: أحكام القرآن للجصاص: ٢٨٥/١، زاد المسير لابن الجوزي: ٣٥٤/٤، التفسير المبين لمغنية: ص٣٥٨.

بين السبحاني ما هو الحافز لنقض اليمين إذ قال: "إن الناقض يتخذ اليمين واجهة لدخله وحيلته أولا، ويبغي من وراء نقض عهده ويمينه أن يكون أكثر نفعا مما عهد له ولصالحه ثانيا، يقول سبحانه: ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾فقوله ﴿ أَرْبَىٰ ﴾ بمعنى الزيادة، فالناقض يتخذ أيمانه للدخل والغش، ينتفع عن طريق نقض العهد وعدم العمل بما تعهد"،(١) "تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد لمن عاقدتموه خديعة وغرورا ليطمئنوا إليكم وأنتم مضمرون لهم الغدر وترك الوفاء بالعهد والنقلة عنهم إلى غيرهم من أجل أن غيرهم أكثر عددا منهم"،(٢) إذ أنهم" كانوا يحالفون الحلفاء ثم يحدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الأولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز، فنهاهم الله تعالى عن ذلك".(٣)

ختم السبحاني تفسير الآية بقول الطباطبائي: "ولكن الناقض غافل عن ابتلائه سبحانه، إذ يقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾. أي أن ذلك امتحان إلهي يمتحنكم به، وأقسم ليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون فتعلمون عند ذلك حقيقة ما أنتم عليه اليوم من التكالب على الدنيا وسلوك سبيل الباطل لإماطة الحق، ودحضه ويتبين لكم يومئذ من هو الضال ومن هو المهتدي"،(٤) "إنما يختبركم بكونهم أربى، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد اللَّه، وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول اللَّه (ﷺ) أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم. وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم".(٥) وممكن ان يكون المعنى" بما يأمركم وينهاكم، فيتميز المحق من المبطل بما يظهر من درجات الثواب والعقاب".(٦)

وتخلص الباحثة: إن الآية الكريمة تدعو إلى وجوب الوفاء بالعهود في جميع الأحوال، وتنهى عن اللجوء إلى الذرائع الباطلة، من أجل نقض العهود، إذ الإسلام لا يقر هذه الذرائع وتلك المبررات، بدعوى أن هناك جماعة أقوى من جماعة، أو دولة أعز من دولة، وإنما الذي

---

(١) مفاهيم القرآن، ١٨٣/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٨٣.

(٢) جامع البيان للطبري، ٢١٨/١٤ وينظر: الميزان للطباطبائي: ٣٣٥/١٢، التفسير المقارن، لمحمد باقر الناصري، مطبعة سرور، ط١، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م: ٤/ ٥٠٥.

(٣) الكشف والبيان للثعلبي، ٣٩/٦، مفاتيح الغيب للرازي، ١٠٩/٢٠.

(٤) الميزان للطباطبائي، ١٢ / ٣٣٦، مفاهيم القرآن، ١٨٣/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٨٣.

(٥) مدارك التنزيل للنسفي، ٢/ ٢٦٨، الكشاف للزمخشري، ٢/ ٤٢٦.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ١٠٩/٢٠ وينظر: الوسيط للطنطاوي: ٨/ ٢١٩.

يقره الإسلام هو مراعاة الوفاء بالعهود، وعدم اتخاذ الأيمان وسيلة للغش والخداع، إذ ان الكثير من الجماعات والشعوب دخلت الى الإسلام بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعدهم، ومن صدقهم في وعدهم، ومن نظافتهم في معاملاتهم.

التمثيل السادس: تشبيه المشرك بمن يمتلكه شركاء عديدين

-قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.(١)

شـــــرع السبحاني بتوضيح أركان التمثيل بالتعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفردات(٢) آياته قائلاً: "هذه الآيات تمثل حالة الكافر والمؤمن، فهناك مشبه ومشبه به. أما المشبه به، فهو عبارة عن عبد مملوك له شركاء سيئ الخلق متنازعون فيه، فواحد يأمره وآخر ينهاه، وكل يريد أن يتفرد بخدمته، في مقابل عبد مملوك لرجل يطيعه ويخدمه ولا يشرك في خدمته شخصا آخر. فهذان المملوكان لا يستويان".(٣)

وأما المشبه: "فحال الكافر هو حال المملوك الذي فيه شركاء متشاكسون، فهو يعبد آلهة مختلفة لكل أمره ونهيه وخدمته، ولا يمكن الجمع بين الآراء والأهواء المختلفة، بخلاف المؤمن فإنه يأتمر بأمر الخالق الحكيم القادر الكريم"،(٤) وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين(٥): "واضرب لقومك مثلا وقل لهم ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع كل واحد منهم يدعى أنه عبده، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهن شتى ومشادة، وإذا عنت له حاجة تدافعوه فهو متحير في أمره سادر قد تشعبت الهموم قلبه وتوزعت

---

(١) سورة الزمر، الآيات /٢٧، ٢٨، ٢٩.

(٢) "الشكس" في اللغة: السئ الخلق. ينظر: العين للفراهيدي: ٢٨٨/٥، مادة (شكس). وفي الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "شركاء متشاكسون، أي متشاجرون لشكاسة خلقهم". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٣٦. و"سلما" في الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "خالصا لا يملكه إلا شخص واحد ولا يخدم إلا إياه". مفاهيم القرآن، ٢٣٦/٩ الأمثال للسبحاني، ص٢٣٦.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٣٦، الأمثال للسبحاني، ص٢٣٦ وينظر: الوجيز للواحدي: ٩٣٣/٢، زاد المسير لابن الجوزي:١٥/٧.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٣٦-٢٣٧، الأمثال للسبحاني، ص٢٣٦-٢٣٧.

(٥) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ١٧٦/٣، الكشف والبيان للثعلبي: ٨/ ٢٣٣، الوجيز للواحدي: ٩٣٣/٢، زاد المسير لابن الجوزي: ١٥/٧، زبدة التفاسير لفتح الله: ٧٦/٦.

أفكاره لا يدري أيهم يرضى بخدمته وعلى أيهم يعتمد في حاجاته، وفي آخر قد سلم لمالك واحد وخلص له فهو معتنق لما لزمه من خدمته معتمد على فيما يصلحه، فهمه واحد وقلبه مجتمع أي هذين العبدين أحسن حالا وأجمل شأنا، والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعى كل واحد منهم عبوديته ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا ولعلا بعضهم على بعض- ويبقى هو متحيرا ضائعا لا يدرى أيهم يعبد على ربوبيته أيهم يعتمد وممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقه، فهمه شعاع وقلبه أوزاع، وحال من لم يثبت إلا إلها واحدا فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه متفضل عليه في عاجله مؤمل للثواب في آجله".[١] "ضرب الله مثلا للمشرك: فشبهه بالعبد يتولى أمره شركاء متشاكسون، لكل منهم رغبة تخالف الآخر، واتجاه يتعارض مع اتجاه الآخرين، فلا غرو أن توزع قلب العبد وتشتت نفسه في التوفيق بين هاتيك الرغبات المتباينة، وضرب مثلا للمؤمن الموحد بالرجل الذي لا يلي امره الا شخص واحد فحسب لا شركاء ولا شراكة ولا مساحنة ولا مشاكسة، لا يخضع الا لواحد فلا تحير ولا أضطراب".[٢] ومنهم من قال: "مثل الله مثلا للكافر بالله الذي يعبد آلهة شتى، ويطيع جماعة من الشياطين، والمؤمن الذي لا يعبد إلا الله الواحد، يقول تعالى ذكره: ضرب الله مثلا لهذا الكافر رجلا فيه شركاء. يقول: هو بين جماعة مالكين متشاكسين، يعني مختلفين متنازعين، سيئة أخلاقهم، من قولهم: رجل شكس: إذا كان سيئ الخلق، وكل واحد منهم يستخدمه بقدر نصيبه وملكه فيه، ورجلا سلما لرجل، يقول: ورجلا خلوصا لرجل يعني المؤمن الموحد الذي أخلص عبادته لله، لا يعبد غيره ولا يدين لشيء سواه بالربوبية".[٣] ثم ختم السبحاني بالقول: وهذا المثل وإن كان مثلا واضحا مفهوما لعامة الناس، ولكن له بطن لا يقف عليه إلا أهل التدبر في القرآن، فهو سبحانه بصدد البرهنة على توحيده الذي أشار إليه في قولـــــــه: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.[٤] وقال سبحانه: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [٥]".[٦]

---

(١) الكشاف للزمخشري، ٣٩٨/٣ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢٦/ ٢٧٦.

(٢) الامثال لأبن شريف، ص٥٩ -٦٠ وينظر: عون الحنان للطهطاوي: ص١٩٩.

(٣) جامع البيان للطبري، ٢٣ / ٢٥٣ وينظر: معاني القرآن للنحاس: ١٧١/٦.

(٤) سورة الأنبياء، الآية /٢٢.

(٥) سورة يوسف، الآية / ٣٩.

(٦) مفاهيم القرآن، ٢٣٧/٩، الأمثال للسبحاني، ص٢٣٧.

وترى الباحثة: إن الله إقتضت حكمته أن يكثر في كتابه الكريم من ضرب الأمثال للتذكر، والعظة، والاعتبار. وأن المعاني في هذا المثل جلية واضحة للعيان، فالباري عز وجل يدعو الجميع إلى التوحيد وفي ظله تكون السكينة والراحة، فهل هناك نعمة أفضل منه، وهل هناك أمر آخر يستحق الحمد والشكر أكثر من هذه النعمة؟! ولكن أكثرهم لا يعلمون رغم وجود هذه الدلائل الساطعة، إذ إن حب الدنيا والشهوات الطاغية عليهم يجعلهم يضلون عن طريق الحقيقة: بل أكثرهم لا يعلمون ان العبودية لله معناها أن لا يملكك إلا واحد تكون عبدا له حرّا مما سواه، ولا تملُكَكَ الأشياء؛ لان الأشياء في خزانة مليكها.

التمثيل السابع: ضرب المثل بامرأة فرعون

-قال تعالى:﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.(١)

بدأ السبحاني تفسير الآية بالقول: "لما مثل القرآن بنماذج بارزة للفجور من النساء أردفه بذكر نماذج أخرى للتقوى والعفاف من النساء بلغن من التقوى والإيمان منزلة عظيمة حتى تركنَ الحياة الدنيوية ولذائذها وعزفن عن كل ذلك بغية الحفاظ على إيمانهن، وقد مثل القرآن بآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، إذ بلغت من الإيمان والتقوى بمكان أنها طلبت من الله سبحانه أن يبني لها بيتا في الجنة، إذ آمنت بموسى (عليه السلام) لما رأت معاجزه الباهرة ودلائله الساطعة، فأظهرت إيمانها غير خائفة من بطش فرعون إذ نقل أنه وتدها بأربعة أوتاد واستقبل بها الشمس"،(٢) "ضرب الله مثلا للذين صدقوا الله ووحدوه، امرأة فرعون التي آمنت بالله ووحدته، وصدقت رسوله موسى (عليه السلام)، وهي تحت عدو من أعداء الله كافر، فلم يضرها كفر زوجها، إذ كانت مؤمنة بالله"،(٣) "مثل حال المؤمنين، في أن وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئا من ثوابهم وزلفاهم عند الله بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى"،(٤) ثم أضاف السبحاني قائلاً: "هذه هي المرأة الكاملة التي ضحت

---

(١) سورة التحريم، الآية / ١١.

(٢) مفاهيم القرآن، ٢٧٣/٩-٢٧٤، الأمثال للسبحاني، ص٢٧٣ -٢٧٤ وينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٤٧٩/٥، مجمع البيان للطبرسي: ٦٤/١٠، مفاتيح الغيب للرازي: ٤٩/٣٠، زبدة التفاسير لفتح الله: ١١٨/٧، الأمثل للشيرازي: ٤٦٦/١٨، الامثال لأبن شريف: ص١١٩.

(٣) جامع البيان للطبري، ٢١٨/٢٨ وينظر: التبيان للطوسي: ١٠/ ٥٣، الأمثال لابن قيم: ص ٥٥.

(٤) الكشاف للزمخشري، ٤/ ١٣١، زبدة التفاسير لفتح الله، ٧/ ١١٨.

في سبيل عقيدتها واستقبلت الشهادة بصدر رحب ولم تعر للدنيا وزخارفها أية أهمية، وكان هتافها حينما واجهت الموت قولها: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. فقولها: ﴿ عِندَكَ ﴾، يهدف إلى القرب من رحمة الله، وقولها: ﴿ فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾ يبين مكان القرب. إذ اختارت جوار ربها والقرب منه وآثرت بيتا يبنيه لها ربها على قصر فرعون الذي كان يبهر العقول، ولكن زينة الحياة الدنيا عندها نعمة زائلة لا تقاس بالنعمة الدائمة"،[١] وهذا ما ذهب اليه الرازي إذ قال: "طلبت القرب من رحمة الله ثم بينت مكان القرب بقولها: (في الجنة) أو أرادت ارتفاع درجتها في جنة المأوى التي هي أقرب إلى العرش".[٢] ختم السبحاني التفسير بحديث عن الرسول (ﷺ) يقول فيه: "((كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا أربع آسية امرأة فرعون.....))[٣]".[٤]

ولا تنكر الباحثة: ان المحيط الأسري والبيئي والثقافي من العوامل الاساسية المؤثرة في بقاء الانسان على المعصية والكفر ولكن هذا لا يسلبه الارادة والأختيار في التمرد على تلك العوامل وتحمُّل المسؤولية تجاه أقرب الناس للظلمة والطواغيت والكفار والمفسدين، لتسجيل المواقف الايمانية المناسبة ولا يعطي الحجة للسكوت عن الحق ودحض الباطل، ولابد من إظهار الايمان وشجب الكفر مهما كان الثمن حتى لو كان التضحية بالنفس، وهذا ما حدث مع زوجة فرعون فكان من أروع الأمثلة التي تجسد ذلك الواقع فأعطى إنموذجاً في التجرد لله تعالى من كل المؤثرات، وبهذا يعلو شأن الإسلام.

<u>التمثيل الثامن: تشبيه الكافر الماشي بالسالك للطريق المظلم</u>

-قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ * أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.[٥]

بيّنَ السبحاني بعض مفردات[٦]الآية قبل تفسيرها، ثم قال: "الآيات جاءت بصيغة السؤال

---

(١) مفاهيم القرآن، ٢٧٣/٩-٢٧٤، الأمثال للسبحاني، ص٢٧٣ -٢٧٤ وينظر: الميزان للطباطبائي: ٣٤٤/١٩.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ٥٠/٣٠ وينظر: انوار التنزيل للبيضاوي: ٢٢٦/٥، روح المعاني للآلوسي: ١٦٣/٢٨.

(٣) صحيح البخاري، ١٣١/٤، كتاب (بدء الخلق)، باب (قوله تعالى:﴿وضرب الله مثلاً... ﴾)، صحيح مسلم، ١٣٣/٧، كتاب (فضائل الصحابة...)، باب (فضائل خديجة....)، وهو حديث صحيح.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٧٦، الأمثال للسبحاني، ص٢٧٦، الكشاف للزمخشري، ١٣٢/٤، مجمع البيان للطبرسي، ٦٥/١٠.

(٥) سورة الملك، الآيتان / ٢١ -٢٢.

(٦) "لج" في اللغة: هو من اللجاج، التمادي والعناد في تعاطي الفعل المزجور عنه. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٤٠٧/٣، مادة (لجج)."عتو" في اللغة: التمرد. ينظر: تاج العروس للزبيدي: ٦٥٥/١٩، مادة (عتو). "النفور" في=

بين الضالين الذين لجوا في عتو ونفور وظلوا متمسكين بالأوثان والأصنام، وبين المهتدين الذين يمشون في جادة التوحيد ولا يعبدون إلا الله القادر على كل شيء".[١] وللمفسرين في ذلك أقوال: منهم من قال: هذا حكاية حال الكافر في الآخرة،[٢] وقال آخرون: بل هذا حكاية حال المؤمن والكافر والعالم والجاهل في الدنيا،[٣] واختلفوا أيضاً فمنهم من قال: هذا عام في حق جميع المؤمنين والكفار[٤] ومنهم من قال: "بل المراد منه شخص معين".[٥]

ثم ذهب السبحاني الى أن: "مثل هؤلاء مثل من يمشي على أرض متعرجة غير مستوية يكثر فيها العثار، ومن ثمَّ يسقط الماشي مكبا على وجهه، ومن يمشي على جادة مستوية مستقيمة ليس فيها عثرات، فيصل إلى هدفه بسهولة، فالاختلاف بين هاتين الطائفتين ليس في كيفية المشي، وإنما الاختلاف في طريقهم حيث إن طرق الكفار ملتوية متعرجة فيها عقبات كثيرة، وطريق المهتدين مستقيمة لا اعوجاج فيها، فعاقبة المشي في الطريق الأول هو الانكباب على الأرض، وعاقبة المشي في الطريق الثاني هو الوصول إلى الهدف، فتأويل الآية: أفمن يمشي على طريق غير مستقيم بل متعرج ملتو مكبا على وجهه أهدى أم من يمشي على صراط مستقيم بقامة مستقيمة".[٦] وأختلف المفسرون في تفسير المثل الى وجوه **تذكرها الباحثة** بإيجاز على النحو الآتي:

-**أحدها:** معناه أن الذي يمشي في مكان غير مستو بل فيه ارتفاع وانخفاض فيعثر كل ساعة ويخر على وجهه مكباً فحاله نقيض حال من يمشي سوياً أي قائماً سالماً من العثور والخرور، وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين.[٧]

= اللغة: التباعد عن الحق.ينظر: تاج العروس للزبيدي: ٥٤٧/٧، مادة (نفر)."مكب" في اللغة: من الكبو، وهو إسقاط الشئ على وجهه. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ١٥٥/٥، مادة (كبو). وعرفه الطبرسي في الاصطلاح بأنه: منكسا رأسه إلى الأرض، فهو لا يبصر الطريق ولا من يستقبله. ينظر: مجمع البيان للطبرسي: ١٠ / ٧٩. وعرفه السبحاني: بقرينة مقابله (يمشي سويا)، أي من يمشي ووجهه إلى الأرض لا الساقط. ينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٢٧٧، الأمثال للسبحاني، ص ٢٧٧.

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٧٧ -٢٧٨، الأمثال للسبحاني، ص٢٧٧ -٢٧٨.

(٢) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٤٥٥/٣، الكشف والبيان للثعلبي: ٣٦٠/٩، التبيان للطوسي: ٦٨/١٠، الوجيز للواحدي: ١١١٨/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ١٣/٦.

(٣) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٢٦٦/٤، الميزان للطباطبائي: ٣٦٠/١٩، التفسير المقارن للناصري: ٢٠٩/٨.

(٤) ينظر: التفسير الكاشف لمغنية: ٣٨٢/٧، الأمثل للشيرازي: ٥٠٤/١٨.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٨٤/٣.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٧٧ -٢٧٨، الأمثال للسبحاني، ص٢٧٧ -٢٧٨.

(٧) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٣٠/ ٧٣، زبدة التفاسير لفتح الله: ١٣٢/٧، كنز الدقائق للمشهدي: ١٣/ ٣٦٠، مقتنيات الدرر للحائري: ١١/ ٢٠٣، مفاهيم القرآن: ٩/ ٢٧٨، الأمثال للسبحاني، ص ٢٧٨.

-**وثانيها:** إن المشي هنا استعارة في سلوك طريق الهدى والضلال في الدنيا، وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين.(١)

-**وثالثها:** إن الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه لا يكون كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المعلوم.(٢)

وختم السبحاني المراد من الآيات بقول الطباطبائي إذ قال: "والمراد أنهم بلجاجهم في عتو عجيب ونفور من الحق، كمن يسلك سبيلا وهو مكب على وجه لا يرى ما في الطريق من ارتفاع وانخفاض ومزالق ومعاثر، فليس هذا السائر كمن يمشي سويا على صراط مستقيم، فيرى موضع قدمه وما يواجهه من الطريق على استقامة، وما يقصده من الغاية، وهؤلاء الكفار سائرون سبيل الحياة وهم يعاندون الحق على علم به، فيغمضون عن معرفة ما عليهم أن يعرفوه والعمل بما عليهم أن يعملوا به، ولا يخضعون للحق حتى يكونوا على بصيرة من الأمر ويسلكوا سبيل الحياة وهم مستوون على صراط مستقيم فيأمنوا الهلاك"،(٣) "إذ جاء في هذا التساؤل إستخدام إحدى الظواهر التي هي من خصائص الدواب والأنعام، وهي ظاهرة مشيها على أربع وأعناقها ورؤوسها متطامنة، فهي مكبة على وجوهها. ولم يذكر في التساؤل لفظ الدواب أو النعم، ولا ما يقابله، مثل لفظ الناس أو البشر، بل جاء فيه لقطة وصفية لجانب جزئي من الصورة الدالة على النوع غير الإنساني، ولقطة وصفية أخرى لجانب جزئي من الصورة المقابلة الدالة على النوع الإنساني".(٤)

المطلب الثالث: المثل بالحيوان والهوام

أشتمل القرآن الكريم في سوره آيات عدة تذكر الحيوان أو الهوام، اما لضرب الأمثال، أو للاستشهاد، أو آيات ونذر، وغير ذلك، إذ "لو دقَّقنا وتأمَّلنا في سياق الأمثال المضروبة بالحيوان والهوام لوجدنا أنَّها من قبيل المبالغة في الاحتقار والضعف".(٥) "فجاء اللفظ في

---

(١) ينظر: تلخيص البيان للرضي: ص٣٤١، التسهيل لعلوم التنزيل لابن الجزي: ٣٩٧/٢، القرآن العظيم لابن كثير: ٤٢٥/٤.

(٢) ينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ١٥/٥، الكشف والبيان للثعلبي: ٣٦٠/٩، تلخيص البيان للرضي: ص٣٤١، مجمع البيان للطبرسي: ٧٩/١٠، انوار التنزيل للبيضاوي: ٣٦٥/٥.

(٣) الميزان للطباطبائي، ١٩ /٣٦٠ -٣٦١، مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٧٨، الأمثال للسبحاني، ص٢٧٨.

(٤) أمثال القرآن لحنبكة، ص ٣٣١.

(٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بـ (أبن قيم الجوزية) (ت ٧٥١ هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، ١٤٣٢هـ، ١٩٩/٢.

معظمها صريحاً بلفظ المثل أو ما يدل على التشبيه، وهو ما يُعرف بالأمثال المصرِّحة".[١] وأن الكفار الذين غلب الجهل على عقولهم وغشيه على بصائرهم فلا يتفطنون ولا يلقون أذهانهم أو عرفوا أنه الحق، إلا أن العناد والمكابرة وحب الرياسة أبعدهم عن الإنصاف فإذا سمعوا تلك الأمثال عاندوا وكابروا وقضوا عليه بالبطلان وقابلوه بالإنكار وانهمك الفاسقون في غيهم وضلالهم، والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام وتلك أمثال العرب بين أيديهم، وما زاد ذلك المؤمنين الا هدى ونورا وتثبيتا على الرسالة. ستذكر الباحثة هنا بعد العون بالله تلك الآيات التي اوردها السبحاني في تفسيره، ضربها الله مثلاً بالحيوان والهوام، ومما قيل في بيانها، لعلنا نستخلص ونستقي من معين آياتها ما يستقيم به أمرنا، وتصلح به أحوالنا، وعبرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد.

التمثيل الأول: ضرب المثل بالبعوضة

-قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ * ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾.[٢]

تناول السبحاني تفسير الآيات بعد التعريف الاصطلاحي لمفردة "الحياء"[٣] بسوال طرحه قال فيه: "الحياء من مقولة الانفعال، فكيف يمكن نسبته إلى الله سبحانه مع أنه لا يجوز عليه التغير والخوف والذم ؟" فأجاب في الوقت نفسه قائلاً: "إن إسناد الحياء كإسناد الغضب والرضا إلى الله سبحانه، فإنها جميعا تسند إلى الله سبحانه متجردة عن آثار المادة، ويؤخذ بنتائجها، فالحياء يصد الإنسان عن إبراز ما يضمره من الكلام، والله سبحانه ينفي النتيجة، أي لا يمنعه شيء عن إبراز ما هو حق، قـــال سبحانه:﴿ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ

---

(١) الإتقان للسيوطي، ٤ / ٤٦ وينظر: مباحث في علوم القرآن، لمناع بن خليل القطان (ت ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م: ص ٢٩٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان / ٢٦، ٢٧.

(٣) "الحياء": هو تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم، يقال: فلان يستحي أن يفعل كذا، أي أن نفسه تنقبض عن فعله.مفاهيم القرآن، ٩/ ٨٦، الأمثال للسبحاني، ص٨٦.

كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (١)". (٢)

ثم فسر السبحاني مفردة(ضرب المثل) بقول المراغي: "إن ضرب المثل في الكلام يذكر لحال ما يناسبها، فيظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفيا، وهو مأخوذ من ضرب الدراهم، وهو حدوث أثر خاص فيها، كأن ضرب المثل يقرع به أذن السامع قرعا ينفذ أثره في قلبه، ولا يظهر التأثير في النفس بتحقير شيء وتقبيحه إلا بتشبيهه بما جرى العرف بتحقيره ونفور النفوس منه". (٣) ثم تلى بتفسير البعوضة قائلاً: "حيوان صغير يشبه خرطومه خرطوم الفيل، أجوف وله قوة ماصة تسحب الدم، وقد منح الله سبحانه هذا الحيوان قوة هضم ودفع كما منحه أذنا وأجنحة تتناسب تماما مع وضع معيشته، وتتمتع بحساسية فائقة، فهي تفر بمهارة عجيبة حين شعورها بالخطر، وهي مع صغرها وضعفها يعجز عن دفعها كبار الحيوانات. إذ اكتشف علماء الحيوان مؤخرا أن البعوضة قادرة على تشخيص فريستها من مسافة تقرب عن ٦٥ كيلومترا". (٤) ثم أورد روايات في حقها قائلاً: عن أمير المؤمنين علي(عليه السلام) قال: ((كيف ولو اجتمع جميع حيوانها، من طيرها وبهائمها، وما كان من مراحها وسائمها، وأصناف أسناخها وأجناسها، ومتبلدة أممها وأكياسها، على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها، ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها، ولتحيرت عقولها في علم ذلك وتاهت وعجزت قواها وتناهت، ورجعت خاسئة حسيرة، عارفة بأنها مقهورة، مقرة بالعجز عن إنشائها، مذعنة بالضعف عن إفنائها)). (٥) وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام) بشأن خلقة هذا الحيوان الصغير قال: ((إنما ضرب الله المثل بالبعوضة على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره وزيادة عضوين آخرين، فأراد الله سبحانه أن ينبه بذلك المؤمنين على لطيف خلقه وعجيب صنعته)). (٦)

---

(١) سورة الاحزاب، من الآية /٥٣.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٨٦-٨٧، الأمثال للسبحاني، ص٨٦-٨٧ وينظر: التبيان للطوسي: ١١٠/١.

(٣) تفسير المراغي، لاحمد مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ)، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م، ٧٠/١، مفاهيم القرآن، ٩/ ٨٧، الأمثال للسبحاني، ص ٨٧.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٨٧، الأمثال للسبحاني، ص٨٧.

(٥) نهج البلاغة، ١٢٤/٢، (من خطبة له في التوحيد...)، رقم الخطبة (١٨٦)، بحار الأنوار للمجلسي، ٤ / ٢٥٥، باب (جوامع التوحيد)، رقم الحديث (٨)، وينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٨٧ - ٨٨، الأمثال للسبحاني: ص٨٧ -٨٨.

(٦) بحار الأنوار للمجلسي، ٦٤/٩ ، باب (احتجاج الله تعالى على أرباب الملل...)، تفسير آية: (﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة... ﴾) وينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٨٨، الأمثال للسبحاني: ص٨٨.

ذكر السبحاني في سبب نزولها **وجهين** ذهب لهما المفسرون:

الأول:"إن الله تعـــالى لما ضرب المثلين قبل هذه الآيـــة للمنافقين، اي قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾[١] وقوله:﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾،[٢] قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين.[٣]

الثاني: إنه سبحانه لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت تكلم فيه قوم من المشركين وعابوا ذكره، فأنزل الله هذه الآية"،[٤] وهذا ذهب اليه مفسرون آخرون.[٥]

رفض السبحاني الوجهين إذ قال: "ولا يخفى ضعف الوجه الأول، فإن المنافقين لم ينكروا ضرب المثل، وإنما أنكروا المثلين اللذين مثل بهما سبحانه حال المنافقين، وعند ذلك لا يكون التمثيل بالبعوضة جوابا لرد استنكارهم، لأنهم أنكروا المثلين اللذين وردا في حقهما، فلا يكون عدم استحيائه سبحانه من التمثيل بالبعوضة ردا على اعتراضهم. وأما الثاني، فقد ورد ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في مكة المكرمة، لأن الأول ورد في سورة الحج، وهي سورة مكيّة، والآخر ورد في سورة العنكبوت، وهي أيضا كذلك. وهذه الآية نزلت في المدينة، فكيف تكون الآية النازلة في مهجر النبي (ﷺ) جوابا على اعتراض المشركين في موطنه ؟".[٦] وهذا ما انفرد به السبحاني وهو **مردود من الباحثة وبالأدلة التالية:**

الأول: "الوجه الاول أحسنها؛ لأنه يليق بما تقدم وبعده أما الوجه الثاني: لا لاحد ان يقول: هذا المثل لا يليق بما تقدم من حيث لم يتقدم للبعوضة ذكر وقد جرى ذكر الذباب والعنكبوت في موضع آخر في تشبيه آلهتهم".[٧]

والثاني: وإن كانت الآية مدنية ولكن السورة مكـــيّة، ومضى من أول السورة إلى هذا الموضع

---

(١) سورة البقرة، من الآية / ١٧.

(٢) سورة البقرة، من الآية / ١٩.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٥٥/١، أسباب النزول للواحدي: ص١٣، جوامع الجامع للطبرسي: ٨٧/١، اكمال النقصان من تفسير منتخب التبيان، لمحمد بن احمد بن ادريس العجلي الحلي (ت ٥٩٨ هـ)، تحقيق: محمد مهدي الخرسان، مكتبة الروضة الحيدرية: ص١٢٤، التفسير العظيم لعبد السلام: ١١٠/١، عمدة القارئ للعيني: ١٧٧/١، الأمثل للشيرازي: ١٣٤/١.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٨٨، الأمثال للسبحاني، ص٨٨.

(٥) ينظر: تفسير الامام العسكري: ص٢٠٤، القرآن العزيز لأبن زمنين: ١٢٩/١، أسباب النزول للواحدي: ص١٣، التبيان للطوسي: ١١٠/١، الكشف والبيان للثعلبي: ١٧٢/١، الكشاف للزمخشري: ١/ ٢٦٣.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٨٨ –٨٩، الأمثال للسبحاني، ص٨٨–٨٩.

(٧) التبيان للطوسي، ١١١/١.

ذكر اليهود، وذكر المنافقين، وذكر المشركين. وكلهم من الذين كفروا وكانوا متوافقين في إيذاء رسول الله (ﷺ) فأفعالهم تتكرر بإستمرارهم الى الكفر والشرك.[١]

أضاف السبحاني قائلاً: "وعلى كل تقدير فالآية بصدد بيان أن الملاك في صحة التمثيل ليس ثقل ما مثل به أو كبره، فلا التمثيل بالبعوضة عيب ولا التمثيل بالإبل والفيل كمال، وإنما الكمال أن يكون المثل مبينا لحقيقة وواقعة غفل عنها المخاطب من دون فرق بين كون الممثل صغيرا أو كبيرا. وبعبارة أخرى: إذا كان الغرض التأثير فالبلاغة تقضي بأن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره بحقيرها ولما يراد التنفير بما اعتادت النفوس النفور منها، فالملاك هو كون المثل مفيدا لما يريد المتكلم تحقيقه، من غير فرق بين حقير الأشياء وكبيرها، وهو سبحانه يشير إلى ذلك المعنى بقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ ﴾"،[٢] وهذا ما ذهب اليه الرازي إذ قال: "إن تعالى هو الذي خلق الصغير والكبير وحكمه في كل ما خلق وبرأ عام لأنه قد أحكم جميعه، وليس الصغير أخف عليه من الكبير والعظيم أصعب من الصغير، وإذا كان الكل بمنزلة واحدة لم يكن الكبير أولى أن يضربه مثلاً لعباده من الصغير بل المعتبر فيه ما يليق بالقصة، فإذا كان الأليق بها الذباب والعنكبوت يضرب المثل بهما لا بالفيل والجمل"،[٣] "إن المعتبر في المثل أن يكون على وفق الممثل له في الصغر والعظم والخسة والشرف، ليبينه ويوضحه حتى يصير في صورة المشاهد المحسوس، دون الممـــثل".[٤] "أن المثال يجب أن ينسجم مع المقصود، بعبارة أخرى، المثال وسيلة لتجسيد الحقيقة حين يقصد المتحدث بيان ضعف المدعي وتحقيره فإن بلاغة الحديث تستوجب انتخاب موجود ضعيف للتمثيل به، كيما يتضح ضعف أولئك".[٥] فسر السبحاني قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوۡقَهَا ﴾ بأنه: "(فوقها في الصغر) كالجراثيم التي لا ترى إلا بالمجهر"،[٦] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٧]: "وهذا من أسماء الأضداد يذكر الفوق ويراد به دونه"،[٨] وذهب بعضهم الى تفسير

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٣٢/٢.
(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٨٩، الأمثال للسبحاني، ص٨٩ وينظر: التبيان للطوسي: ١١١/١.
(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ٢/ ١٣٥.
(٤) الأصفى للفيض الكاشاني، ٢٢/١.
(٥) الأمثل للشيرازي، ١٣٥/١.
(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٨٩، الأمثال للسبحاني، ص٨٩
(٧) ينظر: مجاز القرآن للتميمي: ١٤/١، بحر العلوم للسمرقندي: ٦٣/١، الكشف والبيان للثعلبي: ١٧٢/١، التبيان للطوسي: ١١٣/١، تفسير القرآن للسمعاني: ٦٠/١.
(٨) بحر العلوم للسمرقندي، ٦٣/١.

الآية بـ (فوقها في الكبر).[١] أيد السبحاني الأول إذ قال: "الأول هو الأوفق لمقصود المتكلم. كما يقال عند لوم المتجرئ: بأنك تقترف جريمة لأجل دينار بل فوقه، أي نصف دينار، والمراد من الفوقية هو الفوقية في الحقارة".[٢] أورد السبحاني سؤالاً في ذلك وهو: "كيف يضرب الله المثل لما دون البعوضة وهي في النهاية في الصغر؟"، وهو ما أورده النسفي،[٣] وأجاب عنه المفسرون بـ: "إن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات، وقد ضربه رسول الله (ﷺ) مثلا للدنيا، وفي خلق الله حيوان أصغر منها ومن جناحها ربما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد يجليها للبصر الحاد إلا تحركها فإذا سكنت، فالسكون يواريها، ثم إذا لوحت لها بيدك حادت عنها وتجنبت مضرتها، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة، وتفاصيل خلقتها، ويبصر بصرها، ويطلع على ضميرها، ولعل في خلقه ما هو أصغر منها وأصغر سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومـــن أنفسهم ومما لا يعلمون"،[٤] "كانت الآيات السابقة متضمنة لأنواع من التمثيل عقب ذلك ببيان حسنه، وما هو الحق له والشرط فيه، وهو أن يكون على وفق الممثل له من الجهة التي تعلق بها التمثيل في العظم والصغر، والخسة والشرف، دون الممثل، فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له، ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس، ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه، فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم، لأن من طبعه الميل إلى الحس وحب المحاكاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية وفشت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء، فيمثل الحقير بالحقير كما يمثل العظيم بالعظيم، وإن كان المثل أعظم من كل عظيم، كما مثل في الإنجيل على الصدور بالنخالة، والقلوب القاسية، بالحصاة، ومخاطبة السفهاء، بإثارة الزنابير، وجاء في كلام العرب: أسمع من قراد، وأطيش من فراشة، وأعز من مخ البعوض".[٥] "إن الحقارة لا تنافي التمثيل بها، إذا شرط في المثال أن يكون على وفق الممثل له من الجهة التي يستدعي التمثيل به كالعظم والحقارة، والشرف والخساسة، لا على وفق من يوقع التمثيل ويضرب المثال، لأن الغرض الأصلي منه إيضاح المعنى المعقول، وإزالة

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٥٧/١، القرآن العزيز لأبن زمنين: ١٣٠/١، الوجيز للواحدي: ٩٧/١.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٩٠، الأمثال للسبحاني، ص٩٠.

(٣) مدارك التنزيل للنسفي، ٣٢/١ وينظر: الكشاف للزمخشري: ٢٦٥/١، مفاهيم القرآن،٩٠/٩.

(٤) الكشاف للزمخشري، ١/ ٢٦٥ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٣٦/٢، مفاهيم القرآن: ٩٠/٩، الأمثال للسبحاني، ص٩٠.

(٥) انوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣/١.

الخفاء عند إبرازه في صورة المشاهد المحسوس، ليساعد فيه الوهم العقل ولا يزاحمه، فإن العقل الإنساني ما دام تعلقه بهذه القوى الحسية لا يمكنه إدراك روح المعنى مجردا عن مزاحمة الوهم ومحاكاته، لأن من طبعه كالشياطين الدعابة في التخييل وعدم الثبات على صورة. ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية، وفشت في عبارات الفصحاء من العرب وغيرهم، وكثرت في إشارات الحكماء ومرموزاتهم، وصحف الأوائل ومسفوراتهم، تتميما للتخيل بالحس، فهناك يضاعف في التمثيل، إذ يمثل أولا المعقول بالمتخيل، ثم يمثل المتخيل بالمرسوم المحسوس المهندس المشكل".[١]

ذكر السبحاني أن الله سبحانه قسم الناس أمام الأمثال على قسمين هما:

أ. "**المؤمنون:** وهم الذين قال سبحانه في حقهم:﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾".[٢] "الذين صدقوا الله ورسوله يعرفون أن المثل الذي ضربه الله لما ضربه له مثل"،[٣] "صدقوا محمدا والقرآن، وقبلوا الاسلام فيعلمون أنه الحق من ربهم، مدحهم الله تعالى بأنهم تدبروا حتى علموا أنه من ربهم، وأن المثل وقع في حقه".[٤] "والمقصود من ذكر المؤمنين هنا الثناء عليهم بثبات إيمانهم، وتيئيس الذين أرادوا تشكيكهم ببيان أن إيمانهم يحول بينهم وبين الشك. وعبر في جانب المؤمنين بيعلمون تعريضا بأن الكافرين إنما قالوا ما قالوا عنادا ومكابرة، وأنهم يعلمون أن ذلك تمثيل أصاب المحز بأنه من كلام الخالق الذي لا يقع منه الخطأ".[٥]

ب. "**الكافرون:** وهم الذين قال سبحانه في حقهم:﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾".[٦] والظاهر أن قولهم: ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ كان على سبيل الاستهزاء بقول الرسول أن المثل وحي منزل من الله، وإلا فإن الكافرين والمنافقين كانوا ينكرون الوحي أصلا، وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين.[٧]

---

(١) تفسير القرآن الكريم، لمحمد بن ابراهيم صدر الدين الشيرازي المعروف بـ صدر المتألهين (ت ١٠٥٠ هـ)، انتشارات ببدار، ايران، ١٩٢/٢ -١٩٣.

(٢) مفاهيم القرآن: ٩/ ٩٢، الأمثال للسبحاني: ص٩٢.

(٣) جامع البيان للطبري، ٢٦٠/١.

(٤) مجمع البيان للطبرسي، ١٣٦/١ وينظر: تنوير المقباس للفيروزآبادي: ص٦.

(٥) الوسيط للطنطاوي، ٨٥/١.

(٦) مفاهيم القرآن: ٩/ ٩٢، الأمثال للسبحاني: ص٩٢.

(٧) ينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥٩/٥، مدارك التنزيل للنسفي: ٣٢/١، الكشاف للزمخشري: ١/ ٢٦٦، مفاتيح الغيب للرازي: ١٣٧/٢، مفاهيم القرآن: ٩/ ٩٢، الأمثال للسبحاني: ص٩٢.

أضاف السبحاني الى تفسيرها قائلاً: "ولا غرو في أن يكون شئ سبب الهداية لطائفة وسبب الضلال لطائفة أخرى، وما هذا إلا لأجل اختلاف القابليات، فمن استعد لقبول الحق والحقيقة فتصبح الآيات الإلهية سبب الهداية، وأما الطائفة الأخرى المعاندون الذين صموا مسامعهم عن سماع كلمة الحق وآياته فينكرون الآيات ويكفرون بذلك".(١)

فسر السبحاني قوله سبحانه:﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ قائلا: "أن هذا من كلامه سبحانه، ولا صلة له بكلام المنكرين، بل تم كلامه بقوله: ﴿ بِهَٰذَا مَثَلٗا ﴾ وهو أن الأمثال تؤثر في قوم دون قوم"،(٢) وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين(٣):" يضل الله به كثيرا من خلقه، وهذا خبر من الله جل ثناؤه، ومعنى الكلام: أن الله يضل بالمثل الذي يضربه كثيرا من أهل النفاق والكفر"،(٤) فمعنى قوله يضل به كثيرا، انّ الكفار يكذّبونه، وينكرونه، ويقولون: ليس هو من عند اللّه، فيضلّون بسببه، فإذا حصل الضلال بسببه، أضيف اليه، وكذلك لمّا حصلت الهداية بسببه أضيف، فمعنى الإضلال على هذا تشديد الامتحان الذي يكون عنده الضلال لأنّ المحنة إذا اشتدت على الممتحن فضلّ عندها سميت اضلالا، وإذا سهلت فاهتدى عندها سميت هداية، وحاصل المعنى: ان اللّه يمتحن بهذه الأمثال عباده فيضل بها قوم كثير؛ لإنكارهم ويهدى بها قوم كثير".(٥) وبعضهم قال عكس ذلك أي أنه: حكاية عن قول المنكرين ومن بقية كلامهم.(٦) "فلاعراضهم عن طريق الاستدلال، وإنكارهم الحق، قالوا: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا ﴾ وأنه حكاية عمن قال ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا ﴾، أي: يضل به قوم، ويهتدي به قوم. ثم قال الله تعالى ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ فبين تعالى أنه لا يضل إلا فاسقا ضالا"،(٧) ثم

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٩٢، الأمثال للسبحاني، ص٩٢ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ١٠٣/١، الأصفى للفيض الكاشاني: ٢٣/١.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٩٢، الأمثال للسبحاني، ص٩٢، الإيمان والكفر في الكتاب والسنة، لجعفر محمد السبحاني، قم، ١٤١٥ هـ، ص٢١٩.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٦١/١، الكشف والبيان للثعلبي: ١٧٣/١، الوجيز للواحدي: ٩٧/١، نور الثقلين للحويزي: ٤٥/١

(٤) جامع البيان للطبري، ٢٦١/١.

(٥) مقتنيات الدرر للحائري، ١٠١/١.

(٦) ينظر: أكمال النقصان لابن ادريس: ص١٢٨، زبدة التفاسيرلفتح الله الكاشاني: ١٠٣/١، الأصفى للفيض الكاشاني: ٢٣/١.

(٧) مجمع البيان للطبرسي: ١٣٦/١.

أضاف السبحاني قائلاً: "إنه يعلل إضلال غير المؤمنين بفسقهم ويقول: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ من خرج عن طاعة الله، سواء أكان مسلما متجريا أو كافرا فاسقا".[١] "وإسناد الإضلال إلى الله سبحانه إسناد الفعل إلى السبب، لأنه لما ضرب المثل فضل به قوم واهتدى به قوم تسبب لضلالتهم".[٢] ثم ختم السبحاني تفسير المثل بقوله: "إن الآية بصدد بيان أن المواعظ الشافية والكلمات الحكمية لها تأثير معاكس فيؤثر في القلوب المستعدة تأثيرا إيجابيا وفي العقول المنتكسة تأثيرا سلبيا".[٣]

وترى الباحثة: إن الحديث إذ كان يستوجب انتخاب موجود ضعيف للتمثيل به، لكي يتضح ضعف المتحدث عنه فأن الله لا يدع ضرب المثل بالأشياء الضعيفة والحقيرة لضعفها أو لحقارتها، إذا رأى الصلاح في ضربها مثلاً إذ أن الهدف هو إيصال الفكرة، والأمثلة يجب أن تتناسب مع موضوع الفكرة، ولذلك فهو سبحانه يضرب الأمثلة بالبعوضة فما فوقها بالصغر، فتصيب اسماعا وتخرق حجبا لمن كان له قلب واعٍ وفي المقابل فريق آخر لهم قلوب ران عليها فكأنها حجر صماء مختوم عليها بالتكذيب، وعلى ابصارهم غشاوة لا يخرقها نور مهما كانت قوته.

التمثيل الثاني: تشبيه المكذبين بالكلب اللاهث

-قال تعالى:﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾.[٤]

تطرق السبحاني الى تفسير آية المثل بعد المعنى اللغوي لبعض مفرداتها[٥] إذ قال:

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٩٢، الأمثال للسبحاني، ص٩٢.

(٢) جوامع الجامع للطبرسي، ٨٩/١.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩ / ٩٢، الأمثال للسبحاني، ص٩٢.

(٤) سورة الأعراف، الآيات / ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧.

(٥) "نبأ": الخبر عن الأمر العظيم ومنه اشتقاق النبوة. ينظر: العين للفراهيدي: ٣٨٢/٨، مادة (نبأ). "أخلد" الى الارض: أي سكن إليها، ولصق بها. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٦٤/٣، مادة (خلد). "انسلخ": النزع. ينظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي: ٢٦١/١، مادة (سلخ). "يلهث": أن يدلع الكلب لسانه من العطش، واللهاث حر العطش. ينظر: العين للفراهيدي: ٤٢/٤، مادة (لهث).

"الآية تمثيل يتضمن مشبها ومشبها به، أما الثاني فقد اختلفت كلمة المفسرين في المراد منه، فأغلب المفسرين قالوا: "إن المراد هو(بلعم بن باعوراء)"،[١] الذي كان عالما من علماء بني إسرائيل، وقيل من الكنعانيين أوتي علم بعض كتاب الله،[٢] ولكنه كفر به ونبذه وراء ظهره، فلحقه الشيطان وصار قرينا له وكان من الغاوين الضالين الكافرين".[٣] ثم أضاف السبحاني قائلاً: "الامعان في الآية يعرب عن بلوغ الرجل مقاما شامخا في العلم والدراية، وعلى الرغم من ذلك فقد سقط في الهاوية، وإليك ما يدل على ذلك في الآية:

أ. ﴿نَبَأَ﴾ حاك عن أنه كان خبرا عظيما لا خبرا حقيرا.

ب. قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ حاك عن إحاطته بالحجج والبينات وعلم الكتب السماوية"،[٤] وأغلبهم قال أنه:(اسم الله الأعظم).[٥] "لم ينتفع بالآيات حيث لم تكن معها حكمة".[٦]

ج. قوله: "﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ يدل على أن الآيات والعلوم الإلهية كانت تحيط به إحاطة الجلد بالبدن إلا أنه خرج منها. ويؤيد ذلك أنه سبحانه يعبر عن التقوى باللباس"،[٧] ويقول:﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾،[٨] "خرج من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره"،[٩] "خرج من محبة الله إلى معصيته، ومن رحمة الله إلى سخطه"،[١٠] "لم تبق لديه وقاية

---

(١) القرآن العظيم لأبي حاتم، ١٦١٧/٥، بحر العلوم للسمرقندي، ٥٧٩/١، الكشف والبيان للثعلبي، ٤/ ٣٠٤، المستدرك للنيسابوري: ٣٢٥/٢، باب (تفسير سورة الأعراف)، التبيان للطوسي، ٣١/٥، اسباب النزول للواحدي، ص١٥٢.

(٢) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٥٧٩/١، جوامع الجامع للطبرسي: ١/ ٧٢١، معالم التنزيل للنسفي: ٤٦/٢.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٣٨ وينظر: التبيان للطوسي: ٣٢/٥.

(٤) مفاهيم القرآن، ١٣٨/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٣٨ وينظر: جامع البيان للطبري: ١٦٥/٩، بحر العلوم للسمرقندي: ٥٧٩/١، جوامع الجامع للطبرسي: ١/ ٧٢١، معالم التنزيل للنسفي: ٤٦/٢.

(٥) ينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ١٦١٧/٥، الكشف والبيان للثعلبي: ٣٠٦/٤، أسباب النزول للواحدي: ص١٥٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٢٣٢/٢، معالم التنزيل للبغوي: ٢١٣/٢.

(٦) جامع البيان للطبري، ٧٧٥/١.

(٧) القرآن، ٩/ ١٣٨، الأمثال للسبحاني، ص١٣٨ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله لكاشاني: ٦٢٤/٢، تفسير غريب القرآن للطريحي: ص١٧٩، روح المعاني للآلوسي: ١١١/٩، الميزان للطباطبائي: ٣٣٢/٨.

(٨) سورة الاعراف، من الآية / ٢٦.

(٩) مدارك التنزيل للنسفي، ٤٦/٢ وينظر: الوسيط للطنطاوي: ٤٣٦/٥.

(١٠) مفاتيح الغيب للرازي، ٥٤/١٥.

تحميه من الشيطان، إذ فقد بأنسلاخه جهاز المناعة".[١]

د. قوله:﴿ فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ "يدل على أن الشيطان كان آيسا من كفره وقد انقطعت صلته به، "محفوظا محروسا بآيات الله محمي الجانب بها من الشيطان لا ينال منه شيئا إلا على غرة وخطفة فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته"،[٢] لحقه الشيطان واتبعه فأخذ يوسوس له كل يوم إلى أن جعله من الضالين، وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين،[٣] ومنهم من قال جعله من الهالكين الفاسدين.[٤]

أتم السبحاني تفسير الآية الثانية بقوله: "أما الآية الثانية فهي تتضمن حقيقة قرآنية، وهي أنه سبحانه تبارك وتعالى كان قادرا على رفعه وتنزيهه وتقريبه إليه، ولكنه لم يشأ، لأن مشيئته سبحانه لا تتعلق بهداية من أعرض عنه واتبع هواه، إذ كيف يمكن تعلق مشيئته بهداية من أعرض عن الله وكذب آياته، ولذلك يقول: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا ﴾ أي لرفعناه بتلك الآيات ولكن ما شئنا وليس ذلك للبخل منه سبحانه، بل لفقدان الأرضية الصالحة، لأنه أخلد إلى الأرض ولصق بها، وكأنها كناية عن الميل والنزوع إلى التمتع بالملاذ الدنيوية، ومعه كيف تشمله العناية الربانية"،[٥] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين.[٦] "لو شئنا لرفعنا هذا الذي آتيناه آياتنا بآياتنا التي آتيناه، ولكنه سكن إلى الحياة الدنيا في الأرض ومال إليها، وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة، واتبع هواه، ورفض طاعة الله وخالف أمره".[٧] ومنهم من ذهب الى: أنها تعود إلى الكفر بالآيات، فيكون المعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بآياتنا، أي لو شئنا لحلنا بينه وبين المعصية.[٨]

---

(١) أمثال القرآن لحنبكة، ص٣٤٨.

(٢) الأمثال لابن قيم، ص٣٠.

(٣) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٤٦/٢، الكشاف للزمخشري: ١٣٠/٢، جوامع الجامع للطبرسي: ١/ ٧٢١، مفاتيح الغيب للرازي: ٥٥/١٥، زبدة التفاسير لفتح الله: ٦٢٥/٢، الأصفى للفيض الكاشاني: ٤١٣/١، مفاهيم القـــــرآن، ٩/ ١٣٨، الأمثال للسبحاني، ص١٣٨.

(٤) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ١٩٦/٣وينظر: التفسير الكاشف لمغنية: ٤٢٠/٣.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٣٩، الأمثال للسبحاني، ص١٣٩.

(٦) ينظر: معاني القرآن للنحاس: ٣/ ١٠٥، التبيان للطوسي: ٣٢/٥، جوامع الجامع للطبرسي: ٧٢٢/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٥٥/١٥، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٤٢/٣، التسهيل لعلوم التنزيل لابن الجزي: ٣١٣/١، الأمثال لأبن شريف: ص٤١، الامثال والمثل لسميح عاطف: ص٤٢٩.

(٧) جامع البيان للطبري، ١٦٦/٩.

(٨) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ١٩٧/٣، التفسير العظيم لعبد السلام: ٥١٣/١، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٣٢١/٧.

وتشير الباحثة هنا: الى أن لا بد من استدراك لبيان أنه قد كان من الممكن جعله مجبوراً غير ذي إختيار وهذا لا ينسجم والسنن الإلهية وحرية الإرادة، ولا يكون ذلك دليلا على عظمة الشخص، وفي هذه الحالة سيرفعه الله بآياته، ولا يجعله ينزل الى هذا الحضيض، فقال (ﷻ):﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا ﴾ أي: ولو شئنا رفعه بهذه الآيات لجعلناه مجبوراً غير مختار، فرفعناه بها. لكنا جعلناه حراً مختاراً لنمتحنه في ظروف هذه الحياة الدنيا، فاستعمل حرية إرادته، وبدلا من أن ينتفع من معارفه فإنه هوى وانحط وأخلد إلى الأرض واتبع هواه بإيثار الحياة الدنيا.

ثم أضاف السبحاني قائلاً: "إنه سبحانه يشير إلى وجه آخر لعدم تعلق مشيئته بهدايته، وهو أن هذا الإنسان بلغ في الضلالة والغواية مرحلة صارت سجية وطبيعة له، ومزج بها روحه ونفسه وفطرته، فلا يصدر منه إلا التكذيب والإدبار عن آياته، فلذلك لا يؤثر فيه نصيحة ناصح ولا وعظ واعظ، ولتقريب هذا الأمر نأتي بتمثيل في ضمن تمثيل، ونقول:﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۚ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث ﴾، وذلك لأن اللهث أثر طبيعي لسجيته فلا يمكن أن يخلص نفسه منها"،[١] "مثله به في اللهث لتركه العمل بكتاب الله وآياته التي آتاها إياه وإعراضه عن مواعظ الله التي فيها إعراض من لم يؤته الله شيئا من ذلك، فقال جل ثناؤه فيه: إذا كان سواء أمره وعظ بآيات الله التي آتاها إياه، أو لم يوعظ في أنه لا يتعظ بها، ولا يترك الكفر به، فمثله مثل الكلب الذي سواء أمره في لهثه، طرد أو لم يطرد، إذ كان لا يترك اللهث بحال"،[٢] "هذا شر تمثيل، في أنه قد غلب عليه هواه، حتى صار لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، بكلب لاهث أبدا، حمل عليه أو لم يحمل عليه، هو لا يملك ترك اللهثان".[٣] "هذا هو المشبه به، وهو يعرب عن أن الهداية والضلالة بيد الله تبارك وتعالى، وقد تعلقت مشيئته بهداية الناس بشرط أن تتوفر فيه أرضية خصبة تؤهله لتعلق مشيئته تعالى به، فمن أخلد إلى الأرض ولصق بها، أي أخلد إلى المادة والماديات، فلا تشمله الهداية الإلهية بل هو محكوم بالضلال لكن ضلال اختياري مكتسب. هذا هو حال المشبه به، وقد عرفت أن التمثيل يتضمن تمثيلا

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٣٩، الأمثال للسبحاني، ص١٣٩.

(٢) جامع البيان للطبري، ٩/ ١٧٢ وينظر: البحر العلوم للسمرقندي: ٥٨٠/١، مدارك التنزيل للنسفي: ٤٦/٢، الامثال في كتاب (حياة الحيوان الكبرى) لصلاح حسون: ص١٣٩.

(٣) معاني القرآن للنحاس، ١٠٦/٣وينظر: الكشاف للزمخشري: ٢/ ١٣١.

آخر".[١] وأما المشبه فقد اختلفت كلمة المفسرين فيه، فأغلب المفسرين قالوا: إن المراد أمية بن أبي الصلت الثقفي الشاعر، إذ كانت قصته أنه قرأ الكتب وعلم أن الله سبحانه يرسل رسولا في ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو ذلك الرسول، فلما بعث سبحانه محمدا حسده ثمّ مات كافرا ولم يؤمن باللَّه، وهو الَّذي قال فيه النبيّ(ﷺ): ((آمن شعره وكفر قلبه))[٢].[٣] ومنهم من قال: إنه أبو عامر بن النعمان بن صيفي الراهب الذي سماه النبي الفاسق، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح،[٤] فقدم المدينة، فقال للنبي(ﷺ): ((ما هذا الذي جئت به، قال: جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال: فأنا عليها، فقال(ﷺ): لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها)).[٥] فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا، فخرج إلى أهل الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا السلاح، ثم أتى قيصر وأتى بجند ليخرج النبي (ﷺ) من المدينة، فمات بالشام طريدا وحيدا.[٦] وذهب السبحاني الى ما ذهب اليه الطبرسي إذ قال: "الظاهر أن المشبه ليس خصوص هذين الرجلين، بل كما قال الإمام الباقر (عليه السلام):((الأصل في ذلك بلعم، ثم ضربه الله مثلا لكل مؤثر هواه على هدى الله من أهل القبلة))[٧]"،[٨] "عم بهذا التمثيل جميع المكذبين بآيات الله إذ أن أهل مكة كانوا يتمنون هادياً يهديهم وداعياً يدعوهم إلى طاعة الله، ثم جاءهم

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٣٩، الأمثال للسبحاني، ص١٣٩.

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط٢، (ب – ت)، ١١٦/٧، باب (أيام الجاهلية)، بحار الأنوار للمجلسي، ٢٢/ ٣٥، باب (ما جرى بينه وبين أهل الكتاب والمشركين.....)، تفسير آية: (﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ.... ﴾)، وهو حديث صحيح.

(٣) ينظر: السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري وكسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١ هـ- ١٩٩١ م: ٦/ ٣٤٨، الكشف والبيان للثعلبي: ٣٠٦/٤، أسباب النزول للواحدي: ص١٥٣، زاد المسير لابن الجوزي: ١٩٤/٣، مفاتيح الغيب للرازي: ٤٥/١٥، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢/ ٦٢٤، كنز الدقائق للمشهدي: ٢٤٦/٥، مقتنيات الدرر للحائري: ٤٦/٥، مفاهيم القرآن: ٩/ ١٣٩، الأمثال للسبحاني، ص ١٣٩.

(٤) ينظر: مجمع البيان للطبرسي: ٤/ ٣٩٥، البحر المحيط لابي حيان: ٤٢١/٤، الميزان للطباطبائي: ٨/ ٣٣٩.

(٥) أحاديث أم المؤمنين عائشة، لمرتضى العسكري، النهضة، ط١، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م، ٢٦٤/٢، باب (ما جرى قبل ميلاد الرسول (ﷺ) نتيجة لتلك البشارات)، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، لأحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ _ ١٩٩٩ م، ٣٦٠/١٤.

(٦) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ٣٠٧/٤، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٤١، الأمثال للسبحاني، ص١٤١.

(٧) بحار الأنوار للمجلسي، ٣٨٠/١٣، باب (تمام قصة بلعم بن باعور....)، رقم الحديث (٣)، وهو حديث ضعيف.

(٨) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٤١، الأمثال للسبحاني، ص١٤١ وينظر: مجمع البيان للطبرسي: ٢/ ٥٠٠.

من لا يشكون في صدقه وديانته فكذبوه، فحصل التمثيل بينهم وبين الكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث لأنهم لم يهتدوا لما تركوا ولم يهتدوا لما جاءهم الرسول فبقوا على الضلال في كل الأحوال مثل هذا الكلب الذي بقي على اللهث في كل الأحوال".(١)

وتخلص الباحثة: إن هذا المثل يحمل من مواعظ الرحمن موعظة عظيمة لكل عالم، وداعية، وطالب علم مجتهد يبتغي الرفعة عند الله تعالى، والرفع يعم معاني كثيرة، منها الرفع في المنزلة عنده، ومنها الرفع في شرف الدنيا ومكارمها، ومنها الرفع في الذكر الجميل والثناء الرفيع. أن محض حفظ الآيات وحمل العلم ومعرفة الأدلة والأحكام غير كاف في حمل الأنسان على الأستقامة إذ لم يدعمها إيمان صادق وتصميم جازم على الألتزام والتطبيق، والألتصاق بآيات الله تعالى كإلتصاق الجلد بالجوارح ولا ينسلخ ويتجرد منها عندما تعرض عليه الدنيا ويختار وبمحض أرادته الكفر والضلال والميل الى التمتع بالملاذ الدنيوية عنها بالآخروية. فيخسر كل شيء ويكون حاله كحال الكلب إذا ناله الاعياء عند شدة الجري، وعند شدة الحر فانه يدلع لسانه من العطش، "وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه الله العلم والدين فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض، كان مشبهاً بأخس الحيوانات".(٢)

ختم السبحاني تفسير الآية قائلاً: "في الآية دلالة واضحة على أن العبرة في معرفة عاقبة الإنسان هي أخريات حياته، فربما يكون مؤمنا في شبابه ويرتد عن الدين في شيخوخته وهرمه، فليس صلاح الإنسان وفلاحه في عنفوان شبابه دليلا على صلاحه ونجاته في آخر عمره"،(٣) وهو ما تؤيده الباحثة.

<u>التمثيل الثالث: ضعف المشركين بأضعف الحيوانات</u>

-قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.(٤)

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي، ٥٧/١٥ وينظر: البحر المحيط لابي حيان: ٤٢٣/٤،

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ٥٦/١٥.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٤١ -١٤٢، الأمثال للسبحاني، ص١٤١- ١٤٢.

(٤) سورة الحج، الآيتان / ٧٣، ٧٤.

أشار السبحاني الى تفسير الآيات بسرد ما كان يعتقد العرب في العصر الجاهلي إذ قال: إنهم كانوا موحدين في الخالقية، ويعربون عن عقيدتهم، بأنه لا خالق في الكون سوى الله سبحانه، وقد حكاه سبحانه عنهم في غير واحد من الآيات، قال سبحانه:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾،(١) ولكنهم كانوا مشركين في التوحيد في الربوبية، وكأنه سبحانه – بزعمهم – خلق السماوات والأرض وفوض تدبيرهما إلى الآلهة المزعومة، ويكشف عن ذلك إطلاق المشركين لفظ الأرباب في جميع العهود على آلهتهم المزعومة، يقول سبحانه:﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾،(٢) والآية وإن كانت تفصح عن عقيدة المشركين في عهد النبي يوسف (عليه السلام) إلا أنها تماثل إلى حد كبير عقيدة المشركين في مكة، بشهادة أن الآية نزلت للتنديد بهم والحط من عقيدتهم الفاسدة. وهناك آيات أخرى تكشف عن شركهم في الربوبية (٣).(٤)

ثم أضاف السبحاني قائلاً: "إذا عرفت ذلك، فاعلم أنه سبحانه ضرب في المقام أمثالا أبطل بها ربوبية الأصنام، بالبيان التالي: أما الذباب، فهو عندهم أضعف الحيوانات وأوهنها، "ذكر الذباب لخسته ومهانته وضعفه"،(٥) ومع ذلك فآلهتهم عاجزون عن خلق الذباب، وإن يسلب الذباب منهم شيئا لا يستطيعون استنقاذه منه. إذ روي أن العرب كانوا يطلون الأصنام بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله، يقول سبحانه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي يعبدونه والدعاء هنا بمعنى العبادة، كما في قوله سبحانه:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾،(٦) فدعاؤه سبحانه عين عبادته كما أن دعاء

---

(١) سورة الزخرف، الآية /٩.

(٢) سورة يوسف، من الآية / ٣٩.

(٣) ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾. سورة يس / الآيـــة ٧٤. ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾. سورة مريم، الآية / ٨١. ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾. سورة الاسراء، الآية / ٥٦.

(٤) ينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٢٠١ –٢٠٢، الأمثال للسبحاني: ص٢٠١ – ٢٠٢.

(٥) تفسير القرآن للسمعاني، ٤٥٥/٣ وينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٣٠٨/٥.

(٦) سورة غافر، الآية /٦٠.

الآلهة المزيفة –بما أنها أرباب عند الداعي– عبادة لها"،[١] وهذا ما ذهب إليه أغلب المفسرين[٢]: إن الكفار ضربوا لله(ﷻ) مثلا، أي جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره، كما يعبد هو (ﷻ).[٣] "﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ مع صغره وضعفه"،[٤] لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين؟! هذا من أبلغ ما أنزله اللَّه في تجهيل قريش واستركاك عقولهم، والشهادة على أنّ الشيطان قد خزمهم بخزائمه، حيث وصفوا بالإلهيّة – الَّتي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلَّها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها – صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقلّ ما خلقه اللَّه(ﷻ) ، وأذلَّه وأصغره وأحقره، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا،[٥] "كأن الآية تهتف فيهم:ما الدافع لجعل موجود ضعيف تهزمه الذبابة حاكما عليكم وحلالا لمشاكلكم ؟!"[٦] "﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ إذ عرفت من أن الذباب ربما يأكل العسل الموجود على رؤوس الأصنام".[٧]

التمثيل الرابع: وهن المشركين بأوهن البيوت

–قال تعالى:﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾.[٨]

شـــرع السبحاني بـتفسير الآيات قائـــلاً: "ما تتـــضمنه الآية من تشبيه آلهة المشركين

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٠٢، الأمثال للسبحاني، ص٢٠٢.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٧/ ٢٦٥، الكشف والبيان للثعلبي: ٣٤/٧، التبيان للطوسي: ٣٤١/٧، مجمع البيان للطبرسي: ١٧١/٧، زاد المسير لابن الجوزي: ٣٠٨/٥، العجاب في بيان الأسباب لابن حجر: ٢٤٦/١.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٦٥/١٧، معاني القرآن للنحاس، ٤٢٢/٤، بحر العلوم للسمرقندي: ٤٧٠/٢، معالم التنزيل للبغوي: ٢٩٨/٣، زاد المسير لابن الجوزي: ٣٠٨/٥.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٠٣، الأمثال للسبحاني، ص٢٠٣ وينظر: جامع البيان للطبري: ١٧/ ٢٦٥، الكشف والبيان للثعلبي: ٣٤/٧.

(٥) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ١١٣/٣، الكشاف للزمخشري: ٣/ ٢٣، الأمثال لابن قيم: ص ٤٦، زبدة التفاسير لفتح الله، ٤١٧/٤.

(٦) الأمثل للشيرازي، ٤٠٠/١٠.

(٧) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٠٣، الأمثال للسبحاني، ص٢٠٣ وينظر: مجمع البيان للطبرسي: ١٧١/٧، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٩٧/١٢، أنوار التنزيل للبيضاوي: ١٤١/٤، كنز الدقائق للمشهدي: ١٤٢/٩.

(٨) سورة العنكبوت، الآيات /٤١، ٤٢، ٤٣.

ومعبوداتهم المزيفة بأوهن البيوت وهو بيت العنكبوت. إذ أن التشبيه يترك تأثيرا بالغا في النفوس مثل تأثير الدليل والبرهان، فتارة ينهى عن الغيبة ويقول: لا تغتب فإنه يوجب العذاب ويورث العقاب، وأخرى يمثل عمله بالمثل التالي: وهو أن مثل من يغتاب مثل من يأكل لحم الميت، لأنك نلت من هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب، فكان نيلك منه كعمل من يأكل لحم الميت وهو لا يعلم ما يفعل به ولا يقدر على الدفع".[١] ثم ذكر الغرض من تشبيه الآلهة المزيفة بهوام وحشرات الأرض كالبعوض والذباب والعنكبوت إذ قال: "هو الحط من شأنها والاستهزاء بها".[٢] إذ أن العنكبوت حشرة معروفة ذكورها أصغر أجسادا من إناثها، وهي تتغذى من الحشرات التي تصطادها بالشبكة التي تمدها على جدران البيوت، فتصنع تلك الشبكة من مادة تفرزها لها غدد في باطنها محتوية على سائل لزج تخرجه من فتحة صغيرة، فيتجدد بمجرد ملامسته للهواء ويصير خيطا في غاية الدقة، وما أن تقع الفريسة في تلك الشبكة حتى تنقض عليها وتنفث فيها سما يوقف حركاتها، فلا تستطيع الدفاع عن نفسها.[٣] كل الاعجاز العلمي في هذه الآية الكريمة يتجلى بأجلى معانيه في لفظة ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾ بصيغة الفعل المؤنث وهي إشارة علمية في غاية الروعة والدقة للدلالة على أن ما يقوم ببناء بيوت العناكب هي الأنثى منه، وأن الذكر من العناكب لا شأن له بذلك، من دراسة حياة العناكب لاحظ العلماء أن بيت العنكبوت له شكل هندسي خاص دقيق الصنع ومقام في مكان مختار له في الزوايا أو بين غصون الأشجار وأن كل خيط من الخيوط المبنى منها البيت مكون من أربعة خيوط أدق منه، ويخرج كل خيط من الخيوط الأربعة من قناة خاصة في جسم العنكبوت، ولا يقتصر بيت العنكبوت على أنه مأوى يسكن فيه بل هو في نفس الوقت مصيدة تقع في بعض حبائلها اللزجة الحشرات الطائرة مثل الذباب وغيره لتكون فريسة يتغذى عليها، وإنه لمنظر يثير الدهشة حقا عندما يرى الانسان هذه الحشرة الرقيقة تتحرك بأرجلها الدقيقة بسرعة بين خيوط بيتها الواهي لتمسك بفرائسها، فسبحان الله الذي خلق كل شئ وقدر كيانه تقديرا وألهمه حياته تنظيما وتدبيرا.[٤] ثم أضاف السبحاني قائلاً: "ومع ذلك فما نسجته

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١٧ –٢١٨، الأمثال للسبحاني، ص٢١٧ –٢١٨.

(٢) المصدران نفسهما.

(٣) ينظر: دائرة معارف القرن الرابع عشر، لمحمد فريد بن مصطفى وجدي (ت ١٩٥٤ م)، مطبعة دائرة المعارف، ١٩٧١ م: ٦/ ٧٧٢.

(٤) ينظر: القرآن وأعجازه العلمي لمحمد اسماعيل: ص١٥٨.

بيتا لنفسها من أوهن البيوت، بل لا يليق أن يصدق عليه عنوان البيت، الذي يتألف من حائط هائل، وسقف مظل، وباب ونوافذ، وبيتها يفقد أبسط تلك المقومات هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن بيتها يفتقد لأدنى مقاومة أمام الظواهر الجوية والطبيعية، فلو هب عليه نسيم هادي لمزق النسيج، ولو سقطت عليه قطرة من ماء لتلاشى، ولو وقع على مقربة من نار لاحترق، ولو تراكم عليه الغبار لمزق. هذا هو حال المشبه به، والقرآن يمثل حال الآلهة المزيفة بهذا المثل الرائع. وهو أنها لا تنفع ولا تضر، لا تخلق ولا ترزق، ولا تقدر على استجابة أي طلب. بل حال الآلهة المزيفة الكاذبة أسوأ حالا من بيت العنكبوت، وهو أن العنكبوت تنسج بيتها لتصطاد به الحشرات ولولاه لماتت جوعا، ولكن الأصنام والأوثان لا توفر شيئا للكافر. وبذلك تقف على عظمة التمثيل الوارد في قوله:﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾"،[١] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٢]: "مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، كمثل العنكبوت في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها، اتخذت بيتا لنفسها، كيما يكنها، فلم يغن عنها شيئا عند حاجتها إليه، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل بهم أمر الله، وحل بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئا، ولم يدفعوا عنهم ما أحل الله بهم من سخطه بعبادتهم إياهم".[٣] فكذلك الأوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة، هذا مثلهم وإن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن وأن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينا دينا عبادة الأوثان.[٤]

ثم أتم السبحاني تفسير الآيات بالقول: "إن قوله:﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ ليس قيدا لقوله:﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾، لأنه من الواضح لكل أحد أن بيت العنكبوت في غاية الوهن، وإنما هو من متممات قوله:﴿ ٱتَّخَذُواْ ﴾ أي لو علموا أن عبادة الآلهة كاتخاذ العنكبوت بيتا سخيفا، ربما أعرضوا عنها"،[٥] وهذا ماذهب اليه أغلب المفسرين[٦]: "يعني لو

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١٨ – ٢١٩، الأمثال للسبحاني، ص٢١٨ – ٢١٩.
(٢) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٢/ ٦٣٤، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٣/ ٣٤٨، الكشف والبيان للثعلبي: ٢٧٩/٧، التبيان للطوسي: ٢١٠/٨، جوامع الجامع للطبرسي: ٧٧٠/٢.
(٣) جامع البيان للطبري، ٢٠/ ١٨٦ وينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ٣٠٦٢/٩، معاني القرآن للنحاس: ٢٢٧/٥.
(٤) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٣/ ٢٥٩، الكشاف للزمخشري: ٣/ ٢٠٦، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢٢٧/٥.
(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١٩، الأمثال للسبحاني، ص٢١٩.
(٦) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٦٢٤/٢، التبيان للطوسي: ٨/ ٢١٢، مجمع البيان للطبرسي: ٢٨/٨.

كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأصنام كذلك لأنهم قد علموا أن بيت العنكبوت أوهن البـــيوت ولكن قوله:﴿ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾انصرف إلى قوله:﴿ ٱتَّخَذُواْ ﴾ يعني لا يعلمون أن هذا مثله"،[١] لو علموا أن اتخاذهم الأولياء كاتخاذ العنكبوت بيتا سخيفا، لم يتخذوهم أولياء. ولا يجوز أن تكون متعلقة بقوله:﴿ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ ﴾ لأنهم كانوا يعلمون أن بيت العنكبوت واه ضعيف".[٢] "إذ إنه سبحانه أردف المثل بآية أخرى، وقال:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾، والظـــاهر أن (مـــا) فـــي قولـــه:﴿ مَا يَدۡعُونَ ﴾ موصولة، أي أنه يعلم ما يعبد هؤلاء الكفار وما يتخذونه من دونه أربابا. ولكن علمهم لا يضر إذ هو العزيز الذي لا يغالب فيما يريد والحكيم في جميع أفعاله".[٣] وإن ما يدعون من شيء فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على إعدامه وإهلاكهم، لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة، فقال الله تعالى:الله يعلم أن كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لأن الكوكب والملك وكل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم للحاضر ولا معبود إلا الله ولا إله سواه.[٤] ومنهم من جعل (ما) نافية: هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث إنهم لا يدعون من دونه من شيء، بمعنى ما يدعون ليس بشيء وهو عزيز حكيم فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشيء أصلاً،[٥] "أن الله يعلم أنهم ليسوا يدعون من دونه شيئا أي أن الذي يعبدونه من الآلهة لا حقيقة له".[٦]

وختم السبحاني قـــائلاً: قال سبحانه:﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾ أي نـــذكر تلك الأمثـــال، وما يفهمـــها إلا العلماء العاقلون"،[٧] وهذا ما ذهب اليه

---

(١) بحر العلوم للسمرقندي، ٦٢٤/٢.

(٢) التبيان للطوسي، ٨/ ٢١٢، مجمع البيان للطبرسي، ٢٨/٨.

(٣) مفاهيم القرآن: ٩ / ٢١٩، الأمثال للسبحاني: ص٢١٩ وينظر: مجمع البيان للطبرسي: ٢٨/٨، التفسير الكاشف لمغنية: ١٠٨/٦، تقريب القرآن لمحمد الشيرازي: ٢٠٨/٤، في ظلال القرآن لسيد قطب: ١٢١/٢٠، الامثال لأبن شريف: ص ١٠٣.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢٥/ ٦٩، الأمثل للشيرازي: ٣٩٦/١٢.

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٣/ ٢٠٦، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢٢٧/٥، مقتنيات الدرر للحائري: ١٨٥/٨.

(٦) الميزان للطباطبائي، ١٣١/١٦.

(٧) مفاهيم القرآن، ٢١٩/٩، الأمثال للسبحاني، ص٢١٩.

أغلب المفسرين[١]: "العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه"،[٢] "الذين يرتفعون بفهمهم عن الفهم الساذج ويحاولون النفاذ الى عمقها فيحصلون منها ويفهمون منها ما لايفهمه سذجة الناس"،[٣] "هو ما يدركه الإنسان من صميم ذاته ونداء ضميره ووجدانه".[٤] ومنهم من ذهب الى أن: لا يفهمها ولا يعلمها إلا الموحدون المؤمنون.[٥] وخصها الرازي بالعلماء إذ قال: " فيه معنى حكمي وهو أن العلم الحدسي يعلمه العاقل والعلم الفكري الدقيق يعقله العالم، وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهراً وكون المدرك عاقلاً، ولا يحتاج إلى كونه عالماً بأشياء قبله، وأما الدقيق فيحتاج إلى علم سابق فلا بد من عالم، ثم إنه قد يكون دقيقاً في غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله إذا كان عالماً. إذا علم هذا فقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ يعني هو ضرب للناس أمثالاً وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها إلا العلماء".[٦]

وتخلص الباحثة: إن عالم الحشرات من العوالم المحجبة بأسرارها عنا ولا يعلم بعض خفاياها إلا الدارسون لها المتعمقون في خصائصها، إلا أن القرآن الكريم اهتم بأمرها وسمى بعض سوره بأسماء حشرات منها مثل سورة النمل وسورة النحل وسورة العنكبوت ليلفت أنظارنا إلى قدرة خالقنا القدير وحكمة ربنا الحكيم وإحاطة ربنا العليم بعالمها، والله سبحانه لم يخلقها عبثا بل له حكمة عليا في النافع منها والضار وفى الظاهر منها والخفي، أنه سبحانه الذي أتقن كل شيء خلقه وله في كل شيء آية تدل على أنه الواحد المبدع الخالق سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا. وإذا كان الذين عميت قلوبهم لا يرون جمال الحق، فليس ذلك لخفائه، بل لعماهم وضلالهم!.

التمثيل الخامس: تشبيه غير العامل بالتكاليف الشرعية بالحمار

- قـال تعالى:﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ

(١) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ٧/ ٢٨٠، معالم التنزيل للبغوي: ٣/ ٤٦٨، وينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٢٦٠/٣، الكشاف للزمخشري: ٣/ ٢٠٧، زاد المسير لابن الجوزي: ٦/ ١٣٢.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي، ٧/ ٢٨٠، معالم التنزيل للبغوي، ٣/ ٤٦٨.

(٣) تفسير المراغي للمراغي، ١٤٥/٢٠ وينظر: التفسير المقارن للناصري: ٦/ ٢٠١ - ٢٠٢.

(٤) الحديث النبوي بين الرواية والدراية للسبحاني، ص٦١.

(٥) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٢/ ٦٣٤، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٣٤٨/٣.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٧٠/٢٥.

ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.[١]

بدأ السبحاني تفسير الآية بعد التعريف اللغوي لبعض مفرداتها[٢] قائلاً: "إنه سبحانه لما قال: إنه بعثه إلى الأميين أخذت اليهود الآية ذريعة لإنكار سعة رسالته، وقالوا:إنه (ﷺ) بعث إلى العرب خاصة ولم يبعث إليهم، فعند ذلك نزلت الآية وشبهتهم بالحمار الذي يحمل أسفارا لا ينتفع منها، إذ جاء في التوراة نعت الرسول والبشارة بمقدمه والدخول في دينه".[٣] وهذا ما أورده الرازي إذ قال: "اعلم أنه تعالى لما أثبت التوحيد والنبوة، وبين في النبوة أنه(ﷺ) بعث إلى الأميين واليهود لما أوردوا تلك الشبهة، وهي أنه (ﷺ) بعث إلى العرب خاصة، ولم يبعث إليهم بمفهوم الآية أتبعه الله تعالى بضرب المثل للذين أعرضوا عن العمل بالتوراة، والإيمان بالنبي (ﷺ)، والمقصود منه أنهم لما لم يعملوا بما في التوراة شبهوا بالحمار، لأنهم لو عملوا بمقتضاها لانتفعوا بها، ولم يوردوا تلك الشبهة، وذلك لأن فيها نعت الرسول (ﷺ)، والبشارة بمقدمه، والدخول في دينه".[٤] ثم ذكر السبحاني غرض المثل قائلاً: "إنه يمثل حال من يفهم معاني القرآن ولا يعمل به ويعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه"،[٥] وهذا ما ذهب اليه مفسرون عدة[٦]: "وعلى هذا من تلا القرآن ولم يفهم معناه وأعرض عن ذلك اعراض من لا يحتاج إليه كان هذا المثل لاحقا به".[٧] والمراد من قوله:﴿ حُمِّلُواْ ﴾ أي كلفوا بالقيام بها، ليس هو من الحمل على الظهر، وإنما هو من الحمالة بمعنى الكفالة والضمان، والمراد الذين ضمنوا أحكام التوراة، ثم لم يحملوها، أي لم يؤدوا حقها ولم يحملوها حق حملها، فهؤلاء أشبه بالحمار، كما قال:﴿ كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾،[٨] فشبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بحمار

---

(١) سورة الجمعة، الآية /٥.

(٢) "أسفاراً": السفر: كشف الغطاء، ويختص ذلك بالأعيان نحو سفر العمامة عن الرأس، والخمار عن الوجه، والسفر الكتاب الذي يسفر عن الحقائق و جمعه أسفار. ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني: ص٢٣٣، مادة (سَفَرَ).

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٧، الأمثال للسبحاني، ص٢٦٧ وينظر: الأمثل للشيرازي: ٣٢٤/١٨.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي، ٣٠/ ٥.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٧، الأمثال للسبحاني، ص٢٦٧.

(٦) ينظر: التبيان للطوسي: ٥/١٠، مجمع البيان للطبرسي: ٨/١٠، زاد المسير لابن الجوزي: ٢١/٨، المنتخب والنكت لابن ادريس: ٢/ ٣٢٤، مفاتيح الغيب للرازي: ٤/٣٠، الامثال لابن قيم: ص٢٦.

(٧) التبيان للطوسي، ٥/١٠، مجمع البيان للطبرسي، ٨/١٠.

(٨) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٨/ ١٢٤، الكشف والبيان للثعلبي: ٣٠٧/٩، التبيان للطوسي: ٣/١٠، تفسير القرآن للسمعاني: ٤٣٢/٥، مدارك التنزيل للنسفي: ٢٤٥/٤، الامثال لابن قيم: ص٢٦، حياة الحيوان الكبرى للدميري: ٣٥٧/١، الوسيط للطنطاوي: ٣٨٠/١٤، مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٧ –٢٦٨، الأمثال للسبحاني، ص١٢٦٧ –٢٦٨.

يحمل كتباً، وليس له من ذلك إلا ثقل الحمل من غير انتفاع مما يحمله، كذلك اليهود ليس لهم من كتابهم إلا وبال الحجة عليهم.[١] إذ "كلفهم المولى العمل بالتوراة لتضمنها عقيدة الله وشريعته، فلم يعملوا بها، ولم يقدروها حق قدرها".[٢]

أضاف السبحاني قائلاً: "وانتخب الحمار من بين سائر الحيوانات لما فيه من الذل والحقارة ما ليس في غيره بل والجهل والبلادة، مضافا إلى المناسبة اللفظية الموجودة بين لفظ الأسفار والحمار"،[٣] وهذا ما ذهب اليه الرازي إذ قال: "إن هذا التمثيل لإظهار الجهل والبلادة، وذلك في الحمار أظهر، ومنها: أن في الحمار من الذل والحقارة مالا يكون في الغير، والغرض من الكلام في هذا المقام تعيير القوم بذلك وتحقيرهم، فيكون تعيين الحمار أليق وأولى، ومنها أن حمل الأسفار على الحمار أتم وأعم وأسهل وأسلم، لكونه ذلولاً، سلس القياد، لين الانقياد، يتصرف فيه الصبي الغبي من غير كلفة ومشقة. وهذا من جملة ما يوجب حسن الذكر بالنسبة إلى غيره ومنها: أن رعاية الألفاظ والمناسبة بينها من اللوازم في الكلام، وبين لفظي الأسفار والحمار مناسبة لفظية لا توجد في الغير من الحيوانات فيكون ذكره أولى".[٤] وشبههم، بالحمار لزيادة التشنيع عليهم، والتقبيح لحالهم، حيث زهدوا وأعرضوا عن الانتفاع بأثمن شيء نافع، وهو – كتاب اللَّه – كما هو شأن الحمار الذي لا يفرق فيما يحمله على ظهره بين الشيء النافع والشيء الضار.[٥]

ذكر السبحاني خلاصة المثل قائلاً: "على كل تقدير فالآية تندد باليهود، وفي الوقت نفسه تحذر عامة المسلمين في أن لا يكون حالهم حال اليهود، في عدم الانتفاع بالكتاب المنزل الذي فيه دواء كل داء وشفاء لما في الصدور. وللأسف الشديد أصبح القرآن بين المسلمين مهجورا، إذ يتبرك به في العرائس، أو يجعل تعاويذ للأطفال، أو زينة الرفوف، أو يقرأ في القبور إلى غير ذلك مما أبعد المسلمين عن النظر في القرآن بتدبر"،[٦] "إن الذي يتلو

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٥/٣٠، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٩٥/١٨، البرهان للزركشي: ٤٢٢/٣، الميزان للطباطبائي: ٢٦٦/١٩، الوصايا والامثال في ضوء القرآن، لحديوي حلاوة، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، ط ١، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م: ص١٢٢.

(٢) الامثال لأبن شريف، ص١١٧.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٧ –٢٦٨، الأمثال للسبحاني، ص١٢٦٧ –٢٦٨.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي، ٦/٣٠.

(٥) ينظر: الوسيط للطنطاوي: ٣٨٢/١٤.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٨، الأمثال للسبحاني ص ٢٦٨ وينظر: الأمثل للشيرازي: ١٨ / ٣٢٥.

القرآن لمجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفارا، لاحظ له من الايمان بالكتاب، لأنه لا يفهم أسراره، ولا يعرف هداية اللّه فيه، وقراءة الألفاظ لا تفيد الهداية، حتى ولو فهم القارئ مدلولاتها، لأن هذا الفهم من قبيل التصور، والتصور خيال يلوح ويتراءى، ثم يغيب، وانما الفهم الصحيح فهم الايمان والتصديق ممن يتدبر الكتاب مستهديا مسترشدا ملاحظا انه مخاطب بآياته ليهتدي بها، ويسترشد بمعانيها".[١]

ثم ختم السبحاني تفسير الآية بالقول: "إنه سبحانه يصف اليهود المكذبة للقرآن وآياته، بقوله:﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾".[٢] ومنهم من قال: الذين كذبوا بآيات الله وحججه وبيناته.[٣]

وترى الباحثة: إن هذا الدرس القرآني يجب ان يستوعب من المسلمين كافة فضلاً عن العلماء لكي لا ينتهوا إلى ما انتهى إليه اليهود من التناقض وعدم أداء حق حمل الرسالة والاحكام التي كلفوا بها، وحملوها لفظا ولم يتفهموها، ولا عملوا بمقتضاها بل أولوها وحرفوها وبدلوها "فهم أسوأ حالا من الحمير لان الحمار لا فهم له وهؤلاء لهم فهم ولم يستعملوها ولهذا قال تعالى:﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾"،[٤] إذ أنزل الله تعالى القرآن الكريم على المسلمين، لا ليضعوه على الرفوف يعلوه الغبار، أو يحملوه كما تحمل التعاويذ أو ما إلى ذلك. وإذ لا يتعدى اهتمام بعض المسلمين بالقرآن أكثر من تلاوته بصوت جميل في أغلب الأحيان.

المطلب الرابع: المثل بالنبات والبساتين

إن الله سبحانه هو الذي انشأ النباتات وجعل منها البساتين والجنان وهو اعلم بمكوناتها وتركيباتها وأن العالِم الذي يبحث في أسرار النباتات، فهو يفسّرها بما فيها من قوانين وأنظمة وضعها الله فيها. وإن علمه مهما بلغ لا يعد شيئا إلى جانب ما غاب عنه، فأكثر الحقائق وضوحا تبطن الكثير من الأسرار، ولا يعلم كلّ ما في الكون الا خالق الكون، فهو وحده الذي

---

(١) التفسير الكاشف لمغنية، ١٩٤/١.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٨، الأمثال للسبحاني ص ٢٦٨ وينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٩/ ٢١٤، الأمثل للشيرازي: ١٨/ ٣٢٦.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٢٥/٢٨، التبيان للطوسي: ٥/١٠، الوجيز للواحدي: ١٠٩٦/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٤٣٢/٥، مدارك التنزيل للنسفي: ٢٤٥/٤.

(٤) القرآن العظيم لابن كثير، ٣٨٩/٤.

يتساوى لديه السر والعلن، والغائب والشاهد وما أوتيتم من العلم الا قليلا. وإذ يفترض فرضاً ما فإنّه يصحّحه في ضوء ما يكتشفُ من حقائق في ذاك النظام. فمهمة عالم النبات عند تفسيره لعمليات النسغ الصاعد والنازل والتركيب الضوئي هي ملاحظة هذه الفعاليات ثمّ ترجمتها بصياغةٍ علميةٍ. وبالتالي فهو يفسّر ظواهرها هذه ضمن تلك القوانين وما فيها من نظامٍ آلهي محكمٍ. فالخضوع للنظام القرآني في هذا المنهج لا يعني الاعتراف به وحسب، بل يعني أنّ على الباحث أن يكون تابعاً للقرآن لا أن يكون هو قائداً له. "(فالقول في النبات كالقول في الحيوان)، أما أنه كالحيوان فذلك من حيث أن له نفسا وجوهرا وحرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة، وكلها محصورة في مكان وفي زمان، فلا ينقصه إلا العقل الذي خصصنا به القسم الشريف من الحيوان، وأعني به الإنسان، إذ يقول ما معناه أن النبات فيه ما في الحيوان، ففي النبات الورق والثمر واللحاء كما أن في الحيوان العظام والعروق واللحم وغير ذلك، مما يستلزم أن نخص الحيوان بالنفس وحدها أوبالنفس والعقل معا، ولا نجعل هذه الصفة للنبات".[١]

التمثيل الأول: تشبيه المنفق بماله بالحبة النابتة

-قال تعالى:﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴾.[٢]

بدأ السبحاني تفسير الآيات قائلاً: "وعد سبحانه في غير واحد من الآيات بالجزاء المضاعف، قال سبحانه:﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾،[٣] وهذا ولأجل تقريب هذا الأمر أتى بالتمثيل الآتي وهو: إن مثل الإنفاق في سبيل الله كمثل حبة أنبتت ساقا يتشعب منها سبعة شعب خرج من كل شعبة سنبلة فيها مائة حبة فصارت الحبة سبعمائة حبة، بمضاعفة الله لها، ولا يخفى أن هذا التمثيل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعة، فإن في هذه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة يمليها الله(ﷻ)

(١) مستدركات أعيان الشعية لحسن الأمين، ١٠٩/٦.

(٢) سورة البقرة، الآيات / ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣.

(٣) سورة البقرة، الآية /٢٤٥.

لأصحابها كما يملي لمن بذر في الأرض الطيبة".[١] ثم أضاف السبحاني قائلاً وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٢]: "ظاهر الآية أن المشبه هو المنفق، والمشبه به هو الحبة المتبدلة إلى سبعمائة حبة"،[٣] "شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله سواء كان المراد به الجهاد أم جميع سبل الخير من كل بر بمن بذر بذرا فأنبتت كل حبة سبع سنابل اشتملت كل سنبلة على مائة حبة"،[٤] ثم ذكر السبحاني: إن "التنزيل في الواقع بين أحد **الأمرين:**

أ. **تشبيه المنفق بزارع الحبة.**

ب. **تشبيه الإنفاق بالحبة المزروعة.** ففي الآية أحد التقديرين"،[٥] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٦]: "لابد من تقدير حذف مضاف، أي: مثل نفقة (الذين ينفقون): (كمثل حبة)، أو مثلهم كمثل باذر حبة، والمنبت هو الله ولكن الحبة لما كانت سببا أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء".[٧] ومنهم من قال: "ليس هناك أي دليل على وجود الحذف والتقدير في هذه الآية، بل إن تشبيه المنفقين بحبات كثيرة البركة تشبيه رائع وعميق وكأن القرآن يريد أن يقول: إن عمل كل إنسان انعكاس لوجوده، وكلما اتسع العمل اتسع في الواقع وجود ذلك الإنسان".[٨]

وترجـــح البـــاحثة القول الثاني (تشبيه الإنفاق بالحبة المزروعة): "لأن الَّذين ينفقون لا

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٠٩، الأمثال للسبحاني، ص١٠٩ وينظر: جامع البيان للطبري: ٨٤/٣، القرآن العظيم لأبي حاتم: ٤٦١/٢، التبيان للطوسي: ٣٣١/٢.

(٢) ينظر: التبيان للطوسي: ٣٣١/٢، الوجيز للواحدي: ١٨٧/١، مجمع البيان للطبرسي: ١٧٩/٢، آلاء الرحمن للبلاغي: ٢٣٣/١، مقتنيات الدرر للحائري: ١٢٣/٢، الوسيط للطنطاوي: ٦٠٢/١، مفاهيم القرآن: ٩/ ١١٠، الأمثال للسبحاني، ص ١١٠.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٠، الأمثال للسبحاني، ص١١٠ وينظر: التبيان للطوسي: ٣٣١/٢، الوجيز للواحدي: ١٨٧/١، مجمع البيان للطبرسي: ١٧٩/٢، آلاء الرحمن للبلاغي: ٢٣٣/١، مقتنيات الدرر للحائري: ١٢٣/٢.

(٤) الامثال لابن قيم، ص٥٠ وينظر: جواهر الحسان للثعالبي: ٥١٥/١، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤١٦/١.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٠، الأمثال للسبحاني، ص١١٠.

(٦) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ٢٥٨/٢، الكشاف للزمخشري: ١/ ٣٩٣، مفاتيح الغيب للرازي: ٤٧/٧، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٣٠٢/٣، زبدة التفاسيرلفتح الله الكاشاني: ٤١٦/١، كنز الدقائق للمشهدي: ٤٣٥/٢، روح المعاني للآلوسي: ٣٢/٣.

(٧) جوامع الجامع للطبرسي، ٢٤٢/١ وينظر: روح المعاني للآلوسي: ٣/ ٣٢، الوسيط للطنطاوي: ٦٠٣/١، الالهيات للسبحاني: ص ٣٩٢، مفاهيم القرآن للسبحاني: ٤٨/١٠.

(٨) الأمثل للشيرازي، ٢٩٢/٢.

يشبهون الحبة ولا يشبه الحيوان بالجماد بل نفقاتهم تشبه الحبّة لزارع زرعها في أرض عامرة".[١]

رد السبحاني على أشكالية طرحت وهي: كيف ضرب اللَّه مثلا بحبة تنتج هذا الانتاج، مع العلم بأنه لا وجود لها؟.[٢] إذ قال: "إن ما ذكره القرآن من التمثيل ليس أمرا وهميا وفرضا خياليا بل هو أمر ممكن واقع، بل ربما يتجاوز هذا العدد، فقد حكى لي بعض الزراع أنه جنى من ساق واحد ذات سنابل متعددة تسعمائة حبة، ولا غرو في ذلك فإنه سبحانه هو القابض والباسط"،[٣] "بل هو موجود في الدخن والذرة وغيرهما، وربما فرخت ساق البرة في الأراضي القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ، ولو لم يوجد لكان صحيحا على سبيل الفرض والتقدير"،[٤] "لأنهم قاسوا الزراعة من حيث هي على الزراعة في العصر الذي عاشوا فيه، حيث لا وسيلة إليها سوى الثور والحمار، والمعول والمسحاة، ولو كانوا في هذا العصر لم يروا في مثال اللَّه أية غرابة بعد ان دخل العلم إلى كل شيء، واستعملت أدواته في الزراعة، وفي كل مظهر من مظاهر الحياة".[٥] ثم حدد السبحاني الشروط التي فرضها سبحانه على المنفق في سبيل الله الطالب رضاه ومغفرته بالقول: "إن لا يتبع ما أنفقه (بالمن والأذى)[٦]، فهؤلاء – أي المنفقون – غير المتبعين إنفاقهم بالمن والأذى ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾".[٧] إن ما يثير الاهتمام أكثر في هذه الآية هو أن القرآن لا يعتبر رأسمال الإنسان في الحياة مقتصرا على رأس المال المادي، بل يحسب حساب رؤوس الأموال المعنوية والاجتماعية أيضا، إن من يعطي شيئا لأحد ويمن عليه به أو يقوم بما يثير الألم في نفس المعطى له ويجرح عواطفه فإنه لا يكون قد أعطاه شيئا في الواقع، لم ينل أمثال هؤلاء الأشخاص أي ثواب على إنفاقهم هذا فهو أمر طبيعي وعادل.[٨]

ثم ذكر السبحاني الإرشادات التي أرشد سبحانه المعوزين بأن يردوا الفقراء إذا سألوهم بأحد نحوين:

---

(١) مقتنيات الدرر للحائري: ١٢٣/٢ وينظر: الميزان للطباطبائي: ٣٨٥/٢.

(٢) ينظر: التفسير الكاشف لمغنية: ٤١٢/١، الميزان للطباطبائي: ٣٨٧/٢.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٠، الأمثال للسبحاني، ص١١٠.

(٤) الكشاف للزمخشري، ١/ ٣٩٣.

(٥) التفسير الكاشف لمغنية، ٤١٢/١.

(٦) للمزيد مراجعة الفصل الثاني / المطلب الثاني / ص ١١١.

(٧) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٠، الأمثال للسبحاني، ص١١٠.

(٨) ينظر: الأمثل للشيرازي: ٢٩٦/٢.

أ. "﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ كأن يتلطف بالكلام في رد السائلين والاعتذار منهم والدعاء لهم.
ب. ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ لما يصدر منهم من إلحاف أو إزعاج في المسألة.

فالمواجهة بهاتين الصورتين ﴿ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾"،(١) "رد جميل وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول، أو نيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل، أو عفو من جهة السائل"،(٢) دعاء الرجل لأخيه المسلم، وستر منه عليه لما علم من خلته وسوء حالته.(٣)

ختم السبحاني تفسير الآيات بالقول: "المغني هو الله سبحانه، إذ يقول: ﴿ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ ﴾، أي يغني السائل من سعته، ولكنه لأجل مصالحكم في الدنيا والآخرة استقرضكم في الصدقة وإعطاء السائل. ﴿ حَلِيمٌ ﴾ فعليكم يا عباد الله بالحلم والغفران لما يبدر من السائل"،(٤) مستغن عن صدقاتكم لا يعجل بالعقوبة إذا منعتم الصدقة.(٥)

تخلص الباحثة: إنه لو علم إنسان يطلب الزيادة والربح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبعمائة حبة لرأيناه سارع في البدار وأكثر من حبها ولبذل الجهد وترك التقصير فيه مع المحافظة على شروطها وإرشادتها ولم يخل بفقرة منها فكذلك ينبغي لمن طلب الأجر في الآخرة عند الله أن لا يتركه إذا علم أنه يحصل له على الواحدة (من عمل الخير و البر) سبعمائة.

التمثيل الثاني: تشبيه المنفق بماله بالجنة الرابية

-قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.(٦)

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٠ -١١١، الأمثال للسبحاني، ص١١٠ -١١١ وينظر: الآء الرحمن للبلاغي: ٢٣٤/١، مقتنيات الدرر للحائري: ١٢٥/٢.

(٢) جوامع الجامع للطبرسي: ٢٤٢/١ وينظر: الكشاف للزمخشري: ١/ ٣٩٣.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ٨٩/٣، تفسير القرآن الكريم لشبر: ص٨٠، الميزان للطباطبائي: ٣٨٩/٢.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١١، الأمثال للسبحاني، ص١١١ وينظر: الآء الرحمن للبلاغي: ٢٣٤/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٥١/٧.

(٥) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٢٦٩/١وينظر: الكشاف للزمخشري: ١/ ٣٩٣، مفاتيح الغيب للرازي: ٥١/٧.

(٦) سورة البقرة، الآية / ٢٦٥.

وضح السبحاني تفسير الآية بعد المعنى اللغوي والتعريف الاصطلاحي لبعض مفرداتها[١] إذ قال: "التمثيل في هذه الآية إذ إنها تشبه عمل المنفق لمرضاة الله تبارك وتعالى بجنة خضراء يانعة تقع على أرض مرتفعة خصبة تستقبل النسيم الطلق والمطر الكثير النافع، وقيد المشبه به ببستان مرتفع عن الأرض، لأن تأثير الشمس والهواء فيه أكمل فيكون أحسن منظرا وأذكى ثمرا، أما الأماكن المنخفضة التي لا تصيبها الشمس في الغالب إلا قليلا فلا تكون كذلك"،[٢] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٣]: "كمثل بستان لمرتفع من الأرض، وإنما خص الربوة لأن نبتها يكون أحسن، وريعها أكثر من المستفل الذي يسيل الماء إليه، ويجتمع فيه، فلا يطيب ريعه"،[٤] "ضرب الله مثلا للقلب العامر بالإيمان الذي ينفق ماله ابتغاء مرضات الله كبستان على ربوة من الارض الطيبة".[٥] وذهب آخرون الى إن المراد بالربوة الأرض المستوية الجيدة التربة بحيث تربو بنزول المطر عليها وتنمو، إذ قال سبحانه:﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾.[٦] ويؤيده أن المثل مقابل الصفوان الذي لا يؤثر فيه المطر.[٧] ثم أضاف السبحاني قائلاً: "وعلى أي حال فهذا النوع من الأرض إن أصابها وابل أتت أكلها ضعفين فكان ثمرها مثلي ما كانت تثمر في العادة، وإن لم يصبها وابل بل أصابها الطل تعطي أكلها حسب ما يترقب منها"،[٨] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٩]: كمثل بستان بمكان مرتفع وخصها لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرا أصابها وابل فآتت ثمرتها مثلي ما كانت تثمر قبل بسبب الوابل فإن لم يصبها وابل فمطر صغير القطر يكفيها لكرم

---

(١) "ربوة" في الاصطلاح عرفها السبحاني بأنها: "التل المرتفع". مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٦."الطل" في اللغة: المطر الخفيف، أطلت السماء فهي مطلة. وروضة طلة ندية.ينظر: العين للفراهيدي: ٤٠٤/٧، مادة (طل).

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٦، الأمثال للسبحاني، ص١١٦.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ٩٩/٣، معاني القرآن للنحاس: ٢٩٢/١، الكشف والبيان للثعلبي: ٢٦٣/٢، التبيان للطوسي: ٣٣٩/٢، الوجيز للواحدي: ١٨٨/١، جوامع الجامع للطبرسي: ٢٤٤/١، البرهان للبحراني: ٥٤٣/١.

(٤) مجمع البيان للطبرسي، ١٨٧/٢ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٢٠/١.

(٥) التفسير المقارن للناصري، ١/ ٣٥٢ –٣٥٣.

(٦) سورة الحج، من الآية / ٥.

(٧) ينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ٥٢٠/٢، بحر العلوم للسمرقندي: ٢٠٢/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٥٩/٧.

(٨) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٧، الأمثال للسبحاني، ص١١٧.

(٩) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٠١/٣، معاني القرآن للنحاس: ٢٩٣/١، بحر العلوم للسمرقندي: ٢٠٢/١، الكشف والبيان للثعلبي: ٢٦٣/٢، التبيان للطوسي: ٣٣٨/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٢٧٠/١، جوامع الجامع للطبرسي: ٢٤٣/١.

منبتها.[١] وذكر الرازي معنى آخر فضلاً عن المعنى المذكور إذ قال: "معنى الآية إن لم يصبها وابل حتى تضاعف ثمرتها فلا بد وأن يصيبها طل يعطي ثمراً دون ثمر الوابل، فهي على جميع الأحوال لا تخلوا من أن تثمر، فكذلك من أخرج صدقة لوجه الله تعالى لا يضيع كسبه قليلاً كان أو كثيراً".[٢]

ختم السبحاني تفسير الآية قائلاً: "الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله أشبه بتلك الجنة ذات الحاصل الوافر المفيد والثمين. إذ إن قوله سبحانه:﴿ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ بيان لدوافع الإنفاق وحواجزه وهو ابتغاء مرضاة الله أولا، وتقوية روح الإيمان في القلب ثانيا، ولعل السر في دخول" من" على ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ مع كونه مفعولا لقوله ﴿وَتَثۡبِيتٗا ﴾ لبيان أن هذا المنفق ينفق من نفس قد روضها وثبتها في الجملة على الطاعة حتى سمحت لله بالمال الغزير فهو يجعل من مقاصده في الإنفاق، تثبيتها على طاعة الله وابتغاء مرضاته في المستقبل".[٣]

تخلص الباحثة: إن الإنفاق المثالي يركز على دعائم الإخلاص والتقرب الى الله تعالى، وتثبيت النفس على الإيمان. وهؤلاء بذلوا المال الذي هو أخو الروح، وبذله أشق على النفس من أكثر العبادات الشاقة كالصوم أو الحج ولكنه أنفق بإخلاص ويقين وبصيرة في العاقبة الممثلة لذلك الإنفاق المذكور في الآية كبستان على ربوة من الأرض الطيبة فأصابها مطر غزير فزكت ونمت فإن لم يصبها ذلك المطر فأن طيب أرضها يكفيها رذاذ المطر الخفيف، فكذلك إحسان المؤمن المؤدب بآداب الإسلام فإنفاقه وإحسانه محفوظ يؤتي ثمره كل حين ضعفين، والقليل لا يضيع عند الله فهي في جميع الاحوال لا تخلو من الثمرة.

<u>التمثيل الثالث: تشبيه إنفاق الكافرين بالجنة المحترقة</u>

-قـــال تعالى:﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾.[٤]

---

(١) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ١٣٠/١، الكشاف للزمخشري: ٣٩٥/١.
(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ٧ /٦١.
(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٧، الأمثال للسبحاني، ص١١٧ وينظر: الآء الرحمن للبلاغي: ٢٣٥/١.
(٤) سورة البقرة، الآية /٢٦٦.

بدأ السبحاني تفسير الآية بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفرداتها[١] إذ قال: "القرآن يذكر الكرم بثمره والنخل بشجره لا بثمره، وخص الأعاصير بما فيها نـار، وقـــال: ﴿ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾".[٢]

ثم ذكر السبحاني فيها احتمالات تذكرها الباحثة كالآتي:

أ. أن يكون المراد الرياح التي تكتسب الحرارة أثناء مرورها على الحرائق فتحمل معها النيران إلى مناطق نائية.[٣]

ب. العواصف التي تصاحبها الصواعق وتصيب الأرض وتحيلها إلى رماد.[٤]

ج. البرد الشديد الذي يطلق على كل ما يتلف الشيء ولو بتجفيف رطوبته، وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٥]

رجح السبحاني **أحد الأولين** إذ قال: "والمتعين أحد الأولين" ورفض الثالث إذ علل ذلك بالقول: " وإلا لكان له سبحانه أن يقول كمثل ريح صر وهو البرد الشديد، قال سبحانه في صدقات الكفار ونفقاتهم في الدنيا:﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٦]".[٧] ثم أضاف قائلاً: نعم ربما يفسر الصر بالسموم الحارة القاتلة، وهو قول القرطبي.[٨] "وعنـــدئذ تتحد الآيتان

---

(١) "أيود" في اللغة: من ود الشئ: أحبه. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٧٥/٦، مادة (وَدَّ) و"الجنة" في اللغة: هي الشجر الكثير الملتف كالبستان. ينظر: الصحاح للجوهري: ٢٠٩٤/٥، مادة (جنة). وفي الاصطلاح عرفها السبحاني بأنها: "تجن الأرض وتسترها وتقيها من ضوء الشمس ونحوه". مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٨. و"الأعناب" في اللغة: جمع عنب وهو ثمر الكرم. ينظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي: ١٠٨/١، مادة (عنب). و"الأعصار" في اللغة: ريح عاصفة تستدير في الأرض ثم تنعكس عنها إلى السماء حاملة معها الغبار كهيئة العمود، جمعه أعاصير، وخص الأعاصير بما فيها نار. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٣٤٣/٤، مادة (عصر).

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٨، الأمثال للسبحاني، ص١١٨.

(٣) ينظر: الأمثل للشيرازي: ٣٠٧/٢، مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٨ – ١١٩، الأمثال للسبحاني، ص١١٨ – ١١٩.

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري: ١/ ٣٩٥.

(٥) ينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ١٧٢/١١.

(٦) سورة آل عمران، الآية / ١١٧.

(٧) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٩، الأمثال للسبحاني، ص١١٩.

(٨) ينظر: جامع البيان للطبري، ٤٠/١٤ ، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٢٥٩/١، التفسير الحـــديث لدروزة: ٦/ ٤٨١، مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٩، الأمثال للسبحاني، ص١١٩.

في المعنى".[١]

خلص السبحاني الى مقصود الآية إذ قال: "المقصود هو نزول البلاء على هذه الجنة الذي يودي إلى إبادتها بسرعة".[٢] طرح السبحاني سؤالاً قال فيه: "إنه سبحانه بينما يقول:﴿ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾الظاهر في كون الجنة محفوفة بهما، يقول أيضا:﴿ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾، فكيف يمكن الجمع بين الأمرين؟ فأجاب عنه في الوقت نفسه وهو ما ذهب اليه النسفي إذ قال: "أن النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها نفعا خصهما بالذكر وجعل الجنة منهما، وإن كانت محتوية على سائر الأشجار تغليبا لهما على غيرهما"،[٣] ومنهم من قال: ان هذين النوعين من الثمار كانا هما أعظم ثمار الحجاز وما قرب منها، فكانت النخيل لأهل المدينة، والأعناب لأهل الطائف؛[٤] لأنها أكثر فواكه العرب.[٥]

وتذهب الباحثة: إن وصف هذه الجنة تكون محتوية على النخيل والأعناب، ولا تكون جنة من غير النخيل والأعناب وإنما يطلق عليها بستان. وذكرت بهذين النوعين بسبب كثرتهما، صار كأن الجنة إنما تكون من النخيل والأعناب، "وخص النخيل والأعناب بالذكر لأنهما أشرف الفواكه ولأنهما أحسن الفواكه مناظر حين تكون باقية على أشجارها".[٦]

ختم السبحاني تفسير الآية بتوضيح التمثيل وأركانه إذ قال: "وأما التمثيل فيتركب من مشبه ومشبه به. أما المشبه فهو عبارة عمن يعمل عملا صالحا ثم يردفه بالسيئة، عندئذ يكون المراد من ينفق ويتبع عمله بالمن والأذى، وأما المشبه به فهو عبارة عن رجل طاعن في السن لحقته الشيخوخة وله أولاد صغار غير قادرين على العمل وله جنة محفوفة بالنخيل والأعناب تجري من تحتها الأنهار وله من كل الثمرات، وقد عقد على تلك الجنة آمالا كبيرة، وفجأة هبت عاصفة محرقة فأحرقتها وأبادتها عن بكرة أبيها فكيف يكون حال هذا الرجل في الحزن والحسرة والخيبة والحرمان بعد ما تلاشت آماله، فالمنفق في سبيل الله الذي هيأ لنفسه أجرا وثوابا أخرويا عقد به آماله، فإذا به يتبع عمله بالمعاصي، فقد سلط على أعماله الحسنة تلك أعاصير محرقة

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٩، الأمثال للسبحاني، ص١١٩.

(٢) المصدران نفسهما.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١١٩، الأمثال للسبحاني، ص١١٩ وينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ١٣٠/١، الكشاف للزمخشري: ١/ ٣٩٥.

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٨/١٨، الكشف والبيان للثعلبي: ٤٤/٧.

(٥) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٤٦٨/٣، معالم التنزيل للبغوي: ٣٠٦/٣.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٦٣/٧.

تبيد كل ما عقد عليه آماله"[١] وهذا ما ذهب اليه الزمخشري إذ قال: "ضربت الآية مثلا لرجل غني يعمل الحسنات، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها".[٢] ومنهم من خص هذا التمثيل للمنفق المرائي إذ قال: "فكذلك المنفق ماله رياء الناس، أطفأ الله نوره، وأذهب بهاء عمله، وأحبط أجره حتى لقيه، وعاد إليه أحوج ما كان إلى عمله، حين لا مستعتب له ولا إقالة من ذنوبه ولا توبة، واضمحل عمله كما احترقت الجنة التي وصف جل ثناؤه صفتها عند كبر صاحبها وطفولة ذريته أحوج ما كان إليها فبطلت منافعها عنه. وهذا المثل الذي ضربه الله للمنفقين أموالهم رياء الناس"،[٣] "و مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغي بها وجه الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة لا ثواب عليها فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبهج الجنان وأبهاها".[٤]

تخلص الباحثة: إستثار الله بهذا المثل في الذين أمنوا رغبة المحافظة على ما غنموه من أجر عظيم، إذا هم أنفقوا أو عملوا عملاً صالحا أخر، فضرب الله لهم هذا المثل في تمثيل عظم الحسرة بسلب أثار وثواب تلك الاعمال عند شدة الحاجة اليه في يوم القيامة مع عظم قدره ومنفعته فوجده محبطاً ولا يستطيع لذلك شيئاً فيبقى لا محالة في أعظم غم، وفي أكمل حسرة وحيرة.

التمثيل الرابع: الكلمة الطيبة كشجرة طيبة

-قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.[٥]

---

(١) مفاهيم القرآن، ١٢٠/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٢٠ وينظر: أمثال القرآن لحنبكة: ص٩٠، التفسير المقارن للناصري: ١/ ٣٥٤.

(٢) الكشاف للزمخشري، ١/ ٢٩٩.

(٣) جامع البيان للطبري: ١٠٤/٣ وينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ٢٦٥/٢، معالم التنزيل للبغوي: ٢٥٢/١، الامثال لأبن شريف: ص٣٤.

(٤) جوامع الجامع للطبرسي، ٢٤٤/١ وينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٢٧٧/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٦٢/٧، الأمثال لابن قيم: ص٥١، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٢١/١.

(٥) سورة أبراهيم، الآيتان /٢٤، ٢٥.

بدأ السبحاني تفسير الآيات قائلاً: "إنه سبحانه تبارك وتعالى مثل للحق والباطل، أو الكفر والإيمان بتمثيلات مختلفة، إذ جاء التمثيل في هذه الآية بأن مثل الإيمان كشـــجرة"،[١] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٢]: "الايمان به جل ثناؤه"،[٣] "أثبتها الله في قلوب أودائه".[٤] ومنهم من قال انها تمثيل للرجل المؤمن.[٥] ثم ذكر السبحاني صفات هذه الشجرة قائلاً: "لها الصفات الآتية:

أ. **إنها طيبة:** أي طاهرة ونظيفة في مقابل الخبيثة، فإن الشجر على قسمين: منها ما هو طيب الثمار كالتين والنخل والزيتون وغيرها، ومنها ما هو خبيث الثمار كالحنظل.[٦]

ب. **أصلها ثابت:** أي لها جذور راسخة في أعماق الأرض لا تزعزعها العواصف الهوجاء ولا الأمواج العاتية،[٧] "باق آمن الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء وذلك لأن الشيء الطيب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء، فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه، أما إذا علم من حاله أنه باق دائم لا يزول ولا ينقضي فإنه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به".[٨]

ج. **فرعها في السماء:** أي لها أغصان مرتفعة، فهي بجذورها الراسخة تحتفظ بأصلها وبفروعها في السماء وتنتفع من نور الشمس والهواء والماء. وهذه الفروع والأغصان من الكثرة بحيث لا يزاحم أحدها الآخر، كما أنها لا تتلوث بما على سطح الأرض،[٩] "وهو أيضاً صفة كمال لها لأنها متى كانت مرتفعة كانت بعيدة عن عفونة الأرض وقاذورات الأبنية فكانت ثمرتها نقية خالصة عن جميع الشوائب.[١٠]

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٦٤، الأمثال للسبحاني، ص١٦٤.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٦٤، الأمثال للسبحاني، ص١٦٤ وينظر: جامع البيان للطبري: ٢٦٦/١٣، حقائق التفسير للسلمي: ٣٤٤/١، تفسير القرآن للسمعاني: ١١٤/٣، المنتخب والنكت لابن أدريس: ٢/ ١٧٨، التفسير المقارن للناصري: ٤/ ٣٨٩.

(٣) جامع البيان للطبري، ٢٦٦/١٣.

(٤) حقائق التفسير للسلمي، ٣٤٤/١.

(٥) ينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ٢٢٤١/٧، معاني القرآن للنحاس: ٥٢٦/٣، أمثال الحديث للرامهرمزي: ص٧٠.

(٦) ينظر: سنن الترمذي أو (الجامع الكبير)، لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٨٩٢ هـ)، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧ م: ٣٥٨/٤، (باب تفسير القرآن عن النبي.....)، (من سورة أبراهيم)، مسند أبي يعلى للموصلي: ١٨٢/٧، رقم الحديث (٤١٦٥)، الأمثال في الحديث للأصبهاني: ٢٤٢/٢، رقم الحديث (٣٥٧)، تفسير القرآن للصنعاني: ٣٤٢/٢.

(٧) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ١١٤/٣، مدارك التنزيل للنسفي: ٢٢٩/٢، الكشاف للزمخشري: ٢/ ٣٧٦.

(٨) مفاتيح الغيب للرازي: ١١٧/١٩.

(٩) ينظر: المحرر الوجيز لأبن عطية: ٣٣٥/٣، مفاتيح الغيب للرازي: ١١٦/١٩، الوسيط للطنطاوي: ٥٥١/٧.

(١٠) مفاتيح الغيب للرازي، ١١٦/١٩، روح المعاني للآلوسي، ١٣/ ٢١٥.

د. **تؤتي أكلها كل حين:** أي في كل فصل وزمان، لا بمعنى كل يوم وكل شهر حتى يقال بأنه ليس على وجه البسيطة شجرة مثمرة من هذا النوع. وبعبارة أخرى: إن مثل هذه الشجرة لا تبخس في عطائها، بل هي دائمة الأثمار في كل وقت وقته الله لإثمارها"،[١] "تطعم ما يؤكل منها من ثمرها، كل حين بإذن ربها"،[٢] "تعطي ثمارها بإذن ربها: بإرادة وقدرة خالقها".[٣]

ثم أضاف السبحاني موضحا أركان التشبيه إذ قال: "هذا حال المشبه به، وأما حال المشبه، هو الاعتقاد الحق الثابت، أعني التوحيد والعدل وما يلازمهما من القول بالمعاد. فهذه عقيدة ثابتة طيبة لا يشوبها شيء من الشرك والضلال ولها ثمارها في الحياتين. والذي يدل على ذلك هو أنه سبحانه ذكر في الآية التالية، قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾،[٤] وهذا القول الثابت عبارة عن العقيدة الصالحة التي تمثلها كلمة التوحيد والشهادة بالمعاد وغيرهما"[٥] "ان المراد بالممثل هو كلمة التوحيد وشهادة ان لا إله إلا الله حق شهادته. فالقول بالوحدانية والاستقامة عليه، هو حق القول الذي له أصل ثابت محفوظ عن كل تغير وزوال وبطلان، وهو الله عز اسمه أو أرض الحقائق، وله فروع نشأت ونمت من غير عائق يعوقه عن ذلك من عقائد حقة فرعية وأخلاق زاكية وأعمال صالحة يحيا بها المؤمن حياته الطيبة ويعمر بها العالم الإنساني حق عمارته، وهي التي تلائم سير النظام الكوني الذي أدى إلى ظهور الإنسان بوجوده المنظور على الاعتقاد الحق والعمل الصالح".[٦]

وأغلب المفسرين قال: إنها كلمة التوحيد هي قول لا إله إلا الله.[٧] وقال السبحاني: "إن ما ذكره أغلب المفسرين بأن المراد كلمة التوحيد لا يخالف ما ذكرنا، لأن المراد هو التمثل

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٦٥، الأمثال للسبحاني، ص١٦٥ وينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٢٤١/٢، مدارك التنزيل للنسفي: ٢٣٠/٢، الكشاف للزمخشري: ٢/ ٣٧٦.

(٢) جامع البيان للطبري، ٢٦٦/١٣.

(٣) التفسير المقارن للناصري، ٤/ ٣٨٩.

(٤) سورة أبراهيم، من الآية /٢٧.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٦٥، الأمثال للسبحاني، ص١٦٥.

(٦) الميزان للطباطبائي، ١٢/ ٥٢.

(٧) ينظر: معاني القرآن للنحاس: ٣/ ٥٢٧، بحر العلوم للسمرقندي: ٢٤١/٢، الكشف والبيان للثعلبي: ٣١٤/٥، الوجيز للواحدي: ٥٨١/١، مجمع الامثال للميداني: ٥/١، جوامع الجامع للطبرسي: ٢٨١/٢، مفاتيح الغيب للرازي: ١٢٠/١٩، الأمثال لابن قيم: ص٢٦.

بكلمة التوحيد لا التلفظ بها وحده حتى أن قوله سبحانه:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١] يراد منه التحقق بقوله ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ لا التلفظ بها، إذ أشار سبحانه إلى العقيدة الصحيحة، بقوله:﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾،[٢] فالكلم الطيب هو العقيدة، والعمل الصالح يرفع تلك العقيدة. وبذلك يعلم أن كل عقيدة صحيحة لها جذور في القلوب، ولها فروع وأغصان في حياة الإنسان ولهذه الفروع ثمار، فالاعتقاد بالواجب العادل الحكيم المعيد للإنسان بعد الموت يورث التثبت في الحياة والاجتناب عن الظلم والعبث والفساد إلى غير ذلك من العقائد الصالحة التي لها فروع".[٣] "هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقها ومراعاتها حق رعايتها".[٤]

ترى الباحثة: إن النظر إلى سعة مفهوم ومحتوى الكلمة الطيبة أستطيع أن أقول: إنها تشمل مصاديق كثيرة في معناها الواسع إذ أنها تشمل كل كلمة تنفع الناس، وتعود عليهم بالخير والصلاح، سواء أكانت الكلمة للدين والشرع، أم للعلم والفلسفة، أم للأدب والفن. والشجرة" أصل الايمان وأغصانها اتباع الامر واجتناب النهى وورقها ما يهم به المؤمن من الخير وثمرها عمل الطاعات وحلاوة الثمر جنى الثمرة وغاية كماله تناهى نضج الثمرة وبه تظهر حلاوتها".[٥]

ثم ختم السبحاني التفسير قائلاً: "إنه سبحانه ختم الآية بقوله: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾، أي ليرجعوا إلى فطرتهم فيتحققوا من أن السعادة رهن الاعتقاد الصحيح المثمر في الحياتين"،[٦] "إنّ في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنّه تصوير للمعاني وإدناء لها من الحسّ".[٧]

---

(١) سورة الاحقاف، الآية / ١٣.

(٢) سورة فاطر، من الآية / ١٠.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٦٦، الأمثال للسبحاني، ص١٦٦.

(٤) الأمثال لابن قيم، ص٣٦.

(٥) فتح الباري لابن حجر، ٥٧/١، كتاب (الإيمان)، باب (حلاوة الايمان).

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٦٦، الأمثال للسبحاني، ص١٦٦.

(٧) زبدة التفاسير لفتح الله، ٤٨٢/٣.

التمثيل الخامس: كلمة خبيثة كشجرة خبيثة

-قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾.[١]

بدأ السبحاني تفسير الآية قائلاً: "مثل سبحانه تبارك وتعالى للعقيدة الصالحة بالمثل السابق ومقتضى الحال أن يمثل للعقيدة الباطلة بضد المثل السابق، فهي على طرف النقيض مما ذكر في الآية السابقة".[٢] فسر السبحاني (الكلمة الخبيثة) بالكفر، وهذا ماذهب اليه أغلب المفسرين.[٣] ومثلها بالشجرة التي لها أوصاف ذكرها مفسرون آخرون على النحو الآتي:

أ. "**إنها خبيثة** مقابلة الطيبة، أي لا يطيب ثمارها كشجرة الحنظل.[٤]

ب. **أجتثت من فوق الأرض:** في مقابل قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾[٥] وحقيقة الاجتثاث هي اقتلاع الشيء من أصله، أي اقتطعت واستؤصلت واقتلعت جذورها من الأرض،[٦] "أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها فإذا انقطع عنها السقي أوشكت أن تيبس".[٧]

ج. **ما لها من قرار:** "أي ليس لتلك الشجرة من ثبات، فالريح تنسفها وتذهب به، وبالتالي ليس لها فروع وأغصان أو ثمار".[٨] فكذلك الكفر ليس له أصل ولا حجة في الأرض ولا في السماء.[٩]

وتذهب الباحثة إلى ما ذهب اليه مفسرون عدة: إن الكلمة الخبيثة ليس لها في الأرض

---

(١) سورة أبراهيم، الآية / ٢٦.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٦٨، الأمثال للسبحاني، ص١٦٨.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٧٦/١٣، معاني القرآن للنحاس: ٥٢٧/٣، الكشف والبيان للثعلبي: ٣١٦/٥، التبيان للطوسي: ٦/ ٢٩٢، جوامع الجامع للطبرسي: ٢٨٢/٢، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٦٨، الأمثال للسبحاني، ص١٦٨.

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٧٦/١٣، بحر العلوم للسمرقندي: ٢٤٢/٢، امثال الحديث للرامهرمزي: ص٧٢، الكشف والبيان للثعلبي: ٣١٦/٥، معالم التنزيل للبغوي: ٣٣/٣، مدارك التنزيل للنسفي: ٢٣٠/٢.

(٥) سورة أبراهيم، من الآية / ٢٤.

(٦) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٢/ ٣٧٧، زاد المسير لابن الجوزي: ٤/ ٢٦٤، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٣٦١/٩، فتح القدير للشوكاني: ١٠٦/٣.

(٧) زاد المسير لابن الجوزي، ص٣٨.

(٨) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٦٨، الأمثال للسبحاني، ص١٦٨.

(٩) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي، ٢٤٢/٢ ، معالم التنزيل للبغوي: ٣٣/٣.

مستقرا ولا في السماء مصعدا ولكن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها يوم القيامة.[١]

ختم السبحاني التفسير موضحا به أركان التشبيه قائلاً: "هذا هو المشبه به، وأما المشبه فهو عبارة عن العقيدة الضالة الكافرة التي لا تعتمد على برهان ولا دليل، يزعزعها أدنى شبهة وشك. فينطبق صدر الآية التالية على التمثيل الأول، وذيله على التمثيل التالي، أعنـــي: قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾.[٢] هذا هو المنطبق على التمثيل الأول وأما المنطبق على التمثيل الثاني فهو قوله:﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[٣] أي يضل أهل الكتاب بحرمانهم من الهداية، وذلك لأجل قصورهم في الاستفادة عن الهداية العامة التي هي متوفرة لكل إنسان، أعني:الفطرة ودعوة الأنبياء. وقوله:﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ بمعنى أنه تعلقت مشيئته بتثبيت المؤمنين وتأييدهم وإضلال الظالمين وخذلانهم، ولم تكن مشيئته عبثا وإنما نابعة من حكمة بالغة"،[٤] "وبيد الله الهداية والاضلال، فلا تتكروا أيها الناس قدرته ولا اهتداء من كان منكم ضالا ولا ضلال من كان منكم مهتديا، فإن بيده تصريف خلقه وتقليب قلوبهم، يفعل فيها ما يشاء".[٥]

تخلص الباحثة: إن الشجرة الخبيثة هي الشهوات وأرضها النفوس وماؤها طول الأمل وأوراقها الكسل والتسويف وثمارها المعاصي واتباع الهوى، فمن اطلق لها العنان وصلت به الى النار.

<u>التمثيل السادس: تشبيه الحياة الدنيا وفنائها بالنبات</u>

-قال تعالى:﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.[٦]

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٧٨/١٣، الامثال في الحديث للأصبهاني: ٢٤٢/٢، رقم الحديث (٣٥٨)، الكشاف للزمخشري: ٢/ ٣٧٧، الأمثال لابن قيم: ص٤١.

(٢) سورة أبراهيم، من الآية / ٢٧.

(٣) السورة نفسها والآية.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٦٩، الأمثال للسبحاني، ص١٦٩.

(٥) جامع البيان للطبري، ١٣/ ٢٨٦.

(٦) سورة الكهف، الآية / ٤٥.

بدأ السبحاني تفسير الآية بعد التعريف اللغوي لبعـض مفـردات[١] الآيـة قائلاً: "هذا التمثيل يجسم فيها حال الحياة الدنيوية وعدم ثباتها بتمثيل رائع يتضمن نزول قطرات من السماء على الأراضي الخصبة المستعدة لنمو البذور الكامنة فيها، فعندئذ تبتدئ الحركة فيها بشقها التراب وإنباتها وانتفاعها من الشمس إلى أن تعود البذور باقات من الأزهار الرائعة، فربما يتخيل الإنسان بقاءها ودوامها، فإذا بالأعاصير والعواصف المدمرة تهب عليها فتصيرها أعشابا يابسة، وتبيدها عن بكرة أبيها وكأنها لم تكن موجودة قط. فتنثر الرياح رمادها إلى الأطراف، فهذا النوع من الحياة والموت يتكرر على طول السنة ويشاهده الإنسان بأم عينه، دون أن يعتبر بها، فهذا ما صيغ لأجله التمثيل"،[٢] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٣]: "شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والافناء بحال النبات يكون اخضر ثم يهج فتطيره الريح كأن لم يكن".[٤] "فشبّه الدنيا بهذا النبات في سرعة الفساد والهلاك".[٥] ومنهم من شبه الدنيا بالماء وحاله إذ قال: "شبّه الله تعالى الدنيا بالماء النازل من السماء فيختلط في النبات، وحينئذ يربو ذلك النبات ويهتز ويحسن منظره ثم إذا انقطع ذلك مدة جف ذلك النبات وصار هشيماً، وإذا صار النبات كذلك طيرته الرياح وذهبت بتلك الأجزاء إلى سائر الجوانب ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يبتهج به".[٦]

ذهب السبحاني الى ما ذهب اليه الطبرسي في تفسير الآية إذ قال: "يقول سبحانه: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ ﴾ على وجه يلتف بعضه ببعض، يروق الإنسان منظره، فلم يزل على تلك الحال إلى أن ينتقل إلى حالة لا نجد فيها غضاضة، وهذا ما يعبر عنه القرآن، بقوله: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا ﴾أي كثيرا مفتتا

---

(١) "الهشيم": ما يكسر ويحطم في يبس النبات. ينظر: العين للخليل الفراهيدي: ٤٠٥/٣، مادة (هشم)."تَذۡرُوهُ": من الذر والتذرية: تطيير الريح الأشياء الخفيفة في كل جهة.ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٢٨٢/١٤، مادة (ذرا).

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٩٨ – ١٩٩، الأمثال للسبحاني، ص١٩٨ –١٩٩.

(٣) ينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ٦٦/٣، معالم التنزيل للبغوي: ٣/ ١٦٤، مدارك التنزيل للنسفي: ١٦/٣، الكشاف للزمخشري: ٢/ ٤٨٦، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٣/ ٥٠٠.

(٤) مدارك التنزيل للنسفي، ١٦/٣، الكشاف للزمخشري، ٢/ ٤٨٦.

(٥) زبدة التفاسير لفتح الله، ١١٦/٤.

(٦) الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٣/٦ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٣٠/٢١، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٤١٢/١٠.

تذوره الرياح فتنقله من موضعه إلى موضع، فانقلاب الدنيا كانقلاب هذا النبات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾".(١)

ختم السبحاني تفسير الآية قائلاً: "إنه سبحانه يشبه المال والبنين بالورود والأزهار التي تظهر على النباتات ووجه الشبه هو طروء الزوال بسرعة عليها، فهكذا الأموال والبنون. وإنما هي زينة للحياة الدنيا، فإذا كان الأصل موقتا زائلا، فما ظنك بزينته، فلم يكتب الخلود لشيء مما يرجع إلى الدنيا، فالاعتماد على الأمر الزائل ليس أمرا صحيحا عقلائيا، نعم، الخلود للأعمال الصالحة بما لها من نتائج باهرة في الحياة الأخروية، قال سبحانه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدّٗا﴾(٢)".(٣)

تخلص الباحثة: في هذا المثل يبين حقيقة ما يملكه الانسان في حياته الدنيا من الأموال والأولاد (المتمثلة بالنبات الاخضر اليانع) وهي زخارف الحياة وزيناتها السريعة الزوال والفناء التي تتزين بها للإنسان فتلهيه عن ذكر ربه وتجذب وهمه إلى أن يخلد إليها ويعتمد عليها فيخيل إليه أنه يملكها ويقدر عليها حتى إذا طاف عليها طائف من الله سبحانه فنت وبادت ولم يبق للإنسان منها إلا كحلمة نائم وأمنية كاذبة.

---

(١) مجمع البيان للطبرسي، ٣٤٩/٦، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٩٩، الأمثال للسبحاني، ص ١٩٩.

(٢) سورة مريم، من الآية /٧٦.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٩٩، الأمثال للسبحاني، ص ١٩٩.

المبحث الثاني
ضرب المثل بالجمادات والظواهر الطبيعية

التمهيد:

إن المثل يعني تشبيه الحقائق العقلية بالأمور الحسية الملموسة، فمن جانب هناك أمور عقلية كثيرة لا يفهمها اكثر الناس، ومن جانب آخر، فإن الناس اعتادوا على المحسوسات والعينات الملموسة، ولهذا كان المثل (عقول الناس في عيونهم) وهو يعني ان ادراك الناس للأمور الملموسة والمرئية اسهل لهم. ومن هنا طرح القرآن بعض المفاهيم العقلية الرفيعة في قالب الامثال ليسهل على الناس ادراكها، وعلى هذا؛ فان فلسفة امثال القرآن هي تنزيل القضايا العميقة والرفيعة إلى مستوى يتناسب مع أفق تفكير الناس. وينبغي الالتفات هنا إلى نقطة وهي ان بعض الامثال عملية وتبين بلسان العمل، وبعضها لفظية تبين باللسان والقول. ان أمثال القرآن هي من النوع الثاني، الا انه يشاهد بعض ما في سيرة الرسول(ﷺ) واهل بيته الاطهار (عليهم السلام) امثال عملية، وهي بالطبع ذات تأثير اكثر إن أمثال القرآن متنوعة جداً. والله(عز وجل) ضرب مختلف الأمثال لاجل ايضاح حقائق مهمة لها تأثير بالغ في تربية الإنسان وسعادته، فتارة يمثل الله (عز وجل) بالجمادات كـ(الارض، السماء، القرى، الحجارة،...) إذ قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾،[1] واخرى يمثل بالظواهر الطبيعية كـ (الرعد، البرق،...) كقوله تعالى:﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.[2] إنّ اهم سبب لتنوع أمثال القرآن هو تبسيط الفهم وتعميقه عند المخاطبين في كل عصر وأوان وتجسيد المفاهيم القرآنية الرفيعة في نفوسهم وعقولهم.

---

(١) سورة الرعد، من الآية /١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية / ١٩.

المطلب الأول: المثل بالأرض والسماء والقرى والحجارة والجبال

إن الامثال نموذجات الحكمة لما غاب عن الاسماع والابصار والتمثيل بالجمادات هي من الامور التي ضرب الله بها مثلاً في بعض السور القرآنية لتهدي النفوس لما ضربت له وليدركوا بها ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم. تذكرها الباحثة كما أوردها السبحاني في تفسيره حسب تسلسلها في السور على النحو الآتي:

التمثيل الأول: تشبيه قلوب اليهود بالحجارة

-قال تعالى:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.[١]

بدأ السبحاني تفسير الآية بسبب نزولها إذ قال: "جاءت الآية بعد قصة البقرة التي ذبحها بنو إسرائيل، وقد كانوا يجادلون موسى (عليه السلام) بغية التملص من ذبحها، ولكن قاموا بذبحها وما كادوا يفعلون. وكان ذبح البقرة لأجل تحديد هوية القاتل الذي قام بقتل ابن عمه غيلة واتهم بقتله شخصا آخر من بني إسرائيل، فصاروا يتدارؤون ويدفعون عن أنفسهم هذه التهمة، فرجعوا في أمرهم إلى موسى (عليه السلام)، وشاء الله أن يظهر حقيقة الأمر بنحو معجز، فقال لهم موسى (عليه السلام):﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾،[٢] فلما ذبحوها بعد مجادلات طويلة أمر سبحانه أن يضربوا المقتول ببعض البقرة حتى يحيى المقتول ويعين هوية القاتل. قال سبحانه:﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾،[٣] ومع رؤية هذه المعجزة الكبرى التي كان من المفروض أن تزيد في إيمانهم وانصياعهم لنبيهم موسى (عليه السلام)، لكن وللأسف قست قلوبهم بنحو يحكي سبحانه شدة تلك القساوة ويقول:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾. وبما أن الحجر هو المعروف بالصلابة والقساوة شبه سبحانه قلوبهم بالحجارة وقال: إن قلوبهم ﴿كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ أي: بل أشد قسوة"،[٤]

---

(١) سورة البقرة، الآية / ٧٤.
(٢) سورة البقرة، من الآية /٦٧.
(٣) سورة البقرة، الآية / ٧٣.
(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٩٥ -٩٦، الأمثال للسبحاني، ص٩٥ -٩٦.

وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين[١]: "وهو أن الخطاب موجه إلى بني إسرائيل كلهم، "وبنو إسرائيل مع كثرة نعمه عليهم وكثرة ما أراهم من الآيات، يمتنعون من طاعته، ولا تلين قلوبهم لمعرفة حقه، بل تقسو وتمتنع من ذلك".[٢] ومنهم من قال: إنه أريد بنو أخي المقتول حين أنكروا قتله بعد ان سمعوه منه عند احياء الله تعالى له، انه قتله فلان.[٣] إذ قالوا: بعد ذلك (بعد الإحياء) لم نقتله، وأمكروا فلم يكونوا قط أعمى قلباً ولا أشد تكذيباً لنبيّهم منهم.[٤] ثم صنف السبحاني القلوب الى نوعين قائلاً: "إن القلوب إما بمعنى النفوس الناطقة، فعندئذ تكون نسبة القساوة إلى الروح نسبة حقيقية. أو أن المراد منها هو العضو نفسه المودع في الجهة اليسرى من الصدر الذي ليس له دور سوى تصفية الدم وإرساله إلى سائر الأعضاء، وعندئذ تكون النسبة مجازية، وإنما نسبت القساوة إلى ذلك العضو، لأنه مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية، وأول عضو يتأثر بالأمور النفسانية كالفرح والغضب والحزن والجزع، فلا منافاة في أن يكون المدرك هو النفس الناطقة، ومع ذلك يصح نسبة الإدراك إلى القلب".[٥]

علل السبحاني وصف سبحانه قلوبهم بأنها أشد قسوة من الحجارة، "بأمور ثلاثة تذكرها الباحثة على النحو الآتي:

الأول: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾.

الثاني: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ ﴾.

الثالث: ﴿ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾.

أما الأول: أي تفجر الأنهار من الحجارة، كالعيون الجارية من الجبال الصخرية، "ان من الحجارة ما هو انفع من قلوبهم الفاسية، يتفجر منها انهار".[٦] **وأما الثاني:** كالعيون الحادثة الحادثة عند الزلازل المستتبعة للانشقاق والانفجار المستعقب لجريان الأنهار. "فيخرج منه الماء فيكون عينا نابعة وأنهارا جارية".[٧] **وأما الثالث:** كهبوط الحجارة من الجبال العالية إلى الأودية المنخفضة من خشية الله. ولا مانع من أن يكون للهبوط علة طبيعية كالصواعق التي تهبط بها

---

[١] ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٢٧/٣، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٤٦٣/١، القرآن العظيم لابن كثير: ١١٧/١، جواهر الحسان للثعالبي: ٢٦٤/١، أمثال القرآن لحنبكة: ص١٧٤.

[٢] التبيان للطوسي، ٣١١/١.

[٣] ينظر: جامع البيان للطبري: ٥١١/١، معالم التنزيل للبغوي: ٨٥/١، الكشاف للزمخشري: ١/ ٢٩٠.

[٤] ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ٢٢١/١، معالم التنزيل للبغوي: ٨٥/١.

[٥] مفاهيم القرآن، ٩/ ٩٦، الأمثال للسبحاني، ص٩٦.

[٦] التبيان للطوسي، ٣٠٨/١.

[٧] جامع البيان للطبري، ٥١٥/١.

الصخور وعلة معنوية التي كشف عنها الوحي، وهي الهبوط من خشية الله".[١] ومنهم من ذهب: "إن قلوبهم قاسية، فإن شبهت قسوتها بالحجر أصبت، وإن شبهتها بما هو أشد أصبت، وإن شبهتها بهما جميعا أصبت".[٢]

التمثيل الثاني: تشبيه الحق بالسيل والباطل بالزبد الطافي

-قال تعالى:﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾.[٣]

شـــــرع السبحاني بتفسير الآية بعد المعنى اللغوي والتعريف الاصطلاحي لبعض مفرداتها[٤] إذ قال: "إن الآية تمثل للحق والباطل مثلا واحدا يستبطن تمثيلات متعددة:

الأول: إن السيل المتدفق من أعالي الجبال الجاري في الوديان يحمل معه في سيره زبدا رابيا عليه، فالحق كماء السيل والباطل الزبد الطافح عليه.

الثاني: إن المعادن والفلزات المذابة في القدر إذا أوقدت عليها النار، تذاب ويعلو عليها الخبث، فالغاية من الإذابة هو فصل المعادن والفلزات النفيسة عن خبثها وزبدها. وعندئذ فالحق كالذهب والفضة والمعادن النفيسة والباطل كخبثها وزبدها الطافح.

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٩٦، الأمثال للسبحاني، ص٩٦.

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٥/١ وينظر: الدر المنثور للسيوطي: ١/ ٨٠، الوسيط للطنطاوي: ١٧٤/١.

(٣) سورة الرعد، الآية / ١٧.

(٤) "أودية" في اللغة: من الوادي: سفح الجبل العظيم، المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر. ينظر: العين للفراهيدي: ٩٨/٨، مادة (ودي). "قدرها" في اللغة: من (القَدرَ): اقتران الشئ بغيره دون زيادة أو نقصان، فإذا كانا متساويين فهو القدر. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٧٧/٥، مادة (قَدَرَ). "الاحتمال" في اللغة: رفع الشئ على الظهر بقوة الحامل. ينظر: تاج العروس للزبيدي: ١٦٨/١٤، مادة (حمل). و"الزبد" في الاصطلاح عرفها السبحاني بأنه: "خبث الغليان ومنه زبد القدر وزبد السيل". مفاهيم القرآن، ٩/ ١٥٥. و"الجفاء" في اللغة: أجفأت القدر بزبدها، إذا ألقت زبدها. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٤٩/١٤، مادة (زبد). و"الإيقاد" في اللغة: إلقاء الحطب في النار. ينظر: مجمع البحرين للطريحي: ١٦٣/٣، مادة (وقد). "والمتاع" في اللغة: ما تمتع به. ينظر: العين للفراهيدي: ٢/ ٨٣، مادة (متع). و"الحق" في اللغة: خلاف الباطل. ينظر: الصحاح للجوهري: ١٤٦٠/٤، مادة (حقق). وفي الاصطلاح عرفه السبحانه بأنه: "الأمر الثابت بمفهومه الواسع يشمل كل موجود أو ناموس ثابت لا يطرأ عليه التحول والتبدل حتى أن القوانين الرياضية والهندسية وكثير من المفاهيم الطبيعية إذا كانت على درجة كبيرة من الثبات فهي حق لا غبار عليها". مفاهيم القرآن، ٩/ ١٥٦. و"المكث" في الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "الكون في المكان عبر الزمان". مفاهيم القرآن، ٩/ ١٥٦، الأمثال للسبحاني، ص ١٥٦.

الثالث: إن ما له دوام وبقاء ومكث وينتفع به الناس كالماء وما يتخذ للحلية أو المتاع يمثل الحق، وما ليس كذلك كزبد السيل وخبث القدر الذي يذهب جفاء يمثل الباطل"،[١] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٢]: مثل الحق في ثباته والباطل في اضمحلاله مثل ماء أنزله الله من السماء إلى الأرض فاحتملته الأودية بملئها الكبير بكبره والصغير بصغره، فاحتمل السيل الذي حدث عن ذلك الماء الذي أنزله الله من السماء زبدا عاليا فوق السيل. فهذا أحد مثلي الحق والباطل، فالحق هو الماء الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل. والمثل الآخر: ومثل آخر للحق والباطل، مثل فضة أو ذهب يوقد عليها الناس في النار طلب حلية يتخذونها أو متاع، وذلك من النحاس والرصاص والحديد، يوقد عليه ليتخذ منه متاع ينتفع به زبد مثله مثل زبد السيل لا ينتفع به ويذهب باطلا، كما لا ينتفع بزبد السيل ويذهب باطلا. وبقاء خالص الذهب والفضة. وأما ما ينفع الناس من الماء والذهب والفضة والرصاص والنحاس، فالماء يمكث في الأرض فتشربه، والذهب والفضة تمكث للناس، كذلك يمثل الأمثال.[٣]

فصّلَ السبحاني في تفسير الآية قائلاً: "وأما التفصيل فإليك توضيح الآية:﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ ﴾ الواقعة في محل الأمطار المختلفة في السعة والضيق، والكبر والصغر ﴿بِقَدَرِهَا ﴾ أي كل يأخذ بقدره، ففيضه سبحانه عام لا يحدد وإنما التحديد في الآخذ، فكل يأخذ بقدره وحده، فقدر النبات يختلف عن قدر الحيوان، وهو عن الإنسان، فكل ما يفاض عليه الوجود إنما هو بقدر قابليته، كما أن السيل المنحدر من أعالي الجبال مطلق غير محدد، ولكن يستوعب كل واد من ماء السيل بقدر قابليته وظرفيته، " وعلى حسب المصلحة"،[٤] وهذه الرحمة التي هي مقتضى تلك المشية الحتمية يسمى رحمة العدل الالهي.[٥] ﴿ فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا ﴾ أي: طافيا عاليا فوق الماء"،[٦] "ومن حقّ الزبد والوغف الَّذي يحتمله الماء أن يطغى ويربو

---

(١) مفاهيم القرآن، ١٥٦/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٥٦.

(٢) ينظر: تفسير القرآن للصنعاني: ٣٣٤/٢، معاني القرآن للنحاس: ٤٩٠/٣، بحر العلوم للسمرقندي: ٢٢٢/٢، جوامع الجامع للطبرسي: ٢٥٦/٢ – ٢٥٧، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٤٠/٣ – ٤٤١.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٧٦/١٣ وينظر: التبيان للطوسي: ٢٣٨/٦.

(٤) الأصفى للفيض الكاشاني، ٦٠٠/١.

(٥) ينظر: الصراط المستقيم للبروجردي: ٣/ ٢٦١.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٥٦ – ١٥٧، الأمثال للسبحاني، ص١٥٦ –١٥٧.

عليه ثمّ يتبدّد في الأطراف ويضمحلّ".[١] إلى هنا تمت الإشارة إلى التمثيل الأول. ثم أضاف السبحاني قائلاً: "إن الزبد لا ينحصر بالسيل الجارف بل يوجد طافيا على سطح أنواع الفلزات والمعادن المذابة التي تصاغ منها الحلي للزينة والأمتعة، إذ قال سبحانه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾. إلى هنا تمت الإشارة إلى التمثيل الثاني، إذ قال:﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾أي كذلك يوصف الحق والباطل ليأخذ طريقه بين الناس"،[٢] ثم أشار السبحاني إلى التمثيل الثالث إذ قال: "إن من سمات الحق بقاءه وانتفاع الناس به ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾، إذ إن زبد السيل وزبد ما يوقدون عليه ينطفئ بعد مدة قصيرة كأن لم يكن شيئا مذكورا فيذهب جفاء باطلا متلاشيا. ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾فإن الماء الخالص أو المعادن الخالصة التي فيها انتفاع الناس يمكث في الأرض،"[٣] "أو ينفذ إلى الأعماق وتتكون منه العيون والآبار تروي العطاش، وتروي الأشجار لتثمر، والأزهار لتتفتح، وتمنح لكل شئ الحياة".[٤]

ختم السبحاني تفسير الآية بعد توضيح الأمثلة المذكورة فيها، بالإشارة إلى ما يمكن الاستفادة من الآية ذكرها **بنقاط تذكر الباحثة** بعضاً منها للإختصار:

١. "إن الإيمان والكفر من أظهر مصاديق الحق والباطل، ففي ظل الإيمان بالله تبارك وتعالى حياة للمجتمع وإحياء للعدل، والعواطف الإنسانية، فالأمة التي لم تنل حظها من الإيمان يسودها الظلم والأنانية وانفراط الأواصر الإنسانية التي تعصف بالمجتمع الإنساني إلى الهاوية.
٢. إن الزبد أشبه بالحجاب الذي يستر وجه الحق مدة قصيرة، فسرعان ما يزول وينطفئ ويظهر وجه الحقيقة أي الماء والفلزات النافعة. فهكذا الباطل ربما يستر وجه الحقيقة من خلال الدعايات المغرضة، ولكنه لا يمكث طويلا فيزول كما يزول الزبد.
٣. إن الماء فيض مادي يفيضه الله سبحانه إلى السماء على الوديان والصحاري، فكل يأخذ بمقدار سعته، فالوادي الكبير يستوعب ماء كثيرا بخلاف الوادي الصغير فلا يستوعب سوى

---

[١] مقتنيات الدرر للحائري، ٨٧/٦.
[٢] مفاهيم القرآن، ١٥٧/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٥٧ وينظر: العظات الدينية لعلي فكري: ص٨٥، التفسير الكاشف لمغنية: ٣٩٣/٤.
[٣] مفاهيم القرآن، ٩/ ١٥٧، الأمثال للسبحاني، ص١٥٧.
[٤] الأمثل للشيرازي، ٣٧٣/٧.

قليلا من الماء وهكذا الحال في الأرواح والنفوس فكل نفس تنال حظها من المعارف الإلهية حسب قابليتها، فهناك نفس كعرش الرحمن ونفس أخرى من الضيق بمكان.

٤. إن الماء يمكث في الأرض وينفذ في أعماقها ويبقى عبر القرون حتى ينتفع به الناس من خلال استخراجه، فهكذا الحق فهو ثابت لا يزول، ودائم لا يضمحل، على طرف النقيض من الباطل، فللحق دولة وللباطل جولة.

٥. إن في تشبيه الحق بالماء والباطل بالزبد إشارة لطيفة إلى أن الباطل كالزبد، فكما أنه ينعقد في الماء الذي له هيجان واضطراب والذي لا يجري على منوال هادي، فهكذا الباطل إنما يظهر في الأوضاع المضطربة التي لا يسودها أي نظام أو قانون".[١]

وترى الباحثة: إن القلوب أوعية إذ قال الإمام علي(عليه السلام): ((إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها))،[٢] وبعضها أوعى من بعض في العلم والجهل، وفيها أودية" فقلب يسيل فيه ماء التوبة وقلب يسيل فيه ماء الرحمة وقلب يسيل فيه ماء الخوف وقلب يسيل فيه ماء الرجاء وقلب يسيل فيه ماء المعرفة وقلب يسيل فيه ماء الإنس وكل ماء من هذه المياه ينبت في القلب نوعاً من القربة والقرب من الله عز وجل ومن القلوب ما حرم ذلك والعياذ بالله تعالى".[٣] ولولا أن الله سبحانه وبحمده أنطق اللسان بالبيان وافتتحه بالكلام ما كان الإنسان إلا بمنزلة البهيمة يومىء بالرأس ويشير باليد.

التمثيل الثالث: مثل القرية الكافرة بأنعم الله تعالى

-قال تعالى:﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾.[٤]

بدأ السبحاني تفسير الآيات بوصف القرية المذكورة في الآية بصفات عدة بعد المعنى اللغوي لمفردة ﴿رَغَدًا﴾،[٥] قائلاً: "يصف سبحانه قرية عامرة بصفات ثلاث:

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٥٨ -١٦٠، الأمثال للسبحاني، ص١٥٨ -١٦٠.

(٢) نهج البلاغة لعلي ابن ابي طالب (عليه السلام)، ٣٥/٤، باب (المختار من حكم أمير المؤمنين...)، (من كلام له (عليه السلام) لكميل بن زياد) وينظر: مسند أحمد: ١٧٧/٢، (مسند عبد الله بن عمرو...)، وبحار الأنوار للمجلسي، ١٨٨/١، كتاب (العلم)، باب (أصناف الناس في العلم...)، رقم الحديث (٦)، وهو حديث صحيح.

(٣) روح المعاني للألوسي، ١٣٨/١٣.

(٤) سورة النحل، الآيتان /١١٢ -١١٣.

(٥) "رغد أ": من رغد: عيش رغد ورغيد: طيب واسع. ينظر: الصحاح للجوهري: ٤٧٥/٢، مادة (رغد).

أ. ﴿ءَامِنَةً ﴾﴿رِزْقُهَا أي ذات أمن يأمن فيها أهلها لا يغار عليهم، ولا يشن عليهم بقتل النفوس وسبي الذراري ونهب الأموال، وكانت آمنة من الحوادث الطبيعية كالزلازل والسيول.

ب. ﴿مُّطْمَئِنَّةً ﴾: أي قارة ساكنة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها بخوف أو ضيق، فإن ظاهرة الاغتراب إنما هي نتيجة عدم الاستقرار، فترك الأوطان وقطع الفيافي وركوب البحار وتحمل المشاق رهن عدم الثقة بالعيش الرغيد فيه، فالاطمئنان رهن الأمن.

ج. ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾، الضمير في ﴿يَأْتِيهَا ﴾ يرجع إلى القرية"،[١] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين.[٢]

واختلف المفسرون في تحديد من **هي القرية**. فذهب السبحاني الى أنها (مصر) إذ قال: "المراد منها حاضرة ما حولها من القرى، والدليل على ذلك، قوله سبحانه حاكيا عن ولد يعقوب:﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾،[٣] والمراد من القرية هي مصر الحاضرة الكبيرة يومذاك. وعلى ذلك فتلك القرية الواردة في الآية بما أنها كانت حاضرة لما حولها من الأصقاع فينقل ما يزرع ويحصد إليها بغية بيعه أو تصديره"،[٤] وذهب أغلب المفسرين الى أنها (مكة).[٥]

أضاف السبحاني قائلاً: "هذه الصفات الثلاث تعكس النعم المادية الوافرة التي حظيت بها تلك القرية. ثم إنه سبحانه يشير إلى نعمة أخرى حظيت بها وهي نعمة معنوية، أعني بعث الرسول إليها، إذ أشار إليه في الآية الثانية، بقوله:﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾. وهؤلاء أمام هذه النعم الظاهرة والباطنة بدل أن يشكروا الله عليها كفروا بها. أما النعمة المعنوية، أعني:الرسول ﴿فَكَذَّبُوهُ ﴾. وهو صريح الآية الثانية. وأما النعمة المادية فالآية ساكتة عنها غير أن الروايات تكشف لنا كيفية كفران تلك النعم. عن الإمام الصادق (عليه السلام)، أنه قال:((إن قوما في بني إسرائيل تؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت في بلادهم

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ / ١٨٥، الأمثال للسبحاني، ص١٨٥.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٤٢/١٤، معاني القرآن للنحاس: ١٠٩/٤، بحر العلوم للسمرقندي: ٢٩٤/٢، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٤٢١/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٢٠٦/٣، التبيان للطوسي: ٤٣٢/٦، الكشاف للزمخشري: ٢/ش٤٣١، زبدة التفاسير لفتح الله: ٦١٤/٣.

(٣) سورة يوسف، الآية / ٨٢.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩ / ١٨٥، الأمثال للسبحاني، ص١٨٥.

(٥) ينظر: معاني القرآن للنحاس: ١٠٩/٤، بحر العلوم للسمرقندي: ٢٩٤/٢، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٤٢١/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٢٠٦/٣، التفسير الكاشف لمغنية: ٥٥٨/٤.

يستنجون بها، فلم يزل الله بهم حتى اضطروا إلى التماثيل يبيعونها ويأكلونها، وهو قول الله: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾)).[١] وفي رواية أخرى عنه (عليه السلام) قال:((كان أبي يكره أن يمسح يده في المنديل وفيه شئ من الطعام تعظيما له إلا أن يمصها، أو يكون إلى جانبه صبي فيمصها، قال: فإني أجد اليسير يقع من الخوان فأتفقده فيضحك الخادم، ثم قال: إن أهل قرية ممن كان قبلكم كان الله قد وسع عليهم حتى طغوا، فقال بعضهم لبعض: لو عمدنا إلى شيء من هذا النقي فجعلناه نستنجي به كان ألين علينا من الحجارة. قال(عليه السلام): ((فلما فعلوا ذلك بعث الله على أرضهم دوابا أصغر من الجراد، فلم تدع لهم شيئا خلقه الله إلا أكلته من شجر أو غيره، فبلغ بهم الجهد إلى أن أقبلوا على الذي كانوا يستنجون به، فأكلوه وهي القرية التي قال الله تعالى:﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾)).[٢] وبذلك يعلم أن ما يقوم به الجيل الحاضر من رمي كثير من فتات الطعام في سلة المهملات أمر محظور وكفران بنعمة الله. حتى أن كثيرا من الدول وصلت بها حالة البطر بمكان أنها ترمي ما زاد من محاصيلها الزراعية في البحار حفظا لقيمتها السوقية، فكل ذلك كفران لنعم الله، إذ إنه سبحانه جزاهم في مقابل كفرهم بالنعم المادية والروحية، وأشار إليها بآيتين: **الأولى:** ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾، **والثانية:** ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾".[٣] "إن الإسراف والتبذير وتضييع النعم لا ينجو من عقوبة وغرامة ثقيلة الوقع. وهو تنبيه أيضا للذين يرمون نصف غذائهم (الزائد عن الحاجة) في أكياس الأوساخ دائما. وهو تنبيه كذلك لأولئك الذين يهيئون غذاء يكفي لعشرين شخصا، وليس لهم من الضيوف إلا أربعة، ولا يصل الزائد منه إلى بطون الجياع من الناس. وهو تنبيه للذين يجمعون المواد الغذائية في بيوتهم لاستعمالهم الخاص، ويملؤون مخازنهم انتظارا لارتفاع سعرها في الأسواق حتى يفسد ويذهب هباء من غير أن يستفيدوا من بيعها بسعر مناسب قبل فسادها.

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي، ٢٠٧/٧٧، كتاب (الطهارة)، باب (آداب الأستنجاء...)، رقم الحديث (١٦).

(٢) وسائل الشيعة للحر العاملي، ٢٤/ ٣٨٦، باب (وجوب إكرام الخبز...)، رقم الحديث (٦)، بحار الأنوار للمجلسي، ٢٠٧/٧٧، كتاب (الطهارة)، باب (آداب الأستنجاء...)، رقم الحديث (١٧).

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٨٥ – ١٨٦، الأمثال للسبحاني، ص١٨٥ –١٨٦ وينظر: تفسير العياشي، لمحمد بن مسعود العياشي (ت ٣٢٠ هـ)، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران: ٢٧٣/٢.

نعم، فلا يخلو أي عمل مما ذكر من عقوبة إلهية، وأقل ما يعاقبون به هو سلب تلك النعم عنهم. وتتضح أهمية المسألة إذا علمنا أن المواد الغذائية على سطح الكرة الأرضية محددة بنسبة، فأي إفراط في أي نوع من المواد يؤدي إلى حرمان نسبة من البشر من تلك المواد".[١]

طرح السبحاني سؤالاً طرحه مفسرون عدة إذ قال: " إنه سبحانه جمع في الآية الأولى بين الذوق واللباس، فقال:﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ ﴾ مع أن مقتضى استعمال الذوق هو لفظ طعم، بأن يقول: (فأذاقها الله طعم الجوع). ومقتضى اللفظ الثاني أعني: اللباس، أن يقول:(فكساهم الله لباس الجوع) فلماذا عدل عن تلك الجملتين إلى جملة ثالثة لا صلة لها حسب الظاهر بين اللفظين؟".[٢] فأجاب في الوقت نفسه: "إن للإتيان بكل من اللفظين وجها واضحا. أما استخدام اللباس فلبيان شمول الجوع والخوف لكافة جوانب حياتهم، فكأن الجوع والخوف أحاط بهم من كل الأطراف كإحاطة اللباس بالملبوس، ولذلك قال: ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ولم يقل: ﴿ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ لفوت ذلك المعنى عند التجريد عن لفظ اللباس. وأما استخدام الذوق فلبيان شدة الجوع، لأن الإنسان يذوق الطعام، وأما ذوق الجوع فإنما يطلق إذا بلغ به الجوع والعطش والخوف مبلغا يشعر به من صميم ذاته، فقال:﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾".[٣] "أما الإذاقة إذ جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب، شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع، وأما اللباس إذ شبه به لاشتماله على اللابس ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث".[٤] "فصار الجوع في داخلهم والخوف في أنفسهم وكأنهما لباسان على البدن ملاصقان به ملازمان له".[٥]

تخلص الباحثة: إن القرية المذكورة "غير مكة لانها ضربت مثلاً لمكة"،[٦] يبقى المعنى عاماً لكل قرية آمنة تتمتع بأنعم الله ووافر رزقه فتكفر بتلك النعم ولا تصون ذلك الرزق، فأنها لزوالها وحلول البلاء بأنواعه كافة وفي كل زمان ومكان أقرب.

---

(١) الأمثل للشيرازي، ٨/ ٣٥٤.

(٢) تلخيص البيان للرضي، ص١٩٦، المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني، ص١٨٢، التبيان للطـــــــوسي، ٦/ ٤٣٢، تفسير القرآن للسمعاني، ٢٠٦/٣، مدارك التنزيل للنسفي، ٢٧٣/٢، مفاهيم القرآن، ١٨٧/٩، الأمثال للسبحاني، ص١٨٧.

(٣) مفاهيم القرآن، ١٨٧/٩، الأمثال للسبحاني، ص ١٨٧ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٢٧/٢٠.

(٤) الكشاف للزمخشري، ٢/ ٤٣١ وينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٤/ ٣٦٥.

(٥) الفقه، البيئة، لمحمد الحسيني الشيرازي (ت ١٤٢٢ هـ)، دار العلوم، بيروت، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م، ص٢٠٥.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٠/ ١٢٧.

التمثيل الرابع: الخشية من الله كالجبل المتصدع

-قـال تعـالى:﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.[١]

بدأ السبحاني تفسير الآية بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفرداتها[٢] إذ قال: "إن للمفسرين في تفسير الآية رأيين: **أحدهما:** إنه لو أنزلنا هذا القرآن على جبل، مع ما له من الغلظة والقسوة وكبر الجسم وقوة المقاومة قبال النوازل، لتأثر وتصدع من خشية الله، فإذا كان هذا حال الجبل، فالإنسان أحق بأن يخشع لله إذا تلا آياته. فما أقسى قلوب هؤلاء الكفار وأغلظ طباعهم حيث لا يتأثرون بسماع القرآن واستماعه وتلاوته، وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٣] **ثانيهما:** إن كل من له حظ في الوجود فله حظ من العلم والشعور، ومن جملتها الجبال فلها نوع من الإدراك والشعور، قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾،[٤] فعلى هذا فمعنى الآية أن هذا القرآن لو نزل على جبل لتلاشى وتصدع من من خشية الله، غير أنه لم ينزل عليه، وهذا ما ذهب اليه بعضهم.[٥] وعلى كلا المعنيين، فليست الآية من قبيل التمثيل أي تشبيه شئ بشئ، بل من قبيل وصف القرآن وبيان عظمته بما يحتوي من الحقائق والأصول، وإنها على الوصف التالي:(لو أنزلناه على جبل لصار كذا وكذا)".[٦] وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٧] وخالـفه أغلـب المفســـرين[٨]: "إنّ ذلك مثل مثل نبّه به على

---

(١) سورة الحشر، الآية / ٢١.

(٢) "الخشوع" في اللغة: الضراعة: قريب المعنى من الخضوع، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح على عكس الضراعة، فإن أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ١٨٢/٢، مادة (خشع). وفي الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "عبارة عن السكينة الحاكمة على الجوارح مستشعرا بعظمة الخالق". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٥. و"التصدع" في اللغة: التفرق بعد التلاوم.ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٣٣٨/٣، مادة (صدع).

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ٦٨/٢٨، بحر العلوم للسمرقندي: ٤١٠/٣، تلخيص البيان للرضي: ص ٣٣٠، الكشاف للزمخشري: ٤/ ٨٧، الشارة الجمالية لعشتار داود: ص٧٩.

(٤) سورة البقرة، من الآية /٧٤.

(٥) ينظر: المسائل العكبرية للمفيد: ص ٩١، الوجيز للواحدي: ١٠٨٥/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٤٠٨/٥، معالم التنزيل للبغوي: ٣٢٦/٤، مدارك التنزيل للنسفي: ٤/ ٢٣٤، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٩٢/٢٩.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٦، الأمثال للسبحاني، ص٢٦٦.

(٧) ينظر: تلخيص البيان للرضي: ص٣٣٠.

(٨) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٨/ ٦٩، القرآن المجيد للمفيد: ص٥٢٥، التبيان للطوسي: ٩/ ٥٧٢، تفسير القرآن المجيد، لأبي عبدالله محمد بن محمد المعروف بـ (المفيد)(ت ٤١٣ هـ)، تحقيق: محمد علي أيازي، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط١، ١٤٢٤ م، ص ٥٢٦، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢١/٧، التفسير الكاشف لمغنية: ٢٩٤/٧.

عظم محلّ القرآن وما يجب أن يكون الإنسان عليه عند سماعه وتدبّره من الحذر من اللّه تعالى والخشوع له والطاعة والخضوع".[١] نعم يمكن أن يعد لازم معنى الآية من قبيل التشبيه، وهو أنه سبحانه يشبه قلوب الكفار والعصاة الذين لا يتأثرون بالقرآن بالجبل والحجارة، وأن قلوبهم كالحجارة إن لم تكن أكثر صلابة، بشهادة أن الحجارة يتفجر منها الأنهار أو تهبط من خشية الله، فلأجل ذلك جعلنا الآية من قبيل التمثيل وإن كان بلحاظ المعنى الالتزامي لها"،[٢] وهذا ما ذهب اليه الرازي إذ قال: "الغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار، وغلظ طباعهم، ونظير قوله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾،[٣] واعلم أنه لما وصف القرآن بالعظم، ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف".[٤]

تذهب الباحثة الى ما ذهب اليه الآلوسي إذ قال: هذا تمثيل لعلو شأن القرآن، وقوة تأثيره، والغرض –من هذه الآية– توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن الكريم، وتدبر ما فيه من القوارع، وهو الذي لو أنزل على جبل وقد ركب فيه العقل لخشع وتصدع ويشير إلى كونه تمثيلا، قوله تعالى:﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.[٥]

المطلب الثاني: المثل بالمحيطات والبحار والأنهار

ضرب الله تعالى الأمثال بالمحيطات والبحار والأنهار لأنها مركز النعم الإلهية إذ إنها تشكل ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية، هي منبع عظيم للمواد الغذائية، والطبية، وأدوات الزينة، ووسيلة مهمة لنقل البشر وحمل البضائع. لذلك نرى أن القرآن الكريم قد ذكر الإنسان – لعدة مرات وبتعبيرات مختلفة بتلك النعم العظيمة، ودعاه للتفكير بها، وإذا تجاوزنا كل ذلك فإن البحر هو دار العجائب حيث فيه أصغر النباتات المجهرية، وكذلك أطول أشجار العالم، وفيه

---

[١] جامع البيان للطبري، ٢٨/ ٦٩ وينظر: القرآن المجيد للمفيد: ص٥٢٥، التبيان للطوسي: ٩/ ٥٧٢، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢١/٧، التفسير الكاشف لمغنية: ٢٩٤/٧.

[٢] مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٥ – ٢٦٦، الأمثال للسبحاني، ص٢٦٥ – ٢٦٦.

[٣] سورة البقرة، من الآية / ٧٤.

[٤] مفاتيح الغيب للرازي، ٢٩٢/٢٩ وينظر: تمثال الامثال، لابي المحاسن بن علي العبدري الشيبي (ت ٨٣٧ هـ)، تحقيق: أسعد ذبيان، دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م: ص ٢٥١.

[٥] ينظر: روح المعاني للآلوسي: ٦١/٢٨، الوسيط للطنطاوي: ٣١٠/١٤.

أيضا أصغر الحيوانات وكذلك أعظمها وأضخمها. إذ أن الحياة في أعماق البحار حيث لا ضوء ولا غذاء عجيبة إلى درجة أن الشخص لا يمل من مطالعتها والاطلاع عليها، وكلما تعرف الإنسان على شيء منها إزداد شغفا بها،[١] لهذه الأسباب التي تم التوصل اليها ولغيرها التي لم يبلغ العلم حدها ضرب الله سبحانه بها الأمثال.

التمثيل الأول: تشبيه أعمال الكافرين بالظلمات المتراكمة

-قال تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾.[٢]

بدأ السبحاني تفسير الآية بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفرداتها[٣] إذ قال: " إنه سبحانه شبه أعمال الكافرين في هذه الآية بالظلمة وخلوها من نور الحق ببحر لجي فوقه سحابة سوداء ممطرة ويعلو ماءه موج فوق موج، فراكب هذا البحر تغمره ظلمة دامسة لا يرى أمامه شيئا حتى لو أخرج يده فإنه لا يراها مع قربها منه"،[٤] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٥]: "ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة البحر".[٦]

ذكر السبحاني أركان التمثيل إذ قال: "هذا هو المشبه به، وأما المشبه فالأعمال التي يقوم بها الكافر باطلة محضة ليس فيها من الحق شيء مثل هذا البحر اللجي المحيط به عتمة الظلام الذي ليس فيه نور. إذ إن الآية تشير إلى **ظلمات ثلاث. الأولى:** ظلمة البحر المحجوب من النور. **الثانية:** ظلمة الأمواج المتلاطمة. **الثالثة:** السحاب الأسود الممطر. فتراكم هذه الظلمات يحجب كل نور من الوصول، وهكذا الحال في الكافر ففي أعماله **ظلمات ثلاث** يمكن

---

(١) ينظر: الأمثل للشيرازي: ٣٩٣/١٧ وينظر: القرآن وأعجازه العلمي لمحمد أسماعيل: ص ٩٦.

(٢) سورة النور، الآية / ٤٠.

(٣) "لجي" في اللغة: البحر الواسع العميق. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٢/ ٣٥٤، مادة (لجج). وفي الأصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "تردد أمواجه، فإن البحر كلما كان عميقا وواسعا تزداد أمواجه، وعلى ذلك فيكون المراد من قوله ﴿في بحرٍ لجي﴾ أي بحر متلاطم". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١٤، الأمثال للسبحاني، ص ٢١٤. و"السحاب" في اللغة: الغيوم الممطرة. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٤٦١/١، مادة (سحب). وفي الاصطلاح عرفها السبحاني بأنها: "بخلاف الغيم فهو أعم، وإنما استخدم كلمة السحاب ليكون سببا لازدياد الظلم". مفاهيم القرآن، ٢١٤/٩، الأمثال للسبحاني، ص ٢١٤.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١٤ -٢١٥، الأمثال للسبحاني، ص ٢١٤ -٢١٥ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٥١٨/٤.

(٥) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٨/ ٢٠٠، تفسير القرآن للسمعاني: ٥٣٧/٣، الكشاف للزمخشري: ٣/ ٧٠، زاد المسير لابن الجوزي: ٣٦٦/٥، زبدة التفاسير لفتح الله: ٥١٨/٤.

(٦) الكشف والبيان للثعلبي، ١١١/٧.

بيانها بأنحاء مختلفة: **النحو الأول:** ظلمة الاعتقاد، ظلمة القول، ظلمة العمل. وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين: إن الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض في الكون، وضلال لا يرى في القلب أقرب علامات الهدى. ومخافة لا أمن فيها ولا قرار وفي ظلال لا رجعة منه ونهاية العمل سراب ضائع يقود الى الهلاك والعذاب؛ لأنه لا عمل بغير عقيدة ولا صلاح بغير إيمان.[١] **النحو الثاني:** ظلمة القلب، ظلمة البصر، ظلمة السمع. وهذا ما ذهب اليه الطبري إذ قال: "البحر اللجى مثلا لقلب الكافر، يقول: عمل بنية قلب قد غمره الجهل وتغشته الضلال والحيرة كما يغشى هذا البحر اللجي موج من فوقه موج من فوقه سحاب، فكذلك قلب هذا الكافر الذي مثل عمله مثل هذه الظلمات، يغشاه الجهل بالله، بأن الله ختم عليه فلا يعقل عن الله، وعلى سمعه فلا يسمع مواعظ الله، وجعل على بصره غشاوة فلا يبصر به حجج الله، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض".[٢] **النحو الثالث:** ظلمة الجهل، ظلمة الجهل بالجهل، ظلمة تصور الجهل علما".[٣] وهذا ما ذهب اليه الرازي فضلاً عن اضافته نحوين آخرين **تذكرها الباحثة** للفائدة إذ قال: "إن الكافر لا يدري ولا يدري أنه لا يدري ويعتقد أنه يدري، فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات **ورابعها:** أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكفار لشدة إصراره على كفره، قد تراكمت عليه الضلالات حتى أن أظهر الدلائل إذا ذكرت عنده لا يفهمها **وخامسها:** قلب مظلم في صدر مظلم".[٤]

ختم السبحاني تفسير الآية قائلاً: "يمكن أن تكون هذه الظلمات المتراكمة إشارة إلى أمر آخر وهو إصرار الكافر المتزايد على كفره وقبائح أعماله. ولذلك يصفه سبحانه بقوله: ﴿لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾".[٥]

إن هذا أبلغ تشبيه لأهل الشهوات والأهواء الذين غرقوا في بحر القبائح والرذائل، ومن عاش في هذه الظلمات التي لا يرى فيها شيئا كيف يرى الحقيقة ويدركها؟، والواقع في قعر هذا البحر اللجّيّ يكون في نهاية شدّة الظلمة في جهله وحسرته كمن في هذه الظلمات؛ لأنّه في عمله وقوله واعتقاده متقلّب في **ظلمات خمس:** "كلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة

---

(١) ينظر: الأمثال لأبن شريف: ص٧٦.
(٢) جامع البيان للطبري: ١٨/ ٢٠٠ وينظر: أمثال القرآن لحنبكة: ص٥٢٣.
(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١٥، الأمثال للسبحاني، ص ٢١٥ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي، ٢٤/ ٩.
(٤) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٤/ ٩ وينظر: الأمثال والمثل لسميح عاطف: ص٣٣٦.
(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١٥، الأمثال للسبحاني، ص ٢١٥.

ومخرجه ظلمة ومصيره يوم القيامة إلى ظلمة وهي النار".[١]

التمثيل الثاني: تشبيه المؤمن والكافر

-قال تعالـــى:﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.[٢]

بدأ السبحاني تفسير الآية بعد المعنى اللغوي لبعض مفرداتها[٣] إذ قال: "الآية بصدد ضرب المثل في حق الكفر والإيمان، أو الكافر والمؤمن"،[٤] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٥]: "في الآية تمثيل للمؤمن والكافر بالبحر العذب والمالح يتبين به عدم تساوي المؤمن والكافر في الكمال الفطري وإن تشاركا في غالب الخواص الانسانية وآثارها فالمؤمن باق على فطرته الأصلية ينال بها سعادة الحياة الدائمة والكافر منحرف فيها متلبس بما لا تستطيبه الفطرة الانسانية وسيعذب بأعماله فمثلهما مثل البحرين المختلفين عذوبة وملوحة فهما مختلفان من حيث البقاء على فطرة الماء الأصلية وهي العذوبة والخروج عنها بالملوحة وإن اشتركا في بعض الآثار التي ينتفع بها".[٦]

خلص السبحاني الى حاصل التمثيل إذ قال: "إن الإيمان والكفر متمايزان لا يختلط أحدهما بالآخر، كما أن الماء العذب الفرات لا يختلط بالملح الأجاج. وفي الوقت نفسه لا يتساويان في الحسن والنفع، قال سبحانه: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾، بل إن الكافر أسوأ حالا من البحر الأجاج الذي يشاطر البحر الفرات في **أمرين:**

الأول: يستخرج من كل منهما لحما طريا يأكله الإنسان، إذ قال سبحانه:﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾.

---

(١) المستدرك للنيسابوري، ٢/٤٠٠، باب (أحوال أنوار المؤمنين وظلمات الكافرين....).

(٢) سورة فاطر، الآية / ١٢.

(٣) "الفرات": الماء العذب. ينظر: الصحاح للجوهري: ١/ ٢٥٩، مادة (فرت). "الأجاج": هو شديد الملوحة والحرارة من قولهم أجيج النار. ينظر: المصدر نفسه، ١/ ٢٩٧، مادة (اجج). "مواخر": مخرت السفينة مخرا، إذا شقت الماء بجؤجئها مستقبلة له. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٣٠٣/٥، مادة (مخر).

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٤، الأمثال للسبحاني، ص٢٢٤.

(٥) ينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ٢٩/٤، مدارك التنزيل للنسفي: ٣٣٩/٣، الكشاف للزمخشري: ٣/ ٣٠٣، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٧١/٥، الأصفى للفيض الكاشاني: ٢/ ١٠٢٣.

(٦) الميزان للطباطبائي، ٢٧/١٧.

الثاني: يستخرج من كل منهما اللآلي التي تخرج من البحر بالغوص وتلبسونها وتتزينون بها، إذ قال ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ إلى هنا تم التمثيل".[١]

وافق مفسرون عدة السبحاني في التمثيل ولكنهم أختلفوا في اعتبار الصفة الثالثة: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾، إذ عدها أغلب المفسرين من متممات التمثيل أومن الفوائد المشتركة للبحرين:[٢] "ضرب البحرين العذب والملح مثلين للمؤمن والكافر ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو ان يشبه الجنسين بالبحرين ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع".[٣] وخالفهم السبحاني إذ جعلها سبباً لنزول السورة ولم يجعلها من متممات التمثيل إذ قال: "إنه سبحانه شرع لبيان نعمه التي نزلت لأجلها السورة، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، والدليل على أنه ليس جزء المثل تغير لحن الكلام، حيث إن المثل ابتدأ بصيغة الماضي، وقال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ ﴾ ولكن ذيله جاء بصيغة المخاطب ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ ﴾ وهذا دليل على أنه ليس جزء المثل. فضلاً عن إن مضمون الجملة جاء في سورة النحل، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.[٤] وبذلك يظهر أن وزان الآية، وزان قوله سبحانه:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.[٥] فكما أن الحجارة ألين من قلوبهم، فهكذا الملح الأجاج أفضل من الكافر، حيث إنه يفيد".[٦]

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٤ – ٢٢٥، الأمثال للسبحاني، ص٢٢٤ – ٢٢٥.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٢/ ١٤٧، القرآن العظيم لأبي حاتم: ٣١٧٦/١٠، معاني القرآن للنحاس: ٤٤٦/٥، مدارك التنزيل للنسفي: ٣٣٩/٣، الكشاف للزمخشري: ٣/ ٣٠٣.

(٣) مدارك التنزيل للنسفي، ٣٣٩/٣ وينظر: الكشاف للزمخشري: ٣/ ٣٠٣، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٤١٤/٤.

(٤) سورة النحل، الآية /١٤.

(٥) سورة البقرة، الآية /٧٤.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٥، الأمثال للسبحاني، ص ٢٢٥.

وتذهب الباحثة: إلى خلاف ما ذهب اليه السبحاني في ذلك إذ "إن آية النحل سيقت لتعداد النعم ويؤذن بذاك سوابقها ولواحقها، فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمة وهو مخر الفلك للماء بخلاف ما هنا فإنه إنما سيق استطراداً أو تتمة للتمثيل"،[١] فضلاً عن كون الضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى جنس البحر. أى: وترى السفن تشق كل بحر، لتسير فيه من مكان إلى مكان. واللام في قوله تعالى:﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام السابق. أى: أوجدنا البحرين، وسخرناهما لمنفعتكم، لتطلبوا أرزاقكم فيهما، وهذه الأرزاق هي من فضل اللَّه تعالى عليكم، ومن رحمته بكم، ولعلكم بعد ذلك تشكروننا على آلائنا ونعمنا، فإن من شكرنا زدناه من خيرنا وعطائنا.[٢]

المطلب الثالث: المثل بالظواهر الطبيعية

تشبيهات القرآن تستمد عناصرها من الظواهر الطبيعية (الرعد– البرق– الرياح– المطر– السراب) وهي ظواهر يراها الناس جميعاً، فيغريهم ويغرهم مرآها ويصورها الله تعالى بصور قوية توقظ الغافل وتهز الاعماق وتشغل العقل بأعمال التفكير والتفكر، وهذه الصور تناولها السبحاني في تفسيره وحسب ورودها في السور مبينا فيها عظمة الله تعالى وبديع تصوره لها والعبرة منها **وتوردها الباحثة** حسب مجيئها في السور:

التمثيل الأول: حال المنافق كحال من أحاطت به الصواعق

–قال تعالى:﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ * يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾. [٣]

بدأ السبحاني تفسير الآيات ببيان حقيقة التمثيل الوارد في الآية بعد بيان المفردات[٤] المتعلقة بالآية إذ قال: "إن حال المشبه يعرف من حال المشبه به، فالمهم هو التعرف على

---

(١) روح المعاني للآلوسي، ١٨١/٢٢.

(٢) ينظر: روح المعاني للآلوسي: ١٨١/٢٢، الوسيط للطنطاوي: ٣٣٥/١١.

(٣) سورة البقرة، الآيتان / ١٩، ٢٠.

(٤) "الصيب" في اللغة: المطر، وكل نازل من علو إلى أسفل. ينظر: العين للفراهيدي: ١٦٦/٧، مادة (صوب). "الرعد" في اللغة: هو الصوت الذي يسمع في السحاب أحيانا عند تجمعه. ينظر: الصحاح للجوهري: ٤٧٤/٢، مادة (رعد). "البرق" في اللغة: هو الضوء الذي يلمع في السحاب. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٢٢١/١، مادة (برق). وفي الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "لمع في الأفق حيث لا سحاب، وأسباب هذه الظواهر اتحاد شحنات السحاب=

المشبه بـه. والامعان فـي الآيات يثبت بـأن التمثيل يبتدئ من قولـه: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ وينتهـي بقولـه:﴿ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾. وأما قولـه:﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ جملـة معترضـة جيء بها فـي أثنـاء التمثيل، وقولـه بعد انتهـاء التمثيل:﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ يرجع إلى المشبه. هذا ما يرجع إلى مفردات الآيات وكيفية انسجامها".[١]

رسم السبحاني التمثيل وهو مـا ذهب اليـه بعض المفسرين إذ قـال: "فلنفترض أن قومـا كانوا يسيرون فـي الفلوات وسط أجواء سادها الظـلام الدامس، فإذا بصيب من السماء يتساقط عليهم بغزارة، فيه رعود قاصفة وبروق لامعة تكاد تخطف الأبصار من شدتها وصواعق مخيفة، فتولاهم الرعب والفزع والهلـع ممـا حدا بهم إلـى أن يجعلوا أصـابعهم فـي آذانهم خشـية المـوت للحيلولة دون سماع ذلك الصوت المخيف، فعندئذ وقفوا حيارى لا يدرون أين يولون وجوههم، فإذا ببصيص من البرق أضاء لهم الطريق فمشوا فيه هنيئة، فلما استتر ضوء البرق أحاطت بهم الظلمة مرة أخرى وسكنوا عن المشي. ونستخلص من هذا المشهد أن الهول والرعب والفزع والحيرة قد استولى على هؤلاء القوم لا يدرون ماذا يفعلون، وهذه الحالة برمتها تصدق على المنافقين".[٢]

قرب السبحاني التمثيل ببيانين وهو ما ذهب اليه الرازي **تذكرهما الباحثة** كما يآتي:

البيـان الأول: التطبيـق المفرق لكل مـا جـاء مـن المفـردات فـي المشبه بـه، كالصـيب والظلمات والرعد والبرق، على المشبه، وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين[٣]: إذ ذكر الطبرسي في ذلك **وجوها تذكر الباحثة** بعضاً منها للفائدة:

=الموجبة بالسالبة كما تقرر ذلك في علم الطبيعيات". مفاهيم القرآن، ٩/ ٨١، الأمثال للسبحاني، ص ٨١. "الصاعقة" في اللغة: نار عظيمة تنزل أحيانا أثناء المطر والبرق. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٠/ ١٩٨، مادة (صعق). وفي الاصطلاح عرفها السبحاني بأنها: "تفريغ الشحنات التي في السحاب بجاذب يجذبها إلى الأرض". مفاهيم الفرآن، ٩/ ٨١. "والإحاطة بالشئ" في الاصطلاح عرفها السبحاني بأنها: "الإحداق به من جميع الجهات". مفاهيم القرآن، ٩/ ٨١. "الخطف" في اللغة: السلب والأخذ بسرعة. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فاس: ١٩٦/٢، مادة (خطف). "وإذا أظلم" في الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "إذا خفت ضوء البرق". مفاهيم القرآن، ٩/ ٨١، الأمثال للسبحاني، ص٨١.

[١] مفاهيم القرآن، ٨١/٩، الأمثال للسبحاني، ص٨١.

[٢] مفـاهيم القـرآن، ٩/ ٨١ – ٨٢، الأمثـال للسـبحاني، ص ٨١ – ٨٢ وينظـر: القـرآن العزيـز لأبـن زمنـين: ١٢٥/١، الأمثال لأبن شريف: ص١٦.

[٣] ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٢٦/١، مدارك التنزيل للنسفي: ٢٣/١، الكشاف للزمخشري: ١/ ٢١١، مجمع البيان للطبرسي: ١١٨/١.

الوجه الأول: "إنه شبه المطر المنزل من السماء بالقرآن، وما فيه من الظلمات بما في القرآن من الابتلاء، وما فيه من الرعد بما في القرآن من الزجر، وما فيه من البرق بما فيه من البيان، وما فيه من الصواعق بما في القرآن من الوعيد آجلا، والدعاء إلى الجهاد عاجلا.

الوجه الثاني: إنه مثل للدنيا. شبه ما فيها من الشدة والرخاء بالصيب الذي يجمع نفعا وضررا، وإن المنافق يدفع عاجل الضرر، ولا يطلب آجل النفع.

الوجه الثالث: إنه مثل للإسلام لأن فيه الحياة كما في الغيث الحياة، وشبه ما فيه من الظلمات بما في إسلامهم من إبطان الكفر، وما فيه من الرعد بما في الإسلام من فرض الجهاد وخوف القتل، وبما يخافونه من وعيد الآخرة لشكهم في دينهم، وما فيه من البرق بما في إظهار الإسلام من حقن دمائهم ومناكحتهم وموارثتهم، وما فيه من الصواعق كما في الإسلام من الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل".[١] "شبه دين الإسلام بالصيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وما يصيبهم من الإفزاع والبلايا من جهة أهل الإسلام بالصواعق"،[٢] "الإسلام للناس ونظام اجتماعهم كالمطر الصيب فيه حياتهم وسعادتهم في الدارين وزهرة الأرض بالعدل والصلاح والأمن وحسن الاجتماع، ولكن معاندة المعاندين للحق وأهله جعلت الإسلام كالمطر لا يخلو من ظلمات شدائد وحروب ومعاداة من المشركين ورعود قتل وقتال وتهديدات مزعجات لغير الصابرين من ذوي البصائر والذين أرخصوا نفوسهم في سبيل الله ونيل السعادة، وفيه بروق من النصر وآمال الظفر واغتنام الغنائم وعز الانتصار والمنعة والهيبة. فهم إذا سمعوا صواعق الحرب أخذهم الهلع والحذر من القتل وشبهت حـــالهم في ذلك بأنهم ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ﴾ أجل ﴿ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ وخوفا من أن تخلع قلوبهم من هول أصواتها، وسفها لعقولهم أين يفرون عن الموت وماذا يجديهم حذرهم والله محيط بالكافرين".[٣]

البيان الثاني: التطبيق المركب، وهو أن الغاية من وراء هذا التمثيل أمور ثلاثة ترجع الى بيان حالة المنافقين، إذ قال الزمخشري في هذا الصدد: "والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة لا يتكلف لواحد واحد

---

(١) مجمع البيان للطبرسي، ١١٨/١ وينظر: معجم الأمثال لسميح عاطف،: ٤٩٠ -٤٩١.

(٢) مدارك التنزيل للنسفي، ٢٣/١، الكشاف للزمخشري، ١/ ٢١١ وينظر: الأمثال لابن قيم: ص٩.

(٣) الآء الرحمن للبلاغي، ٧٤/١.

شيء يقدر شبهه به وهو القول الفصل والمذهب الجزل"، [١] وهو ما ذهب اليه السبحاني إذ قال: " إذا عرفت ذلك، فإليك البحث في **الأمور الثلاثة:**

الأول: إحاطة الرعب والهلع بالمنافقين إثر انتشار الإسلام في الجزيرة العربية ودخول القبائل فيه وتنامي شوكته، مما أوجد رعبا في قلوبهم وفزعا في نفوسهم المضطربة، ويجدون ذلك بلاء أحاط بهم كالقوم الذين يصيبهم الصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق وإليه أشار قوله سبحانه:﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾.

الثاني: إن النبي (ﷺ) لما كان يخبرهم عن المستقبل المظلم للكافرين والمدبرين عن الإسلام والإيمان خصوصا بعد الموت صار ذلك كالصاعقة النازلة على رؤوسهم فكانوا يهربون من سماع آيات الله ويحذرون من صواعق براهينه الساطعة، مع أن هذا هو منتهى الحماقة، لأن صم الآذان ليس من أسباب الوقاية من أخذ الصاعقة ونزول الموت وإلى ذلك يشير قوله سبحانه:﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

الثالث: كان النبي (ﷺ) يدعوهم إلى أصل الدين ويتلو عليهم الآيات البينة ويقيم لهم الحجج القيمة، فعنئذ يظهر لهم الحق، فربما كانوا يعزمون على اتباعه والسير وراء أفكاره، ولكن هذه الحالة لم تدم طويلا، إذ سرعان ما يعودون إلى تقليد الآباء، وظلمة الشهوات والشبهات، وإلى ذلك يشير قوله سبـــــحانه:﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾. إلى هنا تم التطبيق المركب لكن في مقاطع ثلاثة".[٢] وذهب الرازي الى أن المثل مركب من وجوه **تذكر الباحثة** بعضا منها للإختصار وهو ما إستحسنته: " **أحدهما:** إن المطر وإن كان نافعاً إلا أنه لما وجد في هذه الصورة مع هذه الأحوال الضارة صار النفع به زائلاً، فكذا إظهار الإيمان نافع للمنافق لو وافقه الباطن، فإذا فقد منه الإخلاص وحصل معه النفاق صار ضرراً في الدين، **وثانيهما:** إن من نزل به هذه الأمور مع الصواعق ظن المخلص منها أن يجعل أصابعه في أذنيه وذلك لا ينجيه مما يريده تعالى به من هلاك وموت، فلما تقرر ذلك في العادات شبه تعالى حال المنافقين في ظنهم أن إظهارهم للمؤمنين ما أظهروه ينفعهم، مع أن الأمر في الحقيقة ليس كذلك بما ذكر، **وثالثهما:** إن من هذا حاله فقد بلغ النهاية في الحيرة لاجتماع أنواع الظلمات وحصول أنواع المخافة، وحصل في المنافقين نهاية الحيرة في باب الدين ونهاية الخوف في الدنيا لأن المنافق يتصور في كل وقت أنه لو حصل الوقوف على

---

[١] الكشاف للزمخشري، ١/ ١٦٢ –١٦٣.

[٢] مفاهيم القرآن، ٩/ ٨٤، الأمثال للسبحاني، ص٨٤.

باطنه لقتل، فلا يكاد الوجل والخوف يزول عن قلبه مع النفاق".[١] "إنهم كالذي أخذه صيب السماء ومعه ظلمة تسلب عنه الابصار والتمييز، فالصيب يضطره إلى الفرار والتخلص، والظلمة تمنعه ذلك، والمهولات من الرعد والصاعقة محيطة به فلا يجد مناصا من أن يستفيد بالبرق وضوئه وهو غير دائم ولا باق متصل كلما أضاء له مشى وإذا أظلم عليه قام. وهذه حال المنافق فهو لا يحب الايمان ولا يجد بدا من اظهاره، ولعدم المواطأة بين قلبه ولسانه لا يستضئ له طريقه تمام الاستضائة، فلا يزال يخبط خبطا بعد خبط ويعثر عثرة بعد عثرة فيمشي قليلا ويقف قليلا ويفضحه الله بذلك ولو شاء الله لذهب بسمعه وبصره فيفتضح من أول يوم"،[٢] "إن هذا الصنف لم تتطمس بصيرته انطماسا تاما، بل يتلامع له نور الحق احيانا فيراه، فيسير فيه قليلا، ويسمع انذارات آيات الله احيانا فيرهب، لكنه إذا اشتدت عليه سد سمعه عنها، وهو بعد ذلك يعود الى حالته الاولى".[٣]

ختم السبحاني تفسيره للتمثيل بالقول: "إنه سبحانه أعقب التمثيل بقوله:﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي: إنه سبحانه قادر أن يجعلهم صما وعميا حتى لا ينجع فيهم وعظ واعظ ولا تجدي هداية هاد. وذهاب سمعهم وأبصارهم نتيجة أعمالهم الطالحة التي توصد باب التوفيق أمامهم فيصيرون صما وبكما وعميا. ثم إن الآيات القرآنية تفسر تلك الحالة النفسية التي كانت تسود المنافقين في مهجر النبي(ﷺ) حيث كانوا في حيطة وحذر من أن تنزل عليهم سورة تكشف نواياهم، إذ يشير إليه قوله سبحانه:﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[٤] ومن جانب آخر يشاهدون تنامي قدرة الإسلام وتزايد شوكته على وجه يستطيع أن يقطع دابرهم من أديم الأرض، يقول سبحانه:﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾.[٥]هذا بعض ما يمكن أن يقال حول التمثيل الوارد في حق المنافقين، ولكن المهم تطبيق هذا التمثيل على منافقي عصرنا، فدراسة حال المنافقين في عصرنا هذا من أهم وظيفة

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي، ٧٨/٢.
(٢) الميزان للطباطبائي، ٥٦/١.
(٣) أمثال القرآن لحنبكة، ص٣٥٩.
(٤) سورة التوبة، الآية /٦٤.
(٥) سورة الاحزاب، الآيتان / ٦٠، ٦١.

المفسر، فإن حقيقة النفاق واحدة، ترجع إلى إظهار الإيمان وإبطان الكفر لغاية الإضرار بالإسلام والمسلمين، وهم يقيمون في خوف ورعب، وفي الوقت نفسه صم بكم عمي فهم لا يرجعون".[١]

وتخلص الباحثة: إن هذه الآيات وإن كانت تتحدث عن المنافقين في عصر نزول الوحي الا إنها تمتد لتشمل كل المنافقين في التاريخ، ولا يختلف دور أولئك المنافقين على عهد رسول الله (ﷺ) عن الدور الذي يقوم به المنافقون اليوم لمناهضة الجماعات الإسلامية، وإعلان الحروب الصليبية على الاسلام والمسلمين، ومنع المسلمات من إرتداء حجاب الرأس في المدارس والمؤسسات والجامعات أو الاماكن الحكومية في فرنسا منذ عام (٢٠٠٤) فهي تمنع ارتداء جميع ما يرمز إلى الدين بشكل صريح، والصور المسيئة لشخصية الرسول الكريم (ﷺ) في عدد من الدول الاوربية، ومحاصرة الشعوب (الفسلطيني واليمني) كي يموتوا في الفقر والجوع والمرض وكثير مما لا يسع المجال لذكرها. فتلك في الامور الظاهرة أما في الخفاء أعظم فما كان من الدسائس والمؤامرات لإحداث الفتن والتفرقة بين البلاد الاسلامية بل البلد الواحد مثلما حدث في العراق بعد الاحتلال (٢٠٠٣ م) والتركيز على الطائفية أمضى من أي سلاح. لذا يجدر بنا اليوم اليقظة والحذر والانتباه الى جدية الاخطار التي تحيط بنا وكفانا ما مر بنا من امور تشيب منها الرؤوس.

التمثيل الثاني: مثل إخراج الموتى كإخراج النبات

-قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۤ حَتَّىٰۤ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالاً سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ * وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأَيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَشۡكُرُونَ ﴾.[٢]

بدأ السبـــحاني تفسير الآيات وتوضيح أركان التمثيل بعد توضيح بعض مفرداتها[٣] إذ

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٨٤ -٨٥، الأمثال للسبحاني، ص٨٤ -٨٥ وينظر: الأمثل للشيرازي: ١٠٨/١.

(٢) سورة الاعراف، الآيتان / ٥٧، ٥٨.

(٣) "أقل" في اللغة: وهو حمل الشئ بأسره. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٥٦٥/١١، مادة (قلال). و"النكد" في الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "العسر الممتنع من إعطاء الخير". مفاهيم القرآن، ٩/ ١٣٥."البلد الطيب" في الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "الأرض الطيب ترابها، ففي مثلها يخرج الزرع ناميا زاكيا من غير كد ولا عناء، كل ذلك بإذنه سبحانه". وعرف "البلد الخبيث" بأنه: "الأرض السبخة التي خبث ترابها لا يخرج ريعها إلا شيئا قليلا، وكأنها لا تعطي إلا شيئا قليلا وهو بالعسر". وعرف تصريف الآيات بأنه: "عبارة عن تكررها". مفاهيم القرآن، ١٣٥/٩.

قال: "ذكر سبحانه في الآية الأولى بأنه يرسل الرياح مبشرة برحمته، فإذا حملت سحابا ثقالا بالماء ساقه سبحانه إلى بلد ميت فتحيا به الأرض وتؤتي ثمراتها"،[١] وهذا ما ذهب إليه أغلب المفسرين[٢]: "الله الذي يرسل الرياح لیناً هبوبها، طيبا نسيمها، أمام غيثه الذي يسوقه بها إلى خلقه، فينشئ بها سحابا ثقالا، حتى إذا أقلتها، حملها، ساقه الله لإحياء بلد ميت قد تعفت مزارعه ودرست مشاربه وأجدب أهله، فأنزل به المطر وأخرج به من كل الثمرات".[٣] أتم السبحاني تفسير الآيات بالقول: "عاد سبحانه في الآية الثانية إلى القول بأن هطول المطر وسقي الأرض جزء مما يتوقف عليه خروج النبات، وهناك شرط آخر وهو أن تكون الأرض خصبة صالحة للزراعة دونما إذا كانت خبيثة، هذا هو حال المشبه به. وأما المشبه فهو أنه سبحانه يشبه المؤمن بأرض طيبة تلين بالمطر ويحسن نباتها ويكثر ريعها، كما تشبه قلب الكافر بالأرض السبخة لا تنبت شيئا، فقلب المؤمن كالأرض الطيبة وقلب الكافر كالأرض السبخة"،[٤] "المكان العذب الزكي اللين من الأرض يخرج نباته إذا أمطرت فينتفع به كذلك المؤمن يسمع الموعظة فتدخل في قلبه فينتفع بها وينفعه القرآن كما ينفع المطر البلد الطيب، الأرض السبخة لا يخرج نباتها إلا من كد وعناء فكذلك الكافر لا يسمع الموعظة ولا يتكلم بالإيمان ولا يعمل بالطاعة إلا كرها لغير وجه الله"،[٥] "إن هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر بالأرض الخيرة والأرض السبخة، وشبه نزول القرآن بنزول المطر، فشبه المؤمن بالأرض الخيرة التي نزل عليها المطر فيحصل فيها أنواع الأزهار والثمار، وأما الأرض السبخة فهي وإن نزل المطر عليها لم يحصل فيها من النبات إلا النزر القليل، فكذلك الروح الطاهرة النقية عن شوائب الجهل والأخلاق الذميمة إذا اتصل به نور القرآن ظهرت فيه أنواع من الطاعات والمعارف والأخلاق الحميدة، والروح الخبيثة الكدرة وإن اتصل به نور القرآن لم يظهر فيه من المعارف والأخلاق الحميدة إلا القليل".[٦]

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٣٦، الأمثال للسبحاني، ص١٣٦.

(٢) ينظر: معاني القرآن للنحاس: ٤٥/٣، التبيان للطوسي: ٤/ ٤٣٠-٤٣١، الكشاف للزمخشري: ٢/ ٨٤، جوامع الجامع للطبرسي: ٦٦٤/١، أنوار التنزيل للبيضاوي: ١٧/٣.

(٣) جامع البيان للطبري، ٨/ ٢٧٣.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ١٣٦، الأمثال للسبحاني، ص١٣٦ وينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ١/ ٥٣٩، حقائق التفسير للسلمي: ٢٣١/١، زاد المسير لابن الجوزي: ١٤٩/٣.

(٥) بحر العلوم للسمرقندي، ٥٣٩/١.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ١٤/ ١٤٤.

تذهب الباحثة الى: إن الآيات الحاضرة في الحقيقة إشارة إلى مسألة مهمة تتجلى في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى، وهي أن الله سبحانه هو الذي يثير الرياح ويصرفها كيف يشاء ويسوقها لمن يشاء وينزلها على من يشاء وكلها بإرادته وقدرته وتدبيره في الأرض، إذ إن "هذه وحدها لا تكفي للإثمار والإنتاج الصحيح المطلوب، بل لابد من (قابلية القابل) فهي شرط للتأثير والإثمار. فإنه ليس هناك شئ ألطف وأكثر بعثا للحياة والنشاط من حبات المطر، ولكن هذا المطر نفسه الذي لا شك في لطافة طبعه، يورق ويورد في مكان، وينبت الشوك والحنظل في مكان آخر".[١]

التمثيل الثالث: تشبيه الحياة الدنيا وفنائها بالنبات المحصود

-قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٢]

بدأ السبحاني تفسير الآيات بتفسير مفردات الآيات قائلاً: "﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ فلو قلنا بأن الباء للمصاحبة، يكون معناه: أي اختلط مع ذلك الماء نبات الأرض، لأن المطر ينفد في خلل النبات، وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٣] وإن كانت الباء للسببية يكون المراد: أنه اختلط بسبب الماء بعض النبات ببعض حيث إن الماء صار سببا لرشده والتفاف بعضه ببعض، وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٤]، ومنهم من قال بالتفسيرين أي: خلط المطر بالنبات، والنبات بالمطر، ومنهم السبحاني.[٥] وفسر قوله تعالى: ﴿ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ بتفسير النسفي إذ قال: "تعبير رائع حيث جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل

---

(١) الأمثل للشيرازي، ٨٤/٥.

(٢) سورة يونس، الآيتان / ٢٤، ٢٥.

(٣) ينظر: الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٨/ ٣٢٦،

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٣٣/١١، الكشاف للزمخشري: ٢٣٣/٢، زاد المسير لابن الجوزي: ١٩/٤، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٣/ ١١٠، الأمثال ابن قيم: ص١٢.

(٥) ينظر: معاني القرآن للنحاس: ٢٨٧/٣، التبيان للطوسي: ٣٦٣/٥، تفسير القرآن للسمعاني: ٣٧٦/٢، جوامع الجامع للطبرسي: ١٢١/٢، مفاتيح الغيب للرازي: ٧٢/١٧، مفاهيم القرآن: ٩/ ١٤٦، الامثال للسبحاني: ص١٤٦.

بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين"،[١] وذلك لأن التزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء. فجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون، وتزينت بجميع الألوان الممكنة في الزينة من حمرة وخضرة وصفرة وذهبية وبياض، ولا شك أنه متى صار البستان على هذا الوجه، وبهذه الصفة، فإنه يفرح به المالك ويعظم رجاؤه في الانتفاع به، ويصير قلبه مستغرقاً فيه".[٢] اما قوله: ﴿قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ فسره قائلاً: "متمكنون من استثمارها والانتفاع بثبوتها. وقـــــوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ كناية عن نزول بعض الآفات على الجنات والمزارع"،[٣] "ضرب زروعها ببعض العاهات بعد أمنهم وإيقانهم أنه قد سلم".[٤] "إذ يجعلها ﴿حَصِيدًا﴾ شبيها بما يحصد من الزرع في استئصاله، قوله: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ﴾ بمنزلة قوله: كأن لم ينبت زرعها. قوله: ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ فهو من أوصاف الجنة، لأن أهلها سالمون من كل مكروه، بخلاف المقام فإنها دار البلاء"[٥] "إن السلام هو الله عز وجل، وداره التي خلقها لعباده ولأوليائه".[٦]

فسر السبحاني الآيات تفسيرها الإجمالي واوضح اركان التمثيل إذ قال: " نفترض أرضا خصبة رابية صالحة لغرس الأشجار وزرع النبات وقد قام صاحبها باستثمارها من خلال غرس كل ما ينبت فيها، فلم يزل يتعاهدها بمياه الأمطار والسواقي، فغدت روضة غناء مكتظة بأشجار ونباتات متنوعة، وصارت الأرض كأنها عروس تزينت وتبرجت، وأهلها مزهوون بها يظنون أنها بجهدهم ازدهرت، وبإرادتهم تزينت وأنهم أصحاب الأمر لا ينازعهم فيها منازع. فيعقدون عليها آمالا طويلة، ولكن في خضم هذه المراودات يباغتهم أمره سبحانه ليلا أو نهارا فيجعل الطري يابسا، كأنه لم يكن هناك أي جنة ولا روضة. هذا هو المشبه به والله سبحانه يمثل الدنيا بهذا المثل، وهو أن الإنسان ربما يغتر بالدنيا ويعول الكثير من الآمال عليها مع سرعة زوالها وفنائها، وعدم ثباتها واستقرارها".[٧]

---

(١) مدارك التنزيل للنسفي، ١٢٤/٢ وينظر: الكشاف للزمخشري: ٢/ ٢٣٣، مفاهيم القرآن، ٩/ ١٤٦ – ١٤٧، الأمثال للسبحاني، ص١٤٦ – ١٤٧.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ٧٣/١٧.

(٣) مفاهيم القرآن: ٩/ ١٤٧، الأمثال للسبحاني: ص١٤٧.

(٤) جوامع الجامع للطبرسي، ١٢٢/٢، زبدة التفاسير لفتح الله، ٢٠٢/٣.

(٥) مفاهيم القرآن: ٩/ ١٤٧، الأمثال للسبحاني: ص ١٤٧ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٣ / ٢٠٣.

(٦) الأصفى للفيض الكاشاني، ٥٠٩/١.

(٧) مفاهيم القرآن: ٩/ ١٤٧، الأمثال للسبحاني: ص ١٤٧.

ذهب الطوسي الى: أن هذا التمثيل من قبيل التمثيل المفرد، فذكر أقوالاً **تذكرها الباحثة** للفائدة: إذ قال: "**أحدها:** إنه تعالى شبه الحياة الدنيا بالنبات على ما وصفه الله تعالى في الاغترار به والمصير إلى الزوال كالنبات الذي يصير إلى مثل ذلك. ذكر الرازي وجوها لهذا القول **تذكر الباحثة** بعضاً منها:

الوجه الأول: إن عاقبة هذه الحياة الدنيا التي ينفقها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه، لأن الغالب أن المتمسك بالدنيا إذا وضع عليها قلبه وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت.

الوجه الثاني: وفي التشبيه أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد.

الوجه الثالث: لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد، وذلك لأنا نرى الزرع الذي قد انتهى إلى الغاية القصوى في التربية، قد بلغ الغاية في الزينة والحسن. ثم يعرض للأرض المتزينة به آفة، فيزول ذلك الحسن بالكلية، ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى.[١] **والثاني:** إنه شبه الحياة الدنيا بالماء فيما يكون به من الانتفاع ثم الانقطاع. **والثالث:** إنه شبه الحياة الدنيا بحياة مقدرة على هذه الأوصاف"،[٢] شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارا منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس.[٣]

ختم السبحاني تفسيره للآيات بالقول: "الحق أنه من قبيل الاستعارة التمثيلية إذ يعبر عن عدم الاعتماد والاطمئنان بالدنيا بما جاء في المثل، وإنما اللائق بالاعتماد هو دار السلام الذي هو سلام على الإطلاق وليس فيها أي مكروه. إذ قيد سبحانه في الآية دار السلام، بقوله:﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾،[٤] للدلالة على قرب الحضور وعدم غفلتهم عنه سبحانه هناك".[٥]

تخلص الباحثة: إن قطرات المطر تسقط على أنواع الأراضي كافة فتتميز التي لها قابلية الحياة بتلك القطرات وبها ستنمو مختلف النباتات وتغطي سطح الأرض وتضفي عليها

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٧٤/١٧.
(٢) التبيان للطوسي، ٣٦٣/٥، مجمع البيان للطبرسي، ١٧٥/٥.
(٣) ينظر: الامثال لابن قيم: ص١٣، الامثال لأبن شريف: ص٤٩.
(٤) سورة الانعام، من الآية /١٢٧.
(٥) مفاهيم القرآن: ٩/ ١٤٨، الأمثال للسبحاني: ص ١٤٨.

طابعا من الجمال حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وأعطت ذلك المنظر الزاهي الذي يريح النظر ويشفي الصدر، وتملأ القلوب بالأمل إذ يظن أهلها أنهم قادرون عليها. وفي هذه صورة غير مرتقبة يصدر أمر الله تعالى بتدميرها وجعلها كأن لم تكن شيئا مذكورا. إن ما ذكر أعلاه تجسيم واضح وصريح عن الحياة الدنيوية السريعة الانقضاء والخداعة، والمليئة بالتزاويق والزخارف، فلا دوام لثرواتها ونعيمها، ولا هي مكان أمن وسلامة. لذلك قال الرسول الكريم محمد (ﷺ): ((كن كأنك في الدنيا غريب أو كعابر سبيل، وعد نفسك من أصحاب القبور، إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح))،[١] هذا لا يمنع من ان تكون "الدنيا مزرعة يبذر فيها صالح العمل وصحيح العقيدة، وينشر في أرجائها الهدى والسلام، ليجني في آخرته الجزاء الخالص والخير الخالد".[٢] فحالة التوسط هي المطلوبة لا افراط ولا تفريط.

التمثيل الرابع: تشبيه أعمال الكافرين بالسراب

-قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾.[٣]

بدأ السبحاني تفسير الآية موضحا أركان التمثيل بعد التعريف اللغوي لبعض مفرداتها[٤] قائلاً: "يشبه سبحانه أعمال الكفار بالسراب، ولعل المشبه هو حسناتهم. إذ قـــــال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ أي ما يعملون من الطاعات ويقدمون من قرابين وأذكار يتقربون بها إلـى آلهتهم، مثلها ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ﴾".[٥] ثم وصف السبحاني الظمآن بصفات عدة **تذكرها الباحثة** على النحو الآتي:

---

[١] الوافي للفيض الكاشاني، ٢٦ /١٨٦، أبواب (المواعظ)، باب (مواعظ رسول اللّه (ﷺ)) وينظر: سنن الترمذي: ٣٨٨/٣، باب (ما جاء في قصر الأمل)، رقم الحديث (٢٤٣٥)، المصنف، لابن أبي شيبة الكوفي (ت ٢٣٥ هـ)، تحقيق: سعيد اللحام، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط١، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م: ١٢٤/٨، ٣٦ - كتاب (الزهد ما ذكر في زهد الأنبياء....)، (ما ذكر عن نبينا (ﷺ) في الزهد)، رقم الحديث (٣)، وهو حديث صحيح.

[٢] الأمثال لأبن شريف، ص٤٩.

[٣] سورة النور، الآية / ٣٩.

[٤] "السراب": ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١/ ٤٦٥، مادة (سرب). "القيعة": بمعنى القاع أو جمع قاع، وهو المنبسط المستوي من الأرض. ينظر: تاج العروس للزبيدي: ٤١٣/١١، مادة (قوع). "الظمآن": هو العطشان. ينظر: لســـــان العرب لابن منظور: ١/ ١١٦، مادة (ظمأ)، مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١١، الأمثال للسبحاني، ص٢١١.

[٥] مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١١، الأمثال للسبحاني، ص٢١١.

"**الأولى:** حسبان السراب ماء، كما قال سبحانه:﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾ .

الثانية: إذا وصل إلى السراب لم يجده شيئا نافعا، قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ وإنما خص الظمآن به مع أن السراب يتراءى ماء لكل راء، لأن المقصود هو مجيء الرائي إلى السراب، ولا يجيئه إلا الظمآن ليرتوي ويرفع عطشه، "﴿والتعبير بقوله:جَآءَهُۥ ﴾ دون أن يقال: بلغه أو وصل إليه أو انتهى إليه ونحوها للايماء إلى أن هناك من يريد مجيئه وينتظره انتظارا وهو الله سبحانه".[١]

الثالثة: عندما يشرف على السراب لا يجد فيه ماء، ولكن يجد الله سبحانه عنده، قال سبحانه:﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾. وهذا خبر عن الظمآن، ولكن المقصود منه في هذه الجملة هو الكافر، والمعنى وجد أمر الله ووجد جزاء الله، وذلك عند حلول أجله وإشرافه على الآخرة. فالكافر يتصور أن ما يقدم من قرابين وأذكار سوف ينفعه عند موته وبعده، وسوف تقوم الآلهة بالشفاعة له، ولكن يتجلى له خلاف ذلك وأن الأمر أمر الله لا أمر غيره فلا يجدون أثرا من ألوهية آلهتهم. فعند ذلك يجدون جزاء أعمالهم، كما يقول سبحانه: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾"،[٢] ومنهم من ذهب الى: إن "الذين جحدوا توحيد ربهم وكذبوا بهذا القرآن وبمن جاء به، مثل أعمالهم التي عملوها مثل سراب، يظن العطشان من الناس السراب ماء. حتى إذا جاء الظمآن السراب ملتمسا ماء يستغيث به من عطشه لم يجده شيئا، فكذلك الكافرون بالله من أعمالهم التي عملوها في غرور يحسبون أنها منجيتهم عند الله من عذابه، وحسب الظمآن الذي رأى السراب فظنه ماء يرويه من ظمئه حتى إذا هلك وصار إلى الحاجة إلى عمله الذي كان يرى أنه نافعه عند الله، لم يجده ينفعه شيئا لأنه كان عمله على كفر بالله، ووجد الله هذا الكافر ند هلاكه بالمرصاد، فوفاه يوم القيامة حساب أعماله التي عملها في الدنيا وجازاه بها جزاءه الذي يستحقه عليه منه"،[٣] "شبه ما يعمله من لا يعتقد الايمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم تخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء، فيأتيه فلا يجد ما رجاه

---

(١) الميزان للطباطبائي، ١٣١/١٥ وينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن الجزي: ٧١/٢.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١١، الأمثال للسبحاني، ص٢١١.

(٣) جامع البيان للطبري، ١٩٨/١٨ وينظر: معاني القرآن للنحاس: ٥٤١/٤، الكشف والبيان للثعلبي: ١١٠/٧، الأمثال لابن قيم: ص١٦، الأمثال لأبن شريف: ص٧١.

ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق"،[١] "السراب لا حقيقة له وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى"،[٢] "هذا في الظاهر خبر عن الظمآن، والمراد به الخبر عن الكافر".[٣] "وبذلك تبين أن الآية المباركة لبيان حال الظمآن الحقيقي إلى قوله:﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾، وأنها من قوله:﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ يرجع إلى الظمآن لكن بالمعنى المجازي وهو الكافر"،[٤] ومن المفسرين من قال: "وجد عقاب الله الذي توعد به الكافر عند ذلك فتغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم إلى تيقن الضرر العظيم، أو وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق".[٥]

ختم السبحاني تفسير الآية قائلاً: "حاصل التمثيل هو إن الطاعة والعبادة والقربات كلها لله تبارك وتعالى، فمن قدمها إليه وقام بها لأجله فقد بذر بذرة في أرض خصبة سوف ينتفع بها في لقائه سبحانه. وأما من عبد غيره وقدم إليه القربات راجيا الانتفاع به، فهو كرجاء الظمآن الذي يتصور السراب ماء فيجيئه لينتفع به ولكنه سرعان ما يرجع خائبا. إلى هنا تم ما يشترك فيه الظمآن والكافر، أي المشبه به والمشبه، ولكن المشبه، أعني: الكافر الذي شبه بالظمآن فهو يختص بأمور أخرى هي:

أولاً: إنه عند مجيئه إلى الانتفاع بأعماله يجد الله هو المجازي لا غير.

ثانياً: إنه سبحانه يجزيه بأعماله.

ثالثاً: فيوفيه حسابه".[٦] "وما ذلك إلا لأن الله سريع الحساب".[٧]

ترى الباحثة: إن صورة هذا التمثيل تدعونا لتفكر في نية العمل والعمل نفسه و الغاية منه فان إنحرفت واحدة منها عن الطريق القويم إنطبق عليه التمثيل المذكور.

---

(١) الكشاف للزمخشري، ٦٩/٣.

(٢) الأمثال لابن قيم، ص١٦.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي، ٣٦٦/٥، وينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٢١٣، الأمثال للسبحاني، ص ٢١٣.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١٢، الأمثال للسبحاني، ص٢١٢.

(٥) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٤/ ٨ وينظر: تلخيص البيان للرضي: ص٢٤٦، التبيان للطوسي: ٧/ ٤٤٢.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١٣، الأمثال للسبحاني، ص٢١٣.

(٧) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢١٣، الأمثال للسبحاني، ص٢١٣ وينظر: جوامع الجامع للطبرسي: ٦٢٤/٢، زبدة التفاسير لفتح الله: ٥١٧/٤، أمثال القرآن لحنبكة: ص١٣٢.

المبحث الثالث
ضرب المثل بأمور أخرى

التمهيد:

تستمر آيات الأمثال تصور النفوس والقلوب والأعمال والبعث والنشور والشيطان وغيره في موضاعات كثيرة متنوعة ومتشعبة من أمثال القرآن الكريم، التي هي من تجليات الجمال الإلهي الظاهرة في الجمال الكلامي للقرآن الكريم، فهي تشكل معلما بارزا من معالم منهاج القرآن العظيم فلا تغادر جانباً منها الا أعطته من التوضيح والتشخيص ما يجعله وسيلة من أهم الوسائل التي تظهر أفكارا ونماذج شاخصة أمام الناظرين فلا يملك الإنسان إلا أن يتمنى أن يأخذ تلك الأفكار والنماذج عبرة له في مسيره ومصيره.

المطلب الأول: ضرب المثل بالمشكاة

ضرب الله تعالى بالمشكاة مثلاً في آية فريدة في كل القرآن الكريم وهي فريدة في معناه أوضحه السبحاني في تفسيره وتبينه الباحثة بما ياتي:

-قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾.(١)

فسر السبحاني الآية بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفرداتها(٢) قائلاً: "إن أفخر أنواع الزيوت هو المأخوذ من شجرة الزيتون المغروسة في مكان تشرق عليه الشمس من كل الجوانب حيث تكون في غاية الصفاء وسريعة الاشتعال، بخلاف المغروسة في جانب الشرق أو جانب الغرب، فإنها لا تتعرض للشمس إلا في أوقات معينة"،(٣) إذ قال الطباطبائي وهو ما ذهب اليه السبحاني: "المراد بكون الشجرة لا شرقية ولا غربية، أنها ليست نابتة في الجانب الشرقي، ولا في الجانب الغربي حتى تقع الشمس عليها في أحد طرفي النهار، ويضئ الظل عليها في الطرف الآخر، فلا تنضج ثمرتها، فلا يصفو الدهن المأخوذ منها، فلا تجود الإضاءة".(٤)

أوضح السبحاني أركان التشبيه إذ قال: "المشبه به عبارة عن مشكاة فيها مصباح وعليها زجاجة، يوقد المصباح من زيت شجرة الزيتون المغروسة المتعرضة للشمس طول النهار على وجه يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، لأن الزيت إذا كان خالصا صافيا يرى من بعيد كأن له شعاعا فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوء. فالمشبه به هو النور المشرق من زجاجة مصباح، موقد من زيت جيد صاف موضوع على مشكاة، فإن نور المصباح تجمعه

---

(١) سورة النور، الآية /٣٥.

(٢) "المشكاة" في اللغة: كوة غير نافذة. ينظر: العين للفراهيدي: ٣٨٩/٥، مادة (شكو). وفي الاصطلاح عرفها السبحاني بأنها: "تتخذ في جدار البيت لوضع بعض الأثاث ومنها المصباح وغيره، وربما تكون الكوة مشرفة على ساحة الدار وتجعل بينها زجاجة، لتحفظ المصباح من الرياح، ولتضئ الساحة والغرفة معا.ومنه حافظة المصباح، وهي ما تصنع على شكل مخروطي توضع على المصباح لتحفظه من الرياح، وفي أعلاها ثقب يخرج منه الدخان". مفاهيم القرآن، ٢٠٥/٩. "المصباح" في اللغة: السراج. ينظر: العين للفراهيدي: ١٢٦/٣، مادة (صبح). وفي الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "آلة تتألف من أمور أربعة: أ: وعاء للزيت، ب: فتيل يشتعل بالزيت، ج: زجاجة منصوبة عليه، د: آلة التحكم بالفتيل". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٠٥، الأمثال للسبحاني، ص ٢٠٥.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٠٦، الأمثال للسبحاني، ص٢٠٦.

(٤) الميزان للطباطبائي، ١٢٤/١٥، مفاهيم القرآن، ٢٠٦/٩، وينظر: مجاز القرآن للتميمي: ٦٦/٢.

المشكاة وتعكسه فيزداد إشراقا".[١] "فأخذ المشكاة، لأجل الدلالة على اجتماع النور في بطن المشكاة وانعكاسه إلى جو البيت. واعتبار كون الدهن من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية للدلالة على صفاء الدهن وجودته المؤثر في صفاء النور المشرق عن اشتعاله. وجودة الضياء على ما يدل عليه كون زيته يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار. واعتبار كون النور على النور للدلالة على تضاعف النور أو كون نور الزجاجة مستمد من نور المصباح".[٢]

إختلف المفسرون في المشبه أو الممثل له، وفيه أقوال عدة ذكرها الرازي وأوردها السبحاني في تفسيره **تذكر الباحثة** بعضا منها مما يأتي:

القول الأول: "المشبه به هداية الله، إذ قد بلغت في الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات وصارت بمنزلة المشكاة التي تكون فيها زجاجة صافية وفي الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء. وأما عدم تشبيهها بضوء الشمس مع أنه أبلغ، فلأجل أن المراد وصف الضوء الكامل وسط الظلمة، لأن الغالب على أوهام الخلق وخيالاتهم إنما هي الشبهات التي هي كالظلمات، وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل الذي يظهر فيما بين الظلمات.[٣] وهو ما رجحه الرازي بسبب مطابقته في تفسير ما قبله إذ قال: "واعلم أن القول الأول هو المختار لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية:﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ ﴾،[٤] فإذا كان المراد بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾: أي مثل هذه وبيانه كان ذلك مطابقاً لما قبله، ولأن لما فسرنا قوله:﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ بأنه هادي أهل السماوات والأرض فإذا فسرنا قوله:﴿مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ بأن المراد مثل هداه كان ذلك مطابقاً لما قبله".[٥]

القول الثاني: "المراد هو القرآن، ويدل عليه قوله تعالى:﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾[٦]".[٧]

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٠٦، الأمثال للسبحاني، ص٢٠٦.

(٢) الميزان للطباطبائي، ١٥/ ١٢٤.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٧٩/١٨، أحكام القرآن للجصاص: ٤٢٣/٣، جوامع الجامع للطبرسي: ٦٢١/٢، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٣/ ٢٣٢، زبدة التفاسير لفتح الله: ٥٠٧/٤.

(٤) سورة النور، من الآية / ٣٤.

(٥) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٣/ ٢٣٢، مفاهيم القرآن، ٢٠٧/٩، الأمثال للسبحاني، ص٢٠٧.

(٦) سورة المائدة، من الآية / ١٥.

(٧) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ٩٩/٧.

القول الثالث: المراد هو الرسول، لأنه المرشد، ولأنه تعالى قال في وصفه:﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾،[١] ولعل مرجع القولين الأخيرين هو الأول، لأن القرآن والرسول من شعب هداية الله سبحانه وهو إنزال الكتب وبعثة الرسل.[٢]

القول الرابع: "إن المراد ما في قلب المؤمنين من معرفة الشرائع، ويدل عليه أنه تعالى وصف الإيمان بأنه نور والكفر بأنه ظلمة، فقال:﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.[٣] وقال تعالى: ﴿ لِيُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.[٤] وحاصله أن إيمان المؤمن قد قد بلغ في الصفاء عن الشبهات والامتياز عن ظلمات الضلالات مبلغ السراج المذكور. وعلى هذا فالتمثيل مفرد وهو تشبيه الهداية وما يقرب منها بنور السراج، ولا يجب أن يكون في مقابل كل ما للمشبه به من الأمور موجود في المشبه".[٥]

القول الخامس: "إن المراد من ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ هو: مثل نور الإيمان في قلب محمد (ﷺ) كمشكاة فيها مصباح، فالمشكاة نظير صلب عبد الله، والزجاجة نظير جسد محمد (ﷺ)، والمصباح نظير الإيمان في قلب محمد أو نظير النبوة في قلبه"،[٦] **وترى الباحثة:** إن هذا القول وهو من قبيل المصاديق، وهو من أعلى النماذج وأوضحها وأفضلها، ولكن تبقى الآية على عمومها أي أنها تعم بظاهرها الانبياء والاوصياء والأولياء نعم ليست الآية بعامة لجميع المؤمنين لاخذها في وصفهم صفات لا تعم الجميع.[٧]

القول السادس: "إن قوله: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ يرجع إلى المؤمن"،[٨] " وتقديره مثل النور الذي في قلبه بهداية الله"،[٩] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين [١٠]، ومنهم السبحاني إذ قال:

---

(١) سورة الأحزاب، من الآية / ٤٦.

(٢) ينظر: حقائق التفسير للسلمي: ٤٤/٢، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، لقطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ)، تحقيق: عبد اللطيف الكوهكمري، مطبعة الخيام، قم، ١٤٠٦ هـ: ٣٨٠/٢، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٣/ ٢٣٢، مفاهيم القرآن: ٢٠٨/٩، الأمثال للسبحاني: ص٢٠٨، تفسير غريب القرآن للطريحي: ص٢٨٢.

(٣) سورة الزمر، من الآية / ٢٢.

(٤) سورة أبراهيم، من الآية /١.

(٥) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٣/ ٢٣٣، وينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٥١٢/٢، حز الغلاصم في إفحام المخاصم، لشيث بن إبراهيم القناوي (ت٥٩٨هـ)، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت،١٤٠٥هـ: ص٨٢.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٣/ ٢٣٥، مفاهيم القرآن: ٩/ ٢١٠ وينظر: حقائق التفسير للسلمي: ٤٤/٢.

(٧) ينظر: الميزان للطباطبائي: ١٤١/١٥، التفسير المقارن للناصري: ٥/ ٤٨٩.

(٨) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٣٥/٢٣، مفاهيم القرآن: ٢١٠/٩، الأمثال للسبحاني: ص٢١٠.

(٩) أحكام القرآن للجصاص، ٤٢٣/٣، التبيان للطوسي، ٧/ ٤٣٧.

(١٠) ينظر: معاني القرآن للنحاس: ٥٣٤/٤، التبيان للطوسي: ٧/ ٤٣٧، الكتاب جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (ت٤٦٣ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ: ٢/ ٦٨، الوجيز للواحدي:=

"إن المشبه هو نور الله المشرق على قلوب المؤمنين، والمشبه به النور المشرق من زجاجة، وقوله سبحانه: ﴿ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾استئناف يعلل به اختصاص المؤمنين بنور الإيمان والمعرفة وحرمان غيرهم، ومن المعلوم من السياق أن المراد بقوله:﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ هم الذين يذكرهم الله سبحانه بقوله بعد هذه الآية:﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾،[١] فالمراد بـ ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ المؤمنون بوصف كمال إيمانهم".[٢] "والمعنى أن الله إنما هدى المتلبسين بكمال الإيمان إلى نوره دون المتلبسين بالكفر وذلك مما يختص به أهل الايمان دون أهل الكفر".[٣]

ختم السبحاني بتفسير قوله تعالى:﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾، بقول الطباطبائي قائلاً: "إشارة إلى أن المثل المضروب تحته طور من العلم، وإنما اختير المثل لكونه أسهل الطرق لتبين الحقائق والدقائق، ويشترك فيه العالم والعامي فيأخذ منه كل ما قسم له، قال تعالى:﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[٤]".[٥]

تذهب الباحثة الى: أن مفهوم هذه الآية أوسع بكثير مما ذكر من أقوال، فالنور أجمل وألطف ما في العالم، وهو مصدر لكل جمال ولطف، بالنور يمكن مشاهدة الأشياء في العالم، ومن دونه يستحيل رؤية أي شيء، فالنور ظاهر بنفسه ومظهر لغيره وهو النور الذي يجعله الله لعباده المؤمنين يستضيئون به في طريقهم إلى ربهم، أن كل مخلوق يرتبط بالله بمقدار معين يكتسب من النور بقدر ذلك الارتباط.

المطلب الثاني: تمثيل الحياة الدنيا باللعب واللهو

تنفتح عينا الأنسان الصغيرتان أول ما تنفتح على دنياهم المحيطة بهم، فتسحرهم وتبهرهم وتعجبهم بما فيها من مباهج وزينة ومتاع.....الخ. وتسير بهم في كل مجال ومكان تعرض عليهم العديد من خدعها وفتنها، فينخدع بها من ركن اليها واعطاها زمام القيادة لها في أموره وهو متخذها لعباً ولهواً، "إن حال الإنسان في كل ما يراه من الدنيا كحال النائم في المنام

= ٧٦٤/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٥٢٩/٣، معالم التنزيل للبغوي: ٣٤٥/٣، مدارك التنزيل للنسفي: ١٤٨/٣، التفسير العظيم لعبد السلام: ٤٠١/٢، الأمثال لإبن القيم: ص١٨، فيض القدير للمناوي: ٤٣٦/٤.

(١) سورة النور، من الآية /٣٧.

(٢) مفاهيم القرآن: ٩/ ٢١٠، الأمثال للسبحاني: ص ٢١٠ وينظر: الميزان للطباطبائي: ١٥/ ١٢٥.

(٣) الميزان للطباطبائي، ١٥/ ١٢٥ وينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٢١٠، الأمثال للسبحاني: ص ٢١٠.

(٤) سورة العنكبوت، الآية / ٤٣.

(٥) الميزان للطباطبائي، ١٥/ ١٢٥ وينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٢١٠، الأمثال للسبحاني: ص ٢١٠.

عن الرؤيا التي يراها ما هي إلا أمثال وحكايات لما هي حقائق موجودة في الخارج يحتاج إلى التعبير".[١] ولأن حب الدنيا مصدر كل رذيلة، ورأس كل خطيئة، مثل الله تعالى لها بآية ذكرها السبحاني **وتذكرها الباحثة** كما يأتي:

التمثيل الأول: تشبيه الحياة الدنيا بالغيث

-قال تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾.[٢]

بدأ السبحاني بالترسيم الإجمالي لمفهوم الآية بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفرداتها [٣] قائلاً: "الآية تتضمن أمرين: **الأمر الأول:** ترسيم الحياة الدنيا والمراحل المختلفة التي تمر على الإنسان: **أ:** اللعب، **ب:** اللهو، **ج:** الزينة، **د:** التفاخر، **هـ:** التكاثر في الأموال والأولاد. **والأمر الثاني:** تشبيه الدنيا بداية ونهاية بالنبات الذي يعجب الزارع طراوته ونضارته، ثم سرعان ما يتحول إلى عشب يابس تذروه الرياح"،[٤] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٥]: "إن متاع الحياة الدنيا المعجلة لكم، ما هي إلا لعب ولهو تتفكهون به، وزينة تتزينون بها، وتفاخر بينكم، يفخر بعضكم على بعض بما أولى فيها من رياشها وتكاثر في الأموال والأولاد، ويباهي بعضكم بعضا بكثرة الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم ييبس ذلك النبات فتراه مصفرا بعد أن كان أخضر نضرا. ثم يكون ذلك النبات حطاما، يعني به أنه يكون نبتا يابسا متهشما وفي الآخرة عذاب شديد".[٦]

---

(١) أسرار الآيات وأنوار البيّنات، لمحمد بن ابراهيم صدر الدين الشيرازي المعروف بـ صدر المتألهين (ت ١٠٥٠ هـ)، انتشارات بيدار، ايران، (ب – ط – ت): ص١١٣.

(٢) سورة الحديد، الآية/ ٢٠.

(٣) "الكفار" في اللغة: جمع الكافر بمعنى الساتر. ينظر: الصحاح للجوهري: ٨٠٧/٢، مادة (كفر). وفي الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "الزارع، ويطلق على الكافر بالله لستره الحق، والمراد في المقام الزارع، لأنه يستر حبه تحت التراب ويغطيها به". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٥٧. "هيج" في اللغة: هاج البقل يهيج، أي أصفر. ينظر: العين للفراهيدي: ٦٦/٤، مادة (هيج). وفي الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: " ييبس (فتراه مصفرا) أي إذا قارب اليبس". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٥٧."الحطام" في اللغة: بمعنى كسر الشئ. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٧٨/٢، مادة (حطم)، مفاهيم القرآن، ٢٥٧/٩.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٥٨، الأمثال للسبحاني، ص٢٥٨.

(٥) ينظر: التبيان للطوسي: ٥٢٨/٩، الكشاف للزمخشري: ٦٥/٤، جوامع الجامع للطبرسي: ٥٠٩/٣، زاد المسير لابن الجوزي: ٣٠٧/٧.

(٦) جامع البيان للطبري، ٣٠٢/٢٧ وينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٣٧٤/٥.

ختم السبحاني تفسير الآية بتوضيح التمثيل قائلاً: "التمثيل الذي يجسد حال الدنيا ويشبهها بأرض خصبة يصيبها مطر غزير، فيزدهر نباتها على وجه يعجب الزراع، ولكن سرعان ما تذهب طراوتها وتفارقها فيصيبها الاصفرار واليبس وتذروها الرياح في كل الأطراف وتصبح كأنها لم تكن شيئا مذكورا، وعند ذلك تتجلى الحقيقة أمام الإنسان وأنه اغتر بطراوة هذه الروضة. وهكذا حال الدنيا فيغتر الإنسان بها ويخلد إليها، ولكن سرعان ما تسفر له عن وجهها وتكشف عن لثامها، وعلى أية حال فالآية تهدف إلى تحقير الدنيا وتعظيم الآخرة"،[١] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين [٢]: إذ "أخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأُولي البصائر وأنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان واللعب واللهو لا حقيقة لهما وأنهما مشغلة للنفس مضيعة للوقت يقطع بها الجاهلون العمر فيذهب ضائعاً في غير شيء ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس فأخذت بالعيون وبالنفوس استحساناً ومحبة ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة ولما آثرتها على الآجل الدائم الذي هو خير وأبقى".[٣] "لجأ القرآن الى التشبيه يصور به فناء هذا العالم الذي نراه مزدهرا أمامنا، عامراً بألوان الجمال، فيخيل إلينا استمراره وخلوده، فيجد القرآن في الزرع يرتوي من الماء فيصبح بهيجا نضرا، يعجب رائيه، ولكنه لا يلبث أن يذبل ويصفر، ويصبح هشيما تذروه الرياح، يجد القرآن في ذلك شبها لهذه الحياة الدنيا، إذ أوجز القرآن في هذا التشبيه ليستقر معناه في النفس، ويحدث أثره في القلب".[٤]

تذهب الباحثة: إن ما كان من الدنيا، ما يقرب من اللَّه ويعين على عبادته، فهو المحمود بكل لسان المحبوب لكل إنسان، فمثل هذا لا يحقر ويذم ويسب ويعاب، بل يرغب فيه ويحب، إذ "ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه لهذه"،[٥] "لكن الناس مالكهم ومملوكهم وعالمهم وجاهلهم ومؤمنهم وكافرهم وإن اتحدوا في ذم

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٠، الأمثال للسبحاني، ص٢٦٠.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٦٥/٤، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٣٤/٢٩، القرآن العظيم لابن كثير: ٣٣٤/٤، الأمثال لإبن شريف: ص٥١ -٥٢.

(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ص٢١٠.

(٤) من بلاغة القرآن، لأحمد أحمد بدوي (ت ١٣٨٤ هـ)، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٥ م، ص٢٠٩.

(٥) عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ٤٤٨/١، ربيع الأبرار للزمخشري، ٣٧/١، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٠٨ هـ، ٢/ ١٦٩.

الدنيا الا أن طرائقهم فيها غاية التناقض، أتحدوا كلهم في المقدمة وأختلفوا في النتيجة، فمنهم المتكالبون عليها، المتفانون في جمع حطامها، ومنهم من عرف للدنيا هذه الحال، فانقطع عنها ونبذها ولم يعبأ منها الا بما يسد الخلة ويقيم الأود، فكان القسم الأول شديد التناقض، والثاني مفرّط".(١)

المطلب الثالث: تمثيل الأعمال بالظلمات والنور

تمثيل أخر يصوِّر لنا الأعمال من حيث خلوها عن نور الحق بصورة ظلمات، وملئها بالهدى والأيمان بالنور. إذ أن الظلام (المادي والمعنوي) مصدر دائم للتشتت والانفصال والتباعد، بينما النور رمز التوحد والتجمع. أورده الله تعالى في آياته الكريمات وذكرها السبحاني في تفسيره بحسب ورودها في القرآن الكريم، توردها الباحثة على النحو الآتي:

تمثيل عمل المنافق المتظاهر بالأسلام بالذي استوقد نارا

-قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ * ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ * مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ * صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾.(٢)

بدأ السبحاني تصوير التمثيل وتوضيح أركانه بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي لبعض مفردات(٣) آياته إذ قال: "وصف الله المنافقين بالتمثيل الآتي على **قولين: أحدهما:** نفترض أن أحدا، ضل في البيداء وسط ظلام دامس وأراد أن يقطع طريقه دون أن يتخبط فيه، ولا يمكن أن يهتدي -والحال هذه- إلا بإيقاد النار ليمشي على ضوئها ونورها ويتجنب المزالق الخطيرة، وما أن أوقد النار حتى باغتته ريح عاصفة أطفأت ما أوقده، فعاد إلى حيرته الأولى. فحال المنافقين كحال هذا الرجل حيث إنهم آمنوا بادئ الأمر واستناروا بنور الإيمان ومشوا في ضوئه، لكنهم استبدلوا الإيمان بالكفر فعمهم ظلام الكفر لا يهتدون سبيلا. هذا على القول بأن

---

(١) المصحف المفسر، لمحمد فريد وحدي (ت ١٣٧٣ هـ)، مطبعة عبد السلام، القاهرة، ط٥، ١٣٦٨ هـ، مقدمة الكتاب وينظر: الأمثال لإبن شريف: ص ٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآيات / ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨.

(٣) "الوقود" في اللغة: الحطب. ينظر: الصحاح للجوهري: ٥٥٣/٢، مادة (وقد). "استوقد نارا" في الاصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "استجاب بمعنى أجاب". مفاهيم القرآن، ٩/ ٧٣، الأمثال للسبحاني، ص ٧٣.

المنافقين كانوا مؤمنين ثم عدلوا إلى الكفر"،[١] وهذا القول رفضه الطبري **وتؤيده الباحثة** إذ قال: "إن ضوء النار مثل لإيمانهم الذي كان منهم عنده على صحة، وأن ذهاب نورهم مثل لارتدادهم وإعلانهم الكفر على صحة، لم يكن هنالك من القوم خداع ولا استهزاء عند أنفسهم ولا نفاق، وأنى يكون خداع ونفاق ممن لم يبدلك قولا ولا فعلا إلا ما أوجب لك العلم بحاله التي هو لك عليها، وبعزيمة نفسه التي هو مقيم عليها؟ إن هذا بغير شك من النفاق بعيد ومن الخداع برئ، فإن كان القوم لم تكن لهم إلا حالتان: حال إيمان ظاهر، وحال كفر ظاهر، فقد سقط عن القوم اسم النفاق، لأنهم في حال إيمانهم الصحيح كانوا مؤمنين، وفي حال كفرهم الصحيح كانوا كافرين. ولا حالة هناك ثالثة كانوا بها منافقين. وفي وصف الله جل ثناؤه إياهم بصفة النفاق ما ينبئ عن أن القول غير القول الذي زعمه من زعم أن القوم كانوا مؤمنين ثم ارتدوا إلى الكفر فأقاموا عليه، إلا أن يكون قائل ذلك أراد أنهم انتقلوا من إيمانهم الذي كانوا عليه إلى الكفر الذي هو نفاق، وذلك قول إن قاله لم تدرك صحته إلا بخبر مستفيض أو ببعض المعاني الموجبة صحته. فأما في ظاهر الكتاب، فلا دلالة على صحته لاحتماله من التأويل ما هو أولى به منه".[٢] وذهب أغلب المفسرين الى: أنهم المعلنون اسلامهم المسترون كفرهم:[٣] "مثل المنافقين بما أظهروه من الاقرار بالله وبمحمد (ﷺ)، وبما جاء به قولا وهم به مكذبون اعتقادا"،[٤] "لما أظهروا كلمة الإيمان، واستناروا بنورها، واعتزوا بعزها، فناكحوا المسلمين ووارثوهم، وآمنوا على أموالهم وأولادهم، فلما ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف، وبقوا في العذاب"،[٥] وأنفرد السبحاني **بالقول الثاني:** إذ قال: "القول بعدم إيمانهم منذ البداية، فالنار التي استوقدوها ترجع إلى نور الفطرة الذي كان يهديهم إلى طريق الحق، ولكنهم أخمدوا نورها بكفرهم بآيات الله تبارك وتعالى".[٦] وهناك **قول ثالث:** ذهب اليه بعض المفسرين وهو: إن التمثيل لليهود وليس للمنافقين إذ إن: "اليهود الذين كانوا حوالي المدينة كانوا يقرون بالنبي (ﷺ) قبل

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ / ٧٤، الأمثال للسبحاني، ص ٧٤ وينظر: الميزان للطباطبائي: ٥٦/١، أمثال القرآن لحنبكة: ص٣٥٣، الأمثال لإبن شريف: ص١٤– ١٥.

(٢) جامع البيان للطبري، ٢٠٨/١.

(٣) ينظر: تفسير القرآن للصنعاني: ٣٩/١، جامع البيان للطبري، ٢٠٣/١، التبيان للطوسي، ٨٥/١ وينظر: جوامع الجامع للطبرسي: ٧٧/١، أكمال النقصان لأبن أدريس: ص٩٨، الصراط المستقيم للبروجردي: ٤/ ٢٣٦، التفسير المقارن للناصري: ٤٧/١.

(٤) جامع البيان للطبري، ٢٠٣/١، التبيان للطوسي، ٨٥/١ وينظر: أكمال النقصان لأبن أدريس: ص٩٨.

(٥) مجمع البيان للطبرسي، ١١٣/١ وينظر:الميزان للطباطبائي: ٥٦/١، التفسير المقارن للناصري: ١/ ٤٧.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩ / ٧٤ –٧٥، الأمثال للسبحاني، ص٧٤ –٧٥ .

أن يخرج وكانوا إذا حاربوا أعداءهم من المشركين يستنصرون باسمه ويقولون بحق نبيك محمد أن تنصرنا فلما خرج النبي (ﷺ) وقدم المدينة حسدوه وكذبوه وكفروا به فطفئت نارهم وبقوا في ظلمات الكفر".(١)

وترى الباحثة: إن هذا الرأي غير مناسب لأنه تعالى لما بين حقيقة صفات المنافقين في الآيات الأولى من نفس السورة عقبها بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان.

خلص السبحاني الى حاصل التمثيل إذ قال: "والحاصل: إن حال هؤلاء المنافقين لما أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر كحال من ضل في طريقه وسط الظلام في مكان حافل بالأخطار فأوقد نارا لإنارة طريقه فإذا بريح عاصفة أطفأت النار وتركته في ظلمات لا يهتدي إلى سبيل. وهذا التمثيل الذي برع القرآن الكريم في تصويره يعكس حال المنافقين في عصر الرسالة، ومقتضى التمثيل أن يهتدي المنافقون بنور الهداية فترة من الزمن ثم ينطفئ نورها بإذن الله سبحانه، وبالتالي يكونوا صما بكما عميا لا يهتدون، فالنار التي اهتدى بها المنافقون عبارة عن نور القرآن، وسنة الرسول، حيث كانوا يتشرفون بحضرة الرسول ويستمعون إلى كلامه وحججه في بيانه ودلائله في إرشاده وتلاوته لكتاب الله، فهم بذلك كمن استوقد نارا للهداية، فلما أضاءت لهم مناهج الرشد ومعالم الحق تمردوا على الله بنفاقهم، فخرجوا عن كونهم أهلا للتوفيق والتسديد، فأوكلهم الله سبحانه إلى أنفسهم الأمارة وأهوائهم الخبيثة، وعمتهم ظلمات الضلال بسوء اختيارهم. وعلى هذا ابتدأ سبحانه بذكر المثل بقوله:﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾، وتم المثل إلى هنا".(٢)

أتم السبحاني أركان التمثيل إذ قال: "إبتدأ بذكر الممثل بقوله:﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾. ثم طرح سؤالاً قائلاً: فعلى هذا فما هو جواب "لما" في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ ﴾؟ فأجاب في الوقت نفسه: "الجواب محذوف، لأجل الوجازة، وهو قوله:(خمدت)".(٣) ثم طرح سؤالاً اخر قال فيه: "فعلى هذا فبم يتعلق قوله:﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾؟ فأجاب في الوقت نفسه: هو كلام مستأنف راجع إلى بيان حال الممثل، وتقدير الكلام هكذا: فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام متحيرين متحسرين على فوات الضوء، خائبين بعد الكدح

(١) بحر العلوم للسمرقندي، ٥٧/١ وينظر: التبيان للطوسي: ٨٧/١.
(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٧٥، الأمثال للسبحاني، ص ٧٥ وينظر: الآء الرحمن للبلاغي: ٧٢/١.
(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٧٥، الأمثال للسبحاني، ص ٧٥ .

من إيقاد النار. فحال المنافقين كحال هؤلاء، أشعلوا نارا ليستضيئوا بنورها لكن ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾"،[١] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٢]: "انطفأت نار المستوقد النار بعد إضاءتها له، فبقي في ظلمته حيران تائها، فان قال لنا قائل: إنك ذكرت ان معنى قول الله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾: خمدت وانطفأت، وليس ذلك بموجود في القران، فما دلالتك على أن ذلك معناه ؟ قيل قد قلنا إن من شان العرب الايجاز والاختصار إذا كان فيما نطقت به الدلالة الكافية على ما حذفت وتركت"،[٣] "وذهب الزمخشري أن فيها وجهين ورجح الوجه الثاني الذي ذهب اليه السبحاني بعده إذ قال: "إن قلت أين جواب (لما) قلت فيه وجهان: **أحدهما**: إن جوابه ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، **والثاني**: إنه محذوف، وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدال عليه. وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة مع الإعراب عن الصفة التي تحصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام متحيرين متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح في إحياء النار. فإن قلت: فإذا قدر الجواب محذوفا فبم يتعلق ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ قلت يكون كلاما مستأنفا كأنهم لما شبهت حالهم بحال المستوقد الذي طفئت ناره اعترض سائل فقال: ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد فقيل له ذهب الله بنورهم أو يكون بدلا من جملة التمثيل على سبيل البيان".[٤]

أضاف السبحاني الى التمثيل قائلاً: "فقوله سبحانه: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ بمعنى أن ذلك كان نتيجة نفاقهم وتمردهم وبالتالي تبدد قابليتهم للاهتداء بنور الحق ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ أي: في أهوائهم وسوء اختيارهم يتخبطون في ظلمات الضلال، لا يبصرون طريق الحق والرشاد. ترى أن التمثيل يحتوي على معاني عالية وكثيرة بعبارات موجزة، ولو حاول القرآن أن يبين تلك المعاني عن غير طريق التمثيل يلزم عليه بسط الكلام كما بسطناه، وهذا من فوائد المثل، إذ يودي معاني كثيرة بعبارات موجزة".[٥] إذ إنه سبحانه يصفهم بأنهم لما

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٧٥ – ٧٦، الأمثال للسبحاني، ص ٧٥ – ٧٦.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٠٩/١، معالم التنزيل للبغوي: ٥٢/١، الكشاف للزمخشري: ١/ ١٩٩، جوامع الجامع للطبرسي: ٧٧/١.

(٣) جامع البيان للطبري، ٢٠٩/١.

(٤) الكشاف للزمخشري، ١/ ١٩٩ وينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٧٦، الأمثال للسبحاني: ص ٧٦.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٧٦، الأمثال للسبحاني، ص٧٦.

عطلوا آذانهم فهم صم، وعطلوا ألسنتهم فهم بكم، وعطلوا عيونهم فهم عمى، قال:﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾، والمراد من التعطيل أنهم لم يكونوا ينتفعون بهذه الأدوات التي بها تعرف الحقائق، فما كانوا يسمعون آيات الله بجد، ولا ينظرون إلى الدلائل الساطعة للنبوة إلا من خلال الشك.(١)

ختم السبحاني أركان التمثيل قائلاً: "تم استعراض حال المنافقين بحال من أوقد نارا للاستضاءة، ولكن باءت مساعيه بالفشل. ومما يدل على أن المنافقين آمنوا بالله ورسوله في بدء الأمر ثم طغى عليهم وصف النفاق، قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾،(٢) ومما يدل على أن الإسلام نور ينور القلوب والأنفس قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾،(٣) وأما الظلمة التي تحيط بهم بعد النفاق وتجعلهم صما بكما عميا، فالمراد ظلمات الضلال التي لا يبصرون فيها طريق الهدى والرشاد، يقول سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٤) ".(٥) وذهب أغلب المفسرين الى: أنها إما ظلمة الكفر وظلمة النفاق وظلمة يوم القيامة، أوظلمة الضلال، وظلمة سخط اللَّه وظلمة العقاب السرمد.(٦)

وذهب البعض الى: أنها ظلمة القبر وحياة البرزخ.(٧) إذ رفض السبحاني هذا التفسير للظلمة إذ قال: "إن تفسير الظلمة التي يستعقبها إطفاء النور بظلمة القبر وحياة البرزخ وما بعدها من مواقف الحساب والجزاء غير سديد، وإن كان هناك ظلمة للمنافق لكنها من نتائج الظلمة الدنيوية فالأستشهاد على كون المراد هو ظلمة القبر والبرزخ بقوله سبـــــحانه: ﴿ يَوۡمَ

---

(١) ينظر: مجمع البيان للطبري: ٥٤/١، الآء الرحمن للبلاغي: ٧٣/١.
(٢) سورة المنافقون، الآية / ٣.
(٣) سورة الزمر، الآية /٢٢.
(٤) سورة البقرة، الآية / ٢٥٧.
(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٧٧، الأمثال للسبحاني، ص٧٧ وينظر: التفسير العظيم لعبد السلام: ١٠٥/١، التبيان للطوسي: ٨٧/١، القرآن العظيم لابن كثير: ٥٦/١، فتح القدير للشوكاني: ٤٧/١، الآء الرحمن للبلاغي: ٧٢/١.
(٦) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي: ١٩٣/١، تفسير القرآن لابي السعود: ٥١/١، تيسير الكريم للسعدي: ص٤٤، زبدة التفاسير لفتح الله: ٦٩/١.
(٧) ينظر: الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٢١١/١، تفسير المنار لمحمد رشيد: ١٦٩/١.

يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾،[١] ليس بأمر صحيح، والآية ناظرة إلى حياتهم الدنيوية التي يكتنفها الإيمان والنور، ثم تحيط بهم الظلمة والضلالة، ولا نظر للآية لما بعد الموت".[٢]

ختم السبحاني تفسير الآية الكريمة بسؤال قال فيه: "إن مقتضى البلاغة هو الإتيان بصيغة الجمع حفظا للتطابق بين المشبه والمشبه به، مع أنه سبحانه أفرد المشبه به ﴿ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾وجمع المشبه أعني قوله:﴿مَثَلُهُمْ ﴾ ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ فما هو الوجه؟".[٣] أجاب في الوقت نفسه من خلال الرد عن الذين قالوا: "إن العرب تستعمل لفظ (الذي) في الجمع كلفظي (ما) و (من) ومنه قوله تعالى: ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾،[٤] وإن شاع في (الذي) الإفراد، لأن له جمعا، وقد روعي في قوله:﴿ ٱسْتَوْقَدَ ﴾ لفظه، وفي قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ معناه. والفصيح فيه مراعاة التلفظ أولا، ومراعاة المعنى آخرا، والتفنن في إرجاع الضمائر ضرب من استعمال البلغاء".[٥] وقال الطوسي وآخرون **وهو ما تؤيده الباحثة:** "إن ما ذكر مبني على أن قوله سبحانه:﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ في تتمة المثل، وأجزاء المشبه به، ولكنك قد عرفت خلافه، وأن المثل تم في قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾، وذلك بحذف جواب (لما)، لكونه معلوما في الجملة التالية، وهو عبارة عن إخماد ناره فبقي في الظلام خائفا متحيرا. وإلا فلو كان قوله: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾من أجزاء المشبه به، وراجعا إلى من استوقد نارا، يلزم أن تكون الجملة التالية أعني قولـــــه:﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ كذلك، أي من أوصاف المستوقد، مع أنها من أوصاف المنافق دون أدنى ريب، ولو أردنا أن نصيغ المشبه والمشبه به بعبارة مفصلة، فنقول: **المشبه به:** الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله أطفأت ناره. **والمشبه:** المنافقون الذين استضاءوا بنور الإسلام فترة ثم ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون. وأما وجه الإفراد، فهو أنه إذا

---

(١) سورة الحديد، الآية / ١٣.
(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٧٧، الأمثال للسبحاني، ص٧٧.
(٣) المصدران نفسهما.
(٤) سورة التوبة، من الآية / ٦٩.
(٥) تفسير المنار لمحمد رشيد، ١/ ١٦٩، مفاهيم القرآن، ٩/ ٧٨، الأمثال للسبحاني، ص٧٨.

كان التشبيه بين الأعيان فيلزم المطابقة، لأن عين كل واحد منهم غير أعيان الآخر. ولذلك إنما يكون التشبيه بين الأعيان إذا روعي التطابق في الجمع والإفراد، يقول سبحانه: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾[١]، وقوله:﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.[٢] وأما إذا كان التشبيه بين الأفعال فلا يشترطون التطابق لوحدة الفعل من حيث الماهية والخصوصيات، يقال في المثل: ما أفعالكم كفعل الكلب. أي ما أفعالكم إلا كفعل الكلب. وربما يقال: إن الموصول (الذي) بمعنى الجمع، قال سبـــــــحانه:﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [٣]".[٤]

تـذهب الباحثـة: إن المثـال المـذكور يصـور بدقـة عمـل المنـافقين علـى سـاحة الحيـاة الإنسانية. إذ إن الحياة مملوءة بطرق الانحراف والضلال ولذلك أطلق عليها القرآن (الظلمات) بـالجمع، ولـيس فيهـا سـوى طريـق مسـتقيم واحـد للهدايـة هـو (النـور)، وهـذا الطريـق صـعب مستصـعب، ولا يسـتطيع أن يتجنـب المزالـق فيـه ويقـاوم أمـام الأعاصـير التـي تهـب داخليـة وخارجية، إلا بنور العقل والإيمان، وبمصباح الوحي الوهاج القرآن الكريم والنبي محمد (ﷺ)، وأن هذا التشبيه يوضح واحدة من حقائق النفاق، وهي إن عمر النفاق والتذبذب لا يدوم طويلا، قد يستطيع المنافقون لمدة قصيرة أن يتمتعوا بإضاءة نارهم. لكن سرعان ما تنطفى، ويظهر الوجـه الحقيقـي للمنـافقين، ويظلـون منفورين مطـرودين حـائرين، مثـل إنسـان يتخـبط فـي ظـلام دامس.

المطلب الرابع: التمثيل بالشيطان أو الموت

ضـرب الله الامثـال بقضـايا قديمـة جديـدة، لهـا أنصـارها، ولهـا خصـومها؛ أنصـارها المؤمنون بالله واليوم الآخر، والمعتقدون أن الموت حق والبعث حق، والنار حق، والجنة حق، ولـيس للشـيطان سـلطان علـيهم وأنهـم مخيـرون بأتباعـه غيـر مجبـرين وغيرهـا مـن القضـايا. وخصومها المنكرون لعقيدة التوحيد، والجاحدون بالموت والبعث والنشور والمتخذون الشياطين أوليـاء، والقـائلون: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾،[٥] وقولـه

(١) سورة المنافقون، من الآية /٤.
(٢) سورة الحاقة، من الآية / ٧.
(٣) سورة الزمر، الآية / ٣٣.
(٤) التبيان للطوسي، ٨٦/١ وينظر: جامع البيان للطبري: ٢٠٢/١، الكشف والبيان للثعلبي: ١٦٠/١، معالم التنزيل للبغوي: ٥٢/١، مجمع البيان للطبرسي: ١١١/١، مفاهيم القرآن: ٩/ ٧٩، الأمثال للسبحاني: ص ٧٩.
(٥) سورة المؤمنون، الآية /٨٣.

تعالى:﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾،[١] ويقدم الله تعالى الأدلة والبراهين على حقيقة تلك الأمور بضرب امثال عدة فضلاً عن الأدلة الأخرى الحسية التي أتت بها تلك الأمثال في القرآن الكريم، ذكرها السبحاني وتذكرها الباحثة على النحو الآتي:

التمثيل الأول: بطلان الشرك في العبادة

-قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.[٢]

شرع السبحاني بتفسير الآيات بعد توضيح المعنى اللغوي والتعريف الاصطلاحي لمفردة ﴿ قَٰنِتُونَ ﴾[٣] إذ قال: "إن هذه الآيات تتضمن برهانا على إمكان المعاد وتمثيلا على بطلان الشرك في العبادة، أما البرهان فقوله سبحانه: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ واللام في قوله: ﴿ وَلَهُۥ ﴾ للملكية، والمراد منه الملكية التكوينية، كما أن قنوطهم وخضوعهم كذلك"،[٤] وهو ما ذهب اليه القرطبي إذ قال: "ذلك كلام مخرجه مخرج العموم، والمراد به الخصوص، ومعناه: كل له قانتون في الحياة والبقاء والموت، والفناء والبعث والنشور، لا يمتنع عليه شئ من ذلك، وإن عصاه بعضهم من غير ذلك"،[٥] "أي مطيعون لا طاعة العبادة ولكن طاعة الإرادة خلقهم على ما أراد فكانوا على ما أراد لا يقدر أحد أن يتغير عما خلق عليه".[٦] ومنهم من قال على وجه العموم: "كلهم عبيده مطيعون ومقرون بالعبودية مجيبون للطاعة"،[٧]

---

(١) سورة الأعراف، الآية / ٣٠.
(٢) سورة الروم، الآيات / ٢٦، ٢٧، ٢٨.
(٣) "قَٰنِتُونَ" في اللغة: هو من القانت: أي الخاضع، الطائع. ينظر: الصحاح للجوهري: ١/ ٢٦١، مادة (قنت). أما في الأصطلاح عرفه السبحاني بأنه: "خاضعون وطائعون له في الحياة والبقاء والموت والبعث، وبالجملة كل ما في الكون مقهور لله سبحانه". مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٠، الأمثال للسبحاني، ص ٢٢٠.
(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٠، الأمثال للسبحاني، ص٢٢٠ وينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٢٠٦/٤، معالم التنزيل للبغوي: ١٠٨/١.
(٥) جامع البيان للطبري، ٢١ / ٤٢ وينظر: مجمع البيان للطبرسي: ٥٦/٨.
(٦) الوجيز للواحدي، ٨٤١/٢ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٥/ ٢٦٢.
(٧) بحر العلوم للسمرقندي، ١١٤/١.

وهذا ما **ترفضه الباحثة:** إذ إنه غير جائز أن يخبر الله تعالى عمن هو عاص أنه له قانت فيما هو له عاص ولكن ممكن القول إن الجن والأنس الطالحين والصالحين منقادون للعلل والأسباب الكونية وكلما احتالوا في الغاء أثر علة من العلل أو سبب من الأسباب الكونية توسلوا إلى علة أخرى وسبب آخر كوني ثم علمهم وإرادتهم كاختيارهم جميعا من الأسباب الكونية فلا يكون الا ما شاء الله أي الذي تمت علله في الخارج ولا يتحقق مما شاؤوا الا ما أذن فيه وشاءه فهو المالك لهم ولما يملكونه.(١)

ذكر السبحاني مفاد الآية إذ قال: "مفاد الآية أن زمام ما في الكون بيده سبحانه، والكل مستسلمون لمشيئته سبحانه دون فرق بين الصالحين والطالحين، وذلك لأنه سبحانه هو الخالق الذي يدبر العالم كيفما يشاء، والمربوب مستسلم لربه. ثم إنه سبحانه رتب على ذلك مسألة إمكان المعاد، بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾. وحاصل البرهان: أنه سبحانه قادر على الخلق من العدم، وهو المفروض، فالقادر على ذلك قادر على الإعادة، إذ ليس هو إعادة من العدم، بل إعادة لصورة الأجزاء المتماسكة وتنظيم المتفرقة، فالخالق من لا شيء أولى من أن يكون خالقا من شئ. وإن هذه الأولوية حسب تفكيرنا ورؤيتنا، وإلا فالأمور الممكنة أمام مشيئته سواء، قال الأمام علي(عليه السلام):((وما الجليل واللطيف، والثقيل والخفيف، والقوي والضعيف في خلقه إلا سواء))(٢)".(٣) وذكر الزمخشري **وجهان** في ذلك: "**أحدهما:** الإعادة في نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس إلى الانشاء، ومعناه أن البعث أهون على الخلق من الانشاء لان تكوينه في حد الاستحكام والتمام أهون عليه وأقل تعبا وكبدا، من أن يتنقل في أحوال ويتدرج فيها إلى أن يبلغ ذلك الحد، وقيل الاهون بمعنى الهين. **وثانيهما:** وهو أن الانشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله، والإعادة من قبيل الواجب الذي لابد له من فعله لأنها الجزاء الأعمال وجزاؤها واجب، والافعال إما محال والمحال ممتنع أصلا خارج عن المقدور، وإما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح، وهو رديف المحال لان الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة، وإما تفضل والتفضل حالة بين بين للفاعل أن يفعله وأن لا يفعله، وإما واجب لابد من فعله ولا سبيل إلى الاخلال به، فكان الواجب أبعد الافعال من الامتناع وأقربها من الحصول، فلما كانت الإعادة من قبيل

---

(١) ينظر: الميزان للطباطبائي: ١٧٠/١٦ ، الأمثل للشيرازي: ٥١١/١٢.

(٢) نهج البلاغة، ١١٧/٢، خطبة (في تنزيه الله ثم في صفة خلق...) وينظر: بحار الأنوار للمجلسي: ٦١ / ٣٩، أقسام الحيوانات، (الخطبة التي خطبها علي (عليه السلام)....).

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٠ – ٢٢١، الأمثال للسبحاني، ص٢٢٠ –٢٢١.

الواجب كانت أبعد الافعال من الامتناع، وإذا كانت أبعدها من الامتناع كانت أدخلها في التأتي والتسهل فكانت أهون منها، وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الانشاء".[١]

أضاف السبحاني قائلاً: "ولأجل توضيح هذا المعنى، قال سبحانه: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، والمراد من المثل الأعلى هو الوصف الأتم والأكمل، الذي له سبحانه، فهو علم كله، قدرة كله، حياة كله، ليس لأوصافه حد.وهذا ما ذكره القرآن من البرهان على إمكانية قيام المعاد بحشر الأجسام"[٢] "لأننا لو تصورنا أي وصف كمالي لأي موجود في السماء والأرض، من علم وقدرة وملك وعظمة وجود وكرم، فمصداقه الأتم والأكمل هو عند الله، لأن الجميع لديهم المحدود من الصفات، إلا هو وحده فإن لديه الأوصاف غير المحدودة، والجميع لديهم أوصاف عارضة، أما أوصاف الله فذاتية، وهو مصدر الكمالات وأساسها".[٣] وذهب بعضهم: أن له الصفات العليا في السماوات والأرض وهي لا إله إلَّا هو وحده لا شريك له وله الوصف العجيب الشأن الَّذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه أحد.[٤]

أتم السبحاني تفسير الآيات ببيان الأمر الثاني قائلاً: "إليك بيان الأمر الثاني وهو التنديد بالشرك في العبادة من خلال التمثيل الآتي: ألقى سبحانه المثل بصورة الاستفهام الإنكاري، وحاصله: هل ترضون لأنفسكم أن تكون عبيدكم وإماؤكم شركاء لكم في الأموال التي رزقناكم إياها على وجه تخشون التصرف فيها بغير إذن هؤلاء العبيد والإماء ورضا منهم، كما تخشون الشركاء الأحرار. والجواب: لا، أي لا يكون ذلك أبدا ولا يصير المملوك شريكا لمولاه في ماله، فعندئذ يقال لكم: كيف تجوزون ذلك على الله، وأن يكون بعض عبيده المملوكين كالملائكة والجن شركاء له، إما في الخالقية أو في التدبير أو في العبادة. والحاصل: إن العبد المملوك وضعا لا يصح أن يكون في رتبة مولاه على نحو يشاركه في الأموال، فهكذا العبد المملوك تكوينا لا يمكن أن يكون في درجة الخالق المدبر فيشاركه في الفعل، كأن يكون خالقا أو مدبرا، أو يشاركه في الصفة كأن يكون معبودا. فالشيء الذي لا ترضونه لأنفســكم، كيف

---

(١) الكشاف للزمخشري، ٣/ ٢٢١.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢١ و ٩/ ٩، الأمثال للسبحاني، ص ٢٢١ و ص ٩.

(٣) الأمثل للشيرازي، ٥١٣/١٢.

(٤) ينظر: التبيان للطوسي: ٨/ ٢٤٦، مجمع البيان للطبرسي: ٥٧/٨، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢٦٣/٥ وينظر: الأصفى للفيض الكاشاني: ٩٥٨/٢، مقتنيات الدرر للحائري، ٢١٧/٨.

ترضونه لله سبحانه، وهو رب العالمين ؟".[١]

ختم السبحاني تفسير التمثيل قائلاً: "وعلى ذلك فالمشبه هو جعل المخلوق في درجة الخالق، والمشبه به جعل المملوك وضعا شريكا للمالك".[٢]

التمثيل الثاني: تشبيه البعث بالنشاة الأولى

-قـال تعـالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾.[٣]

بدأ السبحاني بتفسير الآيات بذكر ما رواه المفسرون من سبب نزولها إذ قال: "روى المفسرون أن أُبي بن خلف، أو العاص بن وائل جاء بعظم بال متفتت، وقال: يا محمد أتزعم إن الله يبعث هذا، فقال: نعم، فنزلت الآية:﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾"،[٤] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين وإن أختلفوا بمن هو الأنسان،[٥] ومنهم من ذهب الى: أنها عامة ولا تختص بإنسان معين إذ قالوا: "الصحيح أن الآية عامة وفيها بيان القدرة وكشف قبيح ما فعلوه من جحود نعم الله مع ظهورها عليهم".[٦]

أضاف السبحاني قائلاً: "ضرب الكافر مثلا، وقال: كيف يحيي الله هذه العظام البالية؟ وضرب سبحانه مثلا آخر، وهو أنه يحييها من أنشأها أولا، فمن قدر على إنشائها ابتداء يقدر على الإعادة، وهي أسهل من الإنشاء والابتداء، وأن إطلاق لفظ الأسهلية إنما هو من منظار الإنسان، وأما الحق (جل وعلا) فكل الأشياء أمامه سواء، إذ قال سبحانه:﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ أي: ضرب مثلا في إنكار البعث بالعظام البالية، واستغرب ممن يقول إن الله يحيي هذه العظام ونسي خلقه ﴿ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾. ومثل سبحانه بالرد عليه بمثال آخر، وقال:

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢١ -٢٢٢، الأمثال للسبحاني، ص٢٢١ -٢٢٢ وينظر: جامع البيان للطبري: ٢١/ ٤٦، تفسير القرآن للسمعاني: ٤/ ٢٠٨، مفاتيح الغيب للرازي: ١١٨/٢٥، الأمثال لإبن القيم: ص٢٠ روح المعاني للآلوسي: ٢١/ ٣٧.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٢٢، الأمثال للسبحاني، ص ٢٢٢.

(٣) سورة يس، الآيات /٧٧، ٧٨، ٧٩.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٣٤، الأمثال للسبحاني، ص٢٣٤.

(٥) ينظر: تفسير القرآن للصنعاني: ١٤٦/٣، جامع البيان للطبري: ٣٨/٢٣، معاني القرآن للنحاس: ٥٢٠/٥، أسباب النزول للواحدي: ص٢٤٦، التبيان للطوسي: ٤٧٨/٨، مجمع البيان للطبرسي: ٨/ ٢٩٠.

(٦) معالم التنزيل للبغوي، ٦٢/٣ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٠٧/٢٦ الأمثال والمثل لسميح عاطف: ص٢٣٩.

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ من الابتداء والإعادة"،[١] وهذا ما ذهب اليه الزمخشري إذ قال: "لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، أو لما فيه من التشبيه لان ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه بدليل النشأة الأولى، فإذا قيل من يحيي العظام على طريق الانكار لان يكون ذلك مما يوصف الله تعالى بكونه قادرا عليه كان تعجيزا لله وتشبيها له بخلقه في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه"،[٢] "جعل قدرتنا كقدرتهم ونسي خلقه العجيب وبدأه الغريب".[٣] وأضاف السبحاني في مصدر اخر قائلاً: "أشار إلى سعة قدرته ووجود الملازمة بين القدرة على إنشاء العظام وإيجادها أوّل مرّة بلا سابق وجوده، وبين القدرة على إحيائها من جديد، بل القدرة على الثاني أولى، فإذا ثبتت الملازمة بين القدرتين والمفروض أنّ الملزوم وهي القدرة على إنشائها أوّل مرّة موجودة، فلابدّ أن يثبت اللازم، وهي القدرة على إحيائها وهي رميم".[٤]

وتخلص الباحثة: إن هذا المثل يذكر لنا ذلك المخاصم في الله إذ يأتي النص القرآني، وفيه التعجب والاستغراب من موقف ذلك الأنسان المجادل في الباطل، بدلاً من أن يرى في خلقه نعمة عظيمة تستدعي الأعتراف بفضل خالقه عليه إذا به يخاصم ويجادل من يقول له: إن الذي خلقك على ذلك النحو لقادر على أن يحييك بعد الموت، ويبعثك من جديد، كما كنت تماما في حياتك الأولى. "أيها الجاحد للمعاد هذا الخالق العليم الذي ينشئ العظام في الأدوار المتعددة والمواليد المتعاقبة بكثرة لا تقدر أن تحصيها وقدر نشؤ متماثلاتها على ناموس واحد وتماثل باهر ليست هي وحدها بل جميع مواليد العالم في أدوارها. هذا الخالق الذي تعرفه أنواع مخلوقاته وتشهد بأنه لا يعييه خلق ولا يغيب عن علمه خلق وأنه بكل خلق عليم وبكل مخلوق عليم. فهل يغيب عن علمه جمع رميم العظام وخلقها على صورتها الأولى وإحيائها ؟ ماذا يكبر إحياء العظام الرميمة على إنشاء العظام من النطفة وإحيائها في دور من أدوار النشأة الأولى".[٥]

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٣٤ – ٢٣٥، الأمثال للسبحاني، ص٢٣٤ – ٢٣٥.

(٢) الكشاف للزمخشري، ٣/ ٣٣١.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ١٠٩/٢٦.

(٤) موسوعة طبقات الفقهاء (المقدمة)، لجعفرمحمد حسين السبحاني، مطبعة أعتماد، قم، ط١، ١٤١٨ هـ، ١/ ٢٢٧.

(٥) الرحلة المدرسية، لمحمد جواد البلاغي (ت ١٣٢٨ هـ)، دار الزهراء للطبـــاعة، بيروت، ط٢، ١٤١٤ هـ– ١٩٩٣م، ٣ / ٥١٦.

التمثيل الثالث: الوعد الكاذب

-قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.(١)

بدأ السبحاني تفسير الآية بذكر سبب نزولها إذ قال: "هذه الآية ناظرة إلى قصة بني النضير، فلما تآمروا على النبي (ﷺ) أمرهم رسول الله (ﷺ) بالجلاء، ولكن المنافقين وعدوهم بالنصر، فقالوا لهم: ﴿ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ ﴾.(٢) ولكن كان ذلك الوعد كاذبا، ولذلك يقول سبحانه:﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾(٣) وآية كذبهم:﴿ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾.(٤) ولقد صدق الخبر الخبر، فأجلاهم الرسول بقوة وشدة، فما ظهر منهم أي نصر ومؤازرة ودعم، فكان وعدهم كوعد الشيطان، إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني بريئ منك إني أخاف الله رب العالمين، بمعنى أنه أمره بالكفر ولكنه تبرأ منه في النهاية"،(٥) وهذا ما ذهب ذهب اليه أغلب المفسرين.(٦)

طرح السبحاني سؤالاً قال فيه: "هل المخاطب في قوله: ﴿ٱكۡفُرۡ﴾ **مطلق الإنسان** الذي ينخدع بأحابيل الشيطان ووعوده الكاذبة ثم يتركه ويتبرأ منه، أو المراد **شخص معين؟**. فأجاب في الوقت نفسه قائلاً: "لو قلنا بالثاني، فقد وعد الشيطان قريشا بالنصر في غزوة بدر، كما يحكي عنه سبحانه، ويقول: ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾(٧)".(٨) وهناك **قول ثالث:** وهو أن الشيطان وعد **عابدا**

---

(١) سورة الحشر، الآية / ١٦.
(٢) سورة الحشر، من الآية / ١١.
(٣) سورة الحشر، من الآية /١١.
(٤) سورة الحشر، الآية /١٢.
(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٣، الأمثال للسبحاني، ص٢٦٣ وينظر: البداية والنهاية لابن كثير: ٩٢/٤، إمتاع الاسماع للقرمزي: ١٤/ ٣٦٤، السيرة النبوية لابن هشام ٣٦٩/٢.
(٦) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٨/ ٦٢، بحر العلوم للسمرقندي: ٤٠٨/٣، الكشف والبيان للثعلبي: ٩/ ٢٨٥، التبيان للطوسي: ٩/ ٥٦٩، تفسير القرآن للسمعاني: ٤٠٦/٥، معالم التنزيل للبغوي: ٣٢٢/٤، مجمع البيان للطبرسي: ٤٣٧/٩.
(٧) سورة الأنفال، الآية /٤٨.
(٨) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٤، الأمثال للسبحاني، ص ٢٦٤ وينظر: الميزان للطباطبائي: ١٩/ ٢١١، الأمثل للشيرازي: ١٨/ ٢٠٧.

عابدا من بني إسرائيل اسمه **برصيصا** إذ انخدع بالشيطان وكفر، وفي اللحظات الحاسمة تبرأ الشيطان منه"،[١] وهذا ما ذكره أغلب المفسرين[٢]: إن برصيصا عَبَدَ الله زمانا من الدهر حتى كان يؤتى بالمجانين يداويهم ويعوذهم فيبرأون على يده، وأنه أتي بامرأة في شرف قد جنت وكان لها إخوة فأتوه بها، فكانت عنده، فلم يزل به الشيطان يزين له حتى وقع عليها، فحملت، فلما استبان حملها قتلها ودفنها، فلما فعل ذلك ذهب الشيطان حتى لقي أحد إخوتها، فأخبره بالذي فعل الراهب وأنه دفنها في مكان كذا، ثم أتى بقية إخوتها رجلا رجلا فذكر ذلك له، فجعل الرجل يلقى أخاه، فيقول: والله لقد أتاني آت فذكر لي شيئا يكبر علي ذكره، فذكر بعضهم لبعض حتى بلغ ذلك ملكهم، فسار الملك والناس فاستنزلوه فأقر لهم بالذي فعل، فأمر به فصلب، فلما رفع على خشبته تمثل له الشيطان، فقال: أنا الذي ألقيتك في هذا، فهل أنت مطيعي فيما أقول لك، أخلصك مما أنت فيه ؟ قال: نعم، قال: اسجد لي سجدة واحدة، فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة، فقال: أكتفي منك بالإيماء فأوحى له بالسجود، فكفر بالله، وقتل الرجل.[٣]

وتذهب الباحثة الى: القول الأول **مطلق الإنسان** الذي ينخدع بأحابيل الشيطان ووعوده الكاذبة ثم يتركه ويتبرأ منه، فأنه لا ينحصر بإنسان محدد أو مكان أو زمان معين وإن ما ذكر من الأقوال تعد من مصاديق المفهوم الواسع للآية.

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٦٤، الأمثال للسبحاني، ص ٢٦٤.

(٢) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٤٠٨/٣، الكشف والبيان للثعلبي: ٢٨٥/٩، التبيان للطوسي: ٩/ ٥٦٩، الوجيز للواحدي: ١٠٨٥/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٤٠٦/٥، معالم التنزيل للبغوي: ٣٢٢/٤ مجمع البيان للطبرسي: ٤٣٧/٩.

(٣) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٤٠٨/٣، الكشف والبيان للثعلبي: ٢٨٥/٩، التبيان للطوسي: ٩/ ٥٦٩، الوجيز للواحدي: ١٠٨٥/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٤٠٦/٥، معالم التنزيل للبغوي: ٣٢٢/٤ مجمع البيان للطبرسي: ٤٣٧/٩، مفاهيم القرآن: ٩/ ٢٦٤، الأمثال للسبحاني: ص ٢٦٤.

المبحث الأول
معنى القسم، التأليف فيه، أركانه، مناقشة آرائه

التمهيد:

افتتح القرآن الكريم كثيرا من السور القرآنية بالقسم، وأورد أقساما في ثنايا عدد غير قليل منها، والقسم واحد من أساليب التوكيد التي عرفها الناس في كثير من اللغات،[١] وقد شاع عند العرب وشاع عند غيرهم من الأمم، فاستعملوه في كل ما تدعو الحاجة الى توثيقه وتحقيقه من الاخبار والوعود والعهود والمواثيق، وغير ذلك مما يستلزم تمكن الشيء في النفس وتقويته، وورد في القرآن الكريم ما يشير الى قدم هذا الأسلوب، فيما جاء من حكاية أقسام صدرت عن أصحابها قبل أن يعيش الإنسان على هذه الأرض، وبعد أن نزل اليها، إذ وردت حكاية بعض الأقسام عن إبليس منذ بدء الخليقة، ووردت حكاية القسم عن بعض الأنبياء والمرسلين، وغيرهم من الخلق. وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد، فجاء القسم في كتاب الله، لإزالة الشكوك، وإحباط الشبهات، وإقامة الحجة، وتوكيد الأخبار، لتطمئن نفس المخاطب إلى الخبر، لا سيما في الأمور العظيمة التي أقسم عليها.

أقسم الله بمخلوقاته مع نهيه عن القسم بغيره، للإشارة إلى أن هذه المخلوقات، ما هي إلا آيات يستنير بها أولو الألباب في مناهج الاستدلال التي يطلبونها ويسعون للحصول عليها. وكما قال الرسول(ﷺ) عن محتوى القرآن: ((هو كتاب تفصيل وبيان تحصيل، هو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن وظاهره حكم الله وباطنه علم الله تعالى، فظاهره وثيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة)).[٢]

---

(١) ينظر: الأمعان في أقسام القرآن، لعبد الحميد الفراهي (ت ١٣٤٩ هـ)، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م: ص٢٢-٤٤.

(٢) الكافي للكليني، ٥٩٩/٢، كتاب (فضل القرآن)، باب (في تمثل القرآن وشفاعته لأهله)، رقم الحديث (٢)، الوافي للفيض الكاشاني، ٩ / ١٧٠١، باب (التمسك بالقرآن والعمل به)، رقم الحديث (٨٩٦٢)، وهو حديث صحيح.

المطلب الأول: تعريف القسم لغة واصطلاحا وتفسيره

القسم في اللغة:

مصدر (قَسَمَ يَقسِمُ قَسَماً)، والقَسَمُ: اليمين، ويجمع على أقسام،[١] وقد أَقْسَم بالله واسْتَقْسَمه به وقاسَمَه: حلَف له. وتَقاسمَ القومُ: تحالفوا. وأَقْسَمْت: حلفت، وأَصله من القَسامة. والقَسامة الجماعة يُقْسِمُون على الشيء أَو يُشهدون، ويَمِينُ القَسامةِ منسوبة إِليهم. والمُقْسَمُ: القَسَمُ. والمُقْسَمُ: المَوْضِع الذي حلف فيه. والمُقْسِم: الرجل الحالف.[٢]

القسم في الاصطلاح:

للقسم في الاصطلاح تعريفات لا تختلف الفاظها عن التعريف اللغوي، أذكر منها مثلاً:

- عرفه السبحاني بأنه: "يعادل الحلف واليمين في لغة العرب، ولها معادل في عامة اللغات وإنما يؤتى به لأجل تأكيد الخبر والمضمون"،[٣] وعرفه في موقع آخر بأنه: "من الأمور ذات الإضافة وهو فعل فاعل مختار له إضافة إلى أمور أربعة: الحالف، ما يحلف به، ما يحلف عليه، الغاية من القسم".[٤]
- وعرفه الطبرسي بأنه: "جملة من الكلام، يؤكد بها الخبر بما يجعله في قسم الصواب دون الخطأ".[٥]
- وعرفه السيوطي بأنه: "تحقيق الخبر وتوكيده".[٦]

والذي يبدو لي: إن معنى القسم هو طريق من طرق توكيد الكلام، وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي يريده المتكلم، إذ يؤتى به لتثبيت حق ولدفع إنكار المنكرين، أو إزالة شك الشاكين. وليس مرادف للحلف وإنما لكل منهما معنى واستعمال يختلف عن الأخر، وهذا ما تؤيده بنت الشاطئ في تفسيرها لسورة البلد فتقول: "يبدو من السهل أن نفسر (أقسم) بلفظ (حلف)، وليس في استعمال العرب لهما ما يمنع من تفسير أحدهما بالآخر، لكن استقراء الكلمتين في القرآن يمنع هذا الترادف، وأمام هذا الاستعمال القرآني، لا يهون أن نفسر القسم بالحلف، وصنيع القرآن فيهما يلفت إلى فرق دقيق بين اللفظين المقول بترادفهما، فرق يؤيده فقه العربية، فاختلاف مادتي اللفظين يؤذن باختلاف مدلول كل منهما، وبين حلف وحنث من

---

(١) ينظر: العين للفراهيدي: ٨٧/٥، مادة (قسم) وينظر: الصحاح للجوهري: ٢٠١٠/٥، مادة (قسم).

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٤٨١/١٢، مادة (قسم).

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩١، الأقسام للسبحاني، ص٩.

(٤) المصدران نفسهما.

(٥) مجمع البيان للطبرسي، ٩/ ٣٧٥.

(٦) الإتقان للسيوطي، ٣٥٠/٢.

القرب، ما ليس بين حلف وقسم، مما يبعد أن يكونا سواء"،[١] وهذا فرق كبير واضح، يكفي لنفي ترادف الكلمتين.[٢]

تفسيره:

في تفسيره أقوال عدة **تذكر الباحثة** بعضاً منها:

ذهب السيوطي في تفسير القسم قائلاً: "جعلوا مثل ﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾[٣] قسما، وإن كان فيه إخبار بشهادة لأنه لما جاء توكيدا للخبر سمي قسما، وهو ما ذهب اليه السبحاني.[٤] ثم أضاف قائلاً: ولذلك نقل عن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾[٥] صرخ وقال من من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين".[٦] وفسره آخرون بأنه: "أبلغ من الحلف لان لان معنى قولنا أقسم بالله أنه صار ذا قسم بالله، والحلف من قولك سيف حليف أي قاطع ماض فإذا قلت حلف بالله فكأنك قلت قطع المخاصمة بالله فالأول أبلغ لأنه يتضمن معنى الآخر مع دفع الخصم"،[٧] ومنهم من فسره بأنه: "يكون عند انقسام الناس إلى مصدق ومكذب".[٨]

ويبدو للباحثة: إنه سمي قسماً لأنه يجئ ليؤكد الخبر في الاثبات والنفي، وهو في الحالتين يحتمل الصدق والكذب، فأقتضى ما يرجح أحد هذين الاحتمالين.

التأليف فيه:

ذهب السبحاني الى ما ذهب اليه السيوطي في مسالة التأليف في أقسام القرآن إذ قال:

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم، لعائشة عبد الرحمن المعروفة (بنت الشاطئ) (ت ١٩٩٨ م)، دار المعارف، القاهرة، ط٧، ١/١٦٦-١٦٨.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، لمحمد الشايع، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١: ص ٢٣٨ – ٢٤٣، خصوصية المعنى لألفاظ القرآن الكريم، لمحمود سليم هياجنة، المملكة الأردنية الهاشمية، أربد، ط١: ص ١١٥ –١٢٠.

(٣) سورة المنافقين، من الآية / ١.

(٤) الإتقان للسيوطي، ٢/٣٥٠، مفاهيم القرآن: ٩/ ٢٩١، الأقسام للسبحاني: ص٩.

(٥) سورة الذاريات، الآيتان / ٢٢، ٢٣.

(٦) الإتقان للسيوطي، ٢/٣٥٠ وينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ٩/١١٥، مدارك التنزيل للنسفي: ٤/١٧٨، سبل الهدى والرشاد، للصالحي الشامي (ت ٩٤٢ هـ)، تحقيق: عادل أحمد وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣ م: ٣/٢٤، مفاهيم القرآن: ٩/ ٢٩١، الأقسام للسبحاني: ص٩.

(٧) الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن العسكري(ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، (ب-ط -ت)، ص٤٢٩.

(٨) الوسيط للطنطاوي، ٨/١٤٩.

"إن أول من أفرد أقسام القرآن بالتأليف هو شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ولم يذكر كتابا غيره"،[١] ثم أضاف السبحاني قائلاً: "جمع السيوطي أقسام القرآن وجعله نوعا من أنواع علومه، فبحث عنها بحثا موجزا لا يتجاوز عن خمس صفحات".[٢] ومنهم من أورده مع التفسير إذ عدّه من فروع علم التفسير.[٣] ثم أكمل السبحاني مسيرة التأليف قائلاً: "إن ابن قيم الجوزية وإن كان أول من ألف –حسب ما نعلم– ولكن كتابه يعوزه المنهجية في البحث حيث لم يذكر الأقسام الواردة واحدا تلو الآخر حسب حروف التهجي أو حسب سور القرآن، وإنما ذكر أقسام كل سورة في فصل واحد. لذلك عزمت على تأليف مفرد في هذا الصدد بغية تعميم الفائدة".[٤]

هناك مؤلفات اخرى **أذكر منها مثلاً** للفائدة:

–الإمعان في اقسام القرآن / لعبد الحميد الفراهي (ت ١٣٤٩ هـ) دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

–القسم في القرآن الكريم، لحسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠١م.

–القسم في القرآن الكريم، لمحمد عبد العاطي، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م.

ومؤلفات أخرى سأذكرها في فهرس المصادر.

أركان القسم:

للقسم أركان بينها وفصلها السبحاني **توردها الباحثة** على النحو الآتي:

أنفرد السبحاني بذكر أركان القسم بهذا الشكل وأنها أربعة هي: "أ– **الحالف**، ب– **ما يحلف به**، ج– **ما يحلف عليه**، د– **الغاية من القسم**"،[٥] ومنهم من قال: إن أركان القسم هي ثلاثة: (الفعل الذي يتعدى بالباء، والمقسم به، والمقسم عليه)،[٦] ومنهم من قال: إنه مكون من: من: (أداة القسم، والمقسم به، والمقسم عليه)،[٧] ومنهم من عد للقسم أركان أربعة هي: (المقْسِم، (المقْسِم، المقْسَم به، جواب القسم أو المقسم عليه، أدوات القسم).[٨]

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٨٩، الأقسام للسبحاني، ص٧ ويظر: الإتقان للسيوطي: ٣٥٠/٢.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٨٩، الأقسام للسبحاني، ص٧ وينظر: الإتقان للسيوطي: ٤٦/٤ –٥١، كشف الظنون، لمصطفى بن عبد الله المعروف بـ (حاجي خليفة) (ت ١٠٦٧ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (ب – ط – ت): ١/ ١٣٧.

(٣) ينظر: كشف الظنون للحاجي: ١/ ١٣٨، مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٨٩، الأقسام للسبحاني، ص ٧.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩٠، الأقسام للسبحاني، ص ٨.

(٥) المصدران نفسهما.

(٦) ينظر: مباحث في علوم القرآن للقطان: ص٣٠٠.

(٧) ينظر: التعبير الفني في القرآن، لبكري أمين، دار الشروق، ط٢، ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ م: ص٢٣٨ – ٢٣٩.

(٨) ينظر: أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته وأغراضه، لسامي عطا حسن، المملكة الأردنية الهاشمية، المفرق، ص١٠ –١٢ ، أسلوب القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية، لعلي بن محمد الحارثي، المملكة السعودية،=

بين السبحاني الأركان قائلاً: "أما **الركن الأول:** فالحلف عبارة عن فعل الفاعل المختار، فلا يصدر إلا منه سواء أكان واجبا كالله سبحانه أم ممكنا كالإنسان وغيره. إذ إن أدوات القسم عبارة عن أمور أربعة: (الباء والتاء والواو واللام)، وأمثلة الكل واضحة"،[١] "وللقَسَم والمُقسَم به أدوات في حروف الجر فأكثرها الواو ثم الباء وتدخل فيه اللام ومن. . . . وأصل هذه الحروف الباء والتاء".[٢] وأما **الركن الثاني:** "أي ما يحلف به: فان لكل قوم، أمورا مقدسة يحلفون بها، وأما القرآن الكريم إذ حلف سبحانه بأمور تجاوزت عن الأربعين مقسما به"،[٣] "وما أقسم عليه الرب فهو من آياته فيجوز أن يكون مقسما به ولا ينعكس".[٤] ولمجيئه في القرآن الكريم **أغراض: الأول:** أنه قد يكون شيئاً علوياً بعيداً عنا يثير الرهبة والعظمة والجلال، ويدعونا ذكره والقسم به، إلى أن يثير لدينا الفضول العلمي، وحب الاستطلاع، فأخذ في توجيه أنظارنا إليه بالبحث والدرس والتحليل، ومحاولة تسخيره لمنافعنا، وذلك كالسماء، وما فيها من شمس، وقمر، ونجوم، ومظاهر كونية كثيرة، فالقسم بهذه الكائنات العلوية، يدفع الناس إلى البحث والتنقيب، إذ أثبت الواقع أنه كلما تعمق الباحثون في دراسة هذه الظواهر التي أقسم الله بها، وجدوا فيها من العظمة والجلال، والقدرة الإلهية، ما تـــخر له النفوس ساجدة خاشعة، قائلة: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.[٥] **والثاني:** إن المقسم به قد يكون شيئا أرضيا مما يحيط بالإنسان ويتعايش به ومعه، ويقسم الله تعالى به لما فيه من منافع وفوائد، كالتين، والزيتون،.... **والثالث:** إن يكون المقسم به شيئا ذاتيا للإنسان، وذلك كالنفس البشرية التي أقسم الله تعالى بها في قوله: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾، [٦].[٧] وأما **الركن الثالث:** "أي ما يحلف عليه: والمراد هو جواب القسم الذي يراد منه التأكيد عليه وتثبيته وتحقيقه، وهذا ما يقال القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده"،[٨] "فالمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلا بد أن يكون مما يحسن

=جامعة ام القرى، ١٩٩١ م: ص١٥ –٢٤، المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية، لمحمد شعبان اسماعيل، دار الأنصار، مصر، ط١، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م: ١/ ٥٠١.

(١) مفاهيم القرآن، ٢٩٢/٩، الأقسام للسبحاني، ص١٠.

(٢) الكتاب (كتاب سيبويه): لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت٧٩٦هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ٣/ ٤٩٦.

(٣) مفاهيم القرآن، ٢٩٢/٩– ٢٩٣، الأقسام للسبحاني، ص١٠–١١.

(٤) التبيان في ايمان القرآن المعروف بـ (التبيان في أقسام القرآن)، لأبـــي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قـــيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، تحقيق: عبدالله بن سالم البطاطي، دار عالم الفوائد، ١٤٢٩ هـ، ص٣، الإتقان للسيوطي، ٣٥٣/٢.

(٥) سورة آل عمران، من الآية /١٩١.

(٦) سورة الشمس، الآية /٧.

(٧) ينظر: الكشف والبيان في علوم القرآن، لسمير عبد العزيز شيلوة، مطبعة دار البيان، مصر، ط١، (ب – ت): ص٢٩٣، تفسير سورة النجم دراسة تحليلية موضوعية، لعبد ربه فرحات البدراوي، دار الاسلام للطباعة، المنصورة، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م: ص ٤٣ –٤٤.

(٨) مفاهيم القرآن، ٢٩٣/٩، الأقسام للسبحاني، ص١١.

فيه وذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها".(١)

مثل السبحاني للأركان الثلاثة قائلاً: "الآية التالية تتجلى الأركان الثلاثة، وتقول: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾،(٢) فقوله: ﴿ وَأَقْسَمُواْ ﴾ فهو الركن الأول. وقوله: ﴿ بِٱللَّهِ ﴾هو المقسم به. وقوله: ﴿ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ هو المقسم عليه".(٣)

أضاف السبحاني قائلاً: "وكثيرا ما يحذف الفعل وذلك لكثرة تردد القسم في كلامهم ويكتفى بالواو أو التاء في أسماء الله. نعم، يلازم الأقسام بالباء ذكر الفعل، كما في الآية السابقة، وقوله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾.(٤) وفي ضوء ذلك فباء القسم يلازم مع ذكر فعله، وأن واو القسم وتاءه كذلك، فيقال: أقسم بالله، ولا يقال: أقسم تالله أو أقسم والله بل يقتصر على قوله: تالله، والله، يقول سبحانه: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ ﴾،(٥) وقوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾(٦)".(٧) وهو بذلك بذلك خالف من قال بـ: "جواز إثبات فعل القسم وفاعله مع الباء، أو حذفهما".(٨)

ثمة نكتة أشار لها السبحاني إذ قال: "إن أكثر المفسرين حينما تطرقوا إلى الأقسام الواردة في القرآن الكريم ركزوا جهودهم لبيان ما للمقسم به من أسرار ورموز كالشمس والقمر في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾(٩) أو قوله: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾(١٠) ولكنهم أغفلوا العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه لاحظ مثلا قوله سبحانه: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾(١١) فالضحى والليل مقسم بهما وقوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ هو جواب القسم الذي نعبر عنه بالمقسم عليه، فهناك صلة في الواقع بين المقسم به والمقسم عليه، وهو أنه لماذا لم يقسم بالشمس ولا بالقمر ولا بالتين ولا بالزيتون بل حلف بالضحى والليل لأجل المقسم عليه أعني

---

(١) التبيان لأبن قيم، ص٣، الإتقان للسيوطي، ٣٥٣/٢.
(٢) سورة النحل، الآية / ٣٨.
(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩٣، الأقسام للسبحاني، ص ١١.
(٤) سورة التوبة، من الآية /٦٢.
(٥) سورة الأنبياء، الآية / ٥٧.
(٦) سورة الأنعام، الآية / ٢٣.
(٧) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩٣، الأقسام للسبحاني، ص ١١.
(٨) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لجمال الدين بن هشام الأنصاري (ت ١٣٦٠ هـ)، تحقيق: مازن المبارك وآخرون، دار الفكر، بيروت، ط٦، ص ١٤٣ وينظر: شرح المفصل، لموفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (ت ٦٤٣ هـ)، إدارة الطباعة، المنيرية: ص ١٣٧ –١٥١.
(٩) سورة الشمس، الآيتان /١، ٢.
(١٠) سورة التين، الآية / ١.
(١١) سورة الضحى، الآيات / ١، ٢، ٣.

قوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ؟. وصفوة القول: إنّ كل قسم جدير لتحقيق الخبر، ولكن يقع الكلام في كل قسم ورد في القرآن الكريم أنه لماذا اختار المقسم به الخاص دون سائر الأمور الكثيرة التي يقسم بها؟ فمثلا: لماذا حلف في تحقيق قوله: ﴿ مَاوَدَّعَكَ ﴾ بقوله: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيۡلِ ﴾ ولم يقسم بالشمس والقمر؟ وهذا هو المهم في بيان أقسام القرآن، ولم يتعرض له أكثر المفسرين ولا سيما ابن قيم الجوزية في كتابه التبيان في أقسام القرآن إلا نزرا يسيرا. إذ إن الغالب هو ذكر جواب القسم، وربما يحذف كما يحذف جواب (لو) كثيرا، أما الثاني فكقوله سبحانه: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾[١] فان الجواب محذوف، تقديره:(لما آمنوا)".[٢] "وهذه عادة العرب في كلامهم إذا رأوا أموراً عجيبةً، وأرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها".[٣] "وأما الأول، فكقوله سبحانه: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾،[٤] فان الحلف بالقرآن الكريم المعرب عن تعظيمه ووصفه بأنه مذكر للعباد يدل على جوابه وهو انه منزل من عنده سبحانه غير مفترى، وما أشبه ذلك. وعلى كل حال، فالغالب هو الأول أي الاتيان بالجواب".[٥]

وتؤيد الباحثة: رأي السبحاني في ذلك مع بدء الاهتمام بهذا الموضوع في دراسات حديثة.[٦] إذ إن دراسة العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه من نواحي "المناسبة في اللغة والمشاكلة والمقاربة ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء".[٧] الموصل الى الى نتائج عظيمة مستوحاة من تلك العلاقة بينهما.

أتم السبحاني بيان **الركن الرابع:** وهو الغاية المتوخاة من القسم إذ قال: "إن الغاية إما هي تحقيق الخبر ودعوة المخاطب إلى الايمان والإذعان به، وهو الغالب، أو إلفات النظر إلى عظمة المقسم به وما يكمن فيه من أسرار ورموز"،[٨] "تعظيما له لما في خلقه وتسويته من

---

(١) سورة الرعد، من الآية / ٣١.
(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩٤ – ٢٩٥، الأقسام للسبحاني، ص١٢ – ١٣.
(٣) اسلوب القسم الظاهر لسامي عطا، ص١٢.
(٤) سورة ص، الآية /١.
(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩٥، الأقسام للسبحاني، ص١٣ وينظر: أسلوب القسم الظاهر وأثره في بناء النص القرآني، لأفراح ذياب صالح، مجلة كلية التربية بنات/ جامعة بغداد، المجلد ٢٠/ ٢٠٠٩ م: ص ١– ٢.
(٦) ينظر: بنية التقابل وأثرها في توليد النص القرآني/ صورة الليل نموذجا، لفايز القرعان، جامعة اليرمـــوك، الأردن، ص ٤، أسلوب القسم الظاهر وأثره في بناء النص القرآني لأفراح صالح: ص١–٢.
(٧) الإتقان للسيوطي، ٢/٢٩٠.
(٨) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩٥، الأقسام للسبحاني، ص ١٣ و ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠ / ١٣٩، التبيان للطوسي: ٩/ ٣٧٩ و ١٠/ ٣٥٦، الكشاف للزمخشري: ٣/ ٣٣، مجمع البيان للطبرسي: ١٠/٢٥٤، علوم القرآن وتفسيره، لعبدالله محمود شحاته (ت ٢٠٠٢ م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة المكتبة الثقافية، العدد (٣١٦)، ١٩٧٥ م: ص٢٨١.

الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف"،[١] و"يقسم بخلقه للتنبيه على موضع العبرة فيه"؛[٢] "لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب، فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى".[٣] "أو لبيان قداسته وكرامته كما في قوله: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٤]"،[٥] "إذا أقسم الرب بشيء أثبت له شرفا"،[٦] و"يأتي في مقام التوثيق لما لما يسبق إنكاره، أو الإقرار به".[٧]

تخلص الباحثة الى: إنه يمكن ان نجمع كل الأقوال التي ذكرت في الغاية من القسم بنقطتين عامتين هما: **العظمة والتأكيد.** ونذهب الى أن العظمة تجمع الشرف والعزة والفضل والفائدة والنفع وأهمية الأشياء المقسم بها..... وأما التأكيد، فللدلالة على الخلقة والتسوية والحكمة والأسرار والرموز وأنها أمور جدية ومؤكدة.

ختم السبحاني بطرح إشكال في القسم طرحه عدد من المفسرين كما في قوله: "إن حلفه سبحانه إن كان لأجل المؤمن فهو يصدقه بلا حلف، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده؟".[٨] فأجاب في الوقت نفسه قائلاً: "إن إيمان المؤمن بصدق إخباره سبحانه لا ينافي تأكيده بالحلف، مضافا إلى ما عرفت من أن حلفه سبحانه بشيء إشارة إلى كرامته وقداسته أو إلى عظمته وما يكمن فيه من أسرار ورموز".[٩] فضلاً عن ذلك ذكر الرازي سببا آخر وهو أن "القرآن إنما أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب".[١٠]

المطلب الثاني: مناقشة (الحلف بغير الله سبحانه)

أختلف المفسرون والعلماء في مسألة (الحلف بغير الله سبحانه) بين الحرمة والإكراه والجواز في تفاصيل بين القرآن والسنة النبوية **تحاول الباحثة** ذكر ابرز تلك الأقوال:

---

(١) الكشاف للزمخشري، ٤/ ١٤١ وينظر: التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم، لطنطاوي جوهري (ت ١٩٤٠ م)، مطبعة الرحمانية، مصر، ط٢، ١٩٣٣ م: ص٩٦، دراسات في علوم القرآن، لمحمد بكر إسماعيل (ت ٢٠٠٦ م)، دار المنار، ط ١، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م: ص ٣٦٤.

(٢) مجمع البيان للطبرسي، ٢٥٤/١٠، التفسير العظيم لعبد السلام، ٣/ ٢٧٩.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ١٨٩/٣١ وينظر: الإمعان للفراهي: ص٨ و٤٣.

(٤) سورة الحجر، الآية /٣٢.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩٥، الأقسام للسبحاني، ص ١٣.

(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٣٠/١٧.

(٧) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل أبن الأزرق، لعائشة عبد الرحمن المعروفة بـ (بنت الشاطئ) (ت ١٩٩٨ م)، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م، ص٢٢٦.

(٨) مفاتيح الغيب للرازي: ١١٨/٢٦، الإمعان للفراهي: ص٤، الامثل للشيرازي: ٢٥٢/١٤، مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩٥، الأقسام للسبحاني، ص ١٣ .

(٩) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩٥، الأقسام للسبحاني، ص١٣ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢٦/ ١١٨ و٣٠/ ٢٣.

(١٠) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٦/ ١١٨.

قال السبحاني: "تضافر الحلف بغيره سبحانه في الكتاب العزيز والسنة النبوية، أما الكتاب فسيوافيك حلفه بأشياء كثيرة، وأما السنة فقد حلف النبي (ﷺ) في غير مورد بغير اسم الله. إذ روي أنه جاء رجل إلى النبي، فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرا؟ فقال: ((أما وأبيك لتنبئنه أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء)).[١] وروي أنه: جاء رجل إلى رسول الله من نجد يسأل عن الاسلام، فقال رسول الله (ﷺ): ((خمس صلوات في اليوم والليل. فقال: هل علي غيرهن؟ قال: لا... إلا أن تطوع، وصيام شهر رمضان. فقال: هل علي غيره؟ قال: لا... إلا تطوع، وذكر له رسول الله الزكاة. فقال الرجل: هل علي غيره؟ قال: لا... إلا أن تطوع. فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله (ﷺ): أفلح وأبيه إن صدق أو دخل الجنة وأبيه إن صدق)).[٢] إذ حلف غير واحد من الصحابة بغيره سبحانه، فهذا أبو بكر بن أبي قحافة(رضي الله عنه) على ما يرويه الرواي: ((أن رجلا من أهل اليمن أقطع اليد والرجل قدم فنزل على أبي بكر فشكا إليه أن عامل اليمن قد ظلمه، فكان يصلي من الليل، فيقول أبو بكر: وأبيك ما ليلك بليل سارق)).[٣] وهذا علي بن أبي طالب طالب (عليه السلام) قد حلف بغيره سبحانه في غير واحد من خطبه إذ قال: ((ولعمري ما علي من قتال من خالف الحق وخابط الغي من إدهان ولا إيهان)).[٤] وقوله: ((ولعمري ما تقادمت بكم ولا بهم العهود))[٥]".[٦]

أورد السبحاني أحاديث اُستُدِلَ بها على المنع عن الحلف بغير الله **تذكرها الباحثة** وهي:

الحديث الأول: إن رسول الله سمع عمر، وهو يقول: وأبي، فقال (ﷺ): ((إن الله ينهاكم

---

(١) صحيح مسلم، ٩٣/٣، كتاب (الزكاة)، باب (بيان أن أفضل الصدقة صدقة..)، مسند أحمد، ٢٣١/٢، مسند (أبي هريرة(رضي الله عنه))، الأدب المفرد، لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص١٦٩، باب (قول الرجل لا وأبيك)، رقم الحديث (٧٩٩) وينظر: سنن أبن ماجة: ٩٠٣/٢، باب (النهى عن الإمساك في الحياة..)، رقم الحديث (٢٧٠٦)، وهو حديث صحيح.

(٢) صحيح مسلم، ٣٢/١، كتاب (الإيمان)، باب (بيان الايمان الذي يدخل به الجنة...)، سنن الدارمي، لعبد الله بن الرحمن الدارمي (ت ٢٥٥هـ)، مطبعة الاعتدال، دمشق ١٣٤٩هـ، (ب-ط- ت)، ٣٧١/١، كتاب (الصلاة)، باب (في الوتر)، سنن أبي داود، ٩٧/١، كتاب (الصلاة)، باب (الصلوات كم هي)، رقم الحديث (٣٩١)، وهو حديث صحيح.

(٣) كتاب الأم، لمحمد بن أدريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ)، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط٢، ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م، ٦/ ١٦٢، كتاب (الحدود وصفة النفي)، باب (ما يكون حرزا ولا يكون....)، حديث (قطع الاطراف كلها)، المسند، لمحمد بن أدريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، (ب- ط- ت)، ص٣٣٦، كتاب (القطع في السرقة).

(٤) نهج البلاغة، ٦٣/١، من خطبة له (في الضجر من تثاقل أصحابه.....)، رقم الخطبة (٢٤)، بحار الأنوار للمجلسي، ٢٩/ ٤٦٤، كتاب (الفتن بعد النبي....)، باب (علة قعوده (عليه السلام)عن قتال....).

(٥) نهج البلاغة، ١٥٧/١، من خطبة (في حال الناس من قبل البعثة.....)، رقم الخطبة (٨٩) وينظر: بحار الانوار للمجلسي: ٣٤/ ٢٥٣، كتاب (الفتن بعد النبي...)، باب (نوادر ما وقع في أيام خلافته.....).

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩٦ – ٢٩٧، الأقسام للسبحاني، ص ٢٩٦ – ٢٩٧ وينظر: التوسل أو الإستغاثة بالأرواح المقدسة، لجعفر محمد حسين السبحاني، الدار الإسلامية للطباعة، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢م: ص٢٠٤.

أن تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفا فليحلف بالله أو يسكت)).[١]

علق السبحاني قائلاً: "إن النهي عن الحلف بالآباء قد جاء لانهم كانوا في الغالب مشركين وعبدة للأوثان فلم يكن لهم حرمة ولا كرامة حتى يحلف أحد بهم، ولأجل ذلك نرى أن النبي (ﷺ) جعل آباءهم قرناء مع الطواغيت مرة، وبالأنداد: أي الأصنام ثانية، وقال: ((لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت)).[٢] وقال أيضا: ((لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد)) [٣]".[٤] وأضاف السبحاني قائلاً: "إن هذين الحديثين يؤكدان على أن المنهي عنه هو الحلف بالآباء الكافرين الذين كانوا يعبدون الأنداد والطواغيت، فأين هو من حلف المسلم بالكعبة والقرآن والأنبياء والأولياء في غير القضاء والخصومات ؟"،[٥] وهو ما ذهب اليه ابن الجنيد[٦] إذ قال: قال: "ونهى النبي (ﷺ) عن الحلف بغير الله أو أن يحلفوا بآبائهم، فيحتمل أن يكون لأنّ آباءهم كانوا يشترطون فيها من تعظيم ما كان يحلفون به ويشركون به كاللات والعزّى وما كان مشركا، لأنّه لا يعظّم المشرك إلّا المشرك".[٧]

الحديث الثاني: جاء ابن عمر رجل فقال: أحلف بالكعبة ؟ قال له: لا، ولكن إحلف برب الكعبة، فان عمر كان يحلف بأبيه، فقال رسول الله له: ((لا تحلف بأبيك، فان من حلف بغير الله فقد أشرك)). [٨]

---

(١) صحيح البخاري،٩٨/٧، كتاب (الأدب)، باب (الاخاء والحلف)، صحيح مسلم، ٨٠/٥، كتاب (الأيمان)، باب (النهى عن الحلف...)الموطأ، لابي عبدالله الإمام مالك (ت ١٧٩ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٥م، ٤٨٠/٢، ٢٢-كتاب (النذور والأيمان)، باب (جامع الأيمان)، رقم الحديث (١٤)، وهو حديث صحيح.

(٢) مسند أحمد، ٦٢/٥، حديث (عبد الرحمن بن سمرة)، سنن النسائي، ٧/ ٧، كتاب (الأيمان والنذور)، باب (التشديد في الحلف...)، السنن الكبرى للبيهقي، ٢٩/١٠، كتاب (الايمان)، باب (من حلف بغير الله....) وهو حديث صحيح.

(٣) سنن ابي داود، ٩١/٢، كتاب (الأيمان والنذور)، باب (في كراهية الحلف بغير الله)، رقم الحديث (٣٢٤٨)، سنن النسائي، ٧/ ٥، كتاب (الأيمان والنذور)، باب (التشديد في الحلف...)، وهو حديث صحيح لغيره.

(٤) مفاهيم القرآن، ٢٩٧/٩- ٢٩٨، الأقسام للسبحاني، ص١٥-١٦.

(٥) المصدران نفسهما.

(٦) ابن الجنيد هو: محمد بن أحمد بن الجنيد، أبوعلي من أهل الري، لم تسجل ولادته، له نحو خمسين كتابا، منها"تهذيب الشيعة لاحكام الشريعة"نحو ٢٠ مجلدا وغيرها، توفي في عام(٣٨١ هـ). ينظر: الأعلام للزركلي: ٣١٢/٥.

(٧) مجموعة فتاوي ابن جنيد، لعلي الأشتهاردي، مؤسسة النشر الإسلامية، قم، ط١، ص٣٠٢ – ٣٠٣، كتاب الإيمان وتوابعها، (مسألة ١) وينظر: من لا يحضره الفقيه، لمحمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بـ (الشيـــــخ الصدوق) (ت ٣٨١ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط٢، ١٤٠٤ هـ: ٤ / ٩، باب (ذكر جمل من مناهي النبي...)، ملاذ الأخيار في فهم تهذيب الأخبار، لمحمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت ١١١١ هـ)، تحقيق: مهدي الرجائي، مطبعة الخيام، قم، ١٤٠٧ هـ: ٨/١٤، جواهر الكلام، لمحمد حسن الجواهري (ت ١٢٦٦ هـ)، تحقيق: محمود القوچاني، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٦٢ ش: ٤٠/ ٢٢٨.

(٨) مسند احمد، ٨٧/٢، مسند (عبد الله بن عمر...)، السنن الكبرى للبيهقي، ٢٩/١٠، كتاب (الايمان)، باب (من حلف بغير الله....)، وهو حديث صحيح لغيره.

ذكر السبحاني إن هذا: "الحديث يتألف من **أمرين: الأول:** قول النبي (ﷺ): من حلف بغير الله فقد أشرك. **الثاني:** اجتهاد عبد الله بن عمر، إذ عد الحلف بالكعبة من مصاديق حديث النبي (ﷺ). أما الحديث فنحن نذعن بصحته، والقدر المتيقن من كلامه ما إذا كان المحلوف به شيئا يعد الحلف به شركا كالحلف بالأنداد والطواغيت والآباء الكافرين. فهذا هو الذي قصده النبي (ﷺ) ولا يعم الحلف بالمقدسات كالقرآن وغيره. وأما اجتهاد ابن عمر إذ عد الحلف بالكعبة من مصاديق الحديث، فهو اجتهاد منه وحجة عليه دون غيره. وأما ان الرسول عد حلف عمر بأبيه من أقسام الشرك فلأجل أن أباه كان مشركا، وقد قلنا إن الرواية ناظرة إلى هذا النوع من الحلف. ومجمل القول: إن الكتاب العزيز هو الأسوة للمسلمين عبر القرون، فإذا ورد فيه الحلف من الله سبحانه بغير ذاته سبحانه من الجماد والنبات والإنسان فيستكشف منه أنه أمر سائغ لا يمت إلى الشرك بصلة، وتصور جوازه لله سبحانه دون غيره أمر غير معقول، فإنه لو كان حقيقة الحلف بغير الله شركا فالخالق والمخلوق أمامه سواء. نعم الحلف بغير الله لا يصح في القضاء وفض الخصومات، بل لا بد من الحلف بالله جل جلاله أو بإحدى صفاته التي هي رمز ذاته، وقد ثبت هذا بالدليل ولا علاقة له بالبحث".[١]

أما رأي المذاهب الفقهية الأخرى فأنهم غير مجمعين على أمر واحد. إذ ذهبت الحنفية الى: أن الحلف بالأب والحياة، كقول الرجل: وأبيك، أو: وحياتك وما شابه، مكروه. وذهبت الشافعية: بأن الحلف بغير الله– لو لم يكن باعتقاد الشرك– فهو مكروه. وأما المالكية، فقالوا: إن في القسم بالعظماء والمقدسات– كالنبي والكعبة – فيه قولان: الحرمة والكراهة، والمشهور بينهم: الحرمة. وأما الحنابلة، فقالوا: بأن الحلف بغير الله وبصفاته سبحانه حرام، حتى لو كان حلفا بالنبي أو بأحد أولياء الله تعالى. هذه فتاوى أئمة المذاهب الأربعة،[٢] على أن نسبة الحرمة إلى الحنابلة غير ثابتة أيضا، لان ابن قدامة يصرح في كتابه: أن أحمد بن حنبل أفتى بجواز الحلف بالنبي، وأنه ينعقد لأنه أحد ركني الشهادة،[٣] "لا بأس أن يحلف الانسان بما عظم الله من الحقوق، لأن ذلك من حقوق الله (ﷻ) كقوله: (وحق رسول الله) (وحق

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩٧ – ٢٩٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٧– ١٩ و ينظر: التوسل أو الاستغاثة للسبحاني: ص٢١٤، كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب، لمحسن الأمين (ت ١٣٧١ هـ)، تحقيق: حسن الأمين، مكتبة الحرمين، قم: ص٢٦٩ – ٢٧٠.

(٢) ينظر: الفقه على المذاهب الأربعة، لعبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري (ت ١٣٦٠ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤ هـ– ٢٠٠٣ م، ٢/ ٥٥– ٧٠ ، الفقه الإسلامي وأدلته، لوَهْبَة بن مصطفى الزُّحَيْلِيّ، دار الفكر، سوريَّة، ط ١٢: ٤ / ٢٠٧١، مفاهيم القرآن، ٩/ ٢٩٩– ٣٠٠، الأقسام للسبحاني، ص ١٩– ٢٠.

(٣) ينظر: المغني، لموفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامه (ت ٦٢٠ هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، (ب –ط – ت): ٢٠٩/١١، المجموع شرح المهذب، ليحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ)، دار الفكر للطباعة، دمشق، (ب – ط – ت): ١٨/١٨، منهج الرشاد لمن أراد السداد، لجعفر كاشف الغطاء (ت ١٢٢٨ هـ)، تحقيق: جودت القزويني، (ب – ط –ت): ص٥٥١.

القرآن)".[١]

يتضح للباحثة من هذا النقل: إنه لا يمكن القول إنّ إماما من المذاهب الأربعة قدّم فتوى للتحريم، وبشكل جازم. وأن علماء أهل السّنة، رغم اختلافهم على الحلف بغير الله تعالى، الا انهم لم يجمعوا على الحرمة ولم يتم تكفير الملايين من المسلمين من قبل أحدهم، وذلك لورود أحاديث كثيرة تنهي عن تكفير المسلم الذي أقر بالشهادتين فضلا عمن يمارس الفرائض الدينية ومن هذه الأحاديث **أذكر منها مثلاً:** عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ((لا تكفروا أحدا من أهل قبلتكم بذنب وإن عملوا بالكبائر)).[٢] وروي عن ابن عمر عن النبي (ﷺ) قال: ((من كفر أخاه فقد باء بها أحدهما)).[٣] "وكان الحري بفقهاء المذاهب الأربعة ولا سيما في العصر الراهن فتح باب الاجتهاد والرجوع إلى المسألة والنظر إليها بمنظار جديد إذ كم ترك السلف للخلف"،[٤] وعلى المقلدين والمتبعين التبين والتفكير "فعقل الآخرين ليس حجة لك أمام الله، بل عقلك هو الحجة التي يمكن ان تقدمها بين يدي الله، فالله تعالى لا يريد لك ان تبني فكرك على التقليد، بل يريد فكر الأنتاج وفكر الأبداع".[٥]

أورد السبحاني ما ذكره السيوطي في الإجابة عن: كيف أقسم بالخلق وقد ورد النهي عن القسم بغير الله؟ إذ قال: "أجيب عنه بأوجه: **الأول:** إنه على حذف مضاف، أي ورب التين ورب الشمس، وكذا الباقي. **الثاني:** إن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون. **الثالث:** إن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يجله وهو فوقه والله تعالى ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته، لأنها تدل على باري وصانع. وأجاب ابن أبي الإصبع في اسرار الفواتح: القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع، لان ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل وأخرج أبن أبي حاتم، عن الحسن، قال: إن الله يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله"،[٦] وهو ما ذهب

---

(١) مجموعة فتاوي ابن جنيد للأشتهاردي، ص ٣٠٢ – ٣٠٣، كتاب (الإيمان وتوابعها)، (مسألة ١) وينظر: من لا يحضره الفقيه للصدوق: ٤/ ٩، باب (ذكر جمل من مناهي النبي....)، ملاذ الأخيار للمجلسي: ٨/١٤، جواهر الكلام للجواهري: ٤٠/ ٢٢٨.

(٢) المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق: قسم التحقيق بدار الحرمين، دار الحرمين للطباعة، (ب– ط)، ١٤١٥ هـ– ١٩٩٥ م، ١٧٦/٣، سنن الدارقطني، لعلي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي المعروف بـ (الدارقطني) (ت٣٨٥ هـ)، تحقيق: مجدي بن منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧ هـ– ١٩٩٦ م، ٤٣/٢، كتاب(العيدين)، باب (باب صفة من تجوز الصلاة....)، رقم الحديث (١٧٤٣).

(٣) صحيح البخاري، ٧/ ١٥٧، كتاب (الأدب)، باب (من كفر أخاه...)، رقم الحديث (١) وينظر: عمدة القاري للعيني: ٢٢/ ١٥٧، باب (من كفر أخاه...)، رقم الحديث (١).

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٠٠، الأقسام للسبحاني، ص ١٨.

(٥) الندوة، لمحمد حسين فضل الله (ت ٢٠١٠ م)، أعداد: عادل القاضي، دار الملاك، بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م، ١٢٦/٥– ١٢٧.

(٦) الإتقان للسيوطي، ٣٥١/٢، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٠٠، الأقسام للسبحاني، ص ١٨ وينظر: التبيان للطوسي: ١٠/ ٣١٢، سبل الهدى والرشاد للصالحي: ٢٤/٣.

الـيه النووي.[١]

رد السبحاني هذه الإجابات قائلاً: "لا يخفى ضعف الأجوبة. **أما الأول:** فإن معنى ذلك إرجاع الأقسام المختلفة إلى قسم واحد وهو الرب، مع أنه سبحانه تارة يقسم بنفسه، ويقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾،[٢] وأخرى بالتين والزيتون والصافات والشمس، فلو كان الهدف القسم بالرب فما فائدة هذا النوع من الأقسام إذ يضيف نفسه إلى واحد من مخلوقاته ؟ فان العظمة لله لا للمضاف إليه، ولو كانت له عظمة فإنما هي مقتبسة من الرب. **وأما الثاني:** فمعنى ذلك أنه سبحانه جرى على ما كان عليه العرب في العصر الجاهلي، وقد هدم بعمله ما شرعه من النهي عن القسم بغير الله. **وأما الثالث:** فيكتنفه كثير من الغموض، ولا يعلم كيفية رفع الاشكال، وأما ما نقله عن ابن أبي الإصبع فيرجع إلى المعنى الأول، وهو أن القسم بالمخلوق قسم بالخالق. وما نقله عن أبن أبي حاتم، من أن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله، أمر غير واضح، لان إقسام المخلوق بغير الله لو كان من مقولة الشرك فالقاعدة لا تقبل التخصيص، فيكون قسمه سبحانه بغير الله أيضا شركا وعبادة. وإن كان قسمه سبحانه لأجل بيان قداسته وعظمته أو الاسرار المكنونة فيه، فهو أمر مشترك بين الخالق والمخلوق".[٣]

خلص السبحاني قائلاً: "إن النهي عن الحلف بغير الله مختص بالطواغيت والأنداد والمشركين من الآباء، وأما غيرهم فلم يرد فيهم نهي".[٤]

تخلص الباحثة بعد الاطلاع على المصادر المتوافرة بين يديها:

١. إن اليمين الشرعي الذي له آثار شرعية في باب اليمين أو القضاء لا ينعقد بغير الله سبحانه كما بين في الفقه وليس كلامنا فيه.
٢. أما اليمين بغير الله مكروهة، وليس شركا فما المانع اذاً من أن نجرى على ما جرى عليه كلامه تعالى من إعظامها بالعظمة الموهوبة ونقتصر على ذلك، ولو كان ذلك من الشرك لكان كلامه تعالى أولى بالتحرز منه وأحرى برعايته منا، وعموما نعمل بالمستحب وهو الابتعاد عن الحلف ورياضة النفس على ذلك الا في اثبات حق ودفع باطل وفي الشهادة وهذا لا يتم الا بأسم الله او أحد صفاته.

---

(١) ينظر: المجموع للنووي: ١٨/١٨ – ١٩، كتاب (الأيمان)، باب (من تصح يمينه وما تصح به اليمين).

(٢) سورة مريم، من الآية / ٦٨.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٠١ – ٣٠٢، الأقسام للسبحاني، ص٢٠ –٢١.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٠١ – ٣٠٢، الأقسام للسبحاني، ص٢٠ –٢١ وينظر: مجموعة فتاوي ابن جنيد للأشتهاردي: ص ٣٠٢ – ٣٠٣، كتاب (الأيمان وتوابعها)، (مسألة ١)، من لا يحضره الفقيه للصدوق: ٤ / ٩، باب (ذكر جمل من مناهي النبي....)، ملاذ الأخيار للمجلسي: ٨/١٤، كتاب (الأيمان والنذور...)، باب (الأيمان والأقسام)، جواهر الكلام للجواهري: ٤٠/ ٢٢٨، (المقصد الرابع)، (في كيفية الاستحلاف).

المبحث الثاني
القسم المفرد

التمهيد:

إن الله تبارك وتعالى أقسم في القرآن الكريم بذاته المقدسة وبظواهر كونية وأزمنة وأمكنة وموضوعات ذات أسرار عميقة مكنونة، مثل: القرآن، الملائكة، النفس، السماء، الشمس، .... ما يربو على الأربعين مرة. وتفسيرها يمكن أن يتم بإحدى الصور الآتية:

أ. تناول تلك الأقسام بالبحث طبق حروف التهجي ككتاب اللغة.

ب. تناولها بالبحث حسب أفضلية المقسم به، فيقدم الحلف بالله أو الرب على الحلف بعمر النبي (ﷺ) وحياته، وهو على الحلف بالملائكة وهكذا.

ج. تناولها حسب السور القرآنية، فيفسر ما ورد من الأقسام في سورة الشمس مرة واحدة، أو ما ورد في سورة الفجر أو البلد في مكان واحد.

د. وهناك منهج رابع وهو إفراد فصل خاص لكل قسم.

أتبع السبحاني منهجاً تلافى فيه التكرار والتداخل في الأقسام إذ قسم الذوات المقدسة المقسوم بها على قسمين:

الأول: القسم المفرد. والمراد منه ما إذا حلف سبحانه بشيء مفرد ولم يضم إليه حلفا آخر، سواء تكرر في سور أخرى أو لا، مثلا: حلف بعمر النبي (ﷺ) وحياته مرة واحدة ولم يقرن به حلفا آخر، بخلاف لفظ الرب فقد حلف به مفردا ولكنه تكرر في بعض السور.

الثاني: القسم المتعدد. والمراد منه ما إذا حلف سبحانه بأمور مختلفة جمعها في آية واحدة أو آيتين، وجعل للجميع جوابا واحدا، كالحلف بالشمس والقمر إلى أن يصل إلى النفس الانسانية. وستتضح أكثر في المباحث القادمة.

المطلب الأول: القسم بلفظ الجلالة وبالرب

أولاً: القسم بلفظ الجلالة

أقسم الله تعالى بلفظ الجلالة مرتين في آيتين من سورة النحل، وهو أعظم قسم ورد في القرآن الكريم وهو القسم بـ (تالله). إذ إن "التاء تختص باسم واحد من أسماء الله تعالى وهو الله ولا تدخل على غيره".[١] والآيتان هما:

-قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾.[٢]

-قال تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.[٣]

في تفسير الآية الأولى قال السبحاني: "دلت الآية الأولى على جهل المشركين، حيث كانوا يجعلون نصيبا مما رزقوا للأصنام التي لا تضر ولا تنفع ويتقربون بذلك إليهم، إذ حكى سبحانه عملهم هذا في سورة أخرى، وقال: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.[٤] فالكفار لأجل جهلهم بمبدأ الفيض كانوا يتقربون إلى الآلهة الكاذبة أعني: الأصنام والأوثان بتخصيص شئ مما رزقوا لها، مع أنه سبحانه هو الأولى بالتقرب لا غير، لأنه مبدأ الفيض وما سواه ممكن محتاج في وجوده وفعله، فكيف يتقربون إليه؟ !"،[٥] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٦]: "إن هؤلاء الكفار يجعلون لما لا يعلمون انه يضر، ولا ينفع نصيبا مما رزقناهم يتقربون إليه، ويجب ان يتقربوا إلى الله تعالى، وهو ما حكى الله عنهم في سورة الأنعام من الحرث والانعام وغير ذلك فجعلوا نصيبا لله ونصيبا للأصنام"،[٧] "العجب أنهم يجعلون نصيبا لله ونصيبا لشركائه، فما كان لله فهو يصل إلى شركائهم، وما كان لشركائهم لا يصل إلى الله سبحانه".[٨]

---

(١) المغني لإبن قدامه، ١١/ ١٩٠، الشرح الكبير على متن المقنع، لعبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة (ت ٦٨٢هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٧٥/١١.

(٢) سورة النحل، الآية / ٥٦.

(٣) سورة النحل، الآية / ٦٣.

(٤) سورة الانعام، الآية / ١٣٦.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣١١ -٣١٢، الأقسام للسبحاني، ص ٢٩ – ٣٠.

(٦) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٤/ ١٦٣، الكشف والبيان للثعلبي: ٢١/٦، زاد المسير لابن الجوزي: ٣٣٤/٤، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١١٦/١٠.

(٧) التبيان للطوسي، ٦/ ٣٩٢، مجمع البيان للطبرسي، ١٦٧/٦.

(٨) مجمع البيان للطبرسي، ٢/ ٣٧٠ وينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٣١٢، الأقسام للسبحاني: ص ٣٠.

خلص السبحاني قائلاً: "حاصل الآية: إنَّهم كانوا يجعلون من الزرع والمواشي حظا لله وحظا للأوثان، وقد أسماها سبحانه ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾، لأنهم جعلوا الأوثان شركاءهم، إذ جعلوا لها نصيبا من أموالهم ينفقونه عليها فشاركوها في نعمهم"،[١] **وتذهب الباحثة:** إن هذه الآية تبين فضائح العرب المشركين، وأعمالهم السيئة التي لا يقرها المنطق السوي، لعلهم يرجعون ويثوبون إلى رشدهم، وهي لون من أقوالهم وتصرفاتهم القبيحة، إذ "إنهم من غير حجة ولا برهان صحيح مقبول يجعلون للأصنام، أي للجمادات نصيبا من رزق الله، حيث يذبحون لأصنامهم، ويهدون إليها الهدايا، ويقسمون لها من الغلات والنتاج، فهم لا يدركون أن الأصنام لا تضر ولا تنفع، وهم بهذا أجهل الجاهلين، مما اقتضى الإنكار عليهم لمصلحتهم في آيات قرآنية كثيرة، منها ما ذكر هنا".[٢]

أورد السبحاني بعض أقوال المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَىٰ ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.[٣] **توردها الباحثة** على النحو الآتي:

أولها: أنهم كانوا يزرعون لله زرعا وللأصنام زرعا، فكان إذا زكا الزرع الذي زرعوه لله ولم يزك الزرع الذي زرعوه للأصنام جعلوا بعضه للأصنام وصرفوه إليها، ويقولون إن الله غني والأصنام أحوج، وإن زكا الزرع الذي جعلوه للأصنام ولم يزك الزرع الذي زرعوه لله لم يجعلوا منه شيئا لله، وقالوا: هو غني، وكانوا يقسمون النعم فيجعلون بعضه لله وبعضه للأصنام فما كان لله أطعموه الضيفان، وما كان للصنم أنفقوه على الصنم. وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين.[٤]

ثانيها: أنه كان إذا اختلط ما جعل للأصنام بما جعل لله تعالى ردوه، وإذا اختلط ما جعل لله بما جعل للأصنام تركوه، وقالوا: الله أغنى، وإذا تخرق الماء من الذي لله في الذي للأصنام لم يسدوه، وإذا تخرق من الذي للأصنام في الذي لله سدوه، وقالوا: الله أغنى. وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٥]

---

(١) مفاهيم القرآن: ٩/ ٣١٢، الأقسام للسبحاني: ص ٣٠.

(٢) التفسير الوسيط للزحيلي، ٢/١٢٧١.

(٣) سورة الانعام، من الآية / ١٣٦.

(٤) ينظر: الوجيز للواحدي: ١/٣٧٧، مدارك التنزيل للنسفي: ١/٣٤٧، الكشاف للزمخشري: ٢/ ٥٢، مجمع البيان للطبرسي: ٤/١٦٨، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٧/٨٩، مفاهيم القرآن: ٩/٣١٢-٣١٣ .

(٥) ينظر: جامع البيان للطبري: ٨/٥٦، تفسيرابن أبي حاتم للرازي: ٤/١٣٩١، زاد المسير لابن الجوزي: ٣/٨٨، الميزان للطباطبائي: ٧/٣٦٨، مفاهيم القرآن: ٩/٣١٣.

ثالثها: "إنه كان إذا هلك ما جعل للأصنام بدلوه مما جعل لله، وإذا هلك ما جعل لله لم يبدلوه مما جعل للأصنام، وهذا ما ذهب اليه آخرون".[١]

أضاف الرازي قولاً فضلاً عن التي ذكرها السبحاني **تذكره الباحثة** للفائدة وهو: "إذا أصابهم القحط استعانوا بما لله ووفروا ما جعلوه لشركائهم".[٢]

مما تقدم **تخلص الباحثة الى:** أن المفسرين أختلفوا بشأن المقصود من هذه الآية، ولكن آراءهم كلها تدور حول حقيقة واحدة، هي أنه إذا أصاب ما خصص لله من ضرر على أثر حادثة قالوا: هذا لا أهمية له لأن الله ليس بحاجة اليه، وإذا أصاب الضرر ما خصص لأصنامهم عوضوا عنه من نصيب الله، قائلين: إن الأصنام أشد حاجة إليه.

ختم السبحاني تفسير الآية قائلاً: "في الحقيقة ان هذا النوع من العمل، أي توزيع القربان بين الله والآلهة، كان تزيينا من شركائهم وهم الشياطين أو سدنة الأصنام حيث زينوا لهم هذا العمل وغيره من الأعمال القبيحة، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ (أي ليهلكوهم بالإغواء) وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[٣]،"[٤] "كل هذا دل على أنهم في هذا التقسيم لم يكونوا يعترفون لله حتى بمنزلة مساوية لمنزلة الأصنام. فأي حكم أقبح وأدعى إلى العار من أن يعتبر إنسان قطعة من الحجر أو الخشب الذي لا قيمة له أرفع من خالق عالم الوجود، هل هناك هبوط فكري أحط من هذا ؟".[٥]

بدأ السبحاني تفسير الآية الثانية قائلاً: "يقول سبحانه: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ فهؤلاء كفروا وضلوا وكذبوا الرسل وإذ زين الشيطان أعمالهم ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ﴿ٱلْبَنَٰتِ أي الشيطان الذي زين لهم أعمالهم فهو أيضا يقوم بنفس هذا العمل فالولي واحد وإن كان المتولي عليه مختلفا، وبالتالي ان الشيطان وليهم اليوم في الدنيا يتولونه ويتبعون إغواءه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾"،[٦] وذهب الطوسي الى: "أن في قوله تعالى: ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ **قولان:**

-**أحدهما:** "أنه ناصرهم في الدنيا، لأنه يتولى اغواءهم وسبب هلاكهم ولهم عذاب اليم يوم القيامة.

---

(١) مجمع البيان للطبرسي:١٦٩/٤ وينظر: التبيان للطوسي: ٢٨٤/٤، مفاهيم القرآن: ٩/ ٣١٢.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٠٤/١٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية / ١٣٧.

(٤) مفاهيم القرآن: ٩/ ٣١٣، الأقسام للسبحاني: ص ٣١ وينظر: التفسير المبين لمغنية: ص١٨٥.

(٥) الأمثل للشيرازي، ٤٧٥/٤.

(٦) مفاهيم القرآن: ٩/ ٣١٣ – ٣١٤، الأقسام للسبحاني: ص ٣١ – ٣٢.

-**الثاني:** إنه يوم القيامة وليهم، لأنه لا يمكنه ان يتولى صرف المكروه عن نفسه، فكيف يتولى صرفه عنهم".[١]

ومنهم من أرجع الضمير في ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ الى **قولين:**

-**الأول:** "الضمير لمشركي قريش أي زين للكفار قبلهم أعمالهم فهو ولى هؤلاء لأنهم منهم.

-**الثاني:** أو هو على حذف المضاف: أي فهو ولى أمثالهم اليوم".[٢]

وتذهب الباحثة: إن الآية عامة تنطبق في كل زمان ومكان إذ إن مشركي اليوم على سنة من سبقهم من الماضين من الذين زينوا أعمالهم بزخرف ما أوحى لهم الشيطان فهو وليهم في الدنيا، يستفيدون مما يعطيهم إياه من أفكار خبيثة ونوايا شريرة ووو..... .

أضاف السبحاني بعد تفسير الآيتين ذكر المقسم به، وجواب القسم، وما هي الصلة بينهما. إذ قال: "المقسم به في الآيتين هو لفظ الجلالة الذي جاء ذكره في القرآن الكريم حوالي (٩٨٠) مرة. إذ ذهب غير واحد من أصحاب المعاجم إلى أن أصله، إله، فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فخص بالباري تعالى، قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.[٣] ثم إن إله إما من أله يأله فهو الاله بمعنى المعبود، أو من أله – بالكسر – أي تحير، لتحير العقول في كنهه.[٤] وهذا المعنى ما ذهب إليه المجلسي إذ قال: "المشهور أنه عربي مشتق، إما من أله بمعنى عبد، أو من أله: إذا تحير، إذ العقول تتحير في معرفته و من ألهت إلى فلان أي سكنت إليه، لان القلوب تطمئن بذكره، والأرواح تسكن إلى معرفته، أو من أله: إذا فزع من أمر نزل عليه، وألهه غيره: أجاره، إذ العابد يفزع إليه وهو يجيره، أو من أله الفصيل: إذا ولع بأمه، إذ العباد يولعون بالتضرع إليه في الشدائد، أو من وله: إذا تحير وتخبط عقله، وكان أصله ولاه فقلبت الواو همزة لاستثقال الكسرة عليها، أو من لاه مصدر لاه يليه ليها ولاها: إذا احتجب و ارتفع لأنه تعالى محجوب عن إدراك الابصار، ومرتفع على كل شيء وعما لا يليق به".[٥] وقال في موضع آخر: "المعنى أن هذا اللفظ بجوهره يدل على وجود معبود يعبد".[٦] وذهب الى خلاف ذلك آخرون: إذ قال الرازي: "المختار عندنا أن هذا اللفظ اسم علم لله تعالى، وأنه ليس بمشتق البتة"،[٧] وقال الطباطبائي وهو ما

---

(١) التبيان للطوسي، ٦/ ٣٩٨ وينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٣٣٧/٤، زبدة التفاسير لفتح الله: ٥٧٨/٣.

(٢) مدارك التنزيل للنسفي، ٢٦١/٢، ينظر: الكشاف للزمخشري: ٢/ ٤١٥، جوامع الجامع للطبرسي: ٣٣٤/٢، زبدة التفاسير لفتح الله: ٥٧٨/٣.

(٣) سورة مريم، الآية / ٦٥.

(٤) ينظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي: ٤/ ٢٨٠، مادة (أله)، ناج العروس للزبيدي: ١٩/ ٦، مادة (أله).

(٥) بحار الأنوار للمجلسي، ٢٢٦/٣، كتاب (التوحيد)، باب (التوحيد ونفي الشرك.....)، وينظر: مرآة العقول للمجلسي، كتاب (العقل والجهل)، باب (المعبود).

(٦) بحار الأنوار للمجلسي، ١٥٨/٤، كتاب (التوحيد وأسمائه...)، باب (أسمائه تعالى وحقائقها.....).

(٧) مفاتيح الغيب للرازي، ١٥٧/١.

ذهب اليه السبـــــــحاني: "إن الإله ليس بمعنى المعبود، وأن من فسره به فقد فسره بلازم المعنى، وعلى فرض ثبوته فلفظ الجلالة علم بالغلبة وليس فيه إشارة إلى هذه المعاني من العبادة والتحير، إذ كان مستعملا دائرا على الألسن قبل نزول القرآن تعرفه العرب في العصر الجاهلي، يقول سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.[١] إذ أشار بلفظ الجلالة إلى خالق السماوات والأرض دون تبادر مفهوم العبادة أو التحير منه. ومما يدل على كونه علما انه يوصف بالأسماء الحسنى وسائر أفعاله المأخوذة من تلك الأسماء من دون عكس، فيقال الله الرحمن الرحيم، أو يقال علم الله ورزق الله، ولا يقع لفظ الجلالة صفة لشئ منها، ولا يؤخذ منه ما يوصف به شئ منها، وهذا يدل على أنه علم وليس بوصف، فيكون اسما للذات الواجبة الوجود المستجمعة لجميع صفات الكمال، ولهذا اللفظ في جميع الألسنة معادل كلفظة "خدا" في لغة الفُرس و"حرا" في لغة الإفرنج و"تاري" في لغة الترك".[٢]

أضاف السبحاني في موقع اخر قائلاً: "وعلى هذا فلا نحتاج إلى تفسير "إله" إلى شئ وراء تصور أن هذا اللفظ كلي وما وضع عليه لفظ الجلالة، وبما أن هذا اللفظ (الله) من أوضح المفاهيم فلا نحتاج في فهم اللفظ الموضوع للكلي من هذا الفرد إلى شئ آخر. وعلى ذلك، فلا فرق بين لفظ الجلالة ولفظ "إله" سوى أن أحدهما علم والآخر موضوع لمعنى كلي، ومصداق لفظ الجلالة فرد منه، وإن لم يوجد لهذا الكلي فرد حقيقي سوى الله سبحانه".[٣]

وللرازي حجج تذهب اليها الباحثة تدعم رآي السبحاني توردها الباحثة على النحو الآتي: "**الحجة الأولى**: إنه لو كان لفظاً مشتقاً لكان معناه معنى كلياً لا يمنع نفس مفهومه من وقوع الشركة فيه لأن اللفظ المشتق لا يفيد إلا أنه شيء ما مبهم حصل له ذلك المشتق منه وهذا المفهوم لا يمنع من وقوع الشركة فيه بين كثيرين، فثبت أن هذا اللفظ لو كان مشتقاً لم يمنع وقوع الشركة فيه بين كثيرين، ولو كان كذلك لما كان قولنا: "لا إله إلا الله" توحيداً حقاً مانعاً من وقوع الشركة فيه بين كثيرين؛ لأن بتقدير أن يكون الله لفظاً مشتقاً كان قولنا: "الله" غير مانع من أن يدخل تحته أشخاص كثيرة، وحينئذٍ لا يكون قولنا: "لا إله إلا الله "موجباً للتوحيد المحض، وعلمنا أن قولنا: "الله" اسم علم موضوع لتلك الذات المعينة، وأنها ليست من

---

(١) سورة الزخرف، الآية / ٨٧.

(٢) الميزان للطباطبائي، ١٨/١، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣١٤ – ٣١٥، الأقسام للسبحاني، ص٣٢ –٣٣ وينظر: المقام الأسنى، لإبراهيم الكفعمي (ت ٩٠٥ هـ)، مؤسسة قائم آل محمد، ط١، ١٤١٢ هـ: ص٢٦، روض الجنان في شرح ارشاد الأذهان، لزين الدين العاملي المعروف بـ (الشهيد الثاني)(ت ٩٦٥ هـ)، تحقيق: مركز الابحاث والدراسات الاسلامية، بوستان كتاب، قم، ط١، ١٤٢٢ هـ: ١/ ٢٤، شرح الأسماء الحسنى، لهادي السبزواري (ت ١٢٨٩ هـ)، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، (ب – ط – ت): ١/ ١٩٤، الصراط المستقيم للبروجردي: ٢٠٠/٣، التوحيد والشرك في القرآن، لجعفر السبحاني، مؤسسة الأمام الصادق (عليه السلام)، قم: ص٤٩.

(٣) الأسماء الثلاثة، لجعفر السبحاني، مؤسسة الأمام الصادق (عليه السلام)، قم، ط١، ١٤١٧ هـ، ص٩، التوحيد والشرك للسبحاني: ص٥١.

الألفاظ المشتقة. **الحجة الثانية:** إن من أراد أن يذكر ذاتاً معينة ثم يذكره بالصفات فإنه يذكر اسمه أولاً ثم يذكر عقيب الاسم الصفات. إن كل من أراد أن يذكر الله تعالى بالصفات المقدسة فإنه يذكر أولاً لفظة الله ثم يذكر عقيبه صفات المدائح مثل أن يقول: الله العالم القادر الحكيم، ولا يعكسون هذا فلا يقولون: العالم القادر الله، وذلك يدل على أن قولنا: "الله" اسم علم. **الحجة الثالثة:** قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾.[١] وليس المراد من الاسم في هذه الآية الصفة وإلا لكذب قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ فوجب أن يكون المراد اسم العلم، فكل من أثبت لله اسم علم قال ليس ذاك إلا قولنا الله".[٢]

وضح السبحاني جواب القسم في الآيتين قائلاً: "جواب القسم في الآية الأولى، عبارة عن قوله: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾. وأن جوابه في الآية الثانية، هو قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ إذ أقسم سبحانه في هاتين الآيتين بلفظ الجلالة لغاية التأكيد على **أمرين تذكرهما الباحثة:**

-**الأمر الأول:** إنهم مسؤولون يوم القيامة عن افترائهم الكذب، "في دار الدنيا لتلزموا به الحجة وتعاقبوا بعد اعترافكم على أنفسكم. وإنما كان سؤال التوبيخ، لأنه لا جواب لصاحبه الا ما يظهر به فضيحته"، [٣] من كذبهم في الدنيا من أنّها آلهة حقيقة بالتقرّب إليها.[٤]

-**الأمر الثاني:** إنه سبحانه لم يترك الخلق سدى بل أرسل إليهم رسلا، لكن الشيطان حال بينهم وبين أممهم، وتشهد على ذلك سيرة عاد وثمود بل اليهود والنصارى والمجوس"،[٥] أقسم لك (أيها الرسول الكريم) بذاتي، لقد أرسلنا رسلا كثيرين إلى أمم كثيرة من قبلك، فكانت النتيجة أن استحوذ الشيطان على نفوس عامة هؤلاء المرسل إليهم، حيث زين لهم الأفعال القبيحة، وقبح لهم الأعمال الحسنة، وجعلهم يقفون من رسلهم موقف المكذب لأقوالهم، المعرض عن إرشاداتهم، المحارب لدعوتهم.[٦]

ختم السبحاني الآيتين بسؤال قال فيه: ماهي الصلة بين المقسم به والمقسم عليه ؟ فأجاب في الوقت نفسه: "هذا هو المهم في أقسام القرآن، وقد أهمل في كثير من التفاسير، ويمكن أن يقال: أما الآية الأولى، فالقسم بلفظ الجلالة لأجل أن المشركين كانوا يجعلون لله

---

(١) سورة مريم، من الآية /٦٥.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ١٥٧/١، ينظر: المقام الأسنى للكفعمي: ص٢٤، البيان في تفسير القرآن، لابي القاسم الخوئي (ت١٤١٣ هـ)، دار الزهراء للطباعة والنشر، بيروت، ط٤، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م: ص٤٢٥.

(٣) التبيان للطوسي، ٦/ ٣٩٢ وينظر: جامع البيان للطبري: ١٤/ ١٦٢، مجمع البيان للطبرسي: ١٦٧/٦، زاد المسير لابن الجوزي: ٣٣٤/٤.

(٤) ينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٥٧٥/٣ تفسير الأصفى للفيض الكاشاني: ١/ ٦٥٢، كنز الدقائق للمشهدي: ٢٢٢/٧.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣١٥، الأقسام للسبحاني، ص ٣٣.

(٦) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٧١/١٤، مدارك التنزيل للنسفي: ٢٦١/٢، الوسيط للطنطاوي، ١٨٠/٨.

نصيبا مما زرعوا من الحرث والأنعام، وكانوا يقولون: هذا لله، فناسب أن يقسم به لأجل أنه افتراء عظيم".[١] "ولما وصف العرب أنهم كانوا يجعلون للأصنام نصيبا في زرعهم وإبلهم وغنمهم فرد الله عليهم فقال: ﴿ تَٱللَّهِ ﴾"،[٢] أضاف السبحاني قائلاً: "وأما الآية الثانية، فلأنه جاء في ذيل جواب القسم ولاية الشيطان، وقال: ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ وبما ان الولاية لله سبحانه إذ قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ ﴾[٣] ناسب الحلف بالله الذي هو الولي دون الشيطان، كما عليه المشركون".[٤]

وترى الباحثة: إن القسم بلفظ الجلالة في الآيات السابقة يؤكد حقيقة هي: أن الأقوام والأمم لو اتبعت الأنبياء وتعاليمهم وتخلت عن أهوائها ورغباتها الشخصية لما بقي أثر لأي خرافة وانحراف فكري وعقائدي، ولزالت تناقضات الأعمال.

ثانياً: القسم بالرب

أقسم سبحانه بلفظ (رب) بصور مختلفة ذكرها السبحاني وتذكر الباحثة بعضاً منها على النحو الآتي:

١ – الحلف بلفظ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾:

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾.[٥]

قال السبحاني: "تشير الآية إلى مقام من مقامات النبي (ﷺ)، فان له حسب ما دل عليه الكتاب والسنة في إدارة رحى المجتمع **مقامات ثلاثة:**

أ. السياسية وتدبير الأمور: يقول سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾.[٦] ويقول في حق النبي خاصة: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾[٧]، وليس الأولى بالمؤمنين من أنفسهم فضلا عن أموالهم غير السائس الحاكم العام.

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣١٦، الأقسام للسبحاني، ص٣٤.

(٢) تفسير القمي للقمي، ٣٨٦/١ وينظر: التبيان للطوسي: ٦/ ٣٩٢، البحر المحيط لأبي حيان: ٥/ ٤٨٧، الوسيط للطنطاوي: ١٧٢/٨.

(٣) سورة الكهف، من الآية / ٤٤.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣١٦، الأقسام للسبحاني، ص٣٤.

(٥) سورة النساء، الآية / ٦٥.

(٦) سورة الحج، الآية / ٤١.

(٧) سورة الأحزاب، من الآية / ٦.

ب. القضاء وفض الخصومات: يقول سبحانه في حق داود: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾[١] وفي حق النبي (ﷺ) بقوله: ﴿ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾.[٢]

ج. الافتاء وبيان الاحكام: يقول سبحانه: ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ ﴾.[٣] إذ كان الرسول بنص هذه الآيات جامعا لهذه المقامات الثلاثة فكان سائسا وحاكما، وقاضيا وفاضا للخصومات، ومفتيا ومبينا للأحكام".[٤] إذ انه "الحاكم الاول في الاسلام المنصوص والمدلول عليه من قبل الله تعالى هو النبي (ﷺ)".[٥]

أضاف السبحاني قائلاً: "ومن الواضح بمكان أن فض الخصومات لا يتحقق إلا بقضاء قاض مطاع رأيه ونافذ فصله، إذ كان بعض المنتمين إلى الاسلام لم يعيروا أهمية لقضائه، فنزلت الآية تأمر أولاً بإطاعته وان كل رسول واجب الطاعة. يقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾[٦]"،[٧] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٨]: "أكد (جل وعلا) بهذه الآيات وجوب طاعة رسول الله (ﷺ)، وأبان أن طاعته طاعة الله، وأفاد بذلك أن معصيته معصية الله"،[٩] "أظهر الحق (ﷻ)على حبيبة (ﷺ) خلعة من خلع الربوبية. فجعل الرضا بقضائه ساء أم سر سببا لإيمان المؤمنين، كما جعل الرضا بقضائه سببا لإيقان الموقنين، فأسقط عنهم اسم الواسطة، لأنه متصف بأوصاف الحق (ﷻ) متخلق بأخلاقه". [١٠]

ختم السبحاني قائلاً: "تشير الآية إلى أن الايمان لا يكتمل إلا بالانصياع والتسليم القلبي لما يقضي به النبي (ﷺ)، فمن شهد الشهادتين وأذعن بهما، ومع ذلك يجد في نفسه

---

(١) سورة ص، الآية / ٢٦.
(٢) سورة المائدة، من الآية / ٤٢.
(٣) سورة النساء، من الآية / ١٧٦.
(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣١٨ – ٣١٩، الأقسام للسبحاني، ص ٣٦ – ٣٧ وينظر: الإيمان والكفر للسبحاني: ص٢٦.
(٥) الأمامة والحكومة في الأسلام، لمحمد حسين الأنصاري، تحقيق: مرتضى رضوي: طهران، ١٤١٨ هـ، ١٩/١.
(٦) سورة النساء، من الآية / ٦٤.
(٧) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣١٨ – ٣١٩، الأقسام للسبحاني، ص ٣٦ – ٣٧ .
(٨) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣٤٠/١، اللباب في علوم الكتاب، لسراج الدين بن عادل الحنبلي (ت ٧٧٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م: ٢٣٠/٥، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للحسن بن محمد النيسابوري (ت ٨٥٠هـ)، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلميه، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ: /٢٠٢، حقائق التفسير للسلمي، ١٥٤/١ وينظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأحمد بن محمد بن عجيبة (ت ١٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي، دار الكتب العلميه، بيروت، ط٢، ١٤١٩ هـ: ٤٤٨/١.
(٩) أحكام القرآن للجصاص: ٢٦٧/٢ وينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣٤٠/١.
(١٠) حقائق التفسير للسلمي، ١٥٤/١ وينظر: البحر المديد لإبن عجيبة: ٤٤٨/١.

حرجا في قضاء النبي (ﷺ) وأمره فليس بمؤمن، يقول سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾، فالآية تدل على أن الايمان لا يكتمل بنفس الاذعان واليقين بالتوحيد والرسالة ما لم ينضم إليه التسليم القلبي، ولذلك ترى أن أمير المؤمنين عليا (عليه السلام) يصف الاسلام بالنحو الآتي في قوله: ((لأنسبن الاسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الاسلام هو التسليم)) [١]"،[٢] وهذا ما ذهب اليه الرازي إذ قال: "اعلم أن الراضي بحكم الرسول (ﷺ) قد يكون راضيا به في الظاهر دون القلب فبين في هذه الآية انه لا بد من حصول الرضا به في القلب، واعلم أن ميل القلب ونفرته شيء خارج عن وسع البشر، فليس المراد من الآية ذلك، بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذي يحكم به الرسول هو الحق والصدق. واعلم أن من عرف بقلبه كون ذلك الحكم حقا وصدقا قد يتمرد عن قبوله على سبيل العناد أو يتوقف في ذلك القبول، فبين تعالى أنه كما لا بد في الايمان من حصول ذلك اليقين في القلب. فلا بد أيضا من التسليم معه في الظاهر، فقوله: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ المراد به الانقياد في الباطن، وقوله: ﴿ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ المراد منه الانقياد في الظاهر"،[٣] "والتسليم أخص من انتفاء الحرج (بالحكم)، إذ قد ينتفي الحرج ويبقى القلب فارغا من الرضى به والتسليم له فتأمله".[٤]

وعند هذا نعلم أن الله تبارك وتعالى أقسم على انتفاء إيمان لمن لا يؤمن بتلك المقامات الثلاثة لرسول الله (ﷺ) باطنا وظاهرا.

٢- الحلف بـ (رب) مقرونا بلفظ (لا) وقال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ﴾.

- قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾.[٥]

قال السبحاني في تفسير هذه الآية: "إنه سبحانه قادر على أن يهلك المشركين ويأتي بقوم آخرين ﴿ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾، من دون أن يكون مغلوبا، قال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾. فجواب القسم قوله: ﴿ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ عطف على جواب القسم، والمراد بالسبق الغلبة، أي وما نحن بمغلوبين".[٦] ثم أضاف السبحاني قائلاً: "يمكن أن يكون السبق بمعناه والمراد: وما نحن بمسبوقين بفوت عقابنا إياهم

---

[١] نهج البلاغة، ٢٩/٤، باب (المختار من حكم أمير المؤمنين (عليه السلام))، رقم الحكمة (١٢٥).

[٢] مفاهيم القرآن، ٩ / ٣١٩ -٣٢٠، الأقسام للسبحاني، ص ٣٧ -٣٨.

[٣] مفاتيح الغيب للرازي، ١٦٥/١٠.

[٤] التبيان لأبن قيم، ص٢٧٤.

[٥] سورة المعارج، الآيتان / ٤٠، ٤١.

[٦] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٢٠، الأقسام للسبحاني، ص ٣٨ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ١٨٦/٧، الميزان للطباطبائي: ٢٢/٢٠.

فإنهم لو سبقوا عقابنا لسبقونا. والتعبير بالمشارق والمغارب لأجل أن للشمس في كل يوم من أيام السنة الشمسية مشرقا ومغربا لا تعود إليهما إلى مثل اليوم من السنة القابلة"،[١] وهو ما ذهب إليه أغلب المفسرين.[٢] أورد السبحاني قول الطباطبائي في تفسير الآية وهو: إنه من المحتمل أن يكون المراد بها مشارق جميع النجوم ومغاربها. ومن عجيب الامر أن في الآية على قصرها وجوها من الالتفات. ففي قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ التفات من التكلم مع الغير الوارد في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم﴾[٣] إلى التكلم وحده، والوجه فيه تأكيد القسم بإسناده إلى الله نفسه. وفي قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ التفات من التكلم وحده إلى الغيبة، والوجه فيه الإشارة إلى صفة من صفاته تعالى هي المبدأ في خلق الناس جيلا بعد جيل، وهي ربوبيته للمشارق والمغارب، فان الشروق بعد الشروق، والغروب بعد الغروب، يلازم مرور الزمان الذي له مدخلية تامة في تكون الانسان جيلا بعد جيل وسائر الحوادث العرضية المقارنة له. وفي قوله: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير، والوجه فيه الإشارة إلى العظمة المناسبة لذكر القدرة، وفي ذكر ربوبيته للمشارق والمغارب إشارة إلى تعليل القدرة، وهو أن الذي ينتهي إليه تدبير الحوادث في تكونها لا يعجزه شئ من الحوادث التي هي أفعاله، عن شيء منها، ولا يمنعه شئ من خلقه من أن يبدله بخير منه، وإلا شاركه المانع في أمر التدبير، والله سبحانه لا شريك له في أمر التدبير،[٤] وذهب الرازي الى مفهوم أوسع للمشارق والمغارب إذ قال: "يعني مشرق كل يوم من السنة ومغربه أو مشرق كل كوكب ومغربه، أو المراد بالمشرق ظهور دعوة كل نبي وبالمغرب موته أو المراد أنواع الهدايات والخذلانات".[٥] ومنهم من قال: "هذه الآيات الكريمة دلالة على تعدد مطالع الشمس ومغاربها، وفيها إشارة إلى كروية الأرض، فإن طلوع الشمس على أي جزء من أجزاء الكرة الأرضية يلازم غروبها عن جزء آخر، فيكون تعدد المشارق والمغارب واضحا لا تكلف فيه ولا تعسف".[٦]

تخلص الباحثة: إن الله سبحانه وتعالى الذي قدر على أن يجعل للشمس مشرقا ومغربا جديدين في كل يوم، وبنظام دقيق من دون أية زيادة ونقصان مدى ملايين السنين قادر على أن يذهب بالأقوام العاصين له ويأتي بأطوع وأفضل منهم.

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٢٠، الأقسام للسبحاني، ص ٣٨.

(٢) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٤٧٤/٣، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٣٨/٥، التبيان للطوسي: ١٢٦/١٠، متشابه القرآن ومختلفه لابن شهر: ٥/١، تفسير القرآن للسمعاني: ٥٢/٦، التبيان لأبن قيم: ص١٢١.

(٣) سورة المعارج، من الآية /٣٩.

(٤) ينظر: الميزان للطباطبائي: ٢٢/٢٠، الأمثل للشيرازي: ١٧/ ٣٨٥، مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٢٠ –٣٢١، الأقسام للسبحاني: ص ٣٨ – ٣٩.

(٥) مفاتيح الغيب للرازي، ٣٠/ ١٣٢.

(٦) البيان في تفسير القرآن للخوئي، ص٧٥.

٣ – الحلف بـ (رب) بلفظ (فوربك): فيها آيتان:

إحدهما: قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾. [١]

يوضح السبحاني المراد من الآية قائلاً: "لما ذكر سبحانه الوعد والوعيد والبعث والنشور أردفه بقول منكر البعث ورد عليهم بأوضح بيان وأجلى برهان، وقال: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾.[٢] والمراد أو لا يذكر أن النشأة الأولى دليل على إمكان النشأة الثانية، ثم أكده بقوله: فوربك يا محمد لنحشرنهم والشياطين أي لنجمعنهم ولنبعثنهم من قبورهم مقرنين بأوليائهم من الشياطين"،[٣] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين إذ قالوا: "أقسم سبحانه باسمه مضافا إلى رسول الله (ﷺ)، تفخيما لشأنه ورفعا لقدره بأن يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة ثم يحضرون حول جهنم متجاثين مستوفزين على الركب، متخاصمين يتبرأ بعضهم من بعض"،[٤] "أنهم لشدة ما هم فيه، لا يقدرون على القيام". [٥]

الثانية: قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.[٦] قال السبحاني في تفسيرها: "سياق الآية يندد بالمقتسمين، ويقول: ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾.[٧] ثم يصفهم بقوله: ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ والعضين جمع عضة والتعضية التفريق، فهم الذين جزأوا القرآن أجزاء فقالوا **تارة:** سحر، **وأخرى:** أساطير الأولين، **وثالثة:** مفترى، وبذلك صدوا الناس عن الدخول في دين الله، وعلى ذلك يكون المراد من المقتسمين هم كفار قريش. ويحتمل أن يكون المراد هم اليهود والنصارى الذين فرقوا القرآن أجزاء وأبعاضا، وقالوا: نؤمن ببعض ونكفر ببعض"،[٨] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين.[٩] وذهب السبحاني الى رأي ثالث وهو: "الذين كانوا بصدد إطفاء نور القرآن بتبعيضه أبعاض ليصدوا عن سبيل الله فهؤلاء هم المقصودون، ثم حلف سبحانه وقال: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من تبعيض القرآن وصد

---

(١) سورة مريم، الآية / ٦٨.

(٢) سورة مريم، الآية /٦٧.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٢١، الأقسام للسبحاني، ص ٣٩.

(٤) جوامع الجامع للطبرسي، ٤٦٣/٢ وينظر: جامع البيان للطبري: ١٣٤/١٦، بحر العلوم للسمرقندي: ٣٨٢/٢، الكشف والبيان للثعلبي: ٢٢٤/٦، زاد المسير لابن الجوزي: ١٧٦/٥، زبدة التفاسير لفتح الله: ١٩٨/٤.

(٥) معاني القرآن للنحاس، ٤/ ٣٤٧ وينظر: غرائب القرآن للنيسابوري: ٢٥٠/٥.

(٦) سورة الحجر، الآيتان / ٩٢، ٩٣.

(٧) سورة الحجر الآية /٩٠.

(٨) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٢٢، الأقسام للسبحاني، ص ٤٠.

(٩) ينظر: جامع البيان للطبري: ٨٥/١٤، معاني القرآن للنحاس: ٤٣/٤، التبيان للطوسي: ٣٥٤/٦، تفسير القرآن للسمعاني: ١٥٢/٣، جوامع الجامع للطبرسي: ٣١٠/٢، معالم التنزيل للبغوي: ٥٨/٣، زاد المسير لابن الجوزي: ٤/ ٣٠٥.

الناس عن الايمان به"،[١] وهذا ما ذهب اليه الطبري وتؤيده الباحثة أذ قال: "فإذ لم يكن في التنزيل دلالة على أنه عني به أحد الفرق الثلاثة دون الآخرين، ولا في خبر عن الرسول (ﷺ)، ولا في فطرة عقل، وكان ظاهر الآية محتملا ما وصفت، وجب أن يكون مقتضيا بأن كل من اقتسم كتابا لله بتكذيب بعض وتصديق بعض، واقتسم على معصية الله ممن حل به عاجل نقمة الله في الدار الدنيا قبل نزول هذه الآية، فداخل في ذلك".[٢] ومنهم من قال أنه: "أقسم بذاته وربوبيته ليسألن يوم القيامة واحدا واحدا من هؤلاء المقتسمين عما قالوه في رسول الله (ﷺ)أو في القرآن أو في كتب الله".[٣]

٤- الحلف بلفظ (بلى وربي) فيه آيتان:

-**الأولى:** قال تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ ﴾[٤]

تناول السبحاني تعليل إنكار المشركين للساعة في أثناء تفسيره لهذه الآية بقوله: "تذكر إنكار المشركين لإتيان الساعة ويوم القيامة، وهم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه سبحانه وعلمه بكل شئ"،[٥] ومنهم من ذهب الى أنها: إنكارٌ وتكذيب بالبعث.[٦] أورد السبحاني سبب ذلك قائلاً: "كان سبب إنكارهم هو زعمهم أن الانسان يبلى جسده بعد الموت وتختلط أجزاؤه بأجزاء أبدان أخرى على نحو لا تتميز، فكيف يمكن إعادته؟ فأجاب سبحانه في الآية مشيرا إلى علمه الواسع، ويقول: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾.[٧] فقوله: ﴿ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ حكاية لقول المشركين. وقوله: ﴿ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي ﴾ أمر للنبي (ﷺ) بأن يجيبهم بأن إتيان الساعة أمر قطعي. وأما ما تشككون به من اختلاط أجزاء الأموات بعضها ببعض فهو أمر سهل أمام سعة علمه سبحانه بالغيب، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فهو يعلم بذرات بدن كل إنسان ويميزه عن غيره، ومع علمه سبحانه فالأجزاء ثابتة في كتاب مبين لا تتغير ولا تتبدل"،[٨] وهو ما ذهب اليه أغلب

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٢٢، الأقسام للسبحاني، ص٤٠.

(٢) جامع البيان للطبري، ٨٥/١٤.

(٣) مدارك التنزيل للنسفي، ٢٤٨/٢.

(٤) سورة سبأ، من الآية / ٣.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩ /٣٢٢، الأقسام للسبحاني، ص ٤٠.

(٦) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٣١٦/٤، زاد المسير لابن الجوزي: ٢٢٢/٦، أضواء البيان للشنقيطي: ٢٦٢/٢، التفسير الحديث لدروزة: ٢٦٥/٤.

(٧) سورة سبأ، الآية / ٣.

(٨) مفاهيم القرآن، ٩ / ٣٢٢ -٣٢٣، الأقسام للسبحاني، ص ٤٠ -٤١.

المفسرين.[١] "هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله (ﷺ) أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر".[٢] "قال الذين كفروا باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لا تأتينا الساعة بحال من الأحوال، وإنما نحن نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وإذا متنا فإن الأرض تأكل أجسادنا، ولا نعود إلى الحياة مرة أخرى. وعبروا عن إنكارهم لها بقولهم: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ مبالغة في نفيها نفيا كليا، فكأنهم يقولون: لا تأتينا الساعة في حال من الأحوال، لأننا ننكر وجودها أصلا، فضلا عن إتيانها. إذ أمر اللَّه تعالى رسوله (ﷺ) أن يرد عليهم بما يؤكد وجودها وإتيانها تأكيدا قاطعا فقال: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المنكرين لإتيان الساعة: ليس الأمر كما زعمتم، بل هي ستأتيكم بغتة، وحق ربي الذي أوجدني وأوجدكم".[٣]

-**الثانية:** قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.[٤]

قال السبحاني في تفسير الآية إنها: "تشير إلى إنكار الوثنيين الذين كانوا ينكرون البعث، فأمر النبي (ﷺ) بالإجابة على إنكارهم بإثبات ما نفوه من الكلام مقرونا بأصناف التأكيد بالقسم واللام والنون وقال: ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾. وأشار في ذيل الآية إلى أن البعث أمر يسير عليه تعالى، وإنما طرحوه من شبهات حول البعث فهي في الواقع شبهات لا تصمد أمام قدرة الله وعلمه الواسع"،[٥] وهذا ما ذهب اليه الطباطبائي.[٦] وذهب أغلب المفسرين الى تخصيص الإنكار بأهل مكة، "الذين كفروا هم أهل مكة، قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ يحتمل أن يكون تعليماً للرسول (ﷺ)، أي يعلمه القسم تأكيداً لما كان يخبر عن البعث. وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي لا يصرفه صارف، إن أمر البعث على الله يسير، لأنهم أنكروا البعث بعد أن صاروا تراباً، فأخبر أن إعادتهم أهون في العقول من إنشائهم"،[٧] "لقبول المادّة وحصول

---

(١) ينظر: تيسير الكريم للسعدي: ص ٦٧٤، الميزان للطباطبائي: ٣٥٧/١٦، التفسير الوسيط للزحيلي: ٢٠٩٤/٣.

(٢) القرآن العظيم لابن كثير، ٣/ ٥٣٣ وينظر: التبيان لأبن قيم: ص٦، الوسيط للطنطاوي: ٢٦٥/١١، الميزان للطباطبائي: ٢٩٩/١٩.

(٣) الوسيط للطنطاوي، ٢٦٥/١١ وينظر: التبيان لأبن قيم: ص٦.

(٤) سورة التغابن، الآية / ٧.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٢٣، الأقسام للسبحاني، ص٤١.

(٦) ينظر: الميزان للطباطبائي: ٢٩٩/١٩.

(٧) مفاتيح الغيب للرازي، ٣٠ /٢٣، وينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٢٥١/٤، زبدة التفاسير لفتح الله، ٨٠/٧، مقتنيات الدرر للحائري: ١٥٩/١١.

القدرة التامّة".[١] "بين الله سبحانه بعض ما لأجله اختاروا الكفر على الإيمان، وهو أنهم كانوا لا يقرون بالبعث والنشور، فأمر النبي (ﷺ) بأن يكذبهم فقـــال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ أي وحق ربي على وجه القسم ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي لتحشرن. أكد تكذيبهم بقوله (بلى) وباليمين. ثم أكد اليمين باللام والنون ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾أي لتخبرن وتحاسبن بأعمالكم، وتجازون عليها. وذلك البعث والحساب مع الجمع والجزاء على الله سهل هين لا يلحقه مشقة، ولا معاناة فيه".[٢]

بعد الاطلاع على تفاسير عدة **تبين للباحثة:** إن المفسرين قد أتفقوا على المعنى العام للآية: وهو أنكار البعث والقسم كان من أجل إثبات شيء واحد هو من أبدع الخلق من لا شيء يهون عليه أن يجمع أجزاءه بعد تفرقها، ولكنهم اختلفوا في تحديد المنكرين.

٥ – الحلف بلفظ (اي وربي).

–قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.[٣]

تطـــرق السبـــحاني الى سياق الآية بقوله: "سياق الآية يوحي إلى أن المشركين كانوا يستخبرون النبي (ﷺ) عن نزول العذاب أو وقوع البعث، فأمره سبحانه بأن يجيب مؤكدا، فقال: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾، ثم أشار إلى أن الكافرين لا يعجزونه سبحانه عما أراد، وقال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾"،[٤] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٥]: "يستخبرونك أي يطلبون النبأ الذي هو الخبر ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ يعني هذا الوعيد الذي ذكره الله في هذه الآية، فقال الله لنبيه "قل نعم وحق الله انه لحق، لستم تقدرون على اعجاز الله عما يريده من انزال العذاب بكم".[٦] يستخبر المكذبون على وجه التعنت والعناد، لا على وجه التبين والاسترشاد. أصحيح حشر العباد، وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؟.[٧]

---

(١) زبدة التفاسير لفتح الله، ٨٠/٧ وينظر: مقتنيات الدرر للحائري: ١٥٩/١١.

(٢) مجمع البيان للطبرسي: ٣١/١٩.

(٣) سورة يونس، الآية / ٥٣.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٢٣، الأقسام للسبحاني، ص٤١.

(٥) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٥٩/١١، الكشاف للزمخشري: ٢/ ٢٤١، زاد المسير لابن الجوزي: ٣٤/٤، زبدة التفاسير لفتح الله: ٢١٦/٣، كنز الدقائق للمشهدي: ٦٥/٦، التفسير المبين لمغنية: ص ٢٧٤، الميزان للطباطبائي: ٧٥/١٠.

(٦) التبيان للطوسي، ٣٩٢/٥.

(٧) ينظر: تيسير الكريم للسعدي: ص٣٦٦.

وذهب بعض المفسرين الى أن "الأستنباء بخصوص أمور أخرى إذ قالوا: "﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ يا محمد أي: يطلبون منك أن تخبرهم: أحق ما جئت به من القرآن، والنبوة، والشريعة".[١]

من هذا تستنتج الباحثة: إن التأكيدات التي تلاحظ في الآية تستحق الانتباه، فمن جهة القسم﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾، ومن جهة أخرى إن ولام التأكيد ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾، ومن جهة ثالثة جملة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾وكل هذه تؤكد على أن العقاب الإلهي حتمي عند ارتكاب ما يستحق أنزال العذاب.

٦ – الحلف بلفظ (فورب السماء والأرض).

–قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.[٢]

يلتفت السبحاني في مطلع تفسيره للآية الكريمة الى عود الضمير (الهاء) في﴿إِنَّهُۥ﴾ مبيناً ربطه بما سبق في قوله: "الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود إلى الرزق والوعد الواردين في الآية المتقدمة، قال سبحانه: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[٣] والمراد من الوعد هو الجنة. ثم أشار ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ وأن العلم بهذا الامر أي: النطق أمر ملموس لا شبهة فيه، فهكذا الرزق والوعد من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس".[٤] وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين،[٥] فضلاً عن إضافة قول الأصمعي الى تفسيرها وهو ما أورده السبحاني عن الزمخشري قائلاً: "أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له، فقال: ممن الرجل ؟ قلت: من بني أصمع، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال: أتل علي فتلوت والذاريات فلما بلغت قوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته، فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى، فلما حججت مع الرشيد، طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلم علي واستقرا السورة، فلما بلغت الآية، صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، ثم قال: وهل غير هذا ؟ فقرأت: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ فصاح، وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين، قالها ثلاثا، وخرجت معها

---

(١) مجمع البيان للطبرسي، ١٩٨/٥ وينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ٢٦٢/٢، أنوار التنزيل للبيضاوي: ١١٥/٣، البحر المحيط لأبي حيان: ١١٦/٥.

(٢) سورة الذاريات، الآية /٢٣.

(٣) سورة الذاريات، الآية / ٢٢.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٢٤، الأقسام للسبحاني، ص٤٢.

(٥) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٦٦/٢٦، الكشف والبيان للثعلبي: ٩/ ١١٤، مدارك التنزيل للنسفي: ١٧٨/٤، التبيان لأبن قيم، ص٢٦٩، فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٨٥.

نفسه"،[١] وللرازي رأي آخر تذكره الباحثة للفائدة: "إن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ راجع إلى القرآن أي أن القرآن حق، وعلى هذا فقوله:﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ معناه تكلم به الملك النازل من عند الله به مثل ما أنكم تتكلمون وسنذكره،"[٢] وذهب الآلوسي وهو ما **ترجحه الباحثة الى**: "إن الضمير في قوله:﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾. إما للرزق، أو لله تعالى، أو للنبي(ﷺ)، أو للقرآن، أو للدين في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾[٣] أو لليوم المذكور في قوله: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[٤] أو لجميع المذكور".[٥]

بدأ السبحاني في الكلام عن المقسم به، والمقسم عليه، بعد أن تم تفسير الآيات التي أقسم فيها سبحانه بربوبيته إذ قال: "إن المقسم به في هذه الآيات الثمان هو الرب، والرب أصله من ربب،[٦] تلك الكلمات ونظائرها مبثوثة في كتب القواميس واللغة، وهي ظاهرة في أن للرب معاني مختلفة، ولكن الحق أنه ليس لتلك اللفظة إلا معنى واحد والجميع مصاديق متعددة لهذا المعنى أو صور مبسطة للمعنى الواحد، هذه الموارد والمصاديق هي: التربية: مثل رب الولد، رباه. الاصلاح والرعاية: مثل رب الضيعة. الحكومة والسياسة: مثل فلان قد رب قومه، أي ساسهم وجعلهم ينقادون له. المالك: كما جاء في الخبر، عن النبي (ﷺ): ((أرب غنم أم رب إبل)).[٧] الصاحب: مثل قوله: رب الدار، أو كما يقول القرآن الكريم: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾،[٨] لا ريب أن هذه اللفظة قد استعملت في هذه الموارد، ولكن جميعها ترجع إلى أصل واحد وهو (من فوض إليه أمر الشيء المربوب)"،[٩] "إن حقيقتها لله تعالى لأن الرب هو المالك أو القائم بالشيء ولا يوجد حقيقة هذا إلا في الله تعالى".[١٠] إذ أنها إعطاء التوفيق والهداية لكل

---

(١) الكشاف للزمخشري،١٧/٤، مفاهيم القرآن،٣٢٤/٩، الأقسام للسبحاني، ص٤٢.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨ / ٢٠٩

(٣) سورة الذاريات، الآية / ٦.

(٤) سورة الذاريات، من الآية / ١٢.

(٥) روح المعاني للآلوسي، ١٠/٢٧.

(٦) "رب" في اللغة: رب كل شئ مالكه ومستحقه وصاحبه، رب الأمر أصلحه. ينظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي: ٧٠/١، مادة (ربب). والرب، المالك، الخالق، الصاحب، والرب المصلح للشئ، يقال: رب فلان ضيعته، إذا قام على إصلاحها. والرب المصلح للشئ، والله جل ثناؤه، الرب لأنه مصلح أحوال خلقه، والراب الذي يقوم على أمر الربيب. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٢/ ٣٨١، مادة (ربب).

(٧) مسند أحمد، ٤/ ١٣٦، (أول مسند المدنيين...)، حديث (أبى نملة الأنصاري...)، المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٩/ ٢٨٣، باب (الميم)، (مالك بن نضلة الجشمي).

(٨) سورة قريش، الآية / ٣.

(٩) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٢٥، الأقسام للسبحاني، ص ٤٣ وينظر: الألهيات للسبحاني ،٦٣/٢.

(١٠) شرح صحيح مسلم، لمحيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦ هـ) ، دار الكتاب العربي، بيروت،(ب-ط) ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ١٣٠/٥، كتاب (الألفاظ من الأدب وغيرها)، باب (حكم اطلاق لفظة العبد.....).

ذرة من ذرات الوجود،[١] "تلازم المحبوبية فما لا يتعلق به الحب الغريزى الفطري لفقدانه الجمال الباقي الثابت لا يستحق الربوبية"،[٢] فصّل السبحاني القول في معنى الرب: (من فوض إليه أمر الشئ المربوب) إذ قال: "فلو قيل لصاحب الدار ومالكها رب الدار، فلان أمرها مفوض إليه، ولو أطلق على المصلح والسائس، فلان بيد هؤلاء أمر التدبير والإدارة والتصرف، فلو قال يوسف (عليه السلام) في حق عزيز مصر: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾،[٣] فلأجل ان يوسف نشأ في أحضانه وقام بشؤونه"،[٤] "ومن يظن أن هذه الكلمة لم تستعمل بهذا المعنى فهو مخطئ تماما، لأن كلمة "رب" في هذه السورة أطلقت عدة مرات على غير الله سبحانه. وأحيانا ورد هذا الاستعمال على لسان يوسف نفسه، وأحيانا على لسان غيره!".[٥] "ولو وصف القرآن اليهود والنصارى بأنهم اتخذوا أحبارهم أربابا، وقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[٦] فلأجل انهم تسلموا زمام سلطة التشريع وتصرفوا في الأموال والأعراض كيفما شاءوا. إنه سبحان وصف نفسه، بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[٧] وقال أيضا: ﴿رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴾.[٨] كل ذلك لأنه تعالى مدبرها ومديرها ومصلح شؤونها والقائم عليها. وهذا البيان يكشف النقاب عن المعنى الحقيقي للرب، وهو المعنى الجامع بين هذه الموارد. أعني: من فوض إليه أمر الشئ من حيث الخلق والتدبير والتربية".[٩] "ولا يطلق هذا الاسم إلا على الله وأما في غيره فبقيد فيقال: رب الدار ورب الضيعة وقيل إنه مشتق من التربية، ومتى قيل في الله انه رب بمعنى انه سيد فهو من صفات ذاته، وإذا قيل بمعنى انه مدبر مصلح فهو من صفات الافعال".[١٠] أما المقسم عليه فقد قال السبحاني فيه: "إن المقسم عليه عبارة عن جواب القسم، وهو في تلك الآيات على النحو الآتي:

أ. الدعوة إلى تحكيم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والتسليم أمام قضائه. ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾.

---

[١] ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٤٩/٤.

[٢] الميزان للطباطبائي ، ١٨٧/٧ ، ينظر: الأنبياء فوق الشبهات ، لمحمد محمود مرتضى العاملي ، دار الحسين (عليه السلام) ،ايران ،ط١، ١٤٢٢ هـ: ١/ ١٨٧.

[٣] سورة يوسف، من الآية / ٢٣.

[٤] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٢٥، الأقسام للسبحاني، ص ٤٣ وينظر: جامع البيان للطبري: ٢٣٨/١٢، مجمع البيان للطبرسي: ٥/ ٣٨٤.

[٥] الأمثل للشيرازي، ١٧٨/٧.

[٦] سورة التوبة، من الآية /٣١.

[٧] سورة الرعد، من الآية / ١٦.

[٨] سورة النجم، من الآية / ٤٩.

[٩] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٢٥ و١/ ٣٨٩-٣٩٤، الأقسام للسبحاني، ص٤٣ وينظر: الآلهيات للسبحاني، ٦٣/٢.

[١٠] التبيان للطوسي، ٣٢/١ وينظر: الآء الرحمن للبلاغي: ٥٥/١.

ب. تأكيد قدرته سبحانه على أن يأتي بخير منهم: ﴿ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا ﴾

ج. تأكيد حشرهم وحشر الشياطين: ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾.

د. تأكيد أنهم مسؤولون يوم القيامة عن أعمالهم ﴿ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

هـ. تأكيد إتيان الساعة: ﴿ لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾.

و. تأكيد بعثهم وآبائهم: ﴿ لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ ﴾.

ز. تأكيد وقوع البعث: ﴿ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

ح. تأكيد أن أمر الرزق وما توعدون من الجزاء حق: ﴿ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾".[١] وهذا ما ذكر سابقاً في تفسير الآيات المذكورة ولمفسرين عدة.

ويبدو للباحثة: إن ما ورد سابقا من الآراء هو المشهور ويوافقه ظاهر الكتاب العزيز في جميع الآيات التي ذكرت.

وأضاف السبحاني قائلاً: "إن المقسم به فيما مضى من الآيات هو لفظ الجلالة أو لفظ الرب، المشيرين إلى الواجب الجامع لجميع صفات الكمال والجمال"،[٢] و"يكون منزه الذات عن أنحاء التركيب والتعدد وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للألوهية". [٣]

ختم السبحاني قائلاً: "ثمة آيات ربما يستظهر منها أن المقسم به هو سبحانه تبارك وتعالى لكن بلفظ مبهم كـ (ما) الموصولة، إذ جاء في آيات أربع:

١. ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾.[٤]

٢. ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾.[٥]

٣. ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾.[٦]

٤. ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[٧]".[٨]

اختلف المفسرون في تفسير لفظة (ما)، فذهب أغلب المفسرين: على أنها ما موصولة

---

(١) مفاهيم القرآن، ٣٢٩/٩-٣٣٠، الأقسام للسبحاني، ص٤٧-٤٨.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣١، الأقسام للسبحاني، ص ٤٩ وينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٦/١، زبدة التفاسير لفتح الله: ٥٥٤/٧، التفسير الكاشف لمغنية: ٣٩١/١، الميزان للطباطبائي: ١٨/١.

(٣) أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/ ٥٤٨.

(٤) سورة الشمس، الآية /٥.

(٥) سورة الشمس، الآية /٦.

(٦) سورة الشمس، الآية / ٧.

(٧) سورة الليل، الآية / ٣.

(٨) مفاهيم القرآن، ٣٣١/٩، الأقسام للسبحاني، ص٤٩.

كناية عن الله سبحانه، وكأنه سبحانه يقول: والسماء والذي بناها، والأرض والذي طحاها، ونفس والذي سواها، والواو للقسم.[١] وذهب آخرون: إلى أنها ما مصدرية، وكأنه يقول: أقسم بالسماء وبنائها، والأرض وطحائها، والنفس وتسويتها.[٢] ومنهم من أحتمل الوجين.[٣] ووافق السبحاني رأي الأغلبية إذ قال: "الرأي الأول هو الأقرب لان سياق الآية يؤيد ذلك، لأنـــه سبحانه يقول: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[٤]، فالفاعل هو الضمير المستتر الراجع إلى ما الموصولة الواردة في الآيات الثلاث المتقدمة، الذي يصلح للفاعلية هو الموصول من ما لا المصدر".[٥]

وتخلص الباحثة: إن سبب أختلاف ما تقدم هو (ما) إذ تستعمل في العربية لغير العاقل، ولا يصح استعمالها في موضع الحديث عن الباري العليم الحكيم سبحانه. ولذا ذهب البعض إلى أنها مصدرية لا موصولة، غير أن آيات عديدة ومنها الآيات السابقة، لا يدع مجالاً للشك أن (ما) موصولة، وتعود إلى لفظ الجلالة (الله) سبحانه خالق السماوات، وورد في مواضع أخرى من القرآن الكريم استعمال (ما) للعاقل، كقوله سبحانه: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.[٦]

وأشار السبحاني الى الصلة بين المقسم به والمقسم عليه إذ قال: "الصلة بينهما واضحة، فان المقسم عليه في هذه الآيات، كان يدور حول أحد **أمرين:**

أ. الدعوة للتحكيم إلى النبي والتسليم أمام قضائه.

ب. كون البعث والحشر والسؤال عن الأعمال، أمرا حقا.

ومن الواضح أن كلا الامرين من شؤون الربوبية، فإن الرب إذا كان سائسا ومدبرا فهو أعلم بصلاح المدبر فيجب أن يكون مسلما لأمر النبي (ﷺ)ونهيه. وأن حياة المربوب من شؤون الرب دون فرق بين آجله وعاجله، فناسب الحلف بالرب عند الدعوة إلى الحشر والنشر".[٧] "هو رتبة من مراتب الإمكانية والكونية من الطولية والعرضية هو في شأن من شؤون الربوبية برحمته الواسعة ويده الباسطة".[٨] وبعبارة أخرى: "كان المشركون ينكرون التسليم

---

(١) ينظر: مجاز القرآن للتميمي: ٢٤٠/١، جامع البيان للطبري: ٣٠/ ٢٦٣، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٣٩/٧، التفسير الأصفى للفيض الكاشاني: ١٤٤٧/٢، الميزان للطباطبائي: ٢٠/ ٢٩٧.

(٢) ينظر: مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٣٩٦، الأنصاف فيما تضمنه الكشاف من الأعتزال، لناصر الدين أحمد المالكي (ت ٦٨٣ هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٨ م: ٢٥٨/٤، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٤١/٧.

(٣) ينظر: التبيان للطوسي: ١٠/ ٣٥٧.

(٤) سورة الشمس، الآية / ٨.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣١، الأقسام في القرآن الكريم للسبحاني، ص٤٩ وينظر: كنز الدقائق للمشهدي: ٢٩٥/١٤.

(٦) سورة النساء، من الآية / ٣.

(٧) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٠، الأقسام للسبحاني، ص٤٨ وينظر: في ظلال التوحيد، لجعفر السبحاني، شؤون التعليم والبحوث الإسلامية، قم، ١٤٢٧ هـ: ص٣٣.

(٨) تفسير الصراط للبروجردي، ٢٦٣/٣.

أمام أمره ونهيه، وكانوا ينكرون البعث والنشر، ولما كان الجميع من شؤون الربوبية حلف بالرب تأكيدا لربوبيته".[١]

المطلب الثاني: القسم بالنبي (ﷺ) وبوصفه

أقسم الله تعالى في القرآن الكريم بالنبي (ﷺ) مرتين. وكان من أقدم ما أثار الأنتباه، وأدى الى أختلاف كثر. فتارة أقسم بعمره وحياته ولم يقرن به حلفا آخر، بخلاف لفظ الرب فقد حلف به مفردا ولكنه تكرر في بعض السور، وأخرى بوصفه وكونه شاهداً. ذكرهما السبحاني في مقامين تذكرهما الباحثة على النحو الآتي:

-المقام الأول: الحلف بعمر بالنبي (ﷺ) وحياته؛ لبيان مكانته وعظمته عند الله.

-قال تعالى: ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴾. [٢]

قرن السبحاني عند تفسيره الآيات بسبب نزولها قائلاً: "أخبر سبحانه في هذه السورة أن الملائكة لما خرجوا من عند إبراهيم (عليه السلام) أتوا لوطا(عليه السلام) يبشرونه بهلاك قومه، ولما حلوا ضيوفا عند لوط (عليه السلام) فرح الفجار بورودهم، فقال لهم لوط (عليه السلام) مشيرا إلى بناته: (ان هؤلاء بناتي) فتزوجوهن إن كنتم فاعلين وكانت لكم رغبة في التزويج، ولكن قوم لوط (عليه السلام) أعرضوا عما اقترح عليهم نبيهم لوط (عليه السلام) وكانوا مصرين على الفجور بهم، غافلين عن أن العذاب سيصيبهم والله سبحانه يحلف بحياة النبي (ﷺ)، ويقول: ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ فلا يبصرون طريق الرشد﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ أي الصوت الهائل ﴿مُشۡرِقِينَ ﴾ أي في حال شروق الشمس".[٣]

بدأ السبحاني في الكلام عن المقسم به بعد أن تم تفسير الآيات بالتعريف لمفردة ﴿ لَعَمۡرُكَ ﴾، وهو ما ذهب اليه الراغب في تفسيره إذ قال: "المقسم به هو عبارة عن العَمر، أعني في قوله: ﴿ لَعَمۡرُكَ ﴾ أي: الْعَمْرُ والْعُمُرُاسم لمدة عمارة البدن بالحياة، فإذا قيل طال عمره فمعناه عمارة بدنه بروحه، والعُمُرُ والْعَمْرُ واحد لكن خص القسم بِالْعَمْرِ دون العُمُرِ، كقوله سبحانه: ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾. وأما العُمُرُ فكما في قوله سبحانه: ﴿ طَالَ عَلَيۡهِمُ

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٠، الأقسام للسبحاني، ص٤٨ وينظر: روح المعاني للآلوسي: ١٠٥/٢٢، الميزان للطباطبائي: ٢٠/ ٢٩٧.

(٢) سورة الحجر، الآيات / ٧١، ٧٢، ٧٣.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٢ – ٣٣٣، الأقسام للسبحاني، ص ٥٠ –٥١ وينظر: مقتنيات الدرر للحائري: ١٤٣/٦ .

ٱلْعُمُرُ ﴾[١]، وفي آية أخرى: ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾،[٢] فاللفظان بمعنى واحد لكن يختص القسم بواحد منهما".[٣]

وبعد الاطلاع على التفاسير **تبين للباحثة:** إن المقسم به هو حياة (عمر) النبي (ﷺ) وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين [٤]: "يقول تعالى لنبيه محمد(ﷺ): وحياتك يا محمد، إن قومك من قريش لفي ضلالتهم وجهلهم يترددون".[٥] ومنهم من أستبعد هذا الرأي: لأنه يقطع القسم مما قبله وما بعده من السياق،[٦] وأنه يجعل القسم بحياة محمد (ﷺ) كلاما معترضاً في قصة لوط (عليه السلام).[٧] ومنهم من قال أن المقسم به هو النبي لوط (عليه السلام): "إذ قالت الملائكة للوط (عليه السلام)﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾".[٨] ومنهم من رد هذا القول وهو **ما تذهب اليه الباحثة** وترجحه وذلك للأسباب:

أولاً: وهو ما ذهب اليه أبن قيم الجوزية إذ قال: صرف القسم إلى أنه بحياة لوط وأنه من قول الملائكة ليس في اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين بل ظاهر اللفظ وسياقه أنما يدل على ما فهمه السلف أنه ما أقسم الله تعالى بحياة نبي غير النبي محمد (ﷺ).... إن العمر حياة مخصوصة فهو عمر شريف عظيم أهل أن يقسم لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم ولا ريب أن عمره وحياته (ﷺ) من أعظم النعم والآيات فهو أهل أن يقسم به والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات.[٩]

---

[١] سورة الأنبياء، من الآية / ٤٤.

[٢] سورة الشعراء، من الآية / ١٨.

[٣] مفردات ألفاظ القرآن، لحسين بن محمد بن المفضل المعروف بـ(الراغب الأصفهاني)(ت ٤٢٥ هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، سليمانزاده، ايران، ط٢، ١٤٢٧ هـ، ص ٥٨٦، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٣، الأقسام للسبحاني، ص ٥١ وينظر: التبيان للطوسي: ٦/ ٣٤٦.

[٤] ينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ٧/ ٢٢٦٩، الوجيز للواحدي: ٥٩٥/١، التبيان للطوسي: ٦/ ٣٤٦، مجمع البيان للطبرسي: ٦/ ١٢٥، معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الثقافة العربية للطباعة، مصر، ١٩٦٩ م: ١/ ٤٥١، الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٧٠، من علوم القرآن، لعبد الفتاح القاضي، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ط٢، ١٣٩٦ هـ . ١٩٧٦ م: ص٨٦، الأعجاز والبيان في علوم القرآن، لمحمد صادق قمحاوي، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، ١٩٨٠ م: ٣/ ٢٤، مباحث في إعجاز القرآن، لأحمد جمال العمري، مكتبة الشباب، مصر، ١٩٨٠ م: ص ٢٤٦، من علوم القرآن، لفواد علي رضا، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م: ص١٦٨.

[٥] جامع البيان للطبري، ٥٨/١٤.

[٦] ينظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٥/ ٤٥٠.

[٧] ينظر: الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١٠ / ٣٩ – ٤٠، فتح القدير للشوكاني: ٣/ ١٤٠.

[٨] مدارك التنزيل للنسفي، ٢/ ٢٤٥، الكشاف للزمخشري، ٢/ ٣٩٦.

[٩] ينظر: التبيان لأبن قيم: ص ٢٧٣.

ثانياً: وهو ما ذهب اليه الآلوسي إذ قال: "هذا القول مع مخالفته للمأثور محتاج لتقدير القول أي قالت الملائكة للوط (عليه السلام): ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾، وهو خلاف الأصل وإن كان سياق القصة شاهداً له وقرينة عليه، فأنه تقيد من غير ضرورة ولو ارتكب مثله لأمكن إخراج كل نص عن معناه بتقدير شيء فيرتفع الوثوق بمعاني النص"،[١] ومنهم من قال بالتفسرين: "ما الذي يمنع أن يقسم الله بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء؛ فكل ما يعطي الله للوط من فضل؛ ويؤتيه من شرف فلمحمد ضعفاه؛ لأنه أكرم على الله منه".[٢]

أما المقسم عليه فقد قال السبحاني فيه: "هو قوله: ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾، والمراد أقسم بحياتك وبقائك يا محمد، انهم لفي سكرتهم وانغمارهم في الفحشاء والمنكر متحيرين لا يبصرون طريق الرشد"،[٣] "في جهلهم وضلالتهم يعصون، واعلم أن المعاصي كلها منسوبة إلى الجهل"،[٤] "صفتهم التردد في غيّهم، والتسكع في ضلالهم".[٥]

ووجدت الباحثة في أغلب التفاسير: إن المشار إليهم بهذا قولان: **أحدهما:** أنهم قوم لوط، قاله الأكثرون.[٦] **وثانيهما:** قوم نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم).[٧]

وفي الصلة بين المقسم به والمقسم عليه قال السبحاني: "وجه الصلة أنه سبحانه بعث الأنبياء عامة، والنبي الخاتم خاصة لهداية الناس وإنقاذهم من الضلالة وإيقاظهم من السكرة التي تعم الناس، وبما أن القوم كانوا في سكرتهم يعمهون وفي ضلالتهم مستمرون، حلف سبحانه تبارك وتعالى بعمر النبي الذي هو مصباح الهداية والدليل إلى الصراط المستقيم. إذ قال ابن عباس (رضي الله عنه): ((ما خلق الله عز وجل وما ذرأ ولا برأ نفسا أكرم عليه من محمد، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد إلا بحياته فقال لعمرك))[٨]"،[٩]"وهو نهاية التعظيم وغاية البر

---

(١) روح المعاني للآلوسي، ٧٢/١٤.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي، ١٠٥/٣.
(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٣، الأقسام للسبحاني، ص٥١ وينظر: التبيان للطوسي: ٣٤٧/٦، تفسير القرآن للسمعاني: ١٤٦/٣، أحكام القرآن لابن العربي: ١٠٥/٣، مجمع البيان للطبرسي: ١٢٥/٦.
(٤) تفسير التستري، لسهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٣ هـ، ص٨٨.
(٥) تلخيص البيان للرضي، ص١٨٧.
(٦) ينظر: التبيان للطوسي: ٦/ ٣٤٧، معاني القرآن للنحاس: ٣٣/٤، جوامع الجامع للطبرسي: ٣٠٨/٢، زبدة التفاسير لفتح الله: ٥٣١/٣، البرهان للبحراني: ٣/ ٣٧٥، التفسير الكاشف لمغنية: ٤٨٥/٤، الأمثل للشيرازي: ٩٢/٨.
(٧) ينظر: جامع البيان للطبري: ٥٨/١٤، بحر العلوم للسمرقندي: ٢/ ٢٦٠.
(٨) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، لعلي بن أبي بكر الهيثمي(ت ٢٨٢ هـ)، تحقيق: مسعد عبد الحميد السعدني، دار الطلائع للنشر، القاهرة، (ب – ط – ت)، ص ٢٨٣، كتاب (علامات النبوة)، باب (أول أمر نبينا)، رقم الحديث (٩٣٨)، بحار الأنوار للمجلسي، ١٦/ ٣٠٤، كتاب (الاداب والسنن)، باب (فضائله وخصائصه (صلى الله عليه وسلم).....).
(٩) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٣ – ٣٣٤، الأقسام في القرآن الكريم للسبحاني، ص٥١ –٥٢.

والتشريف"،[١] "ليعرف الناس عظمته عند الله، ومكانته لديه". [٢]

-المقام الثاني: الحلف بوصف النبي وأنه شاهد

-قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾.[٣]

قال السبحاني: "حلف القرآن الكريم بالشاهد والمشهود. أما المشهود فسيوافيك في فصل القسم في سورة القيامة. إذ إن المراد منه يوم القيامة بشهادة، قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾[٤]"،[٥] وذكر المعنى في الآحاديث النبوية إذ روي عن النبي (ﷺ) أنه قال: ((والمشهود هو اليوم الموعود يوم القيامة)).[٦] أردف السبحاني قائلاً: "إنما الكلام في الشاهد، فالمراد منه هو النبي الخاتم (ﷺ) بشهادة أنه سبحانه وصفه بهذا الوصف ثلاث مرات، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[٧]، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾[٨]، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾.[٩] والآيات صريحة في حق النبي (ﷺ)، وفي بعض الآيات عرفه بأنه (شهيدا)، ويقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[١٠]، ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[١١]".[١٢] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين.[١٣] وكثرت أقوال المفسرين إذ قالوا: الشاهد والمشهود محمد (ﷺ) ويوم القيامة، أو عيسى (عليه السلام) وأمته لقوله: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾،[١٤] أو أمة محمد وسائر الأمم، أو يوم التروية ويوم عرفة أو يوم عرفة ويوم الجمعة، أو الحجر الأسود والحجيج، أو الأيام والليالي وبنو آدم. أو الحفظة وبنو

---

(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي، ٣٩/١٠.
(٢) البرهان للزركشي، ٤٢/٣، الإتقان للسيوطي، ٣٥١/٢.
(٣) سورة البروج، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤.
(٤) سورة هود، من الآية / ١٠٣.
(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٤، الأقسام للسبحاني، ص ٥١.
(٦) مسند أحمد، ٢٩٨/٢، (مسند أبي هريرة (رضي الله عنه))، السنن الكبرى للبيهقي، ١٧٠/٣، كتاب (الجمعة)، باب (معنى شاهد ومشهود).
(٧) سورة الأحزاب، الآية / ٤٥.
(٨) سورة المزمل، من الآية / ١٥.
(٩) سورة الفتح، الآية / ٨.
(١٠) سورة البقرة، من الآية / ١٤٣.
(١١) سورة النحل، من الآية / ٨٩.
(١٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٤ -٣٣٥، ١٠ / ٣١٨، الأقسام للسبحاني، ص ٥١ -٥٢.
(١٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ٩/ ١١٣، معاني القرآن للنحاس: ٤٩٨/٦، الآء الرحمن للبلاغي: ٦/١، الميزان للطباطبائي: ١٦/ ٣٣٠.
(١٤) سورة المائدة، من الآية/ ١١٧.

آدم، أو الأنبياء ومحمد (عليهم الصلاة والسلام).[١] أضاف السبحاني قائلاً: "هذه الآيات تعرب عن أن المقسم به هو النبي (ﷺ) بما انه شاهد على أعمال أمته وشهيد عليها. سئل الحسن بن علي (عليهما السلام) عن معنى الشاهد والمشهود في قوله سبحانه: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾؟ فقال: ((أما الشاهد فمحمد (ﷺ)، وأما المشهود فيوم القيامة، أما سمعته يقول: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾))[٢]".[٣]

ويبدو للباحثة: إن رأي السبحاني وافق ظاهر الكتاب العزيز والسنة النبوية والمشهور من الآراء ولكل قول من الأقوال ما يثبته في القرآن الكريم، "فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل"، [٤] ويمكن ان يعد كل ما يمكنه أن يشهد على الأنسان من رسول أو ملك أو زمان أو مكان أو جارحة أو غيرها مصدقا لذلك.

أما في معنى الشهادة وكيفية شهادة النبي (ﷺ) فقد قال السبحاني وهو ما ذهب اليه أصحاب المعاجم اللغوية: الشهود والشهادة، الحضور مع المشاهدة اما بالبصر أو بالبصيرة، وقد يقال للحضور مفردا عالم الغيب والشهادة.[٥] إذ نقل القرآن شهادة النبي (ﷺ) على قومه يوم القيامة، فقال: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾.[٦] هذه حقيقة قرآنية في حق النبي (ﷺ) وغيره ولا يمكن إنكارها للتصريح بها في غير واحد من الآيات،[٧] إذ قال تعالى:

---

(١) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٤/ ٣٢٨، الكشاف للزمخشري: ٤/ ٢٣٧، أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي المالكي المعروف بـ (إبن عربي) (ت ٦٣٨ هـ)، تحقيق: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م: ٣٧٠/٤، المحرر الوجيز لابن عطية: ٥/ ٤٦٠.

(٢) السنن الكبرى للنسائي، ٦ / ٥١٢، كتاب (التفسير)، (سورة البروج)، بحار الأنوار للمجلسي، ٤٣ / ٣٤٥، كتاب (أحوال سيدة النساء فاطمة الزهراء....)، باب (معنى شاهد ومشهود) وينظر: شرح إحقاق الحق، لنور الله الحسيني المرعشي(ت ١٤١١هـ)، تحقيق: محمود المرعشي، مطبعة حافظ، قم، ط٢، ١٤١٧ هـ: ١٠٦/١١، (كلام الأمام الحسين (عليه السلام) في التفسير والتمجيد).

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٥، الأقسام للسبحاني، ص ٥٢ وينظر: الأئمة الأثنى عشر، لجعفر السبحاني، معاونية شؤون التعليم والبحوث، ايران، (ب – ط – ت): ص٥١.

(٤) التبيان لأبن قيم، ص١٤١ – ١٤٢.

(٥) ينظر: الصحاح للجوهري: ٢/ ٤٩٤، مادة (شهد)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٢٢١/٣، مادة (شهد)، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٥، الأقسام للسبحاني، ص ٥٢.

(٦) سورة الفرقان، من الآية / ٣٠.

(٧) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٩/ ١٣، معاني القرآن للنحاس: ٢٩٧/٣، الكشف والبيان للثعلبي: ١٣٢/٧، الوجيز للواحدي: ٢/ ٧٧٨، التبيان للطوسي: ٧/ ٤٨٥، زاد المسير لابن الجوزي: ١٣/٦، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٥، الأقسام للسبحاني، ص ٥٢.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾.[١] وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾.[٢] وقال عز اسمه: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾.[٣] "والشهادة فيها مطلقة، وظاهر الجميع –على إطلاقها– هو الشهادة على اعمال الأمم، وعلى تبليغ الرسل كما يومى إليه، قوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.[٤] وظرف الشهادة وإن كان هو الآخرة لكن الشهداء يتحملونها في الدنيا".[٥] إذ قال سبحانه: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [٦].[٧]

طرح السبحاني سؤالين: "**أحدهما:** إن الشهادة من الحضور ولم يكن النبي (ﷺ) ظاهرا مع جميع الأمة بل كان بمعزل عنهم إلا شيئا لا يذكر، فكيف يشهد وهو لم يحضر الواقعة أي أفعال أمته قاطبة ؟ **والآخر:** إن الشهادة على ظاهر الأعمال ليست مفيدة يوم القيامة، بل الشهادة على باطن الأعمال من كون الصلاة لله أو للرياء وللسمعة، وان إيمانه هل كان إيمانا نابعا من صميم ذاته، أو نفاقا لأجل حطام الدنيا، فهذا النوع من الأعمال لا يمكن الشهادة عليها حتى بنفس الحضور عند المشهود عليه؟ فأجاب في الوقت نفسه: هذا يدفعنا إلى القول بأن لشهداء الأعمال عامة والنبي الخاتم خاصة قدرة غيبية خارقة يطلع من خلالها على أعمال العباد ظاهرها وباطنها وذلك بقدرة من الله سبحانه، وعلى ذلك فهذه الشهادة عبارة عن الاطلاع على أعمال الناس في الدنيا من سعادة أو شقاء، وانقياد وتمرد، وإيمان وكفر، وأداء ذلك في الآخرة يوم يستشهد الله من كل شئ حتى من أعضاء الانسان، وعند ذلك يقوم النبي (ﷺ) ويقول: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾. فإذا كانت الشهادة بهذا المعنى فلا ينالها إلا الأمثل فالأمثل من الأمة، لا الأمة بأسرها، وفي ضوء ذلك يكون المراد من قوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾.[٨] هـــم

---

(١) سورة النساء، الآية / ٤١.

(٢) سورة النحل، الآية / ٨٤.

(٣) سورة الزمر، من الآية / ٦٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية / ٦.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٦، الأقسام للسبحاني، ص ٥٣ عصمة الأنبياء للسبحاني، ص ١٩٦ وينظر: أحكام القرآن لابن عربي: ٥٨١/٣، القسم في القرآن الكريم، لمحمد عبد العاطي، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠١٤ م: ص ٢٢٠.

(٦) سورة المائدة، من الآية / ١١٧.

(٧) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٧٥/١، مفاتيح الغيب للرازي: ١١٥/٤،مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٣٦، الأقسام للسبحاني: ص٥٣.

(٨) سورة البقرة، من الآية / ١٤٣.

الكاملين من الأمة لا المتوسطين وما دونهم"،[١] وهذا ما ذهب اليه الطوسي أذ قال: "الأمة إن أريد بها جميع الأمة، فقد بينا ان فيها كثيرا ممن يحكم بفسقه بل بكفره، فلا يجوز حملها على الجميع. وان خصوها بالمؤمنين العدول، لنا أن نخصها بجماعة، كل واحد منهم موصوف بما وصفنا به جماعتهم: وهم الأئمة المعصومون من آل الرسول (ﷺ)".[٢] وذهب أغلب المفسرين الى أن شهادة الأمة هي: إنهم يشهدون للأنبياء على أممهم المكذبين لهم، بأنهم قد بلغوا. وشهادة النبي محمد (ﷺ) عليكم بما يكون من أعمالكم. أو: شهيدا لكم بأنكم قد صدقتم يوم القيامة فيما تشهدون به.[٣]

تم السبحاني جوابه قائلاً: "وأما نسبة الشهادة إلى قاطبة أمة النبي، في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ فليس بشئ بديع، إذ ربما يكون الوصف لبعض الأمة وينسب الحكم إلى جميعهم، كما في قوله سبحانه في حق بني إسرائيل: ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾[٤]مع أن الملوك فيهم لم يكن يتجاوز عددهم عدد الأصابع".[٥] ختم السبحاني رأيه بالحديث المروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: ﴿ لِّيَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ يؤيد هذا المعنى الشهادة للأمثل إذ قال: ((فإن ظننت أن الله عني بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين، أفترى ان من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة، ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية ؟ كلا: لم يعن الله مثل هذا من خلقه، يعني الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[٦] وهم الأمة الوسطى، وهم خير أمة أخرجت للناس))[٧]. [٨]

وتذهب الباحثة: الى ما ذهب اليه الشيرازي إذ قال: "(شهادة) الأمة المسلمة على الناس، و(شهادة) النبي على المسلمين، قد تكون إشارة إلى الأسوة والقدوة، لأن الشاهد ينتخب

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٦ – ٣٣٧، الأقسام للسبحاني، ص٥٢ –٥٣ وينظر: محاضرات في الألهيات، لجعفر السبحاني، تحقيق: علي الرباني الكلبايكاني، دار الميزان، ط١، ١٤١٤ هـ: ص٤٤٣، موسوعة طبقات الفقهاء (المقدمة) للسبحاني: ١/ ٦٨.

(٢) التبيان للطوسي، ٨/٢ وينظر: الميزان للطباطبائي: ١/ ٣٣٢.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ١٢/٢، بحر العلوم للسمرقندي: ١٢٦/١، جوامع الجامع للطوسي: ١٥٩/١، الكشاف للزمخشري: ١/ ٣١٧، زاد المسير لابن الجوزي: ١٣٩/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٤/ ١١٥.

(٤) سورة المائدة، من الآية / ٢٠.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٦ – ٣٣٧، الأقسام للسبحاني، ص ٥٣ – ٥٤.

(٦) سورة آل عمران، من الآية / ١١٠.

(٧) الوافي للفيض الكاشاني، ٤٩٩/٣، أبواب (خصائص الحجج وفضائلهم...)، (باب أخذ الميثاق بولايتهم...)، رقم الحديث (١٠٠٢)، بحار الأنوار للمجلسي، ٢٣/ ٣٥٠، كتاب (الأمامة الألهية....)، (باب عرض الأعمال عليهم.....)، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٧– ٣٣٨، الأقسام للسبحاني، ص ٥٥–٥٦.

(٨) ينظر: مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٧–٣٣٨، الأقسام للسبحاني، ص٥٤–٥٥، الميزان للطباطبائي:٣٣٢/١.

من بين أزكى الناس وأمثلهم. فيكون معنى هذا التعبير القرآني أن الأمة المسلمة نموذجية بما عندها من عقيدة ومنهج، وأن النبي (ﷺ) فرد نموذجي بين أبناء الأمة. الأمة المسلمة بعملها وبتطبيقها المنهج الإسلامي تشهد أن الإنسان بمقدوره أن يكون رجل دين ورجل دنيا... أن يكون إنسانا يعيش في خضم الأحداث الاجتماعية وفق معايير روحية ومعنوية. الأمة المسلمة بمعتقداتها ومناهجها تشهد بعدم وجود أي تناقض بين الدين والعلم، بل إن كلا منهما يخدم الآخر". [١]

أضاف السبحاني الى مبحث القسم بالنبي (الحلف بالنبي كناية) إذ قال فيه: "ربما يحلف القرآن الكريم بالنبي (ﷺ) كناية، قال سبحانه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ * لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾[٢]. [٣] "أي وأنت يا محمد مقيم به، وهو محلك وهذا تنبيه على شرف البلد بشرف من حلَّ به وهو الرسول الداعي إلى توحيده، وإخلاص عبادته، وبيان أن تعظيمه له وقسمه به لأجله ولكونه حالا فيه، كما سميت المدينة طيبة لأنها طابت به حيا وميتا"، وهذا ما قاله الطبرسي. [٤]

ثم أردف السبحاني قائلاً: "وإن قداسة مكة والداعي إلى الحلف بها هو احتضانها للنبي"،[٥] إذ إن: "الحل مصدر كالحلول بمعنى الإفاضة والاستقرار في مكان، والمصدر بمعنى الفاعل، والمعنى: أقسم بهذا البلد، والحال انك حال به مقيم فيه، وفي ذلك تنبيه على تشرف مكة بحلوله فيها وكونها مولده ومقامه". [٦]

المطلب الثالث: القسم بالقرآن الكريم وبالحروف المقطعة

إن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الذي أنزله سبحانه على رسوله ليكون للعالمين بشيرا ونذيرا، بتلك الحروف العربية التي كانوا يتكلمون بها. أفتتح ببعض منها أوائل بعض سور القسم، إذ يلاحظ في القسم بصيغة المفرد بعد الحروف المقطعة أن المقسم به هو (القرآن، الكتاب) في خمسة مواضع، وبالقسم المتعدد أقسم بـ (القلم) في موضع واحد، مما يشير الى أن الأقسام التي أقسم بها الله تعالى في هذه المواضع بينها تناسب فالقرآن هو الكتاب ويكتب بالقلم، فإلى جانب تشريف هذه الثلاثة بالقسم ففيها ايضاً تحد واضح لكتابة مثل هذا الكتاب، أو

---

[١] الامثل للشيرازي، ٤٠٧/١.

[٢] سورة البلد، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤.

[٣] سيأتي تفصيل تفسير هذا القسم في القسم بالمتعدد (القسم في البلد).

[٤] مجمع البيان للطبرسي، ٣٦١/١٠، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٨، الأقسام للسبحاني، ص ٥٦ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٣١/٧.

[٥] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٣٨، الأقسام للسبحاني، ص ٥٦.

[٦] الميزان للطباطبائي، ٢٠/ ٢٨٩.

وجود كلام مكتوب مثله، أو وجود القلم الذي يكتب به كل ما ينفع الخلق في الدنيا والآخرة. إذ حلف سبحانه تارة بلفظ القرآن وأخرى بلفظ الكتاب وأخرى بالقلم. بينها السبحاني في آياتها **وتذكرها الباحثة** وهي:

حلف سبحانه بالقرآن في ثلاث آيات هي:

١. قال تعالى: ﴿ يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. (١)

٢. قال تعالى: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾. (٢)

٣. قال تعالى: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾. (٣)

وحلف سبحانه بلفظ الكتاب مرتين:

١. قال تعالى: ﴿ حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾. (٤)

٢. قال تعالى: ﴿ حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾. (٥)

وحلف سبحانه بلفظ القلم مرة واحدة:

قال تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٦). (٧)

طرح السبحاني سؤالاً قال فيه: ما هو المراد من الحروف المقطعة ؟ فأجاب في الوقت نفسه: " افتتح القرآن الكريم قسما من السور بحروف مقطعة أعني السور التالية: ١.البقرة، ٢. آلعمران، ٣. الأعراف، ٤. يونس، ٥. هود، ٦. يوسف، ٧. الرعد، ٨. إبراهيم، ٩. الحجر،

---

(١) سورة يس، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤.

(٢) سورة ص، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤، ٥.

(٣) سورة ق، الآيتان / ١، ٢.

(٤) سورة الدخان، الآيات /١، ٢، ٣، ٤، ٥.

(٥) سورة الزخرف، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤.

(٦) سورة القلم، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤.

(٧) سيتم تناوله في القسم المتعدد ولم تتناول مع القسم المفرد وذلك لتعدد القسم فيها ولا مع القسم بالحروف المقطعة لأعتبار ان (ن) ليس قسما وهذا ما سيتم توضيحه في الفصل الثالث/ المبحث الثالث/ المطلب الرابع.

١٠. مريم، ١١. طه، ١٢. الشعراء، ١٣. النمل، ١٤. القصص، ١٥. العنكبوت، ١٦. الروم، ١٧. لقمان، ١٨. السجدة، ١٩. يس، ٢٠. ص، ٢١. غافر، ٢٢. فصلت، ٢٣. الشورى، ٢٤. الزخرف، ٢٥. الدخان، ٢٦. الجاثية، ٢٧. الأحقاف، ٢٨. ق، ٢٩. القلم. فهذه السور التي يبلغ عددها (٢٩) سورة افتتحت بالحروف المقطعة. إذ تطرق المفسرون إلى بيان ما هو المقصود من هذه الحروف. وذكروا وجوها كثيرة وها نحن نقدم المختار ثم نلمح إلى بعض الوجوه".[١]

الوجه الأول: إلماع إلى مادة القرآن

قال السبحاني: "إن القرآن الكريم تحدى المشركين بفصاحته وبلاغته وعذوبة كلماته ورصانة تعبيره، وبين أن هذا الكتاب ليس من صنع البشر بل من صنع قدرة إلهية فائقة لا تبلغ إليها قدرة أي إنسان ولو بلغ في مضمار البلاغة والفصاحة ما بلغ. ثم إنه أخذ يورد في أوائل السور قسما من الحروف الهجائية للإلماع إلى أن هذا الكتاب مؤلف من هذه الحروف، وهذه الحروف هي التي تلهجون بها صباحا ومساء فلو كنتم تزعمون أنه من صنعي فاصنعوا مثله، لان المواد التي تركب منها القرآن كلها تحت أيديكم واستعينوا بفصحائكم وبلغائكم، فإن عجزتم، فاعلموا أنه كتاب منزل من الله سبحانه على عبد من عباده بشيرا ونذيرا"،[٢] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين.[٣] "إن اللَّه سبحانه بعد أن تحدى بالقرآن الجاحدين والمعاندين وعجزوا عن الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة واحدة، بعد هذا أشار بذكر هذه الحروف ﴿ الٓمٓ ﴾ ونحوها إلى ان هذا الكتاب المعجز مؤلف من جنس هذه الحروف التي هي في متناول الأطفال والجهال. فعجزكم –إذن– دليل قاطع على ان هناك سرا ولا تفسير لهذا السر الا ان هذا القرآن من وحي السماء، لا من صنع الأرض".[٤] وهذا الوجه هو المروي عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، إذ روى الصدوق بسنده عن الإمام العسكري (عليه السلام)، انه قال: ((كذبت قريش واليهود بالقرآن، وقالوا: هذا سحر مبين، تقوله، فقال الله: ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾.[٥] أي يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلته إليك هو الحروف المقطعة التي منها ﴿ الٓمٓ ﴾ وهو بلغتكم وحروف هجائكم، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين، واستعينوا بذلك بسائر شهدائكم، ثم بين أنهم لا يقدرون عليه بقوله:

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٠ – ٣٤١، الأقسام للسبحاني، ص ٥٨ – ٥٩.

(٢) المصدران نفسهما.

(٣) ينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ١/ ٣٧، البرهان للبحراني: ١/ ١٢٦، نور الثقلين للحويزي: ١/ ٢٧، الميزان للطباطبائي: ١٦/١٨، بحوث في تاريخ القرآن وعلومه، لمير محمدي زرندي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط ١، ١٤٢٠ هـ: ص ٢٠، التفسير الوسيط للزحيلي: ٦٣٥/١، الوسيط للطنطاوي: ٣٩/١.

(٤) التفسير الكاشف لمغنية، ٣٨/١.

(٥) سورة البقرة، الآيتان / ١، ٢.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1]))."[2] "واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم: ١٤ سواه، وهي: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون، في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء. ومن المهجورة نصفها: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون. ومن الشديدة نصفها: الألف والكاف والطاء والقاف. ومن الرخوة نصفها: اللام والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون. ومن المطبقة نصفها: الصاد والطاء. ومن المنفتحة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون. ومن المستعلية نصفها: القاف والصاد والطاء. ومن المنخفضة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون. ومن حروف القلقلة نصفها: القاف والطاء. ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله وهو المطابق للطائف التنزيل. فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم".[3] "إن الله إنما ذكرها احتجاجا على الكفار، وذلك أن الرسول (ﷺ) لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، فعجزوا عنه، أنزلت هذه الحروف تنبيها على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها، وعارفون بقوانين الفصاحة، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من عند البشر".[4] "أنه لما كانت حروف المعجم أصل كلام العرب وتحداهم بالقرآن وبسورة من مثله، أراد أن هذا القرآن من جنس هذه الحروف المقطعة تعرفونها وتقتدرون على أمثالها، فكان عجزكم عن الاتيان بمثل القرآن وسورة من مثله دليلا على أن المنع والتعجيز لكم من الله على أمثالها، وانه حجة رسول الله (ﷺ)، قال: ومما يدل على تأويله أن كل سورة افتتحت بالحروف التي أنتم تعرفونها، بعدها إشارة إلى

---

(١) سورة الأسراء، الآية / ٨٨.

(٢) معاني الأخبار، لمحمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بـ (الصدوق) (ت ٣٨١ هـ)، تحقيق: علي اكبر الغفاري، دار المعرفة للطباعة، ١٣٣٨ هـ، ص ٢٤، باب (معنى الحروف المقطعة...)، رقم الحديث (٤)، بحار الأنوار للمجلسي، ١٧٣/٩، كتاب (الأحتجاجات...)، (ما ورد عن المعصومين...).

(٣) الكشاف للزمخشري، ١/ ١٠٢ – ١٠٣ وينظر: فتح القدير للشوكاني: ٢٩/١، مفاهيم القرآن: ٩ / ٣٤٤، الأقسام للسبحاني: ص٦٠.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي، ٢/ ٦، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٥، الأقسام للسبحاني، ص ٦١.

القرآن، يعني أنه مؤلف من هذه الحروف التي أنتم تعرفونها وتقدرون عليها، ثم سأل نفسه، وقال: إن قيل لو كان المراد هذا لكان قد اقتصر الله تعالى على ذكر الحروف في سورة واحدة ؟ فقال: عادة العرب التكرار عند إيثار إفهام الذي يخاطبونه".[١]

ذكر السبحاني البرهان والدليل الذي يؤيد هذا الرأي الذي ذهب اليه إذ قال: "إن أكثر السور التي صدرت بالحروف المقطعة جاء بعدها ذكر القرآن الكريم بتعابير مختلفة، ولم يشذ عنها إلا سور أربع، هي: مريم والعنكبوت والروم والقلم، ففي غير هذه السور أردف الحروف المقطعة بذكر الكتاب والقرآن، وإليك نماذج من الآيات **تذكر الباحثة** بعضا منها:

- ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾.[٢] ﴿ الٓمٓصٓ * كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.[٣] إلى غير ذلك من السور ما عدا الأربع التي أشرنا إليها هذا هو الرأي المختار وقد عرفت برهانه".[٤]

أستضعف السبحاني رأي آخر أورده جمع من المفسرين[٥] وهو: إن كل واحد منها دال على اسم من أسماء الله تعالى وصفة من صفاته. أذ روى عن سفيان بن السعيد الثوري قال: قلت لجعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهما السلام): يا ابن رسول الله ما معنى قول الله (عز وجل): ﴿ الٓمٓ ﴾و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾.....و ﴿ نٓ ﴾[٦]قال(عليه السلام): ((أما ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول البقرة فمعناه: أنا الله الملك، وأما "ألم" في أول آل عمران فمعناه: أنا الله المجيد، و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ فمعناه: أنا الله المقتدر الصادق، .....)). [٧]

ويبدو للباحثة: إن المفسرين ومؤلفي الكتب أختلفوا في تأويل الحروف في سور القرآن. وعلى أساس هذا الاتجاه نجد كثيرا منهم يحاول تفسير هذه الحروف المقطعة، الامر الذي استلزم تعدد مذاهبهم في ذلك، إذ ذكر الطوسي مذاهب مختلفة في تفسير هذه الحروف،[٨] وعد

---

(١) سعد السعود، لرضي الدين علي بن طاووس (ت ٦٦٤ هـ)، مطبعة أمير، قم، (ب – ط)، ١٣٦٣ هـ، ص ٢٣٠ وينظر: تاريخ القرآن الكريم، لمحمد سالم محيسن الزنجاني، دار الأصفهاني للطباعة، جدة، ١٤٠٢ هـ: ص ١٠٦.

(٢) سورة البقرة، الآيتان / ١، ٢.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان / ١، ٢.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٤ – ٣٤٥، الأقسام للسبحاني، ص٦٠ –٦١ وينظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز: ص ٢٠٢، الأمثل للشيرازي: ١/ ٦٨.

(٥) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ١/ ٤٧، أكمال النقصان من التبيان، لمحمد ابن احمد ابن ادريس الحلي (ت ٥٩٨ هـ)، تحقيق: محمد مهدي الخرسان، دار دليل ما، ط١، ١٣٨٦ هـ: ص ٥٩، املاء مامن به الرحمن للعبكري: ١٠/١، البرهان للزركشي: ١٧٢/١، علوم القرآن للحكيم: ص ٤٤٨.

(٦) سورة القلم، من الآية/١.

(٧) معاني الأخبار للصدوق، ص٢٢، باب(معنى الحروف المقطعة...)، رقم الحديث (١)، بحـــــار الأنوار للمجلسي، ٨٩ / ٣٧٣، كتاب (القرآن)، باب (متشابهات القرآن....).

(٨) ينظر: التبيان للطوسي: ١/ ٤٧ – ٥١.

منها الرازي واحدا وعشرين تفسيرا.[١]

وتذهب الباحثة الى: أن هذه الحروف من أسرار القرآن، إذ إن الجدير بالذكر أن التاريخ لم يحدثنا أن عرب الجاهلية والمشركين عابوا على رسول الله (ﷺ) وجود هذه الحروف المقطعة في القرآن. ولم يتخذوا منها وسيلة للطعن والاستهزاء. وهذا يشير إلى أنهم لم يكونوا جاهلين تماما بأسرار وجود الحروف المقطعة، لذلك لم نجد في السنة النبوية التطرق الى تفسيرها.

بدأ السبحاني بتفسير الآيات التي حلف فيها سبحانه بالقرآن والكتاب، وهي على النحو الآتي:

-قال تعالى: ﴿ يسٓ * وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾.[٢]

قال السبحاني وهو ما ذهب اليه الطباطبائي: "المقسم به هو القرآن، وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين،[٣] والمقسم عليه قوله: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾، والصلة بين القرآن وبين كونه من المرسلين واضحة، لان القرآن أداة تبليغه ورسالته ومعجزته الخالدة. وأما وصف القرآن بالحكيم، فلأنه مستقر فيه الحكمة، وهي حقائق المعارف وما يتفرع عليها من الشرائع والعبر والمواعظ"،[٤] "فصار ذلك بمنزلة الناطق به للبيان عن الحق الذي يعمل به. والحكمة قد تكون المعرفة، وقد تكون ما يدعو إلى المعرفة، وأصله المنع من الخلل والفساد، فالمعرفة تدعو إلى ما أدى إلى الحق من برهان أو بيان"،[٥] "لأنه دليل ناطق بالحكمة كالحي، أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به".[٦] "وقسم اللّه بالقرآن مع وصفه بالحكمة يومئ إلى شرف القرآن وعظمته، وانه من أقوى الأدلة على صدق محمد (ﷺ) في دعوته". [٧]

وممكن للباحثة أن تستنتج: إن القرآن وصف بأنه حكيم وجاء معرفاً بال التعريف للإشارة أنه حكيم في بدايات السور ونهاياتها ووسطها وفي أساليبه وموضوعاته، وقصصه، ومناهجه، وأحكامه، وفي متشابهة ومحكمه، وفي دلالالته، أنه معجز وحكيم في كل جوانبه.

-قال تعالى: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ * كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ

---

[١] ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢/ ٣ ١٢.

[٢] سورة ياسين، الآيات / ١، ٢، ٣.

[٣] ينظر: جامع البيان للطبري: ١٧٩/٢٢، التبيان للطوسي: ٨/ ٤٤٢، معالم التنزيل للبغوي: ٥/٤، زاد المسير لابن الجوزي: ٦/ ٢٦٢، التبيان لأبن قيم: ص ٩٠، روح المعاني للآلوسي: ٢٣ / ١٦٢، التفسير الكاشف لمغنية: ٢٩٩/٦.

[٤] الميزان للطباطبائي، ١٧/ ٦٢، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٦ – ٣٤٧، الأقسام للسبحاني، ص ٦٤ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٩٧/٥.

[٥] التبيان للطوسي، ٨/ ٤٤٢ وينظر: مقتنيات الدرر للحائري: ٦٦/٩.

[٦] الكشاف للزمخشري، ٣/ ٣١٤ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢٦ / ٤٠، القسم لعبد العاطي: ص ٢٦٦.

[٧] التفسير الكاشف لمغنية: ٢٩٩/٦.

حِينَ مَنَاصٍ ﴾.[١]

قال السبحاني: "وصف القرآن بكونه ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ ووصفه في الآية السابقة بكونه (حكيما) ووصفه تارة ثالثة بـ(المجيد)، والمراد بالذكر هو ذكر ما جبل عليه الانسان من التوحيد والمعاد"،[٢] "فيه ذكر الله وتوحيده وأسماؤه الحسنى وصفاته العلى، وذكر الأنبياء، وأخبار الأمم، وذكر البعث والنشور، وذكر الاحكام وما يحتاج إليه المكلف من الاحكام ويؤيده قوله: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾[٣]"،[٤] "ووصف بذي الذكر لان ذي تضاف الى الأشياء الرفيعة فتجري على متصف مقصود التنويه به"،[٥] "المراد بالذكر ذكر الله تعالى وتوحيده وما يتفرع عليه من المعارف الحقة من المعاد والنبوة وغيرهما"، وهو قول الطباطبائي.[٦]

تخلص الباحثة الى: أن القرآن ذكر وشفاء من كل داء وغفلة بما يشتمله من الذكر، والذكر يعني التذكير وصقل القلوب من صدأ الغفلة، ورين الذنوب، تذكر الله، وتذكر نعمه، وتذكر عدله يوم القيامة، وتذكر هدف خلق الإنسان ومعاده.

أردف السبحاني ما يؤيد هذا الرأي قائلاً: "ويؤيد ذلك إضافة الذكر في غير واحد من الآيات إلى لفظ الجلالة، قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[٧] وقال: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾[٨] إلى غير ذلك".[٩]

وضح السبحاني المقسم عليه بقوله: "محذوف معلوم من القرينة، هو أنك لمن المنذرين، ويدل على ذلك التنديد بالذين كفروا وانهم في عزة وشقاق، أي في تكبر عن قبول الحق وحمية جاهلية، وشقاق أي عداوة وعصيان ومخالفة، لانهم يأنفون عن متابعة النبي ويصرون على مخالفته، ثم خوفهم الله سبحانه، فقال: كم أهلكنا من قبلهم من قرن بتكذيبهم الرسل فنادوا عند وقوع الهلاك بهم بالاستغاثة ولات حين مناص".[١٠] ومنهم من قال: تقديره

---

(١) سورة ص، الآيات / ١، ٢، ٣.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٧، الأقسام للسبحاني، ص ٦٤ وينظر: القسم لعبد العاطي: ص ٢٦٣ – ٢٦٤.

(٣) سورة الأنعام، من الآية / ٣٨.

(٤) مجمع البيان للطبرسي، ٨/ ٣٤٣ وينظر: جوامع الجامع للطبرسي: ١٨٤/٣.

(٥) التحرير والتوير لابن عاشور، ٢٣/ ٢٠٣.

(٦) الميزان للطباطبائي، ١٧/ ١٨١، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٧، الأقسام للسبحاني، ص ٦٤.

(٧) سورة الحديد، من الآية / ١٦.

(٨) سورة المجادلة، من الآية / ١٩.

(٩) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٧، الأقسام للسبحاني، ص ٦٤.

(١٠) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٧ – ٣٤٨، الأقسام للسبحاني، ص ٦٤ – ٦٥ وينظر: جامع البيان للطبري: ٢٣ / ١٤٢، معاني القرآن للنحاس: ٦/ ٧٧، تفسير القمي للقمي: ٢/ ٢٢٨.

الحق وظهر، لان حذف الجواب في مثل هذا أبلغ، لان الذكر يقصر المعنى على وجه. والحذف يصرف إلى كل وجه فيعم.[١] ومنهم من قال: إن جوابه ص فإن معناه: صدق. أقسم سبحانه بالقرآن أن محمدا (ﷺ) قد صدق والله، وفعل والله.[٢]

أما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقال السبحاني فيها: إنها "واضحة، لان القرآن من أسباب انذاره وأدوات تحذيره".[٣]

-قال تعالى: ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ * بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴾.[٤]

قال السبحاني موضحاً أركان القسم لهذه الآية: "المقسم به هو القرآن ووصفه بالمجيد، لأجل كثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية، فالمجيد مبالغة في المجد"،[٥] "المطهر لمن اتبعه عن دنس الأكوان وهواجس الأسرار"،[٦] "المجيد أي الكريم على الله، العظيم في نفسه، الكثير الخير والنفع"،[٧] "ذو المجد والشرف على سائر الكتب، أو لأنه كلام المجيد، أو لأن من علم معانيه وامتثل أحكامه مجد".[٨]

وأما المقسم عليه: ذهب أغلب المفسرين: إنه محذوف تدل عليه الجمل التالية للقسم،[٩] وأختلف المفسرون في تقديره الى **وجوه:**

-**أحدهما:** "التقدير: والقرآن المجيد انك لمن المنذرين، أو أن البعث حق والانذار حق. إذ ركزت السورة على الدعوة إلى المعاد ووبخت المشركين باستعجالهم على إنكاره ونقد زعمهم"، وهذا ما ذهب اليه السبحاني وآخرون. [١٠]

-**وثانيهما:** تقديره: إنكم لمبعوثون.[١١]

---

[١] ينظر: التبيان للطوسي: ٨/ ٥٤٢، التفسير الأصفى للفيض الكاشاني: ٢/ ١٠٦٢، التفسير الصافي للفيض الكاشاني: ٤/ ٢٩٠.

[٢] ينظر: مجمع البيان للطبرسي: ٨/ ٣٤٢ ، زبدة التفاسير لفتح الله: ٦/ ٥.

[٣] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٨، الأقسام للسبحاني، ص ٦٥.

[٤] سورة ق، الآيتان / ١، ٢.

[٥] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٨، الأقسام للسبحاني، ص ٦٥ وينظر: مفردات الفاظ القرآن للراغب الأصفهاني: ص٧٦١.

[٦] حقائق التفسير للسلمي، ٢٦٦/٢.

[٧] مجمع البيان للطبرسي، ٩/ ٢٣٤ وينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ٤/ ٢٦٩، .

[٨] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/ ١٣٩ وينظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٩٣/٩ وينظر: الوجيز للواحدي: ٢/ ١٠٢١.

[٩] ينظر: جامع البيان للطبري: ١٩١/٢٦، بحر العلوم للسمرقندي:٣١٥/٣، الكشف والبيان للثعلبي: ٩٣/٩، مدارك التنزيل للنسفي: ١٦٩/٤، التبيان لأبن قيم: ص١٠.

[١٠] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٨، الأقسام للسبحاني، ص ٦٥ وينظر: جامع البيان للطبري: ٢٦ / ١٩١، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٨/ ١٤٩، الدر المصون في علوم الكتاب الكنون، لأحمد بن يوسف (ت ٧٥٦ هـ)، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، (ب – ط – ت): ١٠/ ١٧، اللباب في علوم القرآن لأبن عادل: ١٨/ ٧ – ٨، البحر المحيط لأبي حيان: ٨/ ١٢٠.

[١١] ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣/ ٣١٥، التبيان للطوسي: ٩/ ٣٥٦، مجمع البيان للطبرسي: ٩/ ٢٣٣، زاد المسير لابن الجوزي: ٧/ ١٨٨.

-**وثالثهما**: إنه مذكور، وهو قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾[١].[٢] أو قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾.[٣]

إن الرأي الذي **تؤيده الباحثة**: هو (المنذر) وذلك "لان في التعبير عن الكافرين بالإضمار قبل الذكر في قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ ﴾إشارة الى كونه إذا ذكر شيئا خارجا عن سنن الاستقامة أنصرف إليهم والعجب من تغير النفس لأمر خارج عن العادة. ثم قال بعده ﴿مِّنْهُمْ ﴾ لان العادة عندهم وعند جميع الناس أنه إذا كان النذير منهم لم يداخلهم في أنذاره شك بوجه من الوجوه".[٤]

أما الصلة بين المقسم به وجواب القسم، فقال فيها السبحاني: "إنها واضحة، سواء أقلنا بأن المقسم عليه إنك من المنذرين أو ان البعث والنشر حق، أما على **الأول**: فلان القرآن أحد أدوات الانذار، وأما على **الثاني**: فلان القرآن يتضمن شيئا كثيرا عن الدعوة إلى المعاد. إذ إن القرآن في الأصل مصدر نحو رجحان، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾[٥]"،[٦] "فالمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه تتضح من تمجيد كتاب الله وما يشمل من الشرف والفضل والصفات الحسنة التي يتصف بها الرسول (ﷺ) لان من أمتثل لأمر الله وعلم أحكامه التي أنزلها في قرآنه المجيد مجِّد".[٧]

ختم السبحاني تفسير الآيات بتعريف لفظ "القرآن": وهو ما ذهب اليه الراغب في مفرداته إذ قال: "خص بالكتاب المنزل على نبينا محمد (ﷺ) فصار له كالعلم، كما أن التوراة لما أنزل على موسى (عليه السلام)، والإنجيل لما أنزل على عيسى (عليه السلام)، قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لكونه جامعا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، وأشار تعالى إليه بقوله: ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[٨] وعلى هذا فالقرآن من قرأ بمعنى جمع، ولكن يحتمل أن يكون بمعنى القراءة، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾[٩] أي:

---

(١) سورة ق، من الآية / ٣.

(٢) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ٤/ ٤٨، المحرر الوجيز لابن عطية: ٥/ ١٥٥، التبيان لأبن قيم: ص ٩.

(٣) سورة ق، من الآية / ٤.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لابراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥ هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (ب- ط- ت): ١٨/ ٤٠٣ وينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٦ / ٢٧٩، القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية، رسالة ماجستير، لعلي بن محمد الحارثي، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤١١ هـ- ١٩٩١ م: ص ٤٢٣.

(٥) سورة القيامة، الآيتان / ١٧، ١٨.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٩، الأقسام للسبحاني، ص ٦٦.

(٧) القسم لعبد العاطي، ص ٢٩٧ وينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمحي الدين الدرويش، دار اليمامة، دمشق، ط٧، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م: ٩/ ٢٨٣.

(٨) سورة الأنعام، من الآية / ١٥٤.

(٩) سورة الأسراء، من الآية / ٧٨.

قراءته".[١]

أما الحلف بالكتاب فقد قال السبحاني فيه: "حلف سبحانه بالكتاب مرتين، وقال: ﴿ حمٓ * وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾،[٢] ﴿ حمٓ * وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[٣]".[٤] ثم فصّل السبحاني في أركان القسم في الآيتين قائلاً: "المقسم به هو الكتاب، والمقسم عليه في الآية الأولى قوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾، والصلة بينهما واضحة، إذ يحلف بالكتاب على أنه منزل من جانبه سبحانه في ليلة مباركة"،[٥] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٦]: "أقسم جل ثناؤه بهذا الكتاب، أنه أنزله في ليلة مباركة"،[٧] "أقسم الله تعالى بالقرآن الواضح البيّن الشامل لكل أمور الدين والدنيا والمبين هدى الله وشرعه، على أنه أنزل القرآن في ليلة كثيرة الخير".[٨] وللطبرسي رأي أخر قال فيه: "﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ جواب القسم دون قوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ لأنك لا تقسم بالشئ على نفسه".[٩] أما الآية الثانية إذ قال السبحاني في أركانها: "المقسم به هو ا لكتاب المبين، والمقسم عليه هو الحلف على أنه سبحانه جعله قرآنا عربيا للتعقل، والصلة بينهما واضحة، ووصف الكتاب بالمبين دون غيره، لان الغاية من نزول الكتاب هو إنذارهم وتعقلهم كما جاء في الآيتين، إذ قال: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ وقال: ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾، وهذا النوع من الغاية أي الانذار والتعقل يطلب لنفسه أن يكون الكتاب واضحا مفهوما لا مجهولا ومعقدا. والكتاب في الأصل مصدر، ثم سمي المكتوب فيه كتابا"،[١٠] إذ "اقسم بالكتاب المبين وهو القران وجعل قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ جوابا للقسم وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه، والمبين: أي البين للذين انزل عليهم لأنه بلغتهم وأساليبهم أو الواضح للمتدبرين أو الذي ابان طرق الهدى من طرق الضلالة وابان كل ما تحتاج اليه الأمة في أبواب الديانة لكي تفهموا

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٤٠٢، مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٦٦٨، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٤٨ – ٣٤٩، الأقسام للسبحاني، ص ٦٥ – ٦٦.

(٢) سورة الدخان، الآيات / ١، ٢، ٣.

(٣) سورة الزخرف، الآيات / ١، ٢، ٣.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/٣٤٩– ٣٥٠، الأقسام للسبحاني، ص٦٦–٦٧.

(٥) المصدران نفسهما.

(٦) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٣/ ٤٩٩، زاد المسير لابن الجوزي: ٧/ ١١١، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٧ / ٢٣٦، زبدة التفاسير لفتح الله: ٦/ ٢٧٧، البحر المحيط لأبي حيان: ٨/ ٣٣.

(٧) جامع البيان للطبري، ٢٥/ ١٣٨.

(٨) التفسير الوسيط للزحيلي، ٣/ ٢٣٧٩ وينظر: الوسيط للطنطاوي: ١٣/ ١١٥ – ١١٦.

(٩) مجمع البيان للطبرسي، ٩/ ١٠٢ وينظر: التفسير الكاشف لمغنية: ٧/ ٦.

(١٠) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٠، الأقسام للسبحاني، ص ٦٨ وينظر: التبيان لأبن قيم: ص ٥.

معانيه".[١] "قسما بهذا القرآن الواضح الذي يظهر الحق ويبينه. حين اختار منهم من يحمل هذه الرسالة، واختار محلهم منبثقا لهذا الوحي الثمين و الغاية من إنزال القرآن عربيا تعقلكم وتفهمكم للحقائق، يا معشر العرب".[٢]

من هذا **تستنتج الباحثة:** أقسم الله (ﷻ) بالكتاب ووصفه بالمبين، إذ أقسم من قبل على بداية نزول القرآن، وفي ذلك تناسب بين المقسم والمقسم به والصلة الواضحة بينهما. هذا إشارة إلى أنه لم يكن هناك شئ أجل من القرآن ليقسم به، فإن ما هو أسمى من القرآن نفس القرآن، لأنه كلام الله سبحانه، وكلام الله مبين لذاته المقدسة. وأقسم الله بالكتاب ووصفه بـ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ لانه عربي وقادر على تبيان دقائق المطالب بكل جمال ودقة في التعبير، لتظهر الحقائق جيدا من خلال كلماته وجمله، ويدركها الجميع جيدا.

ختم السبحاني تفسير الآيات ببيان عظمة المقسم به وهو (القرآن والكتاب) في نقاط ذكرها **وتذكر الباحثة** بعضا منها للاختصار:

أ. "القرآن نور ينير الطريق لطلاب السعادة: قال سبحانه: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾[٣]"،[٤] "المبين لطرق الهدى والخير من طرق الضلالة والشر".[٥]

ب. إنه هدى للمتقين: "قال سبحانه: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[٦] فهو وإن كان هدى لعامة الناس، إلا أنه لا يستفيد منه إلا المتقون، ولذلك خصهم بالذكر"،[٧] "الذين من تقواهم يقبلون على القرآن ويتبعونه حق الاتباع ويأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه ويتأدبون بآدابه ويسترشدون بمعارفه".[٨]

المطلب الرابع: القسم بالعصر والنجم والسماء

أقسم الله تعالى في أوائل بعض سور القرآن الكريم: كـ (النجم، الطارق، العصر)، بصيغة المفرد. "والقسم بالمفرد هو قسم بالسواكن بعكس القسم بصيغة الجوامع الذي يدل على أنه قسم بالمتحركات أي أنها لا تدل على الحدث وإنما تدل على الثبوت والأستقرار، ويتضح

---

[١] مدارك التنزيل للنسفي، ٤/ ١٠٩ وينظر: الكشاف للزمخشري: ٣/ ٤٧٧.
[٢] تقريب القرآن لمحمد الشيرازي، ٥/ شرح ص ٤٩.
[٣] سورة المائدة، من الآية / ١٥.
[٤] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٠، الأقسام للسبحاني، ص ٦٨.
[٥] القسم في القرآن الكريم، لشوقي ضيف، دار المعارف، سلسلة اقرأ، العدد (٦٦٦)، ٢٠٠١ م، ص ٢٠.
[٦] سورة البقرة، من الآية / ٢.
[٧] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٠، الأقسام للسبحاني، ص ٦٨ وينظر: التبيان للطوسي: ٥٣/١.
[٨] الآء الرحمن للبلاغي، ١/ ٦٤ وينظر: جواهر الحسان للثعالبي: ١/ ١٨٢.

ذلك الرجوع الى المقسم به إذ يشير الى أمور ثابتة مستقرة"،[١] وجاء القسم ببعض المخلوقات العلوية لما فيها من دلائل قدرة الله تعالى، وتوحيده، وصفاته العلى،[٢] وما تتضمنه من بدائع صنعه.[٣] ذكر السبحاني بعضاً منها تذكرها الباحثة على النحو الآتي:

أولاً: القسم بالعصر

أقسم سبحانه بالعصر مرة واحدة دون أن يقرنه بمقسم به آخر، وقال: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾.[٤]

يذكر اللغويون والمفسرون أن من معاني(العصر)[٥]الدهر والزمان، العشي والغداة، وبهذا الفهم اللغوي بدأ السبحاني تفسيره للآيتين، إذ قال: "المراد من الآية أحد المعنيين الأوّلَين:

-**أحدهما:** الدهر والزمان"، وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٦] ومنهم السبحاني: إذ قال: "وإنما حلف به لان فيه عبرة لذوي الابصار من جهة مرور الليل والنهار"،[٧] "وأقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب".[٨] ثم أردف السبحاني قائلاً مع تأيده هذا الوجه: "لعل المراد من الدهر والزمان اللذين يفسرون بهما العصر هو تاريخ البشرية، وذلك لأنه سبحانه جعل المقسم عليه كون الانسان لفي خسر إلا طائفة خاصة، ومن المعلوم أن خسران الانسان انه هو من تصرم عمره ومضي حياته من دون أن ينتفع بأغلى رأس مال وقع في يده، والظاهر أن الوجه الأول هو الأقوى، إذ إن الحلف بالزمان وتاريخ البشرية يتناسب مع الجواب، أي خسران الانسان في الحياة".[٩] إذ نقل الرازي هنا حكاية طريفة نأتي بنصها: "عن بعض السلف، تعلمت معنى السورة من بائع الثلج كان يصيح، ويقول: ارحموا من

---

(١) القسم لعبد العاطي، ص ١٤٧ وينظر: القسم في القرآن الكريم، لحسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م: ص ٩٦.

(٢) ينظر: مجمع البيان للطبرسي: ٢/ ٤٧٢، مفاتيح الغيب للرازي: ٣١ / ١٤٧، التبيان لأبن قيم: ١/ ٧٠.

(٣) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٨/ ٢٨، المدخل لدراسة القرآن الكريم، لمحمد أحمد أبو شهبه، دار اللواء، مصر، ط ٢: ص ٢٤٧.

(٤) سورة العصر، الآيتان / ١، ٢.

(٥) "العصر": يطلق ويراد منه تارة الدهر، وجمعه عصور. وأخرى العشي مقابل الغداة، يقال: العصران: الغداة والعشي، والعصران الليل والنهار، كالقمرين للشمس والقمر. وثالثة بمعنى الضغط فيكون مصدر عصرت. والمعصور الشئ العصر، والعصارة نفاية ما يعصر، والمعصرات: سحابات تمطر. ورابعة بمعنى ما يثير الغبار. ينظر: العين للفراهيدي: ١/ ٢٩٥، مادة (عصر)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٤/ ٣٤١، مادة (عصر)، مفاهيم القرآن، ٣٥٤/٩، الأقسام للسبحاني: ص٧٢.

(٦) جامع البيان للطبري، ٣٧١/٣٠، الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٣/١٠، التبيان للطوسي، ٤٠٤/١٠، تفسير القرآن للسمعاني، ٦/ ٢٧٨، مجمع البيان للطبرسي، ٤٣٤/١٠، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٥، الأقسام للسبحاني، ص٧٣.

(٧) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٥، الأقسام للسبحاني، ص ٧٣.

(٨) الكشاف للزمخشري، ٤/ ٢٨٢.

(٩) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٥، الأقسام للسبحاني، ص ٧٣.

يذوب رأس ماله، ارحموا من يذوب رأس ماله، فقلت: هذا معنى أن الانسان لفي خسر يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذا هو خاسر".[١]

-**ثانيهما:** العشي مقابل الغداة. وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٢] إذ قال فيه السبحاني: "العصر: أحد طرفي النهار، وأقسم بالعصر كما أقسم بالضحى، وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ *وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[٣] كما أقسم بالصبح، وقال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾،[٤] وإنما أقسم بالعصر لأهميته، إذ هو في وقت من النهار يحدث فيه تغيير في نظام المعيشة وحياة البشر، فالأعمال اليومية تنتهي، والطيور تعود إلى أوكارها، وتبدأ الشمس بالميل نحو الغروب، ويستولي الظلام على السماء، ويخلد الانسان إلى الراحة"،[٥] على هذا أقسم سبحانه بالطرف الأخير من النهار، لما في ذلك من الدلالة على وحدانية الله تعالى، بإدبار النهار، وإقبال الليل، وذهاب سلطان الشمس، كما أقسم بالضحى، وهو الطرف الأول من النهار، لما فيه من حدوث سلطان الشمس، وإقبال النهار".[٦]

وهناك قولان آخران ذهب اليهما بعض المفسرين هما:

أ. المراد عصر الرسول، وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين [٧]: "ذلك لما تضمنته الآيتان التاليتان من شمول الخسران للعالم الانساني، إلا لمن اتبع الحق وصبر عليه، وهم المؤمنون الصالحون عملا، وهذا يؤكد على أن يكون المراد من العصر عصر النبي (ﷺ)، وهو عصر بزوغ نجم الاسلام في المجتمع البشري وظهور الحق على الباطل".[٨]

ب. المراد به صلاة العصر، وهذا ما ذهب اليه بعضهم.[٩] وإنما أقسم بها، لفضلها بدليل، قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾[١٠] وقيل أن المراد من قوله تعالى:

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي، ٣٢ / ٨٥، الأقسام للسبحاني، ص ٧٣ وينظر: الأقسام في القرآن لعبد العاطي: ص ١٧٠ – ١٧١.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري، ٤/ ٢٨٢، زاد المسير لابن الجوزي: ٨/ ٣٠٣، مفاتيح الغيب للرازي: ٦/ ١٦١.

(٣) سورة الضحى، الآيتان / ١، ٢.

(٤) سورة المدثر، الآية / ٣٤.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٥ – ٣٥٦، الأقسام للسبحاني، ص ٧٣ – ٧٤ وينظر: القسم لعبد العاطي: ص ١٧٠ – ١٧١.

(٦) مجمع البيان للطبرسي، ١٠ / ٤٣٥.

(٧) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥/ ٣٣٦، التفسير الأصفى للفيض الكاشاني: ٢/ ١٤٧٤، تقريب القرآن لمحمد الشيرازي، ٥/ ٧٣٠، الميزان للطباطبائي: ٢٠ / ٣٥٥.

(٨) الميزان للطباطبائي، ٢٠ / ٣٥٥، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٦، الأقسام للسبحاني، ص ٧٤.

(٩) ينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٧/ ٥٠٧، التفسير الأصفى للفيض الكاشاني: ٢/ ١٤٧٤، تقريب القرآن لمحمد الشيرازي: ٥/ ٧٣٠.

(١٠) سورة البقرة، من الآية / ٢٣٨.

مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ ﴾[١] هو صلاة العصر. أضف إلى ذلك أن صلاة العصر يحصل بها ختم طاعات النهار، فهي كالتوبة يختم بها الأعمال،[٢] "أن أكثر الناس عند العصر يكونون مشتغلين بالمهمات، فكان الإقبال على الصلاة أشق، فكان صرف التأكيد إلى هذه الصلاة أولى".[٣]

رد السبحاني هذين القولين قائلاً: "لا يخفى ان القول الأخير في غاية الضعف، إذ لا صلة بين القسم بصلاة العصر والمقسم عليه، أعني ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾ على أنه لو كان المقسم به هو صلاة العصر، لماذا اكتفى بالمضاف إليه، وحذف المضاف مع عدم توفر قرينة عليه، ومنه يظهر حال الوجه المتقدم عليه، وهو ما ذهب اليه مفسرين عدة".[٤]

بعد الاطلاع على التفاسير **تبين للباحثة:** إن التفاسير أعلاه غير متضادة، ويمكن أن تجتمع كلها في معنى الآية ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ﴾، ويكون القسم بكل هذه الأمور الهامة وهذا من عظمة وإعجاز القرآن إذ إن كلمة واحدة قد تحمل من المعاني العميقة ما يجعلها صالحة لكل تلك التفاسير المتنوعة، ولكن الأنسب فيها هو ما ذهب اليه السبحاني: اي (القسم بالزمان وتاريخ البشرية). لأن القسم القرآني يتناسب مع الموضوع الذي أقسم الله من أجله ومن المؤكد أن خسران الإنسان في الحياة ناتج عن تصرم عمره.

وأما المقسم عليه، "فهو قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾ والمراد من الخسران هو مضي أثمن شيء لديه وهو عمره، فالإنسان في كل لحظة يفقد رأس ماله بنحو لا يعوض بشيء أبدا، وهذه هي سنة الحياة الدنيوية إذ ينصرم عمره ووجوده بالتدريج، كما تنصرم طاقاته إلى أن يهرم ويموت، فأي خسران أعظم من ذلك"؛[٥] "لأنه ينقص عمره كل يوم، وهو رأس ماله، فإذا ذهب رأس ماله، ولم يكتسب به الطاعة، يكون على نقصان طول دهره وخسران، إذ لا خسران أعظم من استحقاق العقاب الدائم"،[٦] "إذ إن الإنسان كلما دخل في الدنيا أكثر، زاد تكالبه ورذائله، فضلاً عن أن كل ساعة تذهب ولم يعمل الإنسان فيها صالحا كان خاسرا، إذ ذهب من رأس ماله –الذي تمكن به من تحصيل أرقى الدرجات– هباء هدرا، ولو لم يحصل على المعصية في تلك الساعة فرضا".[٧]

---

[١] سورة المائدة، من الآية / ١٠٦.
[٢] ينظر: الكشاف للزمخشري: ٤/ ٢٨٢، البحر المحيط لأبي حيان: ٨/ ٥٠٧، القسم لعبد العاطي: ص ١٧٠.
[٣] مفاتيح الغيب للرازي، ٦ / ١٦١ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٧/ ٥٠٨، البحر المحيط لأبي حيان: ٨/ ٥٠٧.
[٤] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٦، الأقسام للسبحاني، ص ٧٤ وينظر: التفسير الكاشف لمغنية: ٧/ ٦٠٥.
[٥] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٦، الأقسام للسبحاني، ص ٧٤.
[٦] مجمع البيان للطبرسي، ١٠/ ٤٣٥.
[٧] تقريب القرآن لمحمد الشيرازي: ٥/ ٧٣٠.

وأما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه: "فأوضح من أن يخفى؛ لأن حقيقة الزمان حقيقة متصرمة غير قارة، فهي تنقضي شيئا فشيئا، وهكذا الحال في عمر الانسان فيخسر وينقص رأس ماله بالتدريج. ثم إنه سبحانه استثنى من الخسران من آمن وعمل صالحا وتواصى بالحق وتواصى بالصبر. ووجه الاستثناء واضح. لأنه بدل رأس ماله بشئ أغلى وأثمن، يستطيع أن يقوم مقام عمره المنقضي فهو بإيمانه وعمله الصالح اشترى حياة دائمة، حافلة برضوانه سبحانه، ونعمه المادية والمعنوية. يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[١]"،[٢] "فالمقام يستدعي قصر القسم ليتناسب مع قصر العمر وطول جملة الجواب يتناسب مع سرمدية وطول الحياة بعد الموت".[٣] "عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات: الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه، لا يتم إلا به. والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة، والباطنة، المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده، الواجبة والمستحبة. والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه. والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة. فبالأمرين الأولين يكمل العبد نفسه، وبالأمرين الأخيرين، يكمل غيره. وبتكميل الأمور الأربعة، يكون العبد، قد سلم الخسارة، وفاز بالربح العظيم".[٤]

وهذا **ما تذهب اليه الباحثة** وممكن لها أن تضيف: إن من عادات الناس في ذم الدهر والزمان من (الأيام والأشهر والسنين) ونسبة الخسران والشؤم والقاء التبعات واللعن وأمثالها اليهما. فنبه الله تعالى أن لا ذنب للعصر ولا أثر له في النجاح والخسران وان الوقت والزمان هو هو وانما الخسران والذم يجب ان يقرن بالإنسان وسلوكه وعمله.

ثانياً: القسم بالنجم وبمواقع النجوم

١. قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾.[٥]

---

(١) سورة التوبة، الآية / ١١١.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٧، الأقسام للسبحاني، ص ٧٥.

(٣) القسم لعبد العاطي، ص ١٧١.

(٤) تيسير الكريم للسعدي، ص ٩٣٤ وينظر: التفسير المقارن للناصري: ٨/ ٦٩٠.

(٥) سورة النجم، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤.

قبل أن يشرع السبحاني بايضاح أركان القسم وقف على الفهم اللغوي لبعض المفردات[١] الواردة في آياته، إذ قال في المقسم به وهو (النجم): "أحد الامرين: **الأول**: أما مطلق النجم، فيشمل كافة النجوم التي هي من آيات عظمة الله سبحانه ولها أسرار ورموز يعجز الذهن البشري عن الإحاطة بها"،[٢] "التي هي من آيات خلقه وقدرته، ليلفت النظر الى أنها متجددة دائما وأنها ستظل متجددة على أمتداد الزمان كله حتى تقوم الساعة"، [٣] أو الثريا، وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين [٤]: **والثاني**: "المراد هو نجم الشعرى الذي جاء في نفس السورة، قال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴾[٥]".[٦] وذهب البعض الى أنه القرآن الذي نزل على قلب رسول الله (ﷺ) طيلة ٢٣ سنة لنزوله نجوما.[٧] رد السبحاني هذا القول قائلاً: "لفظ الآية لا يساعد على هذا المعنى. فالله سبحانه إما أن يحلف بعامة النجوم أو بنجم خاص يهتدي به السائر".[٨] ثم ذكر الدليل الذي أورده الرازي في تأييد القول الأول إذ قال: "ويدل على ذلك أنه قيد القسم بوقت هويه، ولعل الوجه هو أن النجم إذا كان في وسط السماء يكون بعيدا عن الأرض لا يهتدي به الساري، لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال، فإذا زال، تبين بزواله جانب المغرب من المشرق"،[٩] وممكن تقييد القسم "بذم الهوى لإنتاجه الضلال والعمى بالإخلاد الى الدنيا التي هي دار الكدور والبلاء"،[١٠] "والإيحاء بأن النجم مهما يكن عظيماً

---

[١] "النجم": الكوكب الطالع، وجمعه نجوم، فالنجوم مرة اسم كالقلوب والجيوب، ومرة مصدر كالطلوع والغروب. ينظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني: ص ٧٩١، مادة (نجم)، المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ص ٤٨٣، كتاب النون وما يتصل بها. "الهوى": يطلق تارة على ميل النفس إلى الشهوة، وأخرى على السقوط من علو إلى سفل. ينظر: ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني: ص ٨٤٩، مادة (هوى)، المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ص ٥٤٨، كتاب الهاء وما يتصل بها، مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٥٨، الأقسام للسبحاني، ص ٧٦.

[٢] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٨، الأقسام للسبحاني، ص ٧٦ وينظر: حقائق التفسير للسلمي: ٢/ ٢٨٣، تفسير القرآن للسمعاني: ٥/ ٢٨٣، مدارك التنزيل للنسفي: ٤/ ١٨٧، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥/ ٢٥٢.

[٣] دراسات في القرآن والحديث، لخليف يوسف، دار غريب للطباعة، مصر، ص ١١١، القسم لحسين نصار، ص ٩٨.

[٤] ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٧ / ٥٦، الكشاف للزمخشري: ٤/ ٢٧، زاد المسير لابن الجوزي: ٧/ ٢٢٦، الإتقان للسيوطي: ١/ ٤٤١.

[٥] سورة النجم، الآية / ٤٩.

[٦] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٨ –٣٥٩، الأقسام للسبحاني، ص ٧٦ – ٧٧.

[٧] ينظر: ا لحجة في القراءات السبع، لابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ)، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، دار الشروف، بيروت، ١٩٧١ م: ص ١٨٤، بحر العلوم للسمرقندي: ٣/ ٣٣٩، التبيان للطوسي: ٦/ ٣٦٨، التبيان لأبن قيم: ص ١٥٢، الميزان للطباطبائي: ١٩/ ٢٧.

[٨] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٩، الأقسام للسبحاني، ص ٧٧.

[٩] مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨ / ٢٧٩، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٩، الأقسام للسبحاني، ص ٧٧ وينظر: القسم لحسين نصار: ص٤٤.

[١٠] نظم الدرر للبقاعي، ١٩ / ٤٠.

فإنه يهوي ويتغير مقامه. فلا يليق أن يكون معبودا فللمعبود الثبات والارتفاع والدوام"،[١] ولا يمكن أن تكون النجوم وأحوالها دليلاً للمنجمين الذين يدعون معرفة الغيب ونسبة حظوظ الناس في الخير والشر اليها وذلك بمقتضى النظر فيها. فمن صدقهم فقد كذب بالقرآن أو أنه قد كذب بما نزل على محمد (ﷺ). فالمهم هو عدم جواز التصديق من هؤلاء سواء كان العلم الذي يتخذونه شعاراً لهم صادقا أو كاذبا. ولذا اشتهر: كذب المنجمون ولو صدقوا.[٢]

بعد الاطلاع على التفاسير **تبين للباحثة:** إن القول الأول هو أظهر الأقوال؛ لأنه يطابق اللفظ من كل وجه.

وأما المقسم عليه قال فيه السبحاني وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين: "هو قوله سبحانه: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾. إذ جمع سبحانه هناك بين الضلال والغي فنفاهما عن النبي (ﷺ)، والقرآن يستعمل الضلالة في مقابل الهدى، يقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾.[٣] ويستعمل الغي في مقابل الرشد، يقول سبحانه: ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾[٤]"،[٥] ومنهم من قال: "الغي جهل من اعتقاد فاسد، وذلك أن الجهل قد يكون من كون الانسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا ولا فاسدا، وقد يكون من اعتقاد شئ، وهذا النحو الثاني، يقال له: غي".[٦] وذهب الرازي الى أن الفرق بين الضلالة والغواية أعم من ذلك إذ قال: "إن الضلال أعم استعمالاً في الوضع، فالمراد من الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقاً أصلا، والغواية أن لا يكون له طريق إلى المقصد مستقيم يدلك على هذا أنك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق السداد إنه سفيه غير رشيد، ولا تقول إنه ضال، والضال كالكافر، والغاوي كالفاسق".[٧]

---

(١) في ظلال القرآن للسيد قطب، ٦/ ٣٤٠٦.

(٢) ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، لأحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت: ١١/ ٩٦، ما وراء الفقه، لمحمد الصدر(ت١٤٢١ هـ)، المحبين للطباعة، ط٣، قم، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٧ م: ٣/٣٥.

(٣) سورة المائدة، من الآية / ١٠٥.

(٤) سورة الأعراف، من الآية / ١٤٦.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٥٩ – ٣٦٠، الأقسام للسبحاني، ص ٧٧ – ٧٨ وينظر: الكشاف للزمخشري: ٤/ ٢٨، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١٧/ ٤٨.

(٦) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٦٢٠.

(٧) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨ / ٢٨٠ وينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥/ ١٥٧، مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٦٠، الأقسام للسبحاني، ص ٧٨.

وتخلص الباحثة القول فيما ذهب اليه المفسرون: "الضلالة معناها مطلق الجهل وعدم المعرفة، إلا أن الغواية جهل ممزوج أو مشوب بالعقيدة الباطلة".[١] وعلى هذا فالآية بصدد بيان "نفي الضلالة والغي عن النبي (ﷺ) ورد كل نوع من أنواع الانحراف والجهل والضلال والخطأ عنه (ﷺ) ليرد به التهم الموجهة إليه من جانب أعدائه"،[٢] "وجاء النفي عاما في حياة النبي (ﷺ)، في الماضي والحاضر والمستقبل وعاما لكل ما ينطق به بصيغة المضارع ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾للدلالة على الأستمرار والتجدد".[٣]

وأما بيان الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فقد قال السبحاني: إنها "واضحة، لما ذكرنا من أن النجم عند الهوي والميل يهتدي به الساري كما أن النبي يهتدي به الناس، أي بقوله وفعله وتقريره. فكما أنه لا خطأ في هداية النجم لأنها هداية تكوينية، وهكذا لا خطأ في هداية الوحي الموحى إليه، ولذلك قال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾"،[٤] "إذ أرسل إليكم وجعل رسولاً شاهداً عليكم، فلم يكن أولاً ضالاً ولا غاوياً، وصار الآن منقذاً من الضلالة ومرشداً وهادياً"،[٥] "فكيف يضل أو يغوي أو ينطق عن الهوى، وهو وحي من عند الله".[٦]

تخلص الباحثة: إن في هذه الآيات مشهدين: **الأول:** مشهد النجم في السماء أذ هوى يتبعه السائرون فيهتدون به. **والثاني:** إن رسول الله (ﷺ) كالنجم يضيء الدنيا برسالته التي اتى بها، ومن تبعه وأهتدى بهديه هُدي الى الفوز برضى الرحمان وجنات عرضها السموات والأرض.

٢. قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.[٧]

---

(١) الأمثل للشيرازي، ١٧ / ٢٠٨.

(٢) مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٦٠، الأقسام للسبحاني، ص ٧٨ وينظر: الأمثل للشيرازي: ١٧ / ٢٠٨، القسم لعبد العاطي: ص ١٧٢ – ١٧٣.

(٣) القسم لعبد العاطي: ص ١٧٢.

(٤) مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٦٠، الأقسام للسبحاني، ص ٧٨ وينظر: سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي: ٣/ ٣٢، القسم لعبد العاطي: ص ٢١٦.

(٥) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨/ ٢٨١.

(٦) القسم لعبد العاطي، ص ١٩٤.

(٧) سورة الواقعة، الآيات / ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠.

بدأ السبحاني توضيح أركان القسم بعد التعريف اللغوي لمفردة ﴿ بِمَوَٰقِعِ ﴾[١] قائلاً: "إنه سبحانه قال: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ فالمراد منه القسم بلا شك، بشهادة انه قال بعده: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ فلو كان معنى الآية هو نفي القسم فلا يناسب ما بعده إذ يصفه بأنه حلف عظيم"،[٢] ومنهم من قال أن: "(لا) صلة، والمعنى فأقسم".[٣] ومنهم من قال: إنها زائدة.[٤] ومنهم من قال: أصلها لأقسم بلام التأكيد، فلما أشبعت فتحتها صارت لا كما في الوقف.[٥] ومنهم من قال: إنها نافية: بمعنى نفي المعنى الموجود في ذهن المخاطب، ثم الابتداء بالقسم.[٦]

أتم السبحاني تفسير الآية قائلاً: "المراد من مواقع النجوم مساقطها إذ تغيب"،[٧] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٨]: "أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها، أي: مساقطها في مغاربها"،[٩] "وتخصيص المغارب لما في غروبها من زوال أثرها، والدلالة على وجود مؤثّر لا يزول تأثيره".[١٠] وذهب آخرون الى أن المراد: منازلها ومسايرها،[١١] "فإنها أيضاً دليل الاختيار، لأن كون كل واحد في موضع من السماء دون غيره من المواضع مع استواء المواضع في الحقيقة دليل فاعل مختار".[١٢]

والذي يبدو لي: إن المعاني الواردة لا تتنافى فيما بينها إذ يمكن جمعها في معنى الآية أعلاه وتناسبها مع ظاهر الآية.

وأما المقسم عليه: فهو قوله سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾. إذ قال فيه السبحاني: "وصف القرآن **بصفات أربع:**

---

[١] "المواقع": الوقوع ثبوت الشئ وسقوطه، يقال: وقع الطائر وقوعا، وعلى ذلك يراد منه مطالعها ومغاربها، يقال: مواقع الغيث أي مساقطه. ينظر: مفردات الفاظ القرآن للراغب الأصفهاني: ص ٥٣٠، مادة (وقع)، مفاهيم القرآن: ٩ / ٣٦١، الأقسام للسبحاني: ص ٧٩.

[٢] مفاهيم القرآن، ٩ / ٣٦٣، الأقسام للسبحاني، ص ٨٢ وينظر: جامع البيان للطبري: ٢٧ / ٢٦٤.

[٣] تفسير القرآن للسمعاني، ٥ / ٣٥٨، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي، ١٧ / ٢٢٣.

[٤] ينظر: الكشاف للزمخشري: ٤ / ٥٨، المحرر الوجيز لابن عطية: ٥ / ٢٥٠، انوار التنزيل للبيضاوي: ٥ / ١٨٢.

[٥] ينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٧ / ٢٩٢، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٩ / ١٨٦.

[٦] ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ٤ / ٢٨٩، التفسير العظيم لعبد السلام: ٣ / ٢٧٩.

[٧] مفاهيم القرآن، ٣٦١/٩، الأقسام للسبحاني، ص ٧٩.

[٨] ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٥ / ٣٥٨، التبيان للطوسي: ٩ / ٥٠٦، معالم التنزيل للبغوي: ٤ / ٢٨٩، الكشاف للزمخشري: ٤ / ٥٨، زاد المسير لابن الجوزي: ٧ / ٢٩٢، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١٧ / ٢٢٣.

[٩] تيسير الكريم للسعدي، ص ٨٣٦.

[١٠] زبدة التفاسير لفتح الله، ٦ / ٥٨٣.

[١١] ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢٩ / ١٨٦ ، زبدة التفاسير لفتح الله: ٥٨٢/٦، التفسير الكاشف لمغنية: ٧ / ٢٢٩.

[١٢] مفاتيح الغيب للرازي، ٢٩ / ١٨٦.

أ. ﴿ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾، والكريم هو البهي الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شئ أحسنه وأفضله، فالله سبحانه كريم، وفعله أعني القرآن مثله، "والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه ووصف به عرشه ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره"،[١] "يغني عن كل مرشد ودليل، ويشفي من داء الجهل والضلال، ويهدي إلى منازل الكرامة والسلامة، ويحرر من قيود الظلم والعبودية"،[٢] "كريم لوضوح معانيه وبلاغته المعجزة، أو كريم لأنه يهدي الى مكارم الأخلاق ورفيع الأفعال".[٣]

وتضيف الباحثة القول: إنه وبعبارة جامعة هو كريم لكل ما ذكر هنا ولم يذكر وذكره العلماء والمفسرون والعرفاء في الإشارة الى محتوى هذا الاسم العظيم.

ب. ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ ولعل المراد منه هو اللوح المحفوظ، بشهادة قوله: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾،[٤] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٥]: "وهو الأصح أنه اللوح المحفوظ".[٦] ويحتمل أن يكون المراد الكتاب الذي بأيدي الملائكة، قال سبحانه: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾،[٧] وهو ما ذهب اليه ابن قيم الجوزية إذ قال: "الصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة".[٨]

ج. ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ فلو رجع الضمير إلى قوله: ﴿ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾، وهو المتبادر، لأن الآيات بصدد وصفه وبيان منزلته فلا يمس المصحف إلا طاهر، فيكون الاخبار بمعنى الانشاء، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾،[٩] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين[١٠]: "إن الضمير يعود إلى القرآن، فلا يجوز لغير الطاهر مس كتابة القرآن".[١١] ولو قيل برجوع الضمير إلى ﴿ كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ فيكون المعنى لا يمس الكتاب

---

(١) التبيان لأبن قيم، ص ١٤١.
(٢) التفسير الكاشف لمغنية، ٧ / ٢٣٢.
(٣) القسم في القرآن الكريم لشوقي ضيف، ص ٦٧.
(٤) سورة البروج، الآيتان / ٢١، ٢٢.
(٥) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢/ ١٤٥، إعجاز القرآن للباقلاني: ص ٦١، تفسير القرآن للسمعاني: ٥/ ٣٥٩، التبيان للطوسي: ٩/ ٥٠٦، الكشاف للزمخشري، ٤/ ٥٩، زاد المسير لابن الجوزي: ٧/ ٢٩٢.
(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٩/ ١٩٢.
(٧) سورة عبس، الآيات / ١٣، ١٤، ١٥، ١٦.
(٨) التبيان لأبن قيم، ص ١٤١.
(٩) سورة البقرة، من الآية / ٢٢٨.
(١٠) ينظر: أحكام القرآن للجصاص: ٣ / ٥٥٥، التبيان للطوسي: ٩ / ٥١٠، مجمع البيان للطبرسي: ٩ / ٣٧٧، المنتخب والنكت لابن أدريس: ٣ / ٢٢٥.
(١١) مجمع البيان للطبرسي، ٩ / ٣٧٧.

المكنون إلا المطهرون، وربما يؤيد هذا الوجه بأن الآية سيقت تنزيها للقرآن من أن ينزل به الشياطين، وان محله لا يصل إليه، فلا يمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[١].[٢]

تخلص الباحثة: إن للقرآن مكانة عظيمة ومقدسة في كلا الدارين، ففي الدنيا لا يمسه أحد إلا المطهرون من عباد الله وإن هذا بعد التنزيل، وأما الكتاب قبل التنزيل له موقع في اللوح المحفوظ لا يمسه الا الملائكة الموكلين به.

د. ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ "وهذا هو الذي يركز عليه القرآن في مواقف مختلفة، وانه كتاب الله وليس من صنع البشر".[٣] وذهب أبن قيم الجوزية الى: "كونه تنزيلا من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين. **أحدهما:** إنه المتكلم وأنه منه نزل ومنه بدأ وهو الذي تكلم به. **وثانيهما:** علو الله سبحانه فوق خلقه فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم وتشهد به عقولهم وذكر التنزيل مضافا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم وتصرفه فيهم وحكمه عليهم وإحسانه وإنعامه عليهم وإن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ويدعهم هملا ويخلقهم عبثا لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به".[٤] "منزل من عند الله إليكم تفهمونه وتعقلونه بعد ما كان في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون. والتعبير عنه تعالى برب العالمين للإشارة إلى أن ربوبيته تعالى منبسطة على جميع العالمين وهم من جملتهم فهو تعالى ربهم وإذا كان ربهم كان عليهم أن يؤمنوا بكتابه ويصغوا لكلامه ويصدقوه من غير تكذيب".[٥]

وأما الصلة بين القسم والمقسم به، فقال فيها السبحاني: "إن النجوم بمواقعها أي طلوعها وغروبها يهتدي بها البشر في ظلمات البر والبحر، والقرآن الكريم كذلك يهتدي به

---

[١] سورة الشعراء، الآيتان / ٢١٠، ٢١١.

[٢] ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٧ / ٢٢٦، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٤ / ٣٤٤، الكشف والبيان للثعلبي: ٩ / ٢١٨، زبدة التفاسير لفتح الله: ٦ / ٥٨٢.

[٣] مفاهيم القرآن، ٩ / ٣٦٢ – ٣٦٣، الأقسام للسبحاني: ص ٨٠ – ٨١.

[٤] التبيان لأبن قيم، ص ١٤٥.

[٥] الميزان للطباطبائي، ١٩ / ١٣٨.

الانسان في ظلمات الجهل والغي، فالنجوم مصابيح حسية في عالم المادة و أن آيات القرآن مصابيح معنوية في عالم المجردات".[١]

ثالثاً: القسم بالسماء ذات الحبك

إن القرآن أقسم بالسماء في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴾[٢]، وهو أول قسم بالسماء في القرآن الكريم. إذ إن الكون كتاب الله الصامت ألا أنها كانت من عظمتها وما فيها من آيات الصنع عظيم تنطق بعظمة خالقها في كل آياتها. وهذه الآيات وأمثالها لم يفهمها السلف الصالح على وجهها العلمي كما هو موجود في عصرنا الحاضر ومتوافر، وإنما رأوا فيها أنها دلائل على قدرة الله تعالى وعظمته، وأنها شاهدة على أنه سبحانه بديع السماوات والأرض. وأورد السبحاني القسم في سورة واحدة هي الذاريات التي فيها نوعان من القسم المفرد والمتعدد وسيتم تناول المفرد اما المتعدد فسوف يتم تناوله في المبحث الثالث.

أنطلق السبحاني موضحاً أركـــــان القسم لآيات القسم ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ * إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴾،[٣] بالتعريف اللغوي لمفردة ﴿ ٱلۡحُبُكِ ﴾[٤] إذ قال: "المراد من ﴿ ٱلۡحُبُكِ ﴾ هو المعنى الأول أي السماء ذات الطرائق المختلفة، ويؤيده جواب القسم، وهو اختلاف الناس وتشتت طرائقهم، كما في قوله: ﴿ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴾"،[٥] وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٦] وذهب بعضهم الى أن المراد هو المعنى الثالث: أي أقسم بالسماء ذات الحسن والزينة، نظير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾ [٧].[٨]

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ / ٣٦٣، الأقسام للسبحاني: ص ٨١ وينظر: القسم لعبد العاطي: ص ٤٤٢.

(٢) سورة الذاريات، الآية / ٧.

(٣) سورة الذاريات، االآيتان / ٧، ٨.

(٤) "الحبك": جمع مفردها حِباك، أي ذات الطرائق، منها الطرائق المحسوسة بالنجوم والمجرة، وأخرى في الشعر المجعد، وثالثة في حسن أثر الصنعة في الشئ واستوائه. ينظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني: ص ٢١٧، مادة (حبك)، القاموس المحيط للفيروزآبادي: ٣/ ٢٩٧، مادة (حبك)، مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٦٦، الأقسام للسبحاني: ص ٨٣.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٦٦، الأقسام للسبحاني، ص ٨٣.

(٦) ينظر: مجاز القرآن للتميمي: ٢/ ٢٢٥، التبيان للطوسي: ٩/ ٣٨٠، زبدة التفاسير لفتح الله: ٦/ ٤٦٥، القسم في القرآن الكريم لحسين نصار: ص ٤٤.

(٧) سورة الصافات، الآية / ٦.

(٨) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٤٣/٢٦، الوجيز للواحدي: ٢/ ١٠٢٧، المنتخب والنكت لابن أدريس: ٣/ ١٧٥، التبيان لأبن قيم: ص١٧٩، تفسير غريب القرآن للطريحي: ص ٤٣٤، التفسير الأصفى للفيض الكاشاني: ٢/ ١٢٠٦، التفسير المبين لمغنية: ٦٩٢.

رفض السبحاني الرآي الثاني قائلاً: "لكنه لا يناسبه الجواب، إذ لا يصح أن يحلف حالف بالأمواج الجميلة التي ترتسم بالسحب أو بالمجرات العظيمة التي تبدو كأنها تجاعيد الشعر على صفحة السماء، ثم يقول: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾، أي إنكم متناقضون في الكلام".[١]

ويمكن القول: إن الجمع بين المعاني المتقدمة ممكن ولا منافاة فيه فيحتمل أن تكون هذه المعاني كلها مجتمعة في القسم، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾.[٢]

أما المقسم عليه وهو ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾، قال السبحاني فيه: "هو التركيز على أنهم متناقضون في الكلام، فتارة ينسبون عقائدهم إلى آبائهم وأسلافهم فينكرون المعاد، وأخرى يستبعدون إحياء الموتى بعد صيرورتها عظاما رميمة، وثالثة يرفضون القرآن والدعوة النبوية ويصفونه بأنه قول شاعر، أو ساحر، أو مجنون، أو مما علمه بشر، أو هي من أساطير الأولين".[٣] وضعف الرازي القول الثالث **وتؤيده الباحثة** إذ قال: "تارة يقولون إنه أمين وأخرى إنه كاذب، وتارة تنسبونه إلى الجنون، وتارة تقولون إنه كاهن وشاعر وساحر وهذا محتمل لكنه ضعيف إذ لا حاجة إلى اليمين على هذا، لأنهم كانوا يقولون ذلك من غير إنكار حتى يؤكد بيمين".[٤]

عدَّ السبحاني هذا الاختلاف دليلاً على بطلان ادعائهم "إذ لا يعتمدون على دليل خاص، فان تناقض المدعي في كلامه أقوى دليل على بطلانه ونفاقه"،[٥] وهذا ما ذهب اليه مفسرون آخرون[٦]: "أنكم في الحق لفي قول مختلف، لا يصح إلا واحد منه، وهو أمر النبي (ﷺ) وما دعا إليه، وهو تكذيب فريق به وتصديق فريق. ودليل الحق ظاهر، وفائدته أن أحد الفريقين في هذا الاختلاف مبطل، لأنه اختلاف تناقض فاطلبوا الحق منه بدليله وإلا هلكتم"،[٧] "ومن لا يثبت على قول لا يكون متيقناً في اعتقاده فيكون كأنه قال تعالى، والسماء إنكم غير جازمين في اعتقادكم وإنما تظهرون الجزم لشدة عنادكم".[٨]

وأما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقد قال السبحاني فيها: "ظهر مما ذكرنا، لما عرفت من أن معنى الحبك هو الطرائق المختلفة المتنوعة، فناسب أن يحلف به سبحانه على

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٦٦، الأقسام للسبحاني، ص ٨٣.

(٢) سورة المؤمنون، من الآية / ١٧.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٦٦، الأقسام للسبحاني، ص ٨٣ وينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٥/ ٢٥٢، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١٧/ ٣٣، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل: ١٨/ ٦٢، القسم لعبد العاطي: ص ٢٤٦.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨ / ١٩٧.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٦٦، الأقسام للسبحاني، ص ٨٣.

(٦) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٦ / ٢٤٦، التبيان للطوسي: ٩/ ٣٨٠، مجمع البيان للطبرسي: ٩/ ٢٥٥، التبيان لأبن قيم: ص١٨١، المنتخب والنكت لابن أدريس: ٣/ ١٧٥، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٦٧/٦.

(٧) التبيان للطوسي، ٩/ ٣٨٠ وينظر: مجمع البيان للطبرسي: ٩/ ٢٥٥، المنتخب والنكت لابن أدريس: ١٧٥/٣.

(٨) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨ / ١٩٧.

اختلافهم وتشتت آرائهم في إنكارهم نبوة النبي ورسالته والكتاب الذي أنزل معه والمعاد الذي يدعو إليه"،[١] "وإن النكتة في ذلك القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السماوات في تباعدها واختلاف هيآتها، أو الإشارة إلى أنها ليست مستوية جيدة، أو ليست قوية محكمة، أوليس فيها ما يزينها بل فيها ما يشينها من التناقض".[٢]

وتضيف الباحثة القول: إن الأنغماس في التخبط في الأقوال المختلفة، يدل على كذبهم وضلالهم ويدل على أن أعمالهم السيئة لا يريدون المحاسبة عليها فلذلك ينكرونها ولسان حالهم يقول: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾.[٣]

---

[١] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٦٧، الأقسام للسبحاني، ص ٨٤ وينظر: القسم لعبد العاطي: ص ٢٤٦.

[٢] روح المعاني للآلوسي، ٢٧ / ٥ وينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥/ ٢٣٥، التحرير والتنوير لابن عاشـــــــور: ٢٦ / ٣٤٠.

[٣] سورة الكهف، الآية / ٣٦.

المبحث الثالث
القسم بالمتعدد

التمهيد:

أطلق السبحاني الحلف المتعدد، على الأمور المختلفة التي حلف بها سبحانه وتعالى وجمعها في آية واحدة أو آيتين، وجعل للجميع جوابا واحدا، كالحلف بالملائكة وبالظواهر الطبيعية (الصبح، الليل) وبالأجرام السماوية (الشمس، القمر) إلى أن يصل إلى النفس الانسانية. وأن الله سبحانه أقسم في بعض آياته بجمع المؤنث السالم في سور خمس (الصافات، والمرسلات، والنازعات، والذاريات، والعاديات)، ولم يقسم بجمع المذكر السالم في سورة أصلاً، فلم يقل: والصالحين من عبادي، ولا المقربين إلى غير ذلك، مع أن المذكر أشرف، وذلك لأن جموع السلامة بالواو والنون في الأمر الغالب لمن يعقل، ففائدة ذلك راجع إلى من يعقل، فكان الأمر يقتضي أن يكون القسم بغيرهم.[١] وفي بعض آياته الآخرى حلف بصيغة المفرد. والقسم بالمفرد هو قسم بالسواكن.[٢]

---

[١] ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢٨ – ٢٩ / ١٩٥، سبيل الهدى والرشاد للصالحي الشامي، ٣/ ٢٦ وينظر: القسم في القرآن الكريم لحسين نصار: ص ٩٧، القسم لعبد العاطي: ص ١٠٦.

[٢] ينظر: القسم لعبد العاطي: ص ١٤٧.

المطلب الأول: القسم بالملائكة

إن الله تعالى أقسم بالجموع وفي أكثر الجموع أقسم بالمتحركات ويمكن القول في جميع السور الأربع أقسم بالملائكة وليس المقسم به هو لفظ الملك أو الملائكة، وإنما هو الصفات البارزة للملائكة وأفعالها، تذكرها الباحثة على النحو الآتي:

أولاً: قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا * فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾.[١]

بدأ السبحاني بتوضيح أركان القسم بعد التعريف اللغوي لبعض مفردات[٢] آياته قائلاً: "حلف سبحانه بوصف من أوصاف الملائكة، وقال: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴾، ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴾، ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ وكل هذه الثلاثة مقسم به، والمقسم عليه هو قوله: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾".[٣] ثم قال: "إن المهم بيان ما هو المقصود من هذه العناوين، ولعل الرجوع إلى القرآن الكريم يزيح الغموض عن كثير منها. يقول سبحانه: حاكيا عن الملائكة: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾.[٤] فينطبق على الملائكة أنهم الصافون حول العرش ينتظرون الأمر والنهي من الله تعالى. ووصف سبحانه الطير بالصافات، وقال: ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾.[٥] وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾[٦] كما أمر سبحانه على أن ينحر البدن وهي صواف، قال سبحانه: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾.[٧] والمعنى: ان تعقل إحدى يديها وتقوم على ثلاث فتنحر كذلك فيسوي بين أظلفتها لئلا يتقدم بعضها على بعض".[٨] وأحتمل السبحاني أن المعنى هو الأول إذ قال: "من المحتمل أن يكون المحلوف به هو الملائكة صافات"،[٩] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين

---

(١) سورة الصافات، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤.

(٢) "الصافات": جمع صافة: وهي من الصف بمعنى جعل الشئ على خط مستو. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٩٤/٩، مادة (صف). "الزاجرات": من الزجر، بمعنى المنع (الصرف)عن الشئ بالتخفيف والنهي. ينظر: مختار الصحاح لابي بكر الرازي: ص ١٤٦، مادة (زجر). "التاليات": وهي بمعنى التلاوة: قرأ قراءة. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٤ / ١٠٤، مادة (تلا)، مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٧١، الأقسام للسبحاني: ص ٨٩.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٧١، الأقسام للسبحاني، ص ٨٩.

(٤) سورة الصافات الآيات / ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦.

(٥) سورة النور، من الآية / ٤١.

(٦) سورة الملك، من الآية / ١٩.

(٧) سورة الحج، من الآية / ٣٦.

(٨) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٧٢، الأقسام للسبحاني، ص ٩٠.

(٩) المصدران نفسهما.

ولكن بتعابير مختلفة:[١] "إنها الملائكة الصافات لربها في السماء"،[٢] "مصطفة تذكر الله (ﷻ)، وتسبحه"،[٣] "في السماوات كصفوف المؤمنين في الصلاة"،[٤] "ملائكته الصافات للعبودية بين يديه"،[٥] أنفرد الآلوسي بقوله: "هي الأرواح الكاملة المكملة من الصف الأول وهو صف الأنبياء (عليهم السلام)".[٦] وذهب السبحاني الى أن يكون معنى الصافات كل المعاني التي ذكرها القرآن الكريم إذ قال: "يمكن أن يكون المحلوف به كل ما أطلق عليه القرآن ذلك الاسم، وإن كان الوجه الأول هو الأقرب".[٧]

ويبدو للباحثة: إن ماورد سابقاً من الآراء هو المشهور بين المفسرين ولم يخالفهم السبحاني في ترجيح ما ذهب اليه أغلب المفسرين وهو طوائف من الملائكة اصطفت في عالم الملكوت الآلهي بصفوف منظمة، وهي مستعدة لتنفيذ الأوامر الإلهية.

وأما في الزاجرات فقال السبحاني: "ليس في القرآن ما يدل على المقصود به، فلا محيص من القول بأن المراد الجماعة الذين يزجرون عن معاصي الله، ويحتمل أن ينطبق على الملائكة حيث يزجرون العباد عن المعاصي بالالهام إلى قلوب الناس، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[٨]، وأن الشياطين يوحون إلى أوليائهم بالدعوة إلى المعاصي، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[٩]، وهذا ما ذهب اليه الطوسي إذ قال: "هم الملائكة يزجرون الخلق عن المعاصي زجرا يوصل الله مفهومه إلى قلوب العباد، كما يوصل مفهوم اغواء الشيطان إلى قلوبهم ليصح التكليف".[١٠] ومنهم من ذهب الى: أنها

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٣ / ٤١، تفسير القرآن للسمعاني: ٤ / ٣٩١، الوجيز للواحدي: ٢/ ٩٠٦، التبيان للطوسي: ٨/ ٤٨٠.

(٢) جامع البيان للطبري، ٢٣ / ٤١ وينظر: الوجيز للواحدي: ٢/ ٩٠٦.

(٣) معاني القرآن للنحاس، ٦/ ٨ وينظر: التبيان للطوسي: ٨/ ٤٨٠.

(٤) بحر العلوم للسمرقندي، ٣/ ١٢٨ وينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ٨ / ١٣٨، مجمع البيان للطبرسي: ٨ / ٢٩٦.

(٥) التبيان لأبن قيم، ص ٢٧١ وينظر: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، لمحمد الأمين الشافعي، مراجعة: هاشم محمد، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م: ٢٤ / ٥٦٨.

(٦) روح المعاني للآلوسي، ٢٣/ ١٥٩.

(٧) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٧٢، الأقسام للسبحاني، ص ٩٠.

(٨) سورة البقرة، من الآية / ١٠٢.

(٩) سورة الأنعام، من الآية / ١١٢.

(١٠) التبيان للطوسي، ٨ / ٤٨٢، مجمع البيان للطبرسي، ٨ / ٢٩٦.

الملائكة الموكلة بتسيير السحاب في السماء وسوقها نحو الأرض اليابسة لإحيائها،[١] وأضاف الطبرسي قولين آخرين: "**أحدهما:** إنها زواجر القرآن وآياته الناهية عن القبائح. **والثاني:** إنهم المؤمنون يرفعون أصواتهم عند قراءة القرآن، لان الزجرة الصيحة".[٢]

أما الثالثة أي التاليات فقال فيها السبحاني: "هن اللواتي يتلون الوحي على النبي الموحى إليه"،[٣] وهذا ما ذهب اليه أبن زمنين إذ قال: "الملائكة تتلو الوحي الذي تأتي به الأنبياء"،[٤] وذهب أغلب المفسرين أنها الملائكة وهي تتلوا ذكر الله.[٥] "فالمراد من الجميع الملائكة وثمة **احتمال آخر** وهو: إن المراد من الصفات الثلاث هم العلماء، فإنهم هم الجماعة الصافة أقدامها بالتهجد وسائر الصلوات، وهم الجماعة الزاجرة بالمواعظ والنصائح، و أنهم الجماعة التالية لآيات الله والدارسة شرائعه. وأن ثمة **احتمالاً ثالثاً** وهو: إن المراد هم الغزاة في سبيل الله الذين يصفون أقدامهم، ويزجرون الخيل إلى الجهاد، ويتلون الذكر، ومع ذلك لا يشغلهم تلك الشواغل عن الجهاد"،[٦] وهذا ما ذهب اليه النسفي إذ قال: "العلماء العمال الصفات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات فالزاجرات بالمواعظ والنصائح فالتاليات آيات الله والدارسات شرائعه أو بنفوس الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد وتتلوا الذكر مع ذلك". [٧]

وأما المقسم عليه وضحه السبحاني قائلاً: "هو قوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾"،[٨] "إن انتظام أحوال السماوات والأرض يدل على أن الإله واحد"،[٩] "واحد لا شريك له في ذاته،

---

[١] ينظر: معاني القرآن للنحاس: ٦/ ٧، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٤ / ٥٥، الكشف والبيان للثعلبي: ٨ / ١٣٨، القسم في القرآن الكريم لبعد العاطي: ص ١١٠.

[٢] مجمع البيان للطبرسي، ٨ / ٢٩٦ وينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ١٠ / ٣٢٠٤، الكشف والبيان للثعلبي: ١٣٨/٨، زاد المسير لابن الجوزي: ٦/ ٢٨٥، الدر المنثور للسيوطي: ٥/ ٢٧١.

[٣] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٧٣، الأقسام للسبحاني، ص ٩١.

[٤] القرآن العزيز لأبن زمنين، ٤/ ٥٦ وينظر: مجمع البيان للطبرسي، ٢٩٦/٨، التحرير والتنوير لابن عاشور: ٨٢/٢٣ – ٨٣.

[٥] ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٤ / ٣٩١، التبيان للطوسي: ٨ / ٤٨٢، معالم التنزيل للبغوي: ٤/ ٢٢، زاد المسير لابن الجوزي: ٦/ ٢٨٥.

[٦] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٧٣، الأقسام للسبحاني، ص ٩١ وينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ١٢٨، زبدة التفاسير لفتح الله: ٥/ ٥٣٧.

[٧] مدارك التنزيل للنسفي، ١٦/٤، وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١١٦/٢٦، انوار التنزيل للبيضاوي: ٥/٥.

[٨] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٧٣، الأقسام للسبحاني، ص ٩١.

[٩] مفاتيح الغيب للرازي، ٢٦ / ١١٨.

ولا في صفاته ولا في أفعاله، ولا في خلقه".[١]

تخلص الباحثة: إن إختيار لفظ ﴿لَوَٰحِدٌ﴾ يفيد الوحدانية؛ ويتناسب مع السياق؛ لان الكفار أشركوا مع الله آلهة كثيرة، إذ قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [٢]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[٣] فجاء لفظ واحد لتأكيد التوحيد ونفي مزاعمهم تلك.

اما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقال فيها السبحاني: "أن الملائكة أو العلماء أو المجاهدين الذين وصفوا بصفات ثلاث هم دعاة التوحيد ورواده وأبرز مصاديق من دعا إلى التوحيد على وجه الاطلاق وفي العبادة خاصة"،[٤] "ويشير إلى حقيقة مفادها أن سالكي طريق الحق عليهم للوصول إلى غايتهم أن يجتازوا تلك المراحل الثلاث التي تبدأ بتنظيم الصفوف ووقوف كل مجموعة في الصف المخصص لها، ومن ثم العمل على إزالة العراقيل من الطريق، ورفع الموانع بالصوت العالي، الصوت الذي يتناسب مع مفهوم الزجر، ومن بعد تلاوة الآيات الإلهية والأوامر الربانية على القلوب المتهيئة لتنفيذ مضامين تلك الأوامر".[٥]

ثانياً: قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا * فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا * فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا * فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾.[٦]

نلحظ أن السبحاني في تفسيره للآية يتدرج من التعريف اللغوي للمفردات[٧] الى أركان القسم بقوله: "حلف بالذاريات بواو القسم، وحلف بالثلاثة بعطفها على الذاريات بالفاء فيحمل المعطوف معنى القسم أيضا".[٨] وذهب الطباطبائي: إن "الآيات الأربع تشير إلى عامة التدبير

---

(١) الوسيط للطنطاوي، ١٢ / ٦٨.
(٢) سورة الأنعام، من الآية / ٧٣.
(٣) سورة النحل، الآية / ٥١.
(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٧٣، الأقسام للسبحاني، ص ٩١.
(٥) الامثل للشيرازي، ١٤/ ٢٨٤ – ٢٨٥.
(٦) سورة الذاريات، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦.
(٧) "الذاريات": فهي جمع ذارية، ومعناها الريح التي تنشر شيئا في الفضاء. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٤/ ٢٨٣، مادة (ذرا). "الحاملات": هي من الحمل. ينظر: تاج العروس للزبيدي: ١٤/ ١٦٨، مادة (حمل). "الوقر": ذو الوزن الثقيل. والمراد منه السحاب يحمل الماء الذي أوْقَرها. ينظر :لسان العرب لابن منظور: ٥/ ٢٩٠، مادة (وقر). "الجاريات": هي جمع جارية، والمراد بها السفن. "المقسمات": المراد الملائكة التي تقسم الأرزاق بواسطتها التي ينتهي إليه التقسيم. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٢/ ٤٧٨، مادة (قسم)، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٧٤– ٣٧٥، الأقسام للسبحاني، ص٩٢–٩٣.
(٨) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٧٥، الأقسام للسبحاني، ص ٩٣.

إذ ذكرت مثلا مما يدبر به الامر في البر وهو الذاريات ذروا، وأنموذجا مما يدبر به الامر في البحر وهو الجاريات يسرا، وأنموذجا مما يدبر به الامر في الجو وهو الحاملات وقرا، وتمم الجميع بالملائكة الذين هم وسائط التدبير، وهم المقسمات أمرا. فالآيات في معنى أن يقال: أقسم بعامة الأسباب التي يتمم بها أمر التدبير في العالم ان كذا كذا"،[١] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين ومنهم السبحاني،[٢] إذ إنما ذهبوا اليه هو تفسير ما روي عن الأمام أمير المؤمنين علي(عليه السلام) في تفسير الآية عندما سأله أبن الكواء عن هذه الأقسام الأربعة وهو يخطب على المنبر فقال: قال: ما الذاريات ذروا ؟ قال(عليه السلام): ((الرياح. قال: فالحاملات وقرا؟ قال(عليه السلام): السحاب. قال: فالجاريات يسرا ؟ قال: السفن. قال: فالمقسمات أمرا ؟ قال: الملائكة)).[٣] وذهب الرازي الى: "إن هذه صفات أربع للرياح، فالذاريات هي الرياح التي تنشئ السحاب أولاً، والحاملات هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار المياه التي إذا سحت جرت السيول العظيمة، وهي أوقار أثقال من جبال، والجاريات هي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها، والمقسمات هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار"،[٤] وذهب ابن قيم الجوزية الى: أنها "النجوم التي من فوق الغمام ويسرا أي مسخرة مذللة منقادة، هو أحسن في الترتيب والانتقال من السافل إلى العالي فإنه بدأ بالرياح وفوقها السحاب وفوقه النجوم وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذي أمرت به بين خلقه".[٥]

وترى الباحثة: إن تلك المعاني الواردة في تفسيرالآيات جميعها جامعة وكلية فيمكن أن تحمل المعاني آنفة الذكر كلها، إلا أن التفسير الأساس هو التفسير الأول.

وأما المقسم عليه: هو قوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ قال فيه السبحاني: " أي إنما توعدون من الثواب والعقاب والجنة والنار لصادق، أي صدق لابد من كونه، وان الدين أي الجزاء لواقع والحساب لكائن يوم القيامة"،[٦] وهو ما ذهب اليه الطوسي وآخرون إذ قال: "إن

---

(١) الميزان للطباطبائي، ٣٦٥/١٨ وينظر: مفاهيم القرآن، ٣٧٥/٩– ٣٧٦، الأقسام للسبحاني، ص٩٣– ٩٤.

(٢) ينظر: مجاز القرآن للتميمي: ٢/ ٢٢٥، تفسير القرآن للصنعاني: ٣/ ٢٤١، جامع البيان للطبري: ٢٦/ ٢٤١، التبيان للطوسي: ٩ / ٣٧٨، فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٨٢، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٧٥ – ٣٧٦، الأقسام للسبحاني، ص ٩٣ – ٩٤.

(٣) المستدرك للنيسابوري، ٢/ ٤٦٧، (تفسير سورة الذاريات)، فتح الباري لابن حجر، ٨/ ٤٥٩، (قوله سورة والذاريات)، بحار الأنوار للمجلسي، ١٢١/١٠، كتاب (الأحتجاجات...)، باب (ما تفضل صلوات الله عليه به على الناس...).

(٤) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨/ ١٩٥ وينظر: أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم لسامي عطا: ص٣٤– ٣٥.

(٥) التبيان لأبن قيم، ص ١٧٥.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٧٦، الأقسام للسبحاني، ص ٩٤.

الذي وعدتم به من الثواب والعقاب والجنة والنار وعد صدق لابد من كونه وإن الجزاء لكائن يوم القيامة".[١] وذهب الطبري وآخرون الى عكس ذلك: "إن الذي توعدون أيها الناس من قيام الساعة، وبعث الموتى من قبورهم لصادق، لكائن حق يقين، وإن الحساب والثواب والعقاب لواجب، والله مجاز عباده بأعمالهم"،[٢] وهذا ما ذهب اليه الطباطبائي وذكره السبحاني كرآي مضاد لرآيه إذ قال: " وعلى ذلك ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ جواب القسم، وقوله: ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ معطوف عليه بمنزلة التفسير، والمعنى أقسم بكذا وكذا، ان الذي توعدونه – وهو الذي يعدهم القرآن أو النبي (ﷺ) بما أنزل إليه من يوم البعث وان الله سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر وان الجزاء لواقع".[٣]

وتذهب الباحثة: الى ما ذهب اليه الطبري وآخرون وهو خلاف ما ذهب اليه السبحاني وذلك لان"الحساب يستوفي والعقاب يوفى".[٤]

وأما وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فقال فيه السبحاني: "إنه سبحانه أقسم بعامة الأسباب التي يتم بها أمر التدبير في العالم، لغاية أن هذا التدبير ليس سدى وبلا غاية، والغاية هي يوم الدين والجزاء وعود الانسان إلى المعاد، إذ لولا الغاية لأصبح تدبير الامر في البر والبحر والجو وتدبير الملائكة شيئا عبثا بلا غاية، فهو سبحانه يحاول أن يبين أنما يقوم به من أمر التدبير لغاية البعث وانتقال الانسان من هذه الدار إلى دار أخرى هو أكمل"،[٥] "أقسم لإثبات الوحدانية إذ أقسم بالمتحركات، وذلك لأن الحشر فيه جمع وتفريق، وذلك بالحركة أليق".[٦] "ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها كونها أمورا بديعة مخالفة لمقتضى العادة، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود به"،[٧] يوم القيامة واقع كما أن هذه المدلولات واقعة ومؤثرة في حياة البشر،[٨] "هذا المشهد من الربط بين الدنيا والآخرة والذي يأخذ الإنسان من الدنيا الى الآخرة، من الحياة الى البعث بعد الموت مباشرة، ثم الحساب، تماما كما تأخذ

---

(١) التبيان للطوسي، ٩/ ٣٨٠ وينظر: حقائق التفسير للسلمي: ٢ / ٢٧٣، مجمع البيان للطبرسي: ٩ / ٢٥٤.

(٢) جامع البيان للطبري، ٢٦ / ٢٤٢ وينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٣٢٤، تفسير القرآن للسمعاني: ٥ / ٢٥١، التفسير الكاشف لمغنية: ١٤١/٧، تفسير حدائق الروح لمحمد الشافعي: ٤٩٧/٢٧، القسم لعبد العاطي: ص١٢٢.

(٣) الميزان للطباطبائي، ١٨ / ٢٦٦ وينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٧٦، الأقسام للسبحاني: ص ٩٤.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨ / ١٩٧.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٧٧، الأقسام للسبحاني: ص ٩٥ وينظر: القسم لعبد العاطي: ص ١٣٤ – ١٣٥.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨ / ١٩٥ وينظر: القسم في القرآن الكريم لحسين نصار: ص ١١٠.

(٧) فتح القدير للشوكاني، ٥ / ٨٣.

(٨) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب: ٦ / ٣٧٩١.

الريح التراب وتنقله من مكان الى مكان، وكما تنقل السحاب من مكان الى مكان، وكذا كما تحرك السفن من مكان الى مكان، ثم يأتي دور الملائكة الى تقسيم المطر على العباد وكأن السورة ألقت بمشهد البدء والختام دفعة واحدة خاطفة".(١)

من هذا **تستنتج الباحثة:** إن الله تعالى أقسم بهذه الأشياء فأكسبها عظمة وتذكيرا بنعمة الله فيما أوجد فيها، وفي الواقع أقسم بقدرته وحكمته في تصريفها والتي لا تقل عن قدرته وحكمته على البعث والجزاء الذي يكذبه المنكرون لهما.

ختم السبحاني تفسير هذا القسم ببيان شيئ عن عظمة المقسم به وهو الرياح والسحاب والتي كشف عنها العلم الحديث.(٢)

ثالثاً: قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا * فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا * وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا * فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾.(٣)

أستهل السبحاني توضيح أركان القسم لآيات القسم المذكورة قائلاً: "حلف سبحانه بأوصاف الملائكة في هذه الآيات وعبر عنها بـ: المرسلات، فالعاصفات، والناشرات، فالفارقات، فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا. أن وحدة السياق تبعثنا إلى تفسيرها بأمر واحد تنطبق عليه هذه الصفات، فنقول:

١. ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ أي أقسم بالجماعات المرسلات من ملائكة الوحي، يقول سبحانه: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾(٤)"،(٥) وهذا ما ذهب اليه عدد من المفسرين،(٦) وذهب أغلب المفسرين الى: أنها الرياح المرسلة المتتابعة،(٧) وذهب بعضهم الى جواز المعنيين(٨): "جاز أن تكون المرسلات الرياح ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات وجاز أن تكون الملائكة وجاز أن يعم النوعين لوقوع الارسال عرفا عليهما".(٩)

---

(١) القسم لعبد العاطي، ص ١٣٧ – ١٣٨.

(٢) للأطلاع مراجعة مفاهيم القرآن، ٩ / ٣٧٧ – ٣٧٨، الأقسام للسبحاني، ص ٩٤ – ٩٥.

(٣) سورة المرسلات، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧.

(٤) سورة النحل، من الآية / ٢.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤١٠ – ٤١١، الأقسام للسبحاني، ص ١٢٨ – ١٢٩.

(٦) ينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ١٠ / ٣٣٩٢، بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٥٠٩، مدارك التنزيل للنسفي: ٤/ ٣٠٦، القسم لعبد العاطي: ص ١١١.

(٧) ينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥/ ٧٧، الكشف والبيان للثعلبي: ١٠/ ١٠٨، الوجيز للواحدي: ١١٦١/٢.

(٨) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٦/ ١٢٥، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١٩ / ١٥٤، التبيان لأبن قيم: ص ٩٠.

(٩) التبيان لأبن قيم، ص ٩٠.

٢. ﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴾ "الريح العاصفة بمعنى سرعة هبوبها، والمراد أقسم بالملائكة الذين يرسلون متتابعين فيسرعون في سيرهم كالرياح العاصفة"،[١] وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٢] وفسرها أغلب المفسرين: إنها الرياح الشديدة الهبوب.[٣]

٣. ﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴾ "قسم آخر، والمراد نشر الصحيفة والكتاب، والمعنى أقسم بالملائكة الناشرين للصحف المكتوب عليها الوحي للنبي ليتلقاه"،[٤] وفسرها أغلب المفسرين: إنها الرياح التي تنشر السحاب نشرا للغيث كما تلقحه للمطر.[٥]

٤. ﴿ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴾ المراد به الملائكة الذين يفرقون بين الحق والباطل والحلال والحرام، وذلك لأجل حمل الوحي المتكفل ببيان الحق والباطل، وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين.[٦] وفسرها بعضهم الرياح التي تفرق بين السحاب فتبدده،[٧] ومنهم من ذهب الى: أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام.[٨]

ويبدو للباحثة: إن ماورد سابقاً من الأراء وهو المشهور وذهب اليه أغلب المفسرين الا أن هذا لايمنع أن يكون قد أقسم ربنا جل ثناؤه بالفارقات، وهي الفاصلات بين الحق والباطل، ولم يخصص بذلك منهن بعضا دون بعض، فذلك قسم بكل فارقة بين الحق والباطل، والحلال والحرام، مرسلاً (ملك، انس، جان، رياح، صيحة،.....) كان أو قرآنا. ولكن في هذه الآية خصصت بالملائكة ويؤيده عطف الملقيات ذكرا عليها.

٥. ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ المراد به الملائكة، تلقي الذكر على الأنبياء وتلقيه الأنبياء إلى الأمم. وعلى ذلك فالمراد بالذكر هو القرآن يقرأونه على النبي، أو مطلق الوحي النازل على الأنبياء

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤١١، الأقسام للسبحاني، ص ١٢٩.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي:٢٦٤/٣٠، أنوار التنزيل للبيضاوي:٤٣٢/٥، روح المعاني للآلوسي: ١٦٩/٢٩.

(٣) ينظر: التبيان للطوسي: ١٠ / ٢٢٣، مجمع البيان للطبرسي: ١٠ / ٢٢٨، تنوير المقباس للفيروزآبادي: ص ٤٩٧، تفسير غريب القرآن للطريحي: ص ٤٠٠، التفسير الوسيط للزحيلي: ٣ / ٢٧٩٨.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤١١، الأقسام للسبحاني، ص ١٢٩ وينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٤/ ٣٠٦، الكشاف للزمخشري: ٤ / ٢٠٢، زبدة التفاسير لفتح الله: ٧/ ٢٩١.

(٥) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ١٠٨، التبيان للطوسي: ١٠ / ٢٢٣، معالم التنزيل للبغوي: ٤/ ٤٣٢، المنتخب والنكت لابن أدريس: ٢/ ٣٥٢، القسم لعبد العاطي: ص ١١١.

(٦) ينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥/ ٧٧، الكشف والبيان للثعلبي: ١٠/ ١٠٨، تفسير القرآن للسمعاني: ٦، ١٢٥، التبيان للطوسي: ١٠ / ٢٢٤، مجـــمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٢٢٩، التبيان لأبن قيم: ص ٨٩، القسم لعبد العاطي: ص ١١١، مفاهيم القرآن: ٩/ ٤١١، الأقسام للسبحاني: ص ١٢٩.

(٧) ينظر: الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١٩ / ١٥٥، تيسير الكريم للسعدي: ص ٩٠٣.

(٨) ينظر: تفسير الجلالين للسيوطي: ص ٧٨٤، فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٣٥٦.

المتلو عليهم، وهذا ما أجمع عليه المفسرون. [١]

أضاف السبحاني قائلاً: "إن الغاية من إلقاء الوحي أحد الامرين إما الاعذار أو الانذار، والاعذار الاتيان بما يصير به معذورا، والمعنى انه يلقون الذكر لتكون عذرا لعباده المؤمنين بالذكر وتخصيصا لغيرهم. وبعبارة أخرى يلقون الذكر ليكون إتماما للحجة على المكذبين وتخويفا لغيرهم، هذا هو الظاهر من الآيات"،[٢] "عذارا من الله إلى خلقه، وإنذارا منه لهم"،[٣] "يعتذر الله به إلى عباده في العقاب أنه لم يكن الا على وجه الحكمة. والنذر والانذار وهو الاعلام بموضع المخافة ليتقى".[٤]

وأما المقسم عليه فهو قوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ إذ قال فيه السبحاني: "الخطاب لعامة البشر، والمراد إنما توعدون يوم القيامة بما فيه من العقاب والثواب أمر قطعي وواقع وإنما عبر بواقع دون كائن، لأنه أبلغ في التحقق"،[٥] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٦]: "إن الذي توعدون أيها الناس من الأمور لواقع، وهو كائن لا محالة، يعني بذلك يوم القيامة، وما ذكر الله أنه أعد لخلقه يومئذ من الثواب والعذاب".[٧] وذهب بعضهم الى أن أمر الساعة والبعث لواقع،[٨] وهذا **ماتؤيده الباحثة** وذلك لان الآيات التي تعقبها تذكر علامات وقوع هذا اليوم وأولها قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾[٩].

أما الصلة بين المقسم به والمقسم، فقال فيها السبحاني: "إنها واضحة؛ لان أهم ما تحمله الملائكة وتلقيه هو الدعوة إلى الايمان بالبعث والنشور، ويؤيد ذلك قوله: ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ أي إتماما للحجة على الكفار وتخويفا للمؤمنين كل ذلك يدل على معاد قطعي الوقوع يحتج به على الكافر ويجزي به المؤمن"،[١٠] "من لطيف صنعة البيان في هذه الآيات الست انها مع ما

---

[١] ينظر: التبيان للطوسي: ١٠ / ٢٢٤، معالم التنزيل للبغوي: ٤ / ٤٣٣، زاد المسير لابن الجوزي: ٨ / ١٥٥، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١٩ / ١٥٦، القرآن العظيم لابن كثير: ٤ / ٤٨٩، القسم لعبد العاطي: ص ١١١، مفاهيم القرآن، ٩ / ٤١١، الأقسام للسبحاني، ص ١٢٩.

[٢] مفاهيم القرآن، ٩ / ٤١١– ٤١٢، الأقسام للسبحاني، ص ١٢٩– ١٣٠.

[٣] جامع البيان للطبري، ٢٩ / ٢٨٨ وينظر: مجمع البيان للطبرسي، ١٠ / ٢٢.

[٤] التبيان للطوسي، ١٠ / ٢٢٤.

[٥] مفاهيم القرآن، ٩ / ٤١٢، الأقسام للسبحاني، ص ١٣٠.

[٦] ينظر: جامع البيان للطبري، ٢٩ / ٢٨٩،القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥/ ٧٧، بحر العلوم للسمرقندي: ٥٠٩/٣، معالم التنزيل للبغوي: ٤٣٣/٤، مفاهيم القرآن، ٩ / ٤١٢.

[٧] جامع البيان للطبري، ٢٩ / ٢٨٩.

[٨] ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٥٠٩، معالم التنزيل للبغوي: ٤ / ٤٣٣.

[٩] سورة المرسلات، الآية / ٨.

[١٠] مفاهيم القرآن، ٩ / ٤١٢، الأقسام للسبحاني، ص ١٣٠.

تتضمن الأقسام لتأكيد الخبر الذي في الجواب تتضمن الحجة على مضمون الجواب وهو وقوع الجزاء الموعود، فان التدبير الربوبي الذي يشير إليه القسم، أعني: إرسال المرسلات العاصفات ونشرها الصحف وفرقها وإلقاءها الذكر للنبي (ﷺ) تدبير لا يتم إلا مع وجود التكليف الإلهي والتكليف لا يتم إلا مع تحتم وجود يوم معه للجزاء يجازي فيه العاصي والمطيع من المكلفين. فالذي أقسم تعالى به من التدبير لتأكيد وقوع الجزاء الموعود هو بعينه حجة على وقوعه كأنه قيل: أقسم بهذه الحجة ان مدلولها واقع"،[١] "إن هذه الأيمان واردة لموضوع الآية السابعة، أي أحقية البعث والمعاد وواقعيته، ونعلم أن تغيرا عظيما يحصل في الدنيا عند البعث إذ العواصف الشديدة والزلازل والحوادث المهيبة من جهة، ثم تشكيل محكمة العدل الإلهية من جهة أخرى وعندها تنشر الملائكة صحائف الأعمال وتفصل بين المؤمنين والكافرين، وتلقي بالحكم الإلهي في هذا المجال. وطبقا لهذا التفسير سوف يتناسب القسم مع المقسم له".[٢]

رابعاً: قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا * وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا * وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا * فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا * فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا * يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾.[٣]

بدأ السبحاني توضيح أركان القسم للآيات المذكورة قائلاً: "حلف سبحانه في هذه السورة بطوائف وصفها بـ: النازعات، الناشطات، السابحات، السابقات، المدبرات. وبعد التعريف اللغوي لبعض مفردات[٤] آياتها قال: "هذه هي معاني الألفاظ، وأما مصاديقها فيحتمل أن تكون هي الملائكة، فهي على طوائف بين نازع وناشط وسابح وسابق ومدبر"،[٥] وهذا ما ذهب اليه النسفي وآخرون إذ قال: أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها أي تخرجها، وبالطوائف التي تسبح في مضيها، أي تسرع فتسبق إلى

---

(١) الميزان للطباطبائي، ٢٠ / ١٤٧ وينظر: مفاهيم القرآن، ٩ / ٤١٢، الأقسام للسبحاني، ص ١٣٠.

(٢) الأمثل للشيرازي، ١٩ / ٢٨٩.

(٣) سورة النازعات، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧.

(٤) "النازعات": من النـــــزع، يقال: نزع الشئ جذبه من مقره، كنـــــزع القوس عن كنانته. ينظر: الصحاح للـــجوهري: ٣ / ١٢٨٩، مادة (نزع). "الناشطات": من النشط وهو النزع أيضا، ونشط الوحش من بلد إلى بلد إذا خرج. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٥ / ٤٢٦، مادة (نشط). "السابحات": من السبح السريع في الماء وفي الهواء، ويقال: سبح سبحا وسباحة، واستعير لمر النجوم في الفلك ولجري الفرس. ينظر: العين للفراهيدي: ٣/ ١٥٢، مادة (سبح). "السابقات": من السبق يدل على التقديم. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٣ / ١٢٩، مادة (سبق). "لمدبرات": من التدبير. ينظر: تاج العروس للزبيدي: ٦٠ / ٣٩٠، مادة (تدبير). "غرقا": اسم أقيم مقام المصدر، وهو الاغراق، يقال: غرق في النزع إذا استوفى في حد القوس وبالغ فيه. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٠ / ٢٨٤، مادة (غرق)، مفاهيم القرآن: ٩ / ٤١٣ –٤١٤، الأقسام للسبحاني: ص ١٣١ – ١٣٢.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤١٤، الأقسام للسبحاني، ص ١٣٢.

ما أمروا به فتدبر أمرا من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم،[١] وهو ما تؤيده الباحثة، ومنهم من ذهب ان الصفات لموصوفات مختلفة (ملائكة، نجوم، خيل الغزاة،...)،[٢] ومنهم من خصها بملائكة الموت[٣]: الملائكة الذين ينزعون الأرواح من الأجساد هم الذين ينشطون الأرواح ويخرجونها، ولكن يمكن التفريق بينهما، بأن الطائفة الأولى هم الموكلون على نزع أرواح الكفار من أجسادهم بقسوة وشدة بقرينة قوله غرقا، وقد عرفت معناه، وأما الناشطات هم الموكلون بنزع أرواح المؤمنين برفق وسهولة. والسابحات هم الملائكة التي تقبض الأرواح فتسرع بروح المؤمن إلى الجنة، وبروح الكافر إلى النار، والسبح الاسراع في الحركة. والسابقات وهم ملائكة تسبق بروح المؤمن إلى الجنة وبروح الكافر إلى النار. فالمدبرات أمرا المراد مطلق الملائكة المدبرين للأمور، ويمكن أن يكون قسم من الملائكة لكل وظيفة يقوم بها، فعزرائيل موكل بقبض الأرواح وغيره موكل بشئ من التدبير. ثم إن الأشد، انطباقا على الملائكة، هو قوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، وهو قرينة على أن المراد من الأخيرين هم الملائكة.[٤]

أما المقسم عليه قال السبحاني فيه: "محذوف وهو لتبعثن يدل عليه مابعده من ذكر القيامة"،[٥] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٦]: "وجواب القسم محذوف، فكأنه سبحانه أقسم فقال: وهذه الأشياء لتبعثن، ولتحاسبن"،[٧] "وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسما عليه بعينه وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظا ولعل هذا مراد من قال أنه محذوف للعلم به لكن هذا الوجه ألطف مسلكا فإن المقسم به إذا كان دالا على المقسم عليه مستلزما استغنى عن ذكره بذكره وهذا غير كونه محذوفا

---

(١) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٣١٣/٤، الكشاف للزمخشري: ٤/ ٢١٢، مفاهيم القرآن، ٤١٢/٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٣٠.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري:٣٠/ ٣٦، التبيان للطوسي:٢٥١/١٠، التحرير والتنوير لابن عاشور: ٦١/٣٠.

(٣) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٥١٩/٣، الكشف والبيان للثعلبي: ١٢٢/١٠، معالم التنزيل للبغوي: ٤/ ٤٤١ – ٤٤٢.

(٤) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ١٢٢/١٠– ١٢٤، تفسير القرآن للسمعاني: ٦ /١٤٥ – ١٤٦، معالم التنزيل للبغوي: ٤ /٤٤١ – ٤٤٢.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤١٤، الأقسام للسبحاني، ص ١٣٢.

(٦) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ١٠/ ١٢٤، تفسير القرآن للسمعاني: ٦/ ١٤٧، معالم التنزيل للبغوي: ٤/ ٤٤٢، زاد المسير لابن الجوزي: ٨/ ١٧٢، القسم لعبد العاطي: ص ١٢٥.

(٧) التبيان للطوسي، ٢٥٤/١٠ وينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ١٢٤/١٠، تفسير القرآن للسمعاني: ١٤٧/٦، معالم التنزيل للبغوي: ٤/ ٤٤٢، زاد المسير لابن الجوزي: ٨ / ١٧٢.

لدلالة ما بعده عليه فتأمله"،[١] "بدليل إنكارهم للبعث في قولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾[٢]".[٣]

وأما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقال السبحاني فيه: "إن الملائكة هم وسائط التدبير وخلق العالم وتدبيره لم يكن سدى ولا عبثا بل لغاية خاصة وهو عبارة عن بعث الناس ومحاسبتهم وجزائهم بما عملوا"،[٤] "فالذي أقسم تعالى به من التدبير لتأكيد وقوع الجزاء الموعود هو بعينه حجة على وقوعه كأنه قال: أقسم بهذه الحجة أن مدلولها واقع".[٥]

المطلب الثاني: القسم بالظواهر الطبيعية وبأمكنة

أقسم الله سبحانه بالظواهر الطبيعية وبالأمكان وبصيغة معينة تستحق الدراسة فأعطى لذلك المقسوم به عظمة وقداسة يستدل بها على المراد من القسم لشئ عظيم إذ أشار السبحاني لهذه الأقسام حسب ورودها في السور وهي كالآتي:

أولاً: القسم بالجبل في سورتي (الطور، التين).

١. قال تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ * وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ * وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾.[٦]

لم يكتفِ السبحاني عند تفسيره هذه الآيات بالجانب اللغوي[٧] وبيان أركان القسم بل أنطلق من ذلك الى بيان خاصية القرآن الكريم وتفرده عن الكتب الآخرى بقوله : "الطور هو الجبل المعروف الذي كلم الله فيه موسى (عليه السلام)، ولعله هو جبل طور سينين، قال سبحانه:

---

(١) التبيان لأبن قيم، ص ٨٧.
(٢) سورة النازعات، من الآية / ١٠.
(٣) البرهان للزركشي، ٣ / ١٩٢.
(٤) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤١٧، الأقسام للسبحاني، ص ١٣٥.
(٥) الميزان للطباطبائي، ٢٠ / ١٤٧ وينظر: الأمثل للشيرازي: ١٩ / ٢٨٧.
(٦) سورة الطور، الآيات /١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨.
(٧) "الطور": الجبل. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٤ / ٥٠٨، مادة (طور). "مسطور": من السطر وهو الصف من الكتابة، يقال: سطر فلان كذا، أي كتب سطرا سطرا. ينظر: تاج العروس للزبيدي: ٦/ ٥٢٠، مادة (سطر). "رق": مايكتب فيه شبه الكاغد. ينظر: العين للخليل الفراهيدي: ٥/ ٢٤، مادة (رق). "منشور": من النشر، وهو البسط والتفريق. ينظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي: ٢/ ١٤٢، مادة (نشر). "المسجور": من السجر وهي تهييج النار. ينظر: العين للفراهيدي: ٦/٥٠، مادة (سجر)، مفاهيم القرآن: ٩/٣٧٩– ٣٨٠، الأقسام للسبحاني: ص٩٧ –٩٨.

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾.[١] وهذه الآيات تثبت ان المقسم به جبل معين، ومع الوصف يحتمل أن يراد مطلق الجبل لما أودع فيه من أنواع نعمه، قال تعالى:﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ﴾[٢]،[٣] وهو ما ذهب اليه الطبرسي إذ قال: " أقسم الله سبحانه بالجبل الذي كلم عليه موسى (عليه السلام) بالأرض المقدسة، هو الجبل أقسم به لما أودع فيه من أنواع نعمه".[٤] ثم قال السبحاني: "والمراد من كتاب مسطور: هو القرآن الكريم الذي كان يكتب في الورق المأخوذ من الجلد"،[٥] "هو القرآن ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب".[٦] ثم أضاف السبحاني قائلاً: "وأما وصفه بكونه منشورا مع أن عظمة الكتاب بلفظه ومعناه لا بخطه وورقه، هو الإشارة إلى الوضوح، لان الكتاب المطوي لا يعلم ما فيه، فقال هو في رق منشور وليس كالكتب المطوية، ومع ذلك يحتمل أن يراد منه صحائف الأعمال، إذ وصفه سبحانه بكونه منشورا، وقال:﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾.[٧] ويحتمل أن يراد منه اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه ما كان وما يكون وما هو كائن تقرأه ملائكة السماء. وهناك احتمال رابع، وهو ان المراد هو التوراة، وكانت تكتب بالرق وتنشر للقراءة، ويؤيده اقترانه بالحلف بالطور"،[٨] وهذه الأحتمالات ذكرها الزمخشري وآخرون إذ قال: "الكتاب الذي يكتب فيه الأعمال، قال الله تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ وقيل هو ما كتبه الله لموسى (عليه السلام) وهو يسمع صرير القلم، وقيل اللوح المحفوظ، وقيل القرآن".[٩] واما البيت المعمور فذهب فيه السبحاني الى ما ذهب اليه أغلب المفسرين إذ قال: "يحتمل أن يراد منه الكعبة المشرفة، فإنها أول بيت وضع للناس، ولم يزل معمورا منذ أن وضع إلى يومنا هذا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي

---

(١) سورة التين، الآية/٢، وللمزيد من الأطلاع ينظر: سورة مريم، من الآية / ٥٢، سورة طه، الآية / ١٢، سورة القصص، الآية /٣٠.

(٢) سورة فصلت، من الآية / ١٠.

(٣) مفاهيم القرآن،٣٨٠/٩، الأقسام للسبحاني، ص ٩٨ وينظر: جامع البيان للطبري: ٤٦٣/١، بحر العلوم للسمرقندي:٣٣٢/٣، الكشف والبيان للثعلبي:١٢٣/٩، التبيان للطوسي:٤٠١/٩، تفسير غريب القرآن للطريحي: ص ٢٥٨.

(٤) مجمع البيان للطبرسي، ٩ / ٢٧١.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩ / ٣٨٠، الأقسام للسبحاني، ص ٩٨.

(٦) مدارك التنزيل للنسفي، ٤ / ١٨٣.

(٧) سورة الإسراء، من الآية / ١٣.

(٨) مفاهيم القرآن، ٩ / ٣٨٠ – ٣٨١، الأقسام للسبحاني، ص ٩٨ – ٩٩.

(٩) الكشاف للزمخشري، ٤/ شرح ص ٢٢ وينظر: ، المحرر الوجيز لابن عطية: ٥ / ١٨٥، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٨ / ٢٣٩، تفسير غريب القرآن للطريحي: ص ١٢١، الميزان للطباطبائي: ١٩ / ٦.

بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾[١] ولعل وصفه بالعمارة لكونه معمورا بالحجاج الطائفين به والعاكفين حوله. وإذ فسر في الروايات ببيت في السماء إزاء الكعبة تزوره الملائكة، فوصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به"،[٢] وأضاف الرازي وجها ثالثاً فضلا عن الآخرين إذ قال: "البيت المعمور اللام فيه لتعريف الجنس كأنه يقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة".[٣] قال أجمع المفسرين ومنهم السبحاني أن السقف المرفوع: المراد منه هو السماء، قال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[٤] وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[٥] قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[٦]،[٧] أما البحر المسجور قال فيه السبحاني: "ولعل المراد هو البحر المحيط بالأرض الذي سيلتهب قبل يوم القيامة ثم ينفجر، قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾،[٨] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾[٩]"،[١٠] وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين.[١١] وذهب آخرون الى أنه: البحر المملوء بالماء[١٢] أو بالنار أي أضرمت نارا.[١٣] أضاف السبحاني قائلاً: "إن هذه الأقسام الثلاثة الأولى يجمعها شئ واحد وهو صلتها بالوحي وخصوصياته، إذ إن الطور هو محل نزول الوحي، والكتاب المسطور هو القرآن أو التوراة، والبيت المعمور هو الكعبة أو البيت الذي يطوف به الملائكة الذين هم رسل الله. وأما الاثنان الآخران، أعني: السقف المرفوع والبحر المسجور، فهما من الآيات الكونية ومن دلائل توحيده

---

(١) سورة آل عمران، الآية / ٩٦.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩ / ٣٨١، الأقسام للسبحاني، ص ٩٩ وينظر: التبيان للطوسي: ٩ / ٤٠٢، الكشف والبيان للثعلبي: ٩ / ١٢٤، تفسير القرآن للسمعاني: ٥ / ٢٦٧، زاد المسير لابن الجوزي: ٧ / ٢١٥.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨ / ٢٣٩.

(٤) سورة الرحمن، الآية / ٧.

(٥) سورة الرعد، الآية / ٢.

(٦) سورة الأنبياء، الآية / ٣٢.

(٧) ينظر: تفسير القرآن للصنعاني: ٣ / ٢٤٦، تفسير القمي للقمي: ٢ / ٢٣١، التبيان للطوسي: ٤٠١/٩، مجمع البيان للطبرسي: ٩/ ٢٧٢، تفسير نور الثقلين للحويزي: ٥ / ١٣٧، مفاهيم القرآن، ٩ / ٣٨١، الأقسام للسبحاني، ص٩٩.

(٨) سورة التكوير، الآية / ٦.

(٩) سورة الأنفطار، الآية / ٣.

(١٠) مفاهيم القرآن، ٩ /٣٨١ – ٣٨٢، الأقسام للسبحاني، ص ٩٩ – ١٠٠.

(١١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٢٦٨/٥، معالم التنزيل للبغوي: ٢٣٧/٤، مفاتيح الغيب للرازي: ٢٣٩/٢٨، التبيان لأبن قيم: ص١٦٩.

(١٢) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٧ / ٢٧.

(١٣) ينظر: معاني القرآن للنحاس:٢٣٤/٦، بحر العلوم للسمرقندي:٥٢٨/٣، البحر المحيط لأبي حيان: ١٤٣/٨.

ووجوده وصفاته"،[١] "أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات"،[٢] "وعلى بديع صنعته".[٣] وذهب الرازي إلى: أن الأقسام الثلاثة التي بينها صلة خاصة، هي الطور والبيت المعمور والبحر المسجور، وإنما جمعها في الحلف بها؛ "لأنها أماكن لثلاثة أنبياء ينفردون بها للخلوة بربهم والخلاص من الخلق والخطاب مع الله. أما الطور فانتقل إليه موسى، والبيت محمد (ﷺ)، والبحر المسجور يونس (عليه السلام)، وكل منه خاطب الله هناك، فقال موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾[٤] وقال أيضا: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾،[٥] واما نبينا محمد (ﷺ)، فقال: ((السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لا أحصي ثناء عليك كما أثنيت على نفسك))،[٦] وأما يونس فقال: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٧] فصارت الأماكن شريفة بهذه الأسباب وحلف الله تعالى بها. وأما ذكر الكتاب، فان الأنبياء كان لهم في هذه الأماكن مع الله تعالى كلام، والكلام في الكتاب واقترانه بالطور أدل دليل على ذلك، لان موسى (عليه السلام) كان له مكتوب ينزل عليه وهو بطور. وأما ذكر السقف المرفوع ومعه البيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد (ﷺ)".[٨]

وأما المقسم عليه فهو قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾،[٩] وهو ما أجمع عليه المفسرون ومنهم السبحاني:[١٠] هو جواب القسم. "أقسم الله بهذه الأشياء للتنبيه على ما فيها من عظيم القدرة، على أن تعذيب المشركين حق واقع لا محالة"،[١١] "أضافة العذاب لقوله:

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ /٣٨٢، الأقسام للسبحاني، ص ١٠٠.

(٢) تيسير الكريم للسعدي، ص ٨١٤.

(٣) الوسيط للطنطاوي، ١٤ / ٣٩.

(٤) سورة الأعراف، من الآية / ١٥٥.

(٥) سورة الأعراف، من الآية / ١٤٣.

(٦) صحيح مسلم، ٢/ ٥١، كتاب (الصلاة)، باب (فضل السجود....)، مسند أحمد، ١/ ١٥١، (مسند علي بن أبي طالب (عليه السلام)).

(٧) سورة الأنبياء، من الآية / ٨٧.

(٨) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨/ ٢٣٩– ٢٤٠ وينظر: اللباب في علوم الكتاب لأبن عادل: ١٨/ ١١٥– ١١٦، القسم لعبد العاطي: ص٢١٥، مفاهيم القرآن، ٣٨٢/٩ – ٣٨٣، الأقسام للسبحاني، ص ١٠٠– ١٠١.

(٩) سورة الطور، الآيتان / ٧، ٨.

(١٠) ينظر: التبيان للطوسي: ٩ / ٤٠٣، تفسير القرآن للسمعاني: ٥ / ٢٦٩، زبدة التفاسير لفتح الله: ٦ / ٤٨٥، الميزان للطباطبائي: ١٩ / ٧، مفاهيم القرآن، ٩ /٣٨٣، الأقسام للسبحاني، ص ١٠١.

(١١) مجمع البيان للطبرسي، ٩ / ٢٨٣.

﴿رَبِّكَ﴾ لطيفة، إذ هو المالك والناظر في مصلحة العبد فبالإضافة إلى الرب، وإضافته لكاف الخطاب أمان له (ﷺ)؛ وإن العذاب لواقع هو بمن كذبه، ولواقع على الشدة". [١]

وأما وجه الصلة بين المقسم به على تعدده والمقسم عليه، إذ قال فيه السبحاني: "إن المقسم عليه عبارة عن وقوع العذاب لا محالة وعدم القدرة على دفعه، فإذا ناسب أن يقسم بالكتاب أي القرآن والتوراة اللذين جاء فيهما أخبار القيامة وحتميتها. وناسب أن يحلف بمظاهر القدرة وآيات العظمة كالسقف المرفوع والبحر المسجور حتى يعلم أن صاحب هذه القدرة لقادر على تحقيق هذا الخبر، وهو عبارة عن أن عذابه لواقع وليس له دافع. وناسب أن يحلف بالطور، لان بعض المجرمين كانوا يتصورون ان الجبال الشاهقة ستدفع عنهم عذاب الله، إذ قال ابن نـــــوح (عليه السلام): ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.[٢] فحلف بالطور إيذانا إلى هذه الحقيقة، وهي أن هذه الجبال (العظيمة الصنع) أقل من أن تدفع العذاب أو تحول بين الله ووقوع المعاد. ويمكن أن يكون الحلف بالطور لأجل كونه آية من آيات الله الدالة على قدرته التي لا تحول بينه وبين عذابه شئ"،[٣] "وهذه الأقسام فيها من القوة والقدرة ما يتناسب مع قوة العذاب وقدرة الله عليه، وأن فيها من التناسب بين مفرداتها ومعانيها التي جعلتها تتآلف في الوصول الى الغرض من القسم، وهو وقوع العذاب ما يجعلها كالنسيج الواحد المتسق في ثوب قوى من الكلمات الدالة على المراد".[٤]

تخلـــــص الباحثة: إن القسم في أول سورة الطور جاء لأثبات البعث، وقدرة الله تعالى على وقوع العذاب على المكذبين ولأهمية هذه المسألة إلى درجة إذ إنالله أقسم في آيات مختلفة من القرآن بأنواع كثيرة من المقدسات لتتجلى عظمة ذلك اليوم وحتمية وقوعه.

٢. قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ * لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ * ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾.[٥]

تطرق السبحاني في أثناء تفسيره سورة التين الى أركان القسم الواردة في مطلع السورة قائلاً: "حلـــف سبـــحانه في ســـورة التين، **بأمور أربعة:** التين، الزيتون، طور سينين، البلد

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان، ٨ / ١٤٥ وينظر: روح المعاني للآلوسي: ٢٧ / ٢٩.
(٢) سورة هود، من الآية / ٤٣.
(٣) مفاهيم القرآن، ٩ /٣٨٣- ٣٨٤، الأقسام للسبحاني، ص ١٠١- ١٠٢.
(٤) القسم لعبد العاطي، ص ٢١٥.
(٥) سورة التين، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦.

الأمين". [١] أما **(التين والزيتون)**، فاختلف المفسرون فيه: فذهب أغلب المفسرون،[٢] ومنهم السبحاني الى أنهما: التين الذي يؤكل، الزيتون الذي يعصر، إذ أن: (التين والزيتون) فاكهتان معروفتان، حلف بهما سبحانه لما فيهما من فوائد جمة وخواص نافعة، فالتين فاكهة خالصة من شآئب التنغيص، وفيه أعظم عبرة لأنه عز اسمه جعلها على مقدار اللقمة، وهيأها على تلك الصورة إنعاما على عباده بها. وأما الزيتون فإنه يعتصر منه الزيت الذي يدور في أكثر الأطعمة، وهو إدام، والتين فاكهة فيها منافع جمة،[٣] وهو **ما تؤيده الباحثة**. وذهب بعضهم الى أنهما جبلان، وهذا ما أحتمله السبحاني إذ قال: "ربما يفسر التين بالجبل الذي عليه دمشق، والزيتون بالجبل الذي عليه بيت المقدس. وهذا التفسير وإن كان بعيدا عن ظاهر الآيات، ولكن الذي يدعمه هو القسم الثالث والرابع، أعني: الحلف بـ **(طور سينين والبلد الأمين)**، إذ على ذلك يكون بين الأمور الأربعة السالفة الذكر صلة واضحة، ولعل إطلاق اسم الفاكهتين على الجبلين لكونهما منبتيهما، والأقسام بهما، لأنهما مبعثي جم غفير من الأنبياء".[٤]

أما المراد من **طور سينين** فذهب أغلب المفسرين[٥] الى أنه: الجبل الذي كلم الله فيه موسى (عليه السلام)، إذ قال سبحانه: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾.[٦] وقال: ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾.[٧] وقال سبحانه مخاطبا موسى (عليه السلام): ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾،[٨] وهو ما ذهب اليه السبحاني.[٩]

أما **البلد الأمين**، ذهب أغلب المفسرين الى أنه مكة المكرمة ومنهم السبحاني إذ قال: "ذكر لفظ البلد في دعاء إبراهيم، إذ قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٩، الأقسام للسبحاني: ص ١٧٧.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري ٣٠ / ٣٠٣، الكشف والبيان للثعلبي: ٢٣٨/١٠، معالم التنزيل للبغوي: ٥٠٤/٤، مدارك التنزيل للنسفي: ٣٤٧/٤، مجمع البيان للطبرسي: ٣٩٣/١٠، التفسير الأصفى للفيض الكاشاني: ٢/ ١٤٥٧.

(٣) مفاهيم القرآن: ٩ / ٤٥٩، الأقسام للسبحاني: ص ١٧٧.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٦٠، الأقسام للسبحاني: ص ١٧٨ وينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥/ ١٤٤، الوجيز للواحدي: ٢ / ١٢١٣.

(٥) ينظر: بحر المحيط للسمرقندي: ٣ / ٥٧١، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥/ ١٤٥، تفسير القرآن للسمعاني: ٦ / ٢٥٣، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، لحسكانى عبيد الله بن احمد (ت ٤٠٥ هـ)، تحقيق: محمد باقر محمودى، وزارة الإرشاد فى ايران، طهران، ١٤١١ هـ : ٢ / ٤٥٤، التفسير العظيم لعبد السلام: ٣ / ٤٦٦.

(٦) سورة طه، الآية / ١٢.

(٧) سورة النازعات، الآية / ١٦.

(٨) سورة الأعراف، من الآية / ١٤٣.

(٩) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٦٠، الأقسام للسبحاني: ص ١٧٨.

مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾.[١] وقال أيضا: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾.[٢] وأمر سبحانه نبيه الخاتم، أن يقول: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.[٣] وجاء ذكر البلد في بعض الآيات كناية، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.[٤] والمراد من قوله: ﴿ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ هو موطنه الذي نشأ فيه. يعني مكة ظاهرا عليها، وسميت مكة معادا لعوده إليها. وذكر أيضا في آية أخرى بوصفه وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾[٥]".[٦] وأختلفوا في معنى الأمين، فذهب أغلب المفسرين الى أنه الأمن التشريعي ومنهم السبحاني إذ قال: "وصف سبحانه البلد بالأمن وأصل الامن طمأنينة النفس وزوال الخوف، و جعله وصفا في بعض الآيات للحرم، قال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.[٧] وفي آية أخرى يقول: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾.[٨] والمراد من هذا الامن هو الامن التشريعي، بمعنى أنه سبحانه حرم فيه القتل والحرب حتى قطع الأشجار والنباتات إلا بعض الأنواع مما تحتاج إليه الناس، والذي يوضح أن المراد من الامن هو الامن التشريعي لا التكويني قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.[٩] فالآية الأولى تحكي عن تشريع خاص، وهو أن الكعبة أول بيت وضعت لعبادة الناس، ويدل على ذلك أن فيه مقام إبراهيم، و أن الآية الثانية تبين تشريعا آخر، وهو وجوب حج البيت لمن استطاع إليه، وبين هذين التشريعين جاء قوله: ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾، وهذا دليل على أن

---

(١) سورة البقرة، من الآية / ١٢٦.
(٢) سورة أبراهيم، من الآية / ٣٥.
(٣) سورة النمل، الآية / ٩١.
(٤) سورة القصص، الآية / ٨٥.
(٥) سورة العنكبوت، الآية / ٦٧.
(٦) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٦١ – ٤٦٢، الأقسام للسبحاني: ص ١٧٩ – ١٨٠.
(٧) سورة القصص، من الآية / ٥٧.
(٨) سورة العنكبوت، الآية / ٦٧.
(٩) سورة آل عمران، الآيتان / ٩٦، ٩٧.

المراد من الامن هو الامن التشريعي لا التكويني، ولذلك كان الطغاة يسلبون الامن عن هذا البلد بين آونة وأخرى. ويشير إلى الامن بقوله سبحانه: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾.[١] وصف البيت بالحرام، إذ حرم في مكانه القتال، وجعل الناس فيه في أمن من حيث دمائهم وأعراضهم وأموالهم. فهذه الآيات تشير إلى مكانة البلد الذي احتضن البيت الحرام، ذلك المكان المقدس الذي حاز على أهمية بالغة عند المسلمين على اختلاف نحلهم، فإليه يوجه الناس وجوههم في صلواتهم وفي ذبائحهم وعند احتضار أمواتهم. وفضلا عن ذلك فإنه يعد ملتقى عباديا وسياسيا لحشود كبيرة من المسلمين، وما يترتب عليه من نتائج بناءة على صعيد مد جسور الثقة بين النحل الاسلامية كافة. وبتبعه حاز البلد على مكانة مقدسة جعلته صالحا للقسم به"،[٢] وذهب الطبري وآخرون الى عكس ذلك اي أنه امان تكويني إذ قال: "وهذا البلد الآمن من أعدائه أن يحاربوا أهله، أو يغزوهم"،[٣] "والبلد مكة حماها الله. والأمين من أمن الرجل أمانة فهو أمين، وأمانته أنه يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه"،[٤] وذهب الرازي الى الأثنين التكويني والتشريعي وهو **ماتؤيده الباحثة** إذ قال: "**أولاً:** أن الله تعالى حفظه عن الفيل إذ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾.[٥] **وثانياً:** أنها تحفظ لك جميع الأشياء فمباح الدم عند الالتجاء إليها آمن".[٦]

وممكن للباحثة: إن تضيف الى النقطة الأولى دعاء أبراهيم(عليه السلام) بجعل هذا البلد آمناً والجعلية هنا من الله سبحانه.

أما المقسم عليه للأقسام الأربعة – أعني: التين، الزيتون، طور سينين، البلد الأمين، هو قوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾، ذهب المفسرون فيه الى قولين: **الأول:** إن المراد من خلق الانسان في أحسن تقويم هو جودة خلقه واستقامة وجوده

---

(١) سورة المائدة، من الآية / ٩٧.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٦٢، الأقسام للسبحاني: ص ١٨٠ وينظر: "بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٥٧١.

(٣) جامع البيان للطبري، ٣٠ / ٣٠٥ وينظر: حقائق التفسير للسلمي: ٢ / ٤٠٦، الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ١٢١٤، التبيان للطوسي: ١٠ / ٣٧٦، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٢٠ / ١١٣.

(٤) الكشاف للزمخشري، ٢٦٨/٤ وينظر أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥٠٧/٥، فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٤٦٥.

(٥) سورة الفيل، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤، ٥.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٣٢ / ١٠ وينظر: الميزان للطباطبائي: ٣٠ / ٣١٨، التعبير القرآني، لفاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، ط٤، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م: ص ٣٤١، القسم لعبد العاطي: ص ١٦٩.

من صباه إلى شبابه إلى كماله فيتمتع بكمال الصورة وجمال الهيئة وشدة القوة، فلم يزل على تلك الحال حتى يواجه بالنزول أي رده إلى الهرم والشيخوخة والكهولة فتأخذ قواه الظاهرة والباطنة بالضعف، وتنكس خلقته، قال سبحانه: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾،[١] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين،[٢] وهذا التفسير أعترض عليه السبحاني قائلاً: "لكن هذا التفسير لا يناسبه الاستثناء الوارد بعده قال سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع. فلو كان المراد من الآية ما جرت عليه سنة الله تعالى في خلق الانسان فهي سنة عامة تعم المؤمن والكافر والصالح والطالح، مع أنه يستثني المؤمن الصالح من تلك الضابطة".[٣] **الثاني:** الفطرة السليمة، وهذا ما ذهب اليه السبحاني وآخرون إذ قال: "الأولى تفسير الآيتين بالتقويم المعنوي، ورده إلى أسفل سافلين هو انحطاطه إلى الشقاء والخسران بأن يقال: إن التقويم جعل الشئ ذا قوام، وقوام الشئ ما يقوم به ويثبت، فالانسان بما هو إنسان صالح حسب الخلقة للعروج إلى الرفيق الأعلى، والفوز بحياة خالدة عند ربه سعيدة لا شقوة فيها، قال سبحانه: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾.[٤] فإذا آمن بما علم ومارس صالح الأعمال رفعه الله إليه، كما قال: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[٥] وقال عز اسمه: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾،[٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ارتفاع مقام الانسان وارتقائه بالايمان والعمل الصالح مقاما عاليا ذا عطاء من الله غير مجذوذ، وقد أشار في آخر هذه السورة إلى العطاء الدائم، بقوله: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾. وعلى ذلك يكون المراد من أسفل سافلين هو تردي الانسان إلى الشقوة والخسران"، وهو ما ذهب اليه الطباطبائي،[٧] "وتقويم الشئ تثقيفه، قال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وذلك إشارة إلى ما خص به الانسان من بين الحيوان من العقل والفهم

---

(١) سورة يس، الآية / ٦٨.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠/ ٣٠٨، بحر العلوم للسمرقندي: ٥٧١/٣، الكشف والبيان للثعلبي: ١٠/ ٢٤٠، التبيان للطوسي: ١٠/ ٣٧٦، زاد المسير لابن الجوزي: ٢٧٦/٨، البحر المحيط لأبي حيان: ٤٨٦/٨ التبيان لأبن قيم: ص ٢٩.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٦٤، الأقسام للسبحاني: ص ١٨٢.

(٤) سورة الشمس، الآيتان/ ٧، ٨.

(٥) سورة فاطر، من الآية/ ١٠.

(٦) سورة المجادلة، من الآية / ١١.

(٧) مفاهيم القرآن،٩/٤٦٤ – ٤٦٥، الأقسام للسبحاني: ص ١٨٢– ١٨٣ وينظر:الميزان للطباطبائي، ٢/ ٣١٩ – ٣٢٠.

وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل ما في هذا العالم"،[١] "أكد هذا الأستثناء أن المقصود بحسن التقويم ليس البنيان فقط، وإنما يعني الفطرة السليمة، والخصائص الروحية التي ترفع الذين آمنوا وعملوا الصالحات الى الدرجات العلى بأجر غير ممنون".[٢]

وترى الباحثة: إن الله سبحانه شمل الإنسان بلطفه وعنايته حين أوجده وأنشأه، فخلق جسمه في أبدع الصور والأشكال، وأودع في روحه من القوى والغرائز ما تسمو به على جميع المخلوقات ان شاء وأراد، أو تهوي به إلى الحضيض ان انحرف مع أهوائه ونزواته إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾،[٣] وإذا كان اللَّه سبحانه قد اعتنى بالإنسان هذه العناية الظاهرية والجوهرية المعنوية وأهلَّه إلى الرفعة والكمال فجدير بالإنسان أن يعتني بنفسه، ولا ينحرف بها عما خلقت له وعليه من الجمال والكمال.

وأما وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، قال فيه السبحاني: "فلو قلنا بأن المراد من التين الجبل الذي عليه دمشق، وبالزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس وهما مبعثا جم غفير من الأنبياء، فالصلة واضحة، لأن هذه الأراضي أراضي الوحي والنبوة إذ أوحى الله سبحانه إلى أنبيائه في هذه الأمكنة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى أحسن تقويم، ويصدهم عن التردي إلى أسفل سافلين. وبعبارة أخرى: إن هذه الأماكن مبعث الأنبياء ومهبط الوحي، فهؤلاء بفضل الوحي يهدون المجتمع الانساني إلى الرقي والسعادة التي يعبر عنها القرآن بأحسن تقويم، ويحذرونه من الانحطاط والسقوط في الهاوية التي يعبر عنها سبحانه بـ ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾"،[٤] وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٥]

أضاف السبحاني قائلاً: "إنما الكلام فيما إذا كان المراد من التين والزيتون، الفاكهتان المعروفتان اللتين أقسم الله بهما لما فيهما من الفوائد الجمة والخواص النافعة، فعندئذ لا تخلو الصلة من غموض، فليتدبر"،[٦] "إذ لا يخفى ان كل مخلوقات، من حيوان ونبات توحي بالجلال والاحترام لها وبالجمال وكمال الخلق، وهي تبدو مبرمجة أو مخلوقة هكذا لا تحيد عن ذلك، فهل رأيت طيرا لا يبني عشه أو لا يطعم فراخه ؟ أم رأيت حيوانا لم يهبه الله الذكاء

---

(١) مفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٤١٨ وينظر: القسم لعبد العاطي: ص ١٨٨.

(٢) القسم لعبد العاطي، ص ١٨٩.

(٣) سورة الإنسان، الآية / ٣.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٦٥، الأقسام للسبحاني: ص ١٨٣.

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٤ / ٢٦٩، البحر المحيط لأبي حيان: ٨ / ٤٨٦، التبيان لأبن قيم: ص ٢٩، القسم لعبد العاطي: ص ٢٢٩.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٦٥، الأقسام للسبحاني: ص ١٨٣.

والمقدرة على تحصيل رزقه، أو الدفاع عن نفسه؟ حقا ان هذه المخلوقات لا تعرف الهزل، فهي جدية ولكن في وداعة، غريبة ولكن في جمال، وبسيطة ولكن في جلال آسر. إن كلا منها تسير على الطريق التي اختطها الخالق لها طائعة ملبية، وهي تسبح بحمد ربها كلها. إنها لا تعرف الكذب أو المصانعة، بل هي متسقة مع نفسها ومع ما حولها، بل ومع الكون جميعا. في تناغم عجيب وجمال بديع. فتعالى الله الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين والباطن بجلال عزته عن فكرة المتوهمين".[١]

ثانياً: القسم بالظواهر الطبيعية: بـ(الليل والنهار والفجر والصبح والضحى والعصر[٢])

١. القسم بالقمر والليل والصبح (في سورة المدثر)

-قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ * كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾.[٣]

لم يكتفِ السبحاني في هذا الموضوع من تفسيره بإيضاح أركان القسم الثلاثة (القمر، الليل، الصبح) بل أشار الى تعليل إيراد هذه الظواهر الطبيعية بقوله: "حلف سبحانه في هذه الآيات بأمور ثلاثة ترتبط بعضها ببعض، ويأتي الثاني عقب الأول. فأما القمر فيتجلى في الليل، ولولا الليل لما كان لضوئه ظهور، لأنه يختفي نوره في النهار لتأثير الشمس فإذا تجلى القمر في الليل شيئا فشيئا فيأتي نهاية الليل، الذي عبر عنه سبحانه: ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ وتكون النتيجة طلوع الفجر الذي عبر عنه سبحانه ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾،فكأنه يقول سبحانه: احلف بتجلي القمر في وسط السماء الذي يسير مع الليل شيئا فشيئا، إلى أن يدبر ويسفر الصبح، هذا مفاد الآيات التي تضمنت المقسم به. إذ إنه سبحانه حلف في هذه الآيات **بأمور ثلاثة:**

الأول: القمر على وجه الاطلاق.

الثاني: الليل إذا أدبر، أي الليل عند انتهائه.

الثالث: الصبح حينما يسفر ويتجلى"،[٤] "أقسم سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه وحكمته وعلمه وعنايته بخلقه ما هو معلوم

---

(١) أسرار الكون في القرآن، لداود سلمان السعدي، دار الحرف العربي للطباعة، بيروت، ١٩٩٩م: ص ٢٨٣ وينظر: مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٦٥ – ٤٦٦، الأقسام للسبحاني: ص ١٨٣ – ١٨٤.

(٢) تم تناول القسم في سورة العصر في القسم المفرد في ص٢٧٣.

(٣) سورة المدثر، الآيات / ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧.

(٤) مفاهيم القرآن، ٣٩٧/٩– ٣٩٨، الأقسام للسبحاني، ص ١١٥– ١١٦ وينظر: تنوير المقباس للفيروزآبادي: ص٤٩٢.

بالمشاهدة"،[١] "فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات، على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدره الله وحكمته، وسعة سلطانه، وعموم رحمته وإحاطة علمه".[٢]

وأما المقسم عليه فهو عبارة عن قوله: ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾. قال فيه السبحاني: "الكلام في مرجع الضمير في قوله إنها، ففيه وجهان: **الأول:** أن الضمير يرجع إلى سقر الواردة في الآيات المتقدمة، أعني قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾.[٣] أي ان سقر هي إحدى الدواهي الكبرى، فهي نذيرة للبشر ومخوفة لمن شاء منكم أن يتقدم في طاعة الله أو يتأخر عنها بالمعصية، وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٤]: "إن سقر لإحدى الأمور العظام وواحد الكبر".[٥] **الثاني:** إن الضمير يرجع إلى الآيات في قوله سبحانه: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾.[٦] وعلى هذا فالآيات القرآنية لإحدى الدواهي وهي النذيرة لمن تقدم في مجال الطاعة أو تأخر لكن المتقدم ينتفع دون المتأخر"،[٧] وهذا ما ذهب اليه الطباطبائي إذ قال: ويكون ضمير (إنها) للقرآن بما أنه آيات أو من باب مطابقة اسم إن لخبرها. والمعنى: أقسم بكذا وكذا إن القرآن – آياته – لإحدى الآيات الإلهية الكبرى انذارا للبشر،[٨] ومنهم من قال أن الضمير "يرجع إما إلى: سقر، وإما يرجع إلى الجنود، أو إلى مجموعة الحوادث في يوم القيامة، وأيا كانت فإن عظمتها واضحة".[٩]

ويبدو للباحثة: إنه كيف ما فسر ضمير (أنها) فهو أشعار بعظمة هذه الأشياء وكبرها، ووجوب الأستعداد لها وأنها أحدى العظائم الكبرى التي لايعادلها غيرها من الدواهي.

وأما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقال فيها السبحاني: "على التفسير الثاني من الوضوح بمكان، إذ إن القمر في الليل الدامس يهدي السائرين، وأن الصبح وطروء النهار يبدد

---

(١) التبيان لأبن قيم، ص ١٠٢ وينظر: أضواء البيان للشنقيطي: ٨ / ٥٣٧.

(٢) تيسير الكريم للسعدي، ص ٨٩٧.

(٣) سورة المدثر، الآيات / ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠.

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٩ / ٢٠٤، بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٤٩٥، التبيان للطوسي: ١٠ / ١٨٣، مفاتيح الغيب للرازي: ٣٠ / ٢٠٩، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥ / ٤١٦.

(٥) الكشف والبيان للثعلبي، ١٠ / ٧٦ وينظر: الوجيز للواحدي: ٢ / ١١٥١.

(٦) سورة المدثر، الآية / ١٦.

(٧) مفاهيم القرآن، ٩ /٣٩٨، الأقسام للسبحاني، ص ١١٦ وينظر: الدر المنثور للسيوطي: ٨ / ٣٣٥.

(٨) ينظر: الميزان للطباطبائي: ٢٠ / ٩٥.

(٩) الأمثل للشيرازي، ١٩ / ١٨١.

الظلام ويظهر النور، فناسب أن يحلف سبحانه بأسباب الهداية، ومعادن النور ومظاهره، بغية إثبات أن القرآن لإحدى المعاجز الكبرى التي تهدي البشر إلى سبيل الرشاد. وأما على التفسير الأول، ورجوع الضمير إلى سقر فالمناسبة خفية، إلا أن يقال بأن المقسم به أي القمر في وسط السماء وانجلاء الليل وطلوع الفجر من آياته الكبرى وأن سقرا أيضا كذلك"،[١] "إن من قدر على خلق تلك الآيات من القمر والليل والنهار، لقادر على خلق النار وسقر لتعذيب الكفار وغير المؤمنين، ولعل اختيار الحلف بهذه الأمور لإيحائها بالظلمة المختلطة بشيء من الضياء، كالنار التي هي كذلك، وأن سكون هذه الأمور يوحي بسكون أهل النار الشبيه بالموت بخلاف أهل الجنة الذين هم أحياء".[٢]

وتخلص الباحثة: إن كل هذه الآيات والنذر لتأكيد الحقائق الإيمانية في حرية الإنسان ومايختار من طريق التقدم في أتباع طاعة الله تعالى أو التأخر عنها.

٢ – القسم بالليل والصبح في (سورة التكوير)

– قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ *ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ *وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ *وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ *إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ *ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ *مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴾.[٣]

بدأ السبحاني بتوضيح أركان القسم بعد التعريف اللغوي لبعض مفرداته[٤] قائلاً: "الحلف الأول فهو رهن تفسير الألفاظ الثلاثة. إذ ذكر سبحانه **أوصافا ثلاثة:**

الأول: الخنس: قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴾ أي بالكواكب التي تخنس بالنهار. فاللفظ هنا بمعنى الانقباض أو التأخر، ولعلهما يرجعان إلى معنى واحد، فان لازم التأخر هو الانقباض.

الثاني: الجوار: الجري السير السريع مستعار من جري الماء.

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ /٣٩٩، الأقسام للسبحاني، ص ١١٧.

(٢) تقريب القرآن لمحمد الشيرازي، ٥ / ٥٥٥.

(٣) سورة التكوير، الآيات / ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١.

(٤) "الخنس": وهو جمع خانس كالطلب جمع طالب، والخنوس: الانقباض والاستخفاء. والشيطان يوسوس في القلب، فإذا ذكر الله خنس، أي: انقبض، أو هي الكواكب الخمسة التي تجري وتخنس في مجراها حتى يخفى ضوء الشمس، وخنوسها: اختفاؤها بالنهار. ينظر: العين للفراهيدي: ٤/ ١٩٩، مادة (خنس). "الجوار": جمع جارية ، وهي من الجري، المر السريع، وأصله كمر الماء. ينظر: مفردات الفاظ القرآن للراغب الاصفهاني: ص ١٩٤، مادة (جرى). "الكنس": جمع كانس والكنوس دخول الوحش كالظبي والطير كناسه أي بيته الذي اتخذه لنفسه واستقراره فيه، وهو كناية عن الاختفاء. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٥/ ١٤١، مادة (كنس)، مفاهيم القرآن: ٩/ ٤١٩ – ٤٢٠، الأقسام للسبحاني: ص ١٣٧ – ١٣٨.

الثالث: الكنس. فالمقسم به في الواقع هي الجواري بما لها من الوصفين: الخنوس والكنوس، وكأنه قال: فلا أقسم بالجوار الخنس والكنس".[١]

ذهب أغلب المفسرين الى: أن المراد من الجواري التي لها هذان الوصفان هي الكواكب الخمسة السيارة التي في منظومتنا الشمسية، والتي يمكن رويتها بالعين المجردة، وهي عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، زحل ويطلق عليها السيارات المتغيرة.[٢]

أضاف السبحاني قائلاً: "تسمية هذه الخمسة بالسيارات والبواقي بالثابتات لا يعني نفي الجري والحركة عن غيرها، إذ لا شك ان الكواكب جميعها متحركات، ولكن الفواصل والثوابت بين النجوم لو كانت ثابتة غير متغيرة فتطلق عليها الثابتات، ولو كانت متغيرة فتطلق عليها السيارات، فهذه السيارات الخمسة تتغير فواصلها عن سائر الكواكب. فهذه الجواري الخمس لها خنوس وكنوس. وعلى ذلك فالله سبحانه يحلف بهذه الأنجم الخمسة بحالاتها الثلاث المترتبة في الليل، وهي انها على أحوال ثلاثة. منقبضات حينما تقرب فواصلها ثم إنها بالجري يبتعد بعضها عن بعض، ثم ترجع بالتدريج إلى حالتها الأولى فهي بين الانقباض والابتعاد بالجري ثم الرجوع إلى حالتها الأولى"،[٣] "ولا شك أن هذه حالة عجيبة وفيها أسرار عظيمة باهرة".[٤] وذهب ابن قيم الجوزية أن القسم بجميع النجوم وهو **ما تذهب اليه الباحثة** إذ قال: "أقسم سبحانه بالنجوم في أحوالها الثلاثة من طلوعها وجريانها وغروبها. ولما كان للنجوم حال ظهور وحال اختفاء وحال جريان وحال غروب أقسم سبحانه بها في أحوالها كلها ونبه بخنوسها على حال ظهورها لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور ولا يقال لما لا يزال مختفيا أنه قد خنس فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحا وخنوسها وظهورها واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع فالطلوع أول جريانها فتضمن القسم طلوعها وغروبها وجريانها واختفائها وذلك من آياته ودلائل ربوبيته".[٥]

أتم السبحاني توضيح المقسم به إذ قال: "وأشار سبحانه إلى الحلف بالليل إذا أدبر، بقوله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾"،[٦] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين ﴿عَسۡعَسَ﴾ بإدبار

---

(١) مفاهيم القرآن: ٩/ ٤١٩– ٤٢٠، الأقسام للسبحاني: ص ١٣٧ – ١٣٨.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠/ ٩٣، الكشف والبيان للثعلبي: ١٠/ ١٤٠، معالم التنزيل للبغوي: ٤/ ٤٥٣، التسهيل لعلوم التنزيل لأبن الجزي: ٢/ ٤٥٦، جواهر الحسان للثعالبي: ٥/ ٥٥٧، تفسير غريب القرآن للطريحي: ص٣٠٣.

(٣) مفاهيم القرآن: ٩/ ٤٢٠ – ٤٢١، الأقسام للسبحاني: ص ١٣٨ – ١٣٩.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١/ ٧١.

(٥) التبيان لأبن قيم، ص ٧٣ وينظر: التفسير الكاشف لمغنية: ٧ / ٥٢٥.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤١٨ – ٤٢١، الأقسام للسبحاني، ص ١٣٦ – ١٣٩.

الليل،[١] ومنهم من ذهب الى: أنه أقبل بظلامه،[٢] ومنهم من أعتبر أدباره وإقباله يرجع إلى شيء واحد وهذا ابتداء الظلام في أوله وانتهاؤه في آخره وهو من الأضداد.[٣] أضاف السبحاني قائلاً: "ذلك المعنى بقرينة الحلف الثاني أعني ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، أي الصبح المتنفس بقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ وهو انبساط ضوئه على الأفق ودفعه الظلمة التي غشيته، وكأن الصبح موجود حيوي يغشاه السواد عند قبض النفس ويعلوه الضوء والانبساط عند التنفس"،[٤] "إذا أضاء وامتد ضوءه"،[٥] "أقبل وبدا أوله"،[٦] "ولما كان اقبال الصبح يلازم الروح والنسيم جعل ذلك نفسا له مجازا".[٧]

أما المقسم عليه فهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، فيه أقوال **تذكرها الباحثة** هي:

القول الأول: وهو المشهور عند أغلب المفسرين ومنهم السبحاني إذ قال: "الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يرجع إلى القرآن بدليل قوله: ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾ والمراد من رسول هو (جبرئيل) وكون القرآن قوله لا ينافي كونه قول الله إذ يكفي في النسبة أدنى مناسبة وهي انه أنزله على قلب سيد المرسلين. قال سبحانه: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.[٨] وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾[٩]"،[١٠] إذ"أنه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب، فهو كلام الله تعالى، بمعنى أنه تعالى هو الذي أظهره في اللوح المحفوظ، وهو الذي رتبه ونظمه، وهو كلام جبريل (عليه السلام)، بمعنى أنه هو الذي أنزله من السماوات إلى

---

[١] ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠/ ٩٧، القرآن العظيم لأبي حاتم: ١٠ / ٣٤٠٥، التبيان للطوسي: ١٠/ ٢٨٥، جوامع الجامع للطبرسي: ٣ / ٧٣٦، زبدة التفاسير لفتح الله: ٧ / ٣٤٩.

[٢] ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ١٤١/١٠، الوجيز للواحدي: ١١٧٨/٢، تفسير القرآن للسمعاني: ١٦٩/٦.

[٣] ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٥٢٠/٣، المفردات في غريب القرآن للراغب الآصفهاني: ص ٣٣٤، مدارك التنزيل للنسفي: ٤/ ٣٢٠.

[٤] مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٢١، الأقسام للسبحاني، ص ١٣٩.

[٥] التبيان للطوسي، ١٠ / ٢٨٦ وينظر: مجمع البيان للطبرسي: ١٠ / ٢٨٠.

[٦] معالم التنزيل للبغوي، ٤ / ٤٥٣.

[٧] مدارك التنزيل للنسفي، ٤ / ٣٢٠.

[٨] سورة البقرة، من الآية / ٩٧.

[٩] سورة الشعراء، الآيتان / ١٩٣، ١٩٤.

[١٠] جامع البيان للطبري، ١٠٠/٣٠، الكشف والبيان للثعلبي،١٠/ ١٤٢، مفاتيح الغيب للرازي، ٣٠ / ١١٧، زاد المسير لابن الجوزي: ٨/ ١٩٢، دقائق التفسير الجامع لتفسير الأمام ابن تيمية، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن محمد ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط٢، ١٤٠٤ هـ: ١٨٣/٢، مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٢٢، الأقسام للسبحاني، ص ١٤٠.

الأرض، وهو كلام محمد، بمعنى أنه هو الذي أظهره للخلق، ودعا الناس إلى الإيمان به، وجعله حجة لنبوته".[١]

القول الثاني: الرسول الكريم محمد (ﷺ) الذي أتى بهذا القرآن من عند الله.[٢]

القول الثالث: ذكره الرازي إذ قال: "إن هذا الذي أخبركم به محمد من أمر الساعة على ما ذكر في هذه السورة ليس بكهانة ولا ظن ولا افتعال، إنما هو قول جبريل أتاه به وحياً من عند الله تعالى".[٣]

تذهب الباحثة: الى ما ذهب اليه أغلب المفسرين.

أضاف السبحاني قائلاً: "إنه سبحانه وصف جبريل (عليه السلام) بصفات ست: رسول: يدل على وساطته في نزول الوحي إلى النبي، كريم: عزيز بإعزاز الله، ذي قوة: ذي قدرة وشدة بالغة، وقال سبحانه: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾.[٤] مكين: ﴿ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾: أي صاحب مكانة ومنزلة عند الله، وهي كونه مقربا عند الله. مطاع: عند الملائكة فله أعوان يأمرهم وينهاهم. أمين: لا يخون بما أمر بتبليغه ما تحمل من الوحي"،[٥] وهو ما ذهب اليه الرازي إذ قال: "واعلم أنه تعالى وصف جبريل ههنا **بصفات ست: أولها:** إنه رسول ولا شك أنه رسول الله إلى الأنبياء فهو رسول وجميع الأنبياء أمته. **وثانيها:** إنه كريم، ومن كرمه أنه يعطي أفضل العطايا، وهو المعرفة والهداية والإرشاد. **وثالثها:** ذي قوة: منهم من حمله على الشدة، ومنهم من حمله على القوة في أداء طاعة الله وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف، وعلى القوة في معرفة الله وفي مطالعة جلال الله. **ورابعها:** عند ذي العرش، أنها عندية الإكرام والتشريف والتعظيم. وأما مكين: هو ذو الجاه الذي يعطي ما يسأل. **وخامسها:** مطاع: والمعنى أنه عند الله مطاع في ملائكته المقربين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه. **وسادسها:** أمين هو أمين على وحي الله ورسالاته، قد عصمه الله من الخيانة والزلل".[٦]

أتم السبحاني المقسم عليه بالقول: "وعطف على جواب القسم قوله: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾[٧] والمراد هو نبينا محمد (ﷺ)، وكأن صاحبه حلف بما حلف، للتأكيد على **أمرين:**

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي، ٣٠ / ١١٧ وينظر: روح المعاني للآلوسي: ٣٠ / ٥٩.
(٢) ينظر: التبيان للطوسي: ١٠ / ١٠٨.
(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ٧٣.
(٤) سورة النجم، الآيتان / ٥، ٦.
(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٢٢، الأقسام للسبحاني، ص ١٤٠.
(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ٧٣ وينظر: روح المعاني للآلوسي: ٣٠ / ٥٩.
(٧) سورة التكوير، الآية / ٢٢.

الأول: القرآن نزل به جبرئيل (عليه السلام). **الثاني:** إن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس بمجنون"،[١] وهذا ما ذهب اليه ابن الجوزي إذ قال: "هذا أيضا من جواب القسم، وذلك (أنه) أقسم أن القرآن نزل به جبريل، وأن محمدا ليس بمجنون كما يقول أهل مكة". [٢]

أما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقال فيها السبحاني: "إن القرآن أمام المستعدين للهداية كالصبح في إسفاره، فهو لهم نور وهداية، وأن للمدبرين عنه، كالليل المظلم، وهو عليهم عمى، والله العالم. ثم إن في اتهام أمين الوحي بالخيانة، والنبي الأعظم بالجنون، دلالة واضحة على بلوغ القوم القسوة والشقاء حتى سوغت لهم أنفسهم هذا العمل، فزين لهم الشيطان أعمالهم"،[٣] "ولا غرابة – على منطقهم وعاداتهم – ألم يجعل الآلهة إلها واحدا ؟ وثار على أوضاعهم وتقاليدهم، ولو كان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا العصر لقيل عنه: مخرب هدام"،[٤] "وكل ما في الأمر إنه قد جاءكم بعد بعثته بتعاليم تخالف تعصبكم الأعمى وتحارب أهواءكم الجاهلية، فما راق لكم الانضباط والترابط، وحبذتم الانفلات والتراخي، فوليتم الأدبار عن تعاليمه الربانية ونسبتم إليه الجنون، فرارا من هدي دعوته المباركة".[٥]

٣. القسم بالفجر والليل في سورة (الفجر)

– قال تعالى: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ * وَلَيَالٍ عَشۡرٍ * وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ * هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾. [٦]

بدأ السبحاني بتوضيح أركان القسم بعد التعريف اللغوي لبعض مفرداته[٧] قائلاً: "حلف سبحانه في هذه السورة **بأمور خمسة:** الفجر، ليال عشر، الشفع، الوتر، الليل إذا يسر. أختلف المفسرون في تفسير هذه الأقسام على أقوال كثيرة، غير أن تفسير القرآن بالقرآن يدفعنا إلى أن

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٢٢ – ٤٢٣، الأقسام للسبحاني، ص ١٤٠ – ١٤١ وينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٨ / ١٩٣، زبدة التفاسير لفتح الله: ٧ / ٣٥٠.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي، ٨ / ١٩٣.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٢٣، الأقسام للسبحاني، ص ١٤١.

(٤) التفسيرالكاشف لمغنية، ص ٢٢٣.

(٥) الامثل للشيرازي، ١٩ / ٤٦٤.

(٦) سورة الفجر، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤، ٥.

(٧) "الفجر": شق الشئ شقا، ومنه قيل للصبح، الفجر لكونه يفجر الليل، إذ استعمل الفجر بصورة المصدر في فجر الليل. ينظر: المفردات في غريب القرآن للأصفهاني: ص ٣٧٣، مادة (فجر). "الشفع": ضم الشئ إلى مثله، فلو قيل للزوج شفع، لأجل انه يضم إليه مثله، والمراد منه هو الزوج بقرينة قوله والوتر. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٨ /١٨٣، مادة (شفع). "يسر": هو من سرى يسري سرى ومسرى وسرية ويضم وسراية وأسرى واسترى وسرى به وأسراه وبه. و ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾. الأسراء، من الآية/١: تأكيد أو معناه: سيره. ينظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي: ٤ / ٣٤١، مادة (سرى)، مفاهيم القرآن: ٩ / ٤٣٦ – ٤٣٧.

نفسره بما ورد في سائر الآيات. **الأول: الفجر**: فلو كان اللام للجنس، فهو محمول على مطلق الفجر، أعني: انفجار الصبح الصادق، وإن كان مشيرا إلى فجر ليل خاص فهو يتبع القرينة، ولعل المراد فجر الليلة العاشرة من ذي الحجة الحرام، ورجح السبحاني الأول وهو العموم، وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[١] إذ قال: "عظمة الفجر واضحة، لان الحياة رهن النور، وطلوع الفجر يثير بارقة الامل في القلوب إذ تقوم كافة الكائنات الحية إلى العمل وطلب الرزق"،[٢] "أقسم الله تعالى به لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء، وانتشار الناس وسائر الحيوانات من الطير والوحوش في طلب الأرزاق، وفيه عبرة لمن تأمل".[٣] وذهب آخرون الى تفاسير عدة **تذكر الباحثة** بعضا منها: **أحدها**: صلاة الفجر إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٤].[٥] **والثاني**: إنه فجر يوم النحر خاصة، وذلك لأن أمر المناسك من خصائص ملة إبراهيم، وكانت العرب لا تدع الحج وهو يوم عظيم يأتي الإنسان فيه بالقربان كأن الحاج يريد أن يتقرب بذبح نفسه، فلما عجز عن ذلك فدى نفسه بذلك القربان إذ قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[٦].[٧]

وترى الباحثة: إن الرأي الأول هو الرآي المشهور بين المفسرين يوافقه ظاهر الكتاب العزيز، إذ جرت سنة الكتاب بأنه اذا أريد تعيين يوم أو وقت ذكره بعينه، كيوم القيامة، واليوم الموعود، وكليلة القدر في سورتها، فاذا أطلق الزمن ولم يقيد كان المراد ما يعمه معنى الأسم.

أما (الليالي العشر) فقال فيها السبحاني: "هي عبارة عن الليالي التي تنزل فيها بركاته سبحانه إلى العباد، سواء فسرت بالليالي العشر الأولى من ذي الحجة، [٨] أو الليالي العشر من آخر شهر رمضان.[٩] فالليل من نعمه سبحانه إذ جعله سكنا ولباسا للانسان وقال: ﴿وَجَعَلْنَا

---

[١] ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠ / ٢١٠، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥ / ١٢٦، الكشاف للزمخشري: ٤/ ٢٤٩، زاد المسير لابن الجوزي: ٨ / ٢٣٨، التفسير المقارن للناصري: ٨ / ٥٧٠.

[٢] مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٣٧ – ٤٣٨، الأقسام للسبحاني، ص ١٥٥ – ١٥٦.

[٣] مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ١٦٢.

[٤] سورة الأسراء، من الآية / ٧٨.

[٥] ينظر: التبيان لأبن قيم: ص ١٨، زبدة التفاسير لفتح الله: ٧ / ٤١٧.

[٦] سورة الصافات، الآية / ١٠٧.

[٧] ينظر: القرآن العظيم لابن كثير: ٤ / ٥٣٩، القسم في القرآن الكريم لشوقي ضيف: ص ٢٨.

[٨] ينظر: تفسير القرآن للصنعاني: ٣ / ٣٦٩، جامع البيان للطبري: ٣٠ / ٢١٢، الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ١٩١، التبيان للطوسي: ١٠ / ٣٤٠.

[٩] ينظر: أحكام القرآن لابن عربي: ٤ / ٣٨٦، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥ / ٤٨٦، تفسير القرآن الكريم لشبر: ص٥٥٧، التفسير البياني لعائشة عبد الرحمن: ٢/ ١٢٩.

ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴾،[١] وجعله سكنا للكائنات الحية إذ ينفضون عن أنفسهم التعب والوصب، قال سبحانه: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا ﴾[٢]".[٣]

وتذهب الباحثة الى: أن القسم بهذه الليالي يدل على أهميتها الاستثنائية وخصوصيتها وفضلها الذي ليس في غيرها، وهذا هو شأن القسم، ولا مانع من الجمع بين كل ما ذكر من معان.

أما الثالث والرابع: الشفع و الوتر: قال فيهما السبحاني: "الشفع والوتر، فقد جاء مبهما وليس في القرآن ما يفسر به فينطبق على كل شفع ووتر، وبمعنى آخر يمكن أن يراد منه صحيفة الوجود من وتره كالله سبحانه وشفعه كسائر الموجودات"،[٤] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين [٥]: "الشفع: الخلق، والوتر: الله تعالى".[٦]

اختلف المفسرون فيما هو المراد من الشفع والوتر إذ ذهب بعضهم الى: أن الشفع هو يوم النحر، والوتر يوم عرفة وإنما أقسم الله بهما لشرفهما.[٧] الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر ليلة النحر.[٨] الوتر ما كان وترا من الصلوات كالمغرب والشفع ما كان شفعا منها.[٩] إلى غير ذلك من الأقوال التي أنهاها الرازي إلى عشرين وجها.[١٠]

تخلص الباحثة: إن الألف واللام في (الشفع والوتر) إن كانا للتعميم، فكل المعاني تجتمع فيهما، وكل معنى سيكون مصداقاً من مصاديق (الشفع و الوتر)، ولا داعي إلى حصر التفسير بإحدى المعاني المذكورة، بل كل منها تطبق على مصداق بارز. أما إذا كانا للتعريف، فستكون إشارتهما إلى زوج وفرد خاصين، وفي هذه الحال سيكون **تفسيران** من التفاسير المذكورة أكثر من غيرهما مناسبة وقربا مع مراد الآية، وهما: **الأول:** المراد بهما يومي العيد

---

(١) سورة النبأ، الآية / ١٠.

(٢) سورة الأنعام، من الآية / ٩٦.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٣٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٥٧.

(٤) المصدران نفسهما.

(٥) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٥٥٤، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥ / ١٢٦، حقائق التفسير للسلمي: ٢ / ٣٩٤، التبيان للطوسي: ١٠ / ٣٤١، معالم التنزيل للبغوي: ٤ / ٤٨١.

(٦) القرآن العزيز لأبن زمنين، ٥ / ١٢٦.

(٧) ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠ / ٢١٢، تفسير القرآن للسمعاني: ٦ / ٢١٧، مفاتيح الغيب للرازي: ٣١ / ١٦٣، الميزان للطباطبائي: ٢٠ / ٢٧٩، الأمثل للشيرازي: ٢٠ / ١٧٦.

(٨) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ١٩٢.

(٩) ينظر: تفسير القرآن لابي حاتم: ٣٤٢٣/١٠، تفسير القرآن للسمعاني: ٢١٧/٦، أحكام القرآن لابن عربي: ٣٨٧/٤.

(١٠) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ١٦٣ – ١٦٤، التبيان لأبن قيم: ص ٢٠.

وعرفة، وهذا ما يناسب ذكر الليالي العشر الأولى من شهر ذي الحجة، وفيهما تؤدى أهم فقرات مناسك الحج أو ليالي العشر الآواخر من شهر رمضان لما فيها من فضل وعظمة ليلة القدر. **والثاني:** إنهما يشيران إلى الصلاة، بقرينة ذكر (الفجر)، وهو وقت السحر ووقت الدعاء والتضرع إلى الله (ﷻ).[١] **إما الخامس: الليل** إذا يسر قال فيه السبحاني: "أما الليل فمعلوم، وأما قوله يسر، حذف الياء لأجل توحيد فواصل الآيات، ويستعمل الفعل في السير في الليل، ولكن الآية نسبت الفعل إلى نفس الليل فكأن الليل موجود حقيقي له سير نحو الامام فهو يسير إلى جانب النور، فالله سبحانه حلف بالظلام المتحرك الذي سينجلي إلى نور النهار. فضلاً عن ما في الليل من عظائم البركات التي لا تقوم الحياة إلا بها. ثم قال: أقسم بالليل إذا يمضي ظلامه، فلو دام الليل دون أن ينجلي لزالت الحياة، يقول سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾[٢]، فتبين مما سبق منزلة المقسم به في هذه الآيات وانها تتمتع بالكرامة والعظمة"،[٣] "وهذه استعارة. والمراد بسري الليل دوران فلكه، وسيران نجومه حتى يبلغ غايته، ويسبق في قاصيته، ويستخلف النهار موضعه"،[٤] وأنه"وقت سريانه، وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون، ويطمئنون، رحمة منه تعالى وحكمة".[٥]

أما المقسم عليه قال فيه السبحاني: "يحتمل وجهين: **أحدهما:** إنه عبارة عن قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾، [٦] وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٧] وضعفه ابن قيم الجوزية لوجهين: "**الأول:** طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة. **والثاني:** قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ ذكر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة وهي عاد وثمود وفرعون فذكر عقوبتهم ثم قال مقررا ومحذرا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ فلا ترى تعلقه بذلك دون القسم".[٨] **ثانيهما:**

---

(١) ينظر: الامثل للشيرازي: ٢٠ / ١٧٦.
(٢) سورة القصص، الآية / ٧١.
(٣) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٣٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٥٧.
(٤) تلخيص البيان لشريف الرضي، ص ٣٦٥.
(٥) تيسير الكريم للسعدي، ص ٩٢٣.
(٦) سورة الفجر، الآية / ١٤.
(٧) ينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥ / ١٢٦، الوجيز للواحدي: ٢/ ١٢٠٠، زاد المسير لابن الجوزي: ٨ / ٢٤١، التفسير الكاشف لمغنية: ٧ / ٥٦١.
(٨) التبيان لأبن قيم، ص ١٨.

إن المقسم عليه محذوف يعلم من الآيات التي أعقبت هذه الأقسام، قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾،[١] فالمفهوم من هذه الآيات انه سبحانه حلف بهذه الأقسام بغية الايعاد بأنه يعذب الكافرين والطاغين والعصاة كما عذب قوم عاد وثمود، فالانسان العاقل يعتبر بما جرى على الأمم الغابرة من إهلاك وتدمير".[٢] ورجح الرازي الرآي الثاني وذكر السبب لذلك وهو **ماتـــؤيده الباحثة** إذ قال: "وهذا أولى من الوجه الأول لأنه لما لم يتعين المقسم عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب، فكان أدخل في التخويف، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على أن المقسم عليه أولاً هو ذلك".[٣]

أما وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فقال فيه السبحاني: " إن من كان ذا لب، علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيه دلائل على قدرته وحكمته، فهو قادر على أن يكون بالمرصاد لأعمال عباده فلا يعزب عنه أحد ولا يفوته شئ من أعمالهم لأنه يسمع ويرى جميع أقوالهم وأفعالهم خصوصا بالنظر إلى ما أدب به قوم عاد وثمود مع ما كان لهم من القوة والمنعة"،[٤] "أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء، فيه دلائل على توحيد الله وقدرته"،[٥] "والربوبية، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه".[٦]

من هذا **تستنتج الباحثة:** إن القدرة الإلهية برصد كل الجبارين والطغاة والمجرمين، لا ينحصر بيوم القيامة، بل هو تعالى بالمرصاد لكل ظالم حتى في هذه الدنيا، وما عذاب تلك الأقـــوام (عاد وثمود وفرعون) إلا دليـــل واضح على تلك القدرة مع ما بلغوا من القوة والقدرة والعمران. فلما طغوا في البلاد وأشاعوا الفساد لم تقف تلك الصفات امام قدرته تعالى.

---

(١) سورة الفجر، الآيات / ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٣٩ – ٤٤٠، الأقسام للسبحاني، ص ١٥٧ – ١٥٨ وينظر: مجمع البيان للطبرسي: ١٠ / ٣٤٨، زبدة التفاسير لفتح الله: ٧ / ٤١٩.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ١٦٦.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٤٠، الأقسام للسبحاني، ص ١٥٨.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي، ٨ / ٢٤١.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ١٦٦.

٤. القسم بضحى الشمس والقمر والنهار والليل (في سورة الشمس)

-قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا *وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا *وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا *وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا *وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا *وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا * قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا *وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾.[١]

مهّدت هذه الآيات الكريمة ولا سيما مطلعها للسبحاني أن يتحدث عن جرم الشمس الذي يمدنا بالحياة، بل له الأثر الخاص في نشوء الحياة بعد أن أستهل حديثه عن أركان القسم بقوله: "حلف سبحانه تبارك وتعالى في سورة الشمس إحدى عشرة مرة **بتسعة أشياء، الأول والثاني:** ﴿ وَضُحَىٰهَا ﴾، إذ أنه حلف بالنير الكبير الذي له أثر كبير في استقرار الحياة على الأرض وهو مصدر للنور والحرارة، إلى غير ذلك من المعطيات، وهو سلطان منظومتنا، وله حركة انتقالية وحركة وضعية، ويعجز البيان واللسان عن بيان ماله من الأهمية، ويكفيك هذا الأثر انه ينتج في كل دقيقة ٢٤٠ مليون وحدة طاقة، ولم تزل ترفد بهذا العطاء مع أن عمرها يتجاوز الخمسة آلاف ميليون سنة. هذه الشمس التي ما زالت أسرارها في الخفاء، هي محور نظامنا السياري ومصدر حياتنا أيضا، هذه الشمس التي كل ما يكتشف عنها يزيدها غموضا، ولم تزح يد العلم بعد النقاب عن كل ما يجب أن نعلمه عن الشمس، هذه الشمس التي تفقد أربعة ملايين طن من وزنها في الثانية من احتراقها، ولم تزل تجدد وزنها وحجمها، والتي تبعث إلى العالم الخارجي طاقة تعادل خمسة آلاف بليون قنبلة ذرية في كل ثانية، وهي آية من آيات الخالق، وإن هي إلا آية صغيرة تزخر السماء بملايين من النجوم أضخم منها حجما وأكبر سرعة وأكثر تألقا. حلف بضحى الشمس، وهو انبساط نورها وضوئها، فان لضوئها أثرا خاصا في نشوء الحياة وبقائها والفتك بالأمراض وزوالها"،[٢] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين أي أن معنى ضحاها: هو نورها أو ضوؤها.[٣] "الشمس وحدها آية دالة على قدرة خالقها، لما فيها من طاقة حرارية في ذاتها تفوق كل تقدير، وهي على الزمان بدون انتقاص، فهي في ذاتها آية. ثم جاء وصف أثرها وهو: ضحاها، وهو انتشار ضوئها ضحوة النهار، وهذا وحده آية، لأنه نتيجة لحركتها، وحركتها آية من آيات الله، وهي الآية التي حاج بها إبراهيم (عليه السلام) نمرود في

---

[١] سورة الشمس، الآيات / ١ – ١٠.

[٢] مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٤٧ – ٤٤٨، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٥ – ١٦٦ وينظر: الله والعلم الحديث، لعبد الرزاق نوفل، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ط١، ١٩٩٨ م: ص ٣٠.

[٣] ينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ١٠ / ٣٤٣٧، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥ / ١٣٧، الوجيز للواحدي: ٢ / ١٢٠٦، تفسير الجلالين للسيوطي: ص ٨٠٩، التفسير المقارن للناصري: ٨ / ٥٩٤.

قولـــــــه: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.[١] ففي هذا السير قدرة باهرة ودقة متناهية، وضحاها: نتيجة لهذا السير، ثم ضحاها نعم جزيلة على الكون كله، من انتشار في الأرض وانتفاع بضوئها وأشعتها. لو اقتربت درجة أو ارتفعت درجة لما استطاع أحد أن ينتفع منها بشيء، لأنها تحرق باقترابها، ويتجمد العالم من بعدها، ذلك تقدير العزيز العليم".[٢] وذهب اخرون الى انه النهار كله.[٣] وذهب الرازي: "أنه تعالى إنما أقسم بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من المصالح، فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل، فلما ظهر أثر الصبح في المشرق صار ذلك كالصور الذي ينفخ قوة الحياة، فصارت الأموات أحياء، ولا تزال تلك الحياة في الازدياد والقوة والتكامل، ويكون غاية كمالها وقت الضحوة، فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها". [٤]

وتخلص الباحثة القول فيما ذهب إليه المفسرون: الضحى هو ضوء الشمس ونورها، وبكل ما اودع الله في الشمس من نعم عظام وفوائد جسام: النور والحرارة والأشعة والحياة.

إما الثالث: ﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾. قال فيه السبحاني: "حلف بالقمر إذا تلا الشمس في الليالي البيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة منه، وقت امتلائه أو قربه من الامتلاء حين يضيئ الليل كله من غروب الشمس إلى الفجر"،[٥] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٦]: "تبعها وذلك في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور، وذلك حين استدار يعني كمل ضوؤه فصار تابعا للشمس في الإنارة وذلك في الليالي البيض".[٧] ثم أضاف السبحاني قائلاً: "وفي الحقيقة هذا حلف بالقمر وضوئه فان ضوء القمر إنما ينتشر، إذا تلا الشمس وظهر بعد غروبها"،[٨] وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين،[٩] وذهب بعضهم: أن المراد تبعية القمر للشمس في تمام الشهر، لان نوره مأخوذ

---

(١) سورة البقرة، من الآية / ٢٥٨.
(٢) أضواء البيان للشنقيطي، ٨ / ٥٣٧.
(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠ / ٢٦١، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥ / ٤٤٨.
(٤) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ١٩٠.
(٥) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٤٨، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٦.
(٦) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ٢١٢، الوجيز للواحدي: ٢ / ١٢٠٦، معالم التنزيل للبغوي: ٤ / ٤٩١، مدارك التنزيل للنسفي: ٤ / ٣٤١، الكشاف للزمخشري: ٤ / ٢٥٧، التفسير المقارن للناصري: ٨ / ٥٩٥.
(٧) معالم التنزيل للبغوي: ٤ / ٤٩١، فتح القدير للشوكاني، ٥ / ٤٤٨.
(٨) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٤٨، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٦.
(٩) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني، ٢٣٢/٦، زبدة التفاسير لفتح الله: ٤٣٩/٧، التفسير المقارن للناصري: ٨ / ٥٩٥.

من نور الشمس فهو يتبعها في جميع الأزمان.[١]

وتخلص الباحثة: إن الله تعالى أقسم بالقمر حال كونه تاليا للشمس، والمراد بتلوه لها إن كان في مساره وعطائه وما أودع الله تعالى فيه، خاصة النور منها فالحال حال دائمة وإن كان طلوعه بعد غروبها وتخيم الظلام فالأقسام به من حال كونه هلالا ثم بدرا الى حال المحاق.

اما الرابع: ﴿وَٱلنَّهَارِإِذَاجَلَّىٰهَا﴾قال فيه السبحاني بعد التعريف اللغوي لمفردة (التجلي)[٢]: "حلف سبحانه بالنهار إذا جلا الأرض وأظهرها، والضمير يعود إلى الأرض".[٣] وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٤] ثم أحتمل السبحاني أن الضمير يرجع الى الشمس وذلك "لان النهار كلما كان أجلى ظهورا كانت الشمس أكمل وضوحا، أي حلف بالنهار إذا جلى الشمس وأظهرها"،[٥] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٦]: "لأن النهار عبارة عن نور الشمس. فكلما كان النهار أجلى ظهوراً كانت الشمس أجلى ظهوراً، لأن قوة الأثر وكماله تدل على قوة المؤثر، فكان النهار يبرز الشمس ويظهرها"،[٧] "أي جلى الشمس، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تتجلي تمام الانجلاء ".[٨] ثم رجح القول الأول إذ قال: "ولكن المعنى الأول هو الظاهر، لان الشمس هي المظهرة للنهار، دون العكس".[٩]

وتذهب الباحثة الى: ما ذهب اليه أغلب المفسرين؛ وذلك أن الضمير في جلاها يجب أن يكون للشمس حتى يكون الضمير في الفواصل من أول السورة إلى الآية الآخرى للشمس.

أما الخامس: ﴿وَٱلَّيۡلِإِذَايَغۡشَىٰهَا﴾ قال فيه السبحاني: "حلف بالليل إذا غطى الأرض وسترها في مقابل الشمس إذا جلا الأرض وأظهرها".[١٠] وذهب أغلب المفسرين وتؤيده الباحثة:

---

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٨ / ٤٧٢.

(٢) "التجلي": من الجلو بمعنى الكشف الظاهر، يقال: أجليت القوم عن منازلهم فجلوا عنها أي أبرزتهم عنها. ينظر: تاج العروس للزبيدي: ١٩ / ٢٨٨، مادة (جلى)، مفاهيم القرآن: ٩ / ٤٤٩، الأقسام للسبحاني: ص ١٦٧.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٤٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٧.

(٤) ينظر: تيسير الكريم للسعدي: ص ٩٢٦، أضواء البيان للشنقيطي: ٨ / ٥٣٧.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٤٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٧.

(٦) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٤ / ٣٤١، البحر المحيط لأبي حيان: ٨ / ٤٧٢، روح المعاني للآلوسي: ٣٠ / ١٤١، التفسير الوسيط للزحيلي: ٣ / ٢٨٨٣، الوسيط للطنطاوي: ١٥ / ٤١١.

(٧) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ١٩١.

(٨) فتح القدير للشوكاني، ٥ / ٤٤٨.

(٩) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٤٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٧.

(١٠) المصدران نفسهما.

الى أن الضمير يرجع إلى الشمس، إذ حلف سبحانه بالليل إذا غطى الشمس بظلمته، فتظلم الآفاق، ويلبسها سواده.[١] وستبعده السبحاني قائلاً: "وهو بعيد، فان الليل أدون من أن يغطي الشمس وإنما يغطي الأرض ومن عليها".[٢]

أما السادس والسابع: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾، إذ قال فيهما السبحاني: "حلف بالسماء وبانيها"،[٣] وهذا ما ذهب إليه أغلب المفسرين[٤]: "يعني: ومن خلقها، وبناؤه إياها: تصييره إياها للأرض سقفا".[٥] ثم علل السبحاني هذا المعنى وهو ما ذهب إليه أغلب المفسرين[٦] قائلاً: "بناء على أن ما موصولة، وليست مصدرية، بقرينة الآية التالية إذ يحلف فيها بالنفس وخالقها ومسويها، وغلبة الاستعمال على ما الموصولة في غير العاقل لم يمنع من استعمالها في العاقل أيضا، قال سبحانه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[٧]"،[٨] وذهب القليل منهم الى أنها مصدرية بمعنى: "أي وبنائها"،[٩] وهذا ما رفضه الزمخشري وآخرون إذ قال: "يؤدي إليه من فساد النظم".[١٠] وذهب الرازي وهو ما ذهبت اليه الباحثة الى أنها: "إشارة إلى الوصفية، كأنه قيل: والسماء وذلك الشيء العظيم القادر الذي بناها، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها"،[١١] "ولعل استعمال ما مكان من لأجل أن الخطاب كان موجها إلى قوم لا يعرفون الله بجليل صفاته، وكان القصد منه أن ينزلوا في هذا الكون منزلة من يطلب للأثر مؤثرا فينتقل من ذلك إلى معرفة الله تعالى، فعبر عن نفسه بلفظة ما التي هي الغاية في الابهام".[١٢]

ختم السبحاني ذلك المعنى قائلاً: "وفي ذكر السماء وبنيانها إلماع إلى أنه يمتنع أن يكون رهن الصدفة، بل لا يتحقق إلا بصانع حكيم قد أحكم وضعها وأجاد بناءها، خصوصا

---

(١) ينظر: التبيان للطوسي: ١٠ / ٣٥٧، مجمع البيان للطبرسي: ١٠ / ٣٧٠، التسهيل لعلوم التنزيل لأبن الجزي: ٢ / ٤٨٦، القرآن العظيم لابن كثير: ٤ / ٥٥١، زبدة التفاسير لفتح الله: ٧ / ٤٤٦.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٤٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٧.

(٣) المصدران نفسهما.

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٦٣/٣٠، القرآن العظيم لأبي حاتم: ٣٤٣٧/١٠، بحر العلوم للسمرقندي: ٥٦٢/٣، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥ / ١٣٧، الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ٢١٢، التبيان للطوسي: ١٠ / ٣٥٧.

(٥) جامع البيان للطبري، ٣٠ / ٢٦٣.

(٦) وينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٥٦٢، الكشف والبيان للثعلبي: ٢١٢/١٠، التبيان للطوسي: ١٠ / ٣٥٧.

(٧) سورة النساء، من الآية / ٣.

(٨) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٠، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٨.

(٩) الوجيز للواحدي، ١٢٠٦/٢، مدارك التنزيل للنسفي، ٣٤٢/٤، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي، ٢٠/ ٧٤.

(١٠) الكشاف للزمخشري، ٤/ ٥٣٨ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٣١/ ١٩٢، كنز الدقائق للمشهدي: ٢٩٥/١٤.

(١١) مفاتيح الغيب للرازي، ١٩٢/٣١ وينظر :زبدة التفاسير لفتح الله:٤٤١/٧، كنز الدقائق للمشهدي: ٢٩٥/١٤.

(١٢) تفسير المراغي للمراغي، ٣٠ / ١٦٧، مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٠، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٨.

بناء الكواكب التي ترتبط أجزاؤها بعضها ببعض، ولولا هذا الترابط لما كان لها تماسك".[١]

اما الثامن والتاسع: ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾، قال فيهما السبحاني بعد التعريف اللغوي لمفردة (طحاها)[٢]: "حلف بالأرض وطاحيها"،[٣] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٤]: "وهذه أيضا نظير التي قبلها ومعنى الكلام: والأرض ومن طحاها"،[٥] "وهذا القسم الأقسام بالخالق والمخلوق فأقسم بالسماء وبانيها والأرض وطاحيها"،[٦] وأحتمل الطوسي في تفسيرهما وجهين: "**أحدهما:** أن يكون المعنى والأرض وطحوها. **والثاني:** والأرض ومن طحاها، وهو الله تعالى ومعنى طحاها بسطها حتى مكن التصرف عليها".[٧] ثم أتم السبحاني تفسيره قائلاً: "أشار سبحانه إلى وصف الأرض في آية أخرى وقال: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ ﴾.[٨] "فحلف سبحانه بالأرض وبما جعلها لنا فراشا".[٩] ختم السبحاني بقول العلم في ذلك: "الأرض كوكب من الكواكب التي تدور حول الشمس وتتبعها في سيرها أينما سارت، وهي الكوكب الخامس من حيث الحجم، والثالث من حيث القرب من بين الكواكب التسعة التي تتكون منها المجموعة الشمسية. والأرض تكاد تكون كرة، إلا أنها منبعجة قليلا عند خط الاستواء ومفلطحة عند القطبين"،[١٠] "ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنهما قديمتان ذكر مع الأقسام بهما بانيهما ومبدعهما، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض وجعلها سقفا لهذا العالم والطحو هو مد الأرض وبسطها وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان ويمكن فيها البناء والغراس والزرع وهو متضمن لنضوب الماء عنها وهو مما حير عقول

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٠، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٨.

(٢) "طحاها": هي من الطحو كالدحو، وهو البسط، والمعنى وسعها. ينظر: العين للخليل الفراهيدي: ٢٧٧/٣، مادة (طحو)، مفاهيم القرآن: ٩/ ٤٥١، الأقسام للسبحاني: ص ١٦٩.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٠، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٨.

(٤) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٦ / ٢٣٢، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥ / ٤٩٦، البحر الميط لأبي حيان: ٨ / ٤٧٣، التبـــــيان لأبن قيم: ص ١٣، زبدة التفاسير لفتح الله: ٧ / ٤٤١، مقتنيات الدرر للحائري: ١٢ / ١٥٦.

(٥) جامع البيان للطبري، ٣/ ٢٦٣.

(٦) التبيان لأبن قيم، ص ١٣.

(٧) التبيان للطوسي، ١٠ / ٣٥٨.

(٨) سورة البقرة، من الآية / ٢٢.

(٩) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٠، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٨.

(١٠) الله والعلم الحديث لعبدالرزاق نوفل، ص٢٥ وينظر: مفاهيم القرآن: ٩/٤٥٠-٤٥١، الأقسام للسبحاني:ص١٩٨-١٩٩.

الطبائعيين إذ كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء فيروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونه هذا الجانب المعين دون غيره مع استواء الجوانب في الشكل".[١]

اما العاشر والحادي عشر: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ قال فيهما السبحاني: "النفس هي الروح، قال سبحانه: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾.[٢] وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾.[٣] فإذا المراد من تسويتها إعطاوها القوى الكثيرة الظاهرة والباطنة، فتسوية النفس هو تعديل قواها من الظاهرة والباطنة، ولو أريد من النفس الروح والجسم فتسوية الجسم هو إيجادها بصورة متكاملة. وأما تنكير النفس، فلأنه أراد كل نفس من النفوس من دون أن يختص بنفس دون نفس، وربما يحتمل أن يكون التنكير إشارة إلى نفس خاصة، وهي نفس النبي (ﷺ)، والمعنى الأول هو الأوضح بقرينة انه أخذ يحلف بالكائنات الحية وغير الحية"،[٤] وهذا ما ذهب اليه الرازي وآخرون إذ قال: "إن حملنا النفس على الجسد، فتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح، وإن حملناها على القوة المدبرة، فتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة والمفكرة والمذكورة، على ما يشهد به علم النفس فإن قيل: لم نكرت النفس؟ قلنا: فيه وجهان: **أحدهما:** أن يريد به نفساً خاصة من بين النفوس، وهي النفس القدسية النبوية، **والثاني:** أن يريد كل نفس، ويكون المراد من التنكير التكثير على الوجه المذكور".[٥]

بعد الأطلاع على التفاسير **تبيّن للباحثة:** إن الأنسب هنا أن يكون معنى النفس شاملا للمعنيين (الروح والجسد) لأن قدرة الله سبحانه وعظمته تتجلى في الاثنين معا. إذ أن"النفس آية كبيرة من آياته التي يحق الإقسام بها، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل والحركة والتغير، والتأثر والانفعالات النفسية، من الهم، والإرادة، والقصد، والحب، والبغض. وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه. وتسويتها على ما هي عليه، آية من آيات الله العظيمة".[٦]

أختلف المفسرون في المقسم عليه (جواب القسسم). فذهب السبحاني الى أنه: "لما

---

(١) التبيان لأبن قيم، ص ١٤.
(٢) سورة الأنعام، من الآية / ٩٣.
(٣) سورة البقرة، من الآية / ٢٣٥.
(٤) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥١، الأقسام للسبحاني، ص ١٦٩ وينظر: الامثل للشيرازي: ٢٠ / ٢٣٥.
(٥) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ١٩٣ وينظر: ارشاد العقل السليم لابي السعود: ٩ / ١٦٤، روح المعاني للآلوسي: ١٤٢/٣٠، تيسير الكريم للسعدي: ص ٩٢٦.
(٦) تيسير الكريم للسعدي، ص ٩٢٦.

حلف سبحانه بالموجودات السماوية والأرضية غير الحية والحية، وانه قد ألهم النفس الانسانية طرق الصلاح والفلاح، أو طرق الشر والضلال، أتى بجواب القسم، وهو قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾، فجعل زكاها مقابل دساها فيعلم معنى الثاني من الأول، فقال: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾، والانسان هو فاعل التزكية والتدسية ومتوليهما، والتزكية هي الاتمام والاعلاء بالتقوى، لان لازم التطهير هو الانماء كما أن التدسية النقص والاخفاء بالفجور".[١] وذهب آخرون أنه قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾، وحذفت اللام لطول الكلام، والمعنى: لقد أفلح من زكى نفسه بالطاعة، و أغواها وأضلها لأنه دسس نفسه في المعاصي.[٢] ومنهم من قال إن جواب القسم محذوف: "إن جوابه محذوف تقديره ليدمدمن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله كما دمدم على ثمود لانهم قد كذبوا صالحا. وأما قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شئ".[٣] رد السبحاني القائلين به قائلاً: "أنه لو كان جواب القسم هو ما قدره، يفقد الجواب الصلة اللازمة بينه وبين الأقسام الكثيرة الواردة في سورة الشمس، ولا مانع من أن يكون قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾جواب القسم، بأن يكون تابعا لقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾".[٤]

تخلص الباحثة: إن الله سبحانه منح الإنسان قدرة التشخيص والعقل، والضمير اليقظ إذ يستطيع أن يميز بين"الفجور"و"التقوى"عن طريق العقل والفطرة، فالفلاح لمن ربى نفسه بالإيمان واتباع الآيات وما جاء به الرسل وتزود بالصالحات وطهرها من التلوث بالخصائل الشيطانية وبالذنوب والكفر والعصيان.

أما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقال فيها السبحاني: "هي أنه سبحانه يذكر نعمه الهائلة في هذه الآيات التي لو فقد البشر واحدا منها لتوقفت عجلة الحياة عن السير نحو الامام، فمقتضى إفاضة هذه النعم وإنارة الروح بإلهام الفجور والتقوى هو المشي على درب الطاعة، وتزكية النفس دون الولوج في طريق الفجور وإخفاء الدسائس الشيطانية"،[٥] إذ "أقسم اللّه تعالى بهذه الكائنات المختلفة، والتي لها مالها من المنافع بالنسبة للإنسان وغيره، لتأكيد

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٢ – ٤٥٣، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٠ – ١٧١.

(٢) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٦/ ٢٣٣، التفسير العظيم لعبد السلام: ٣ / ٤٥٧، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل: ٢٠/ ٣٦٢، التسهيل لعلوم التنزيل لأبن الجزي: ٢ / ٤٨٦، التبيان لأبن قيم: ص ١٣.

(٣) مدارك التنزيل للنسفي، ٤ / ٣٤٢، الكشاف للزمخشري، ٤ / ٢٥٩ وينظر: الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٢ / ٤٠٧.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٣، الأقسام للسبحاني، ص ١٧١.

(٥) المصدران نفسهما.

وحدانيته، وكمال قدرته، وبليغ حكمته"،[١] "وهناك تناسب وترابط بين ما هو حسي في الكون وما هو معنوي في النفس، هذا التناسب يزيد المعنى وضوحا وتماسكا"،[٢] "يظهر أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لعباده: إني وفرت لكم كل الوسائل المادية والمعنوية لسعادتكم، فبنور الشمس والقمر أضأت لكم الحياة وباركتها ونظمت لكم الليل والنهار والحركة والسكون، ومهدت الأرض لحياتكم. ومن جهة أخرى، خلقت أنفسكم بكل الكفاءات اللازمة، ووهبتكم الضمير اليقظ، وألهمتكم معرفة حسن الأمور وقبحها، فلا ينقصكم شئ إذن لطي طريق السعادة، لماذا إذن – مع كل هذا – لا تزكون أنفسكم وتستسلمون للدسائس الشيطانية ".[٣]

٥. القسم بالليل والنهار (في سورة الليل)

–قال تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ * إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾.[٤]

بدأ السبحاني توضيح أركان القسم بعد تحديد القسم بأمور ثلاثة هي: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾، ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾، ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ قائلاً: "أقسم سبحانه بالليل إذا يغشى النهار"،[٥] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٦]: "أقسم الله تعالى بالليل إذا غشيت ظلمته ضوء النهار".[٧] أو يغشى الأرض، وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٨] ويدل على الأول، قوله: ﴿ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ ﴾[٩] "بمعنى يأتي بأحدهما بعد الآخر، فيجعل ظلمة الليل بمنزلة الغشاوة للنهار ويحتمل المعنى الثاني، كما في قوله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴾[١٠]"،[١١] وذهب بعضهم الى: أنه يغشى الشمس ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴾.[١٢]

---

(١) الوسيط للطنطاوي، ١٥ / ٤١٤.
(٢) القسم لعبد العاطي، ص ٢٢٦.
(٣) الامثل للشيرازي، ٢٠ / ٢٤٠.
(٤) سورة الليل، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤.
(٥) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٤، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٢.
(٦) ينظر: جامع البيان للطبري:٢٦٣/٣٠، بحر العلوم للسمرقندي: ٥٦٤/٣، القرآن العزيز لأبن زمنين: ١٣٩/٥، التبيان للطوسي:٣٦٢/١٠، مجمع البيان للطبرسي:٣٧٥/١٠، التفسير الأصفى للفيض الكاشاني:٢/ ١٤٤٩.
(٧) بحر العلوم للسمرقندي، ٣/ ٥٦٤ وينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ٢١٦.
(٨) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٤٩٠/٥، فتح القدير للشوكاني: ٤٥٢/٥، القسم لعبد العاطي: ص ١٤٨.
(٩) سورة الأعراف، من الآية / ٥٤.
(١٠) سورة الشمس، الآية / ٤.
(١١) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٤، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٢.
(١٢) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي:٤/ ٣٤٣، مفاتيح الغيب للرازي:٣١/ ١٩٨، الميزان للطباطبائي:٣٠٢/٢٠.

وترى الباحثة: إن الليل أذا أقبل فأنه يواري كل شيء بظلامه (النهار أو الأرض أو الشمس).

إما المقسم به: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، قال فيه السبحاني: "عطف على الليل، والتجلي ظهور الشئ بعد خفائه"،[١] "ظهر بزوال ظلمة الليل أو تبين وتكشف بطلوع الشمس".[٢]

اما المقسم به: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾، فقال فيه السبحاني: "ما موصولة كناية عن الخالق الباري للذكر والأنثى"،[٣] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين:[٤] "أي والذي خلق"،[٥] "والقادر: العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد".[٦] ثم عمم السبحاني الخلق وهو ما تذهب اليه الباحثة فقال: "سواء أكان من جنس الانسان أو من جنس الحيوان، وتطبيقه في بعض التفاسير على أبينا آدم وزوجه حواء، وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٧] من باب التمثيل لا التخصيص".[٨]

وأما جواب القسم أو المقسم عليه: هو قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾، فقال فيه السبحاني: "المراد تشتت السعي، فان سعي الانسان لمختلف وليس منصبا على اتجاه واحد، فمن ساع للدنيا ومن ساع للعقبى، ومن ساع للصلاح والفلاح، ومن ساع للهلاك والفساد"،[٩] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[١٠]: "إن عملكم لمتباعد بعضه من بعض، لأن بعضه ضلال وبعضه هدى، وبعضه يوجب الجنان، وبعضه يوجب النيران، فشتان ما بينهما".[١١]

تخلـــص الباحثة: إن هذه الآية يمكن ان تشير الى السعي المادي الدنيوي من زراعة

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٤، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٢.

(٢) الكشاف للزمخشري، ٤ / ٢٦٠ وينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٤ / ٣٤٣، مفاتيح الغيب للرازي: ٣١ / ١٩٨، القسم لعبد العاطي: ص ١٦٦.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٤ – ٤٥٥، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٢ – ١٧٣.

(٤) ينظر: مجاز القرآن للتميمي: ٢/ ٣٠١، القرآن العظيم لأبي حاتم: ١٠ / ٣٤٤٠، بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٥٦٤، زبدة التفاسير لفتح الله: ٧ / ٤٤٥، التفسير الصافي للفيض الكاشاني: ٥ / ٣٣٦.

(٥) مجمع البيان للطبرسي، ١٠ / ٣٧٥.

(٦) الكشاف للزمخشري، ٢٦٠/٤ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٧/ ٤٤٥، القسم لعبد العاطي: ص ١٦٦.

(٧) ينظر: أحكام القرآن لابن عربي: ٤ / ٤٠٢، المحرر الوجيز لابن عطية: ٥ / ٤٩٠.

(٨) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٥٤ – ٤٥٥، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٢ – ١٧٣.

(٩) المصدران نفسهما.

(١٠) ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠ / ٢٧٦، بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٥٦٤، تفسير القرآن للسمعاني: ٦ / ٢٣٦، التبيان للطوسي: ١٠ / ٣٦٣، زاد المسير لابن الجوزي، ٨ / ٢٦٢.

(١١) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ١٩٩.

وتجارة... ويمكن ان تشير الى السعي المعنوي الخاص بالنفس الأنسانية واعتقاد الأنسان بالبعث والحساب والجنة والنار. إذ "إن سعيكم أيها المكلفون لمتفاوت تفاوتا كثيرا، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها، والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى العمل له ببقائه، وينتفع به صاحبه، أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي ببطلانها ويضمحل باضمحلالها؟ وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله، بهذا الوصف".[١]

ثم أضاف السبحاني قائلاً: "وإنه سبحانه صنف المساعي على قسمين، وقال في الآيات التالية بأن الناس على صنفين: فصنف يصب سعيه في طريق العطاء والتقى والتصديق بالحسنى، فييسر لليسرى، وصنف آخر يصب سعيه على ضد ما ذكر فيبخل ويستغني بما لديه، ويكذب بالحسنى، فييسر للعسرى. قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[٢]"،[٣] أن الذين سلكوا طريق الإنفاق والتقوى، واطمئنوا إلى جزاء الله وثوابه في الآخرة، تتذلل أمامهم المشاكل وينعمون في الدنيا والآخرة بالسكينة والاطمئنان. أما الذين بخلوا وطلبوا الغني وهي ذريعتهم لبخلهم، ووسيلتهم لاكتناز المال، أو قد تكون إشارة إلى ظنهم بأنهم مستغنون عن ثواب الآخرة، عكس الطائفة الأولى المنشدة إلى مثوبة الله، فان هذه المجموعة ستحرم التوفيق، ويتعسر عليها شق الطريق وتواجه الضنك والنصب في الدنيا والآخرة، وهؤلاء البخلاء الخاوون من الإيمان يشق عليهم فعل الخير وخاصة الإنفاق، بينما هو للمجموعة الأولى مقرون باللذة والانشراح.[٤]

أما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقال فيها السبحاني: "هي أنه سبحانه أقسم بالمتفرقات خلقا وأثرا على المساعي المتفرقة في أنفسها وآثارها، فأين التقوى والتصديق من البخل والتكذيب؟!"،[٥] "جاء القسم في سياق معجز بين متقابلات من الكون والنفس البشرية وأعمال الأنسان، وكذا الآخرة وما فيها من حساب على الأعمال خيرها وشرها، وأن سعي الأنسان ينبثق عن نتائج منها النافع ومنها الضار".[٦]

---

(١) تيسير الكريم للسعدي، ص ٩٢٧.
(٢) سورة الليل، الآيات / ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠.
(٣) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٥، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٣.
(٤) ينظر: الامثل للشيرازي: ٢٠ / ٢٥٩.
(٥) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٥، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٣.
(٦) القسم لعبد العاطي، ص ٢٢٧.

٦. القسم بالضحى والليل (في سورة الضحى)

- قال تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ * وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾. [١]

قدم السبحاني عند تفسيره هذه الآيات الكريمة المعاني اللغوية[٢]، وأردف ذلك بإيضاح أركان القسم ثم فصل في المعنى الأجمالي للآيات قائلاً: "ووقت أرتفاع الشمس، وإذا غطى الليل وجه الأرض وعمت ظلمته جميع أنحاء البسيطة. هذا هو المقسم به"،[٣] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٤]: "ووقت ارتفاع الشمس. وتخصيصه لأنّ النهار يقوى فيه"،[٥] وذهب بعضهم الى: أنه "وقت النهار كله".[٦] فضلاً عن القسم بالليل الساكن الراكد ظلامه، إذ أن"هذه استعارة. ومعنى سجى، أي سكن. والليل لا يسكن، وإنما تسكن حركات الناس فيه، فأجرى سبحانه صفة السكون عليه لما كان السكون واقعا فيه".[٧]

وأما المقسم عليه: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾، فقال فيه السبحاني: "فهو ما جاء عقبه، أي ما تركك يا محمد ربك وما أبغضك منذ اصطفاك"،[٨] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٩]: "ما تركك منذ اختارك، ولا أبغضك منذ أحبّك"،[١٠] "ما قطع عنك الوحي توديعا لك، وما أبغضك منذ اصطفاك".[١١] أضاف السبحاني قائلاً: "﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ أي ثواب الآخرة والنعيم

---

[١] سورة الضحى، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤، ٥.

[٢] "الضحى": هو وقت الضحى، وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقي شعاعها. ينظر: العين للفراهيدي: ٣ / ٢٦٥، مادة (ضحو). "سجى": أي والليل إذا سكن، يقال: سجى البحر سجوا، أي سكنت أمواجه، ومنه استعير تسجية الميت، أي تغطيته بالثوب. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٤/ ٣٧١، مادة (سجا). مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٦، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٤.

[٣] مفاهيم القرآن، ٤٥٦/٩، الأقسام للسبحاني، ص١٧٤.

[٤] ينظر: التبيان للطوسي: ١٠/ ٣٦٧، الكشاف للزمخشري:٢٦٣/٤، تقريب القرآن لمحمد للشيرازي:٦٩٢/٥ التحقيق في كلمات القرآن لمصطفوي: ٦١/٥.

[٥] زبدة التفاسير لفتح الله، ٧ / ٤٥٢.

[٦] جامع البيان للطبري، ٢٩١/٣٠، تفسير القرآن للسمعاني، ٢٤٢/٦، وينظر: تفسير القرآن الكريم لشبر: ص٥٦٠.

[٧] تلخيص البيان للرضي، ص ٣٦٧ وينظر: الكشاف للزمخشري: ٤ / ٢٦٣، روح المعاني للآلوسي: ٣٠/ ١٥٣، التفسير المقارن للناصري: ٨ / ٦١٠، القسم لعبد العاطي: ص ١٦٦.

[٨] مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٦، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٤.

[٩] ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠ / ٢٩٠ وينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ١٠ / ٣٤٤٢، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥ / ١٤١، مدارك التنزيل للنسفي: ٤ / ٣٤٤، التفسير المقارن للناصري: ٨ / ٦١١، القسم لعبد العاطي: ص ١٨٦.

[١٠] الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ٢٢٤ وينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٤ / ٣٤٤.

[١١] مجمع البيان للطبرسي، ١٠ / ٣٨٢.

الدائم فيها خير لك من الدنيا الفانية".[١] وللمفسرين أقوال عدة **تذكر الباحثة** منها: "كان في ضمن نفي التوديع والقلى أن الله مواصلك بالوحي إليك وأنك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله وشهادة أمته على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية".[٢]"وذكر الرازي وجوها عدة لتفضيل الآخرة على الدنيا **تذكرها الباحثة** للفائدة: "**أحدها:** كأنه تعالى يقول له إنك في الدنيا على خير لأنك تفعل فيها ما تريد، ولكن الآخرة خير لك لأنا نفعل فيها ما نريد **وثانيها:** الآخرة خير لك يجتمع عندك أمتك إذ الأمة له كالأولاد وهو أب لهم، وأمته في الجنة فيكون كأن أولاده في الجنة. **وثالثها:** الآخرة خير لك لأنك اشتريتها، أما هذه ليست لك، فعلى تقدير أن لو كانت الآخرة أقل من الدنيا لكانت الآخرة خيراً لك، لأن مملوكك خير لك مما لا يكون مملوكاً لك، فكيف ولا نسبة للآخرة إلى الدنيا في الفضل. **ورابعها:** الآخرة خير لك من الأولى لأن في الدنيا الكفار يطعنون فيك أما في الآخرة فأجعل أمتك شهداء على الأمم، وأجعلك شهيداً على الأنبياء. **وخامسها:** إن خيرات الدنيا قليلة مشوبة منقطعة، ولذات الآخرة كثيرة خالصة دائمة".[٣] ثم تم السبحاني تفسير الآيات قائلاً:" ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ أي سوف يعطيك ربك في الآخرة ما يرضيك من الشفاعة والحوض وسائر أنواع الكرامة"،[٤] وهو ما ذهب اليه الطبرسي إذ قال: "سيعطيك ربك في الآخرة من الشفاعة والحوض، وسائر أنواع الكرامة فيك، وفي أمتك، ما ترضى به".[٥] وخص أغلب المفسرين الرضى: بالشفاعة.[٦]

تخلص الباحثة: إن رسول الرحمة وسيد الشافعين محمد (ﷺ) في هذه الدنيا مشمول بالطاف الله تعالى التي لامجال لحصرها، وفي الآخرة أكثر وأفضل منزلة ودرجة ومقاما محمودا الا وهي (الشفاعة).

وأما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقال فيها السبحاني: "لا تخلو من وضوح: **أولاً:** لان نزول الوحي يناسب الضحى، وأن انقطاعه يناسب الليل. **الثاني:** لأن عماد الحياة هو

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٦ – ٤٥٧، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٤ – ١٧٥.

(٢) الكشاف للزمخشري، ٤ / ٢٦٤ وينظر: روح المعاني للآلوسي: ٣٠ / ١٥٨.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ٢١٢.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٦ – ٤٥٧، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٤ – ١٧٥.

(٥) مجمع البيان للطبرسي، ١٠ / ٣٨٢ وينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٥٦٨.

(٦) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ٤ / ٤٩٨، مدارك التنزيل للنسفي: ٤ / ٣٤٤، الكشاف للزمخشري: ٤ / ٢٦٤، مفاتيح الغيب للرازي: ٣١ / ٢١٢، زبدة التفاسير لفتح الله: ٧ / ٤٥٣.

مجيئ الليل عقب النهار، لا استدامة النهار ولا استدامة الليل، فهكذا الحال في عماد الحياة النبوية الذي هو نزول الوحي نجوما تثبيتا لقلب النبي (ﷺ). **الثالث:** ولان الضحى والليل نعمة من نعم الله سبحانه من بها على عباده لما لهما من تأثير مباشر في استقرار الحياة وهكذا الحال في نزول الوحي نجوما"،[١] "وتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمدا ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه"،[٢] إذ أنها"صورة مترابطة بين المقسم به والمقسم عليه، صورة حسية بين الحسيات المتمثلة في الضحى ونوره الذي يعم الآفاق ونور الإيمان والإسلام الذي حل على الأرض فأزال الظلم والظلمات وحل في القلب فجلى مابه من بغضاء وأمراض، والصورة التي تقابل هذه الصورة هي صورة الليل عندما يغطي الأرض بظلمته الساكن الراكد على الأرض لغياب النور؛ فما غاب نور الضحى عن الأرض كما لم يغب تأييد الله لرسوله ولم يدعه حتى يغيب عنه، ولم يبغضه حتى يكون في هذا الموقف الذي ظن كفار مكة أن ربه ودعه وقطع الوحي فجاء الرد بالقسم بنفي هذا الزعم".[٣]

ثالثا: القسم بالأمكنة

١- القسم بالكعبة في سورة (الطور)

-قال تعالى: ﴿ وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ * وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ * وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.[٤]

٢- القسم بالبلد في السور (البلد، التين)

١. قال تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾.[٥]

بدأ السبحاني توضيح أركان القسم قائلاً: "حلف فيها سبحانه بمكة المكرمة وحلف بالنبي (ﷺ) الحال فيها، ومقتضى التناسب بين الأقسام أن يكون المراد من الوالد والولد، هو

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٥٧، الأقسام للسبحاني، ص ١٧٥.

(٢) الإتقان للسيوطي، ٤ / ٥١، معترك الأقران للسيوطي، ١/ ٤٥٥، وينظر: أسلوب القسم الظاهر لعطا حسين: ص٢٩، الإعجاز والبيان للقمحاوي: ٣ / ٢٨.

(٣) القسم لعبد العاطي، ص ٢٢٨.

(٤) تم تناولها في الفصل الثالث / المبحث الثالث / المطلب الثاني / ص٢٩٩-٣٠٣.

(٥) سورة البلد، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤.

إبراهيم وإسماعيل اللذان بنيا البيت، ودعا إبراهيم كل راكب وراحل إلى زيارته".[١] إذ أجمع المفسرون على أن ذلك البلد هي مكة،[٢] وأن فضل مكة معروف، إذ قال فيه السبحاني: "إن البيت مركز للتوحيد ولعبادة الله سبحانه، وهو مطاف أنبياء الله العظام وأوليائه، فقد بلغ من المكانة مرتبة صلح أن يحلف به سبحانه، كيف وقد قال سبحانه في حق البيت: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾.[٣] قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾،[٤] فلو حلف بالبلد، فإنما لأجل احتضانه أشرف بيوت الله، ويزيد على شرفه ان النبي الخاتم، قطين هذا البلد، ونزيله، فزاده شرفا على شرف، والحل هو الساكن. وبذلك يعلم أن ذكره (ﷺ) بهذا النحو هو في الواقع حلف ضمني به. وهذا التفسير مبني على أن المراد من الحل هو نزول النبي (ﷺ) بهذا البلد".[٥] فضلاً عن ذلك: "إن الله تعالى جعلها حرماً آمناً، وجعل ذلك المسجد قبلة لأهل المشرق والمغرب، وشرف مقام إبراهيم، وحرم فيه الصيد، وجعل البيت المعمور بإزائه، ودحيت الدنيا من تحته، فهذه الفضائل وأكثرمنه لما اجتمعت في مكة لا جرم أقسم الله تعالى بها".[٦] ثم أضاف السبحاني قائلاً: "ربما يفسر بالمستحل، أي من استحلت حرمته وهتكت كرامته، وعند ذلك ينقلب معنى الآية إلى شئ آخر، ويكون معناها هو: لا أقسم بهذا البلد المقدس حال انك مهتوك الحرمة والكرامة، ويكون توبيخا وتقريعا لكفار قريش إذ إنهم يحترمون البلد، ولا يحترمون من حل فيه أشرف الخليقة"،[٧] وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين،[٨] فضلاً عن قولين آخرين ذهبا اليهما المفسرون: **الأول:** حل لك ما صنعته في هذا البلد من قتل وغيره.[٩] **والثاني:** وأنت محل بهذا البلد غير محرم في دخوله، يعني: نازل بهذا

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٤١، القسم في القرآن الكريم للسبحاني، ص ١٥٩.

(٢) ينظر: تفسير القرآن للصنعاني: ٣ / ٣٧٣، جامع البيان للطبري: ٣٠ / ٢٤٢، الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ٢٠٦، التبيان للطوسي: ١٠ / ٣٤٩، مجمع البيان للطبرسي: ١٠، ٣٦١.

(٣) سورة آل عمران، الآية / ٩٦.

(٤) سورة البقرة، من الآية / ١٢٥. وللمزيد الأطلاع على: سورة المائدة / ٩٧.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٤١ – ٤٤٢، القسم في القرآن الكريم للسبحاني، ص ١٥٩ – ١٦٠.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ١٨٠.

(٧) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٤٢، القسم في القرآن الكريم للسبحاني، ص ١٦٠.

(٨) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٤ / ٣٣٩، الكشاف للزمخشري: ٤ / ٢٥٦، مجمع البيان للطبرسي: ١٠ / ٣٦١، روح المعاني للآلوسي: ٣٠ / ١٣٣.

(٩) ينظر: تفسير القرآن للصنعاني: ٣ / ٣٧٢، جامع البيان للطبري: ٣٠ / ٢٤٣، القرآن العظيم لأبي حاتم: ١٠ / ٣٤٣٢، الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ٢٠٦، مفاتيح الغيب للرازي: ٣١ / ١٨١.

البلد (مقيم).[١]

تذهب الباحثة الى: أن جميع الأقوال صحيحة في نفسها، ولكنها بعيد عن مدلول اللفظ، فإن المتبادر إلى الافهام من ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا البَلد﴾ هو أنت مقيم فيه، لا أنت حلال فيه وهو القول الثالث الذي ذهب اليه مفسرون آخرون. إذ إنالبلد الذي استحق أن يقسم به الله هو لوجود النبي (ﷺ)، "فلا يتصور كفار مكة أن القرآن يقسم ببلدهم تكريما لهم ولأوثانهم، لا فهذا البلد مكرم لما يحمله من تاريخ الرسالات السماوية. . ولما يحتضنه من رسالة خاتمة، ونبي خاتم".[٢]

أتم السبحاني المقسم به قائلاً: "ثم حلف بوالد وما ولد"،[٣] وللمفسرين في تفسيره أقوال **أذكر منها مثلاً:**

الأول: إن الوالد إبراهيم الخليل والولد إسماعيل الذبيح. والتفسير هذا يتناسب مع القسم بمكة، وهو ما ذهب اليه السبـــحاني وآخرون إذ قال: "أوضحها بأن الوالد هو إبراهيم الخليل والولد إسماعيل الذبيح، لان الوالد والولد هما رفعا قواعد البيت".[٤]

الثاني: إن المقصود بالوالد والولد آدم وذريته. [٥]

الثالث: كل والد وما ولد وانجب وأعقب.[٦]

وتذهب الباحثة: الى ترجيح القول الثالث إذ يرشد اليه التنكير في الآية، وهو أقرب الى ظاهر اللفظ من غيره.

أما المقسم عليه، فقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾. قال فيه السبحاني بعد التعريف اللغوي لمفردة (الكبد)[٧]: "معنى الآية واضح، فان الانسان منذ خلق إلى أن أدرج في

---

(١) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٨ / ٢٥١، جواهر الحسان للثعالبي: ٥/٥٩٠، التفسير الكاشف لمغنية: ٧ / ٥٦٥، الميزان للطباطبائي: ٢٠ / ٢٨٩.

(٢) الامثل للشيرازي، ٢٠ / ٢٠٧.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٤٣، القسم في القرآن الكريم للسبحاني، ص ١٦١.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٤٣، القسم في القرآن الكريم للسبحاني، ص ١٦١ وينظر: الكشاف للزمخشري: ٤/ ٢٥٥، الامثل للشيرازي: ٢٠ / ٢٠٧.

(٥) ينظر: تفسير القرآن للصنعاني: ٣ / ٣٧٣، بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٥٥٩، معالم التنزيل للبغوي: ٤/ ٤٨٨، مجمع البيان للطبرسي: ١٠ / ٣٦٢،

(٦) ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠ / ٢٤٤، التبيان للطوسي: ١٠ / ٣٥٠، البحر المحيط لأبي حيان: ٨ / ٤٦٩، جواهر الحسان للثعالبي: ٥ / ٥٩٠، في ظلال القرآن لسيد قطب: ٦ / ٣٩٩، التفسيرالكاشف لمغنية: ٧ / ٥٦٦، من وحي القرآن لفضل الله: ٢٤ / ٣٠٣، التفسير المقارن للناصري: ٨ / ٥٨٣.

(٧) "كبد": شدة الامر ومنه تكبد البلد إذا غلظ واشتد، ومنه الكبد للانسان، لأنه دم يغلظ ويشتد، وتكبد البلد: إذا صار كالكبد. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٥ / ١٥٣، مادة (كبد)، مفاهيم القرآن: ٩ /٤٤٣، الأقسام للسبحاني، ص ١٦١.

أكفانه لم يزل يكابد أمرا فأمرا، فمن حمله وولادته ورضاعه وفطامه وشبابه وكماله وهرمه كل ذلك محفوف بالتعب أما الكلام حول الدنيا ومصاعبها وما احتضنت من التعب والوصب فيكفي في ذلك قراءة خطب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام). ثم أضاف السبحاني قائلاً: ربما ينظر الانسان إلى من هو فوقه لا سيما الذين يتمتعون بالغنى والرفاه، فيخطر على باله أن حياة هؤلاء غير مشوبة بالكد والتعب، ولكن هذا التصور غير صائب إذ إنتعبهم وكدهم أكثر بمراتب من الذين هم دونهم".[١] وذهب الرازي الى: "أنه ليس في هذه الدنيا لذة البتة، بل ذاك يظن أنه لذة فهو خلاص عن الألم، فإن ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عند ألم الجوع، وما يتخيل من اللذات عند اللبس فهو خلاص عن ألم الحر والبرد، فليس للإنسان، إلا ألم أو خلاص عن ألم وانتقال إلى آخر، فهذا معنى قوله: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ ويظهر منه أنه لا بد للإنسان من البعث والقيامة، لأن الحكيم الذي دبر خلقة الإنسان إن كان مطلوبه منه أن يتألم، فهذا لا يليق بالرحمة، وإن كان مطلوبه أن لا يتألم ولا يلتذ، ففي تركه على العدم كفاية في هذا المطلوب، وإن كان مطلوبه أن يلتذ، فقد بينا أنه ليس في هذه الحياة لذة، وأنه خلق الإنسان في هذه الدنيا في كبد ومشقة ومحنة، فإذا لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى، لتكون تلك الدار دار السعادات واللذات والكرامات".[٢] "فليس يقصد نعمة من نعم الدنيا إلا خالصة في طيبها، محضة في هنائها، ولا ينال شيئا منها إلا مشوبة بما ينغص العيش مقرونة بمقاساة ومكابدة، فضلاً عن ما يصيبه من نوائب الدهر ويفاجئه من طوارق الحدثان".[٣]

وتخلص الباحثة: القول فيما ذهب اليه المفسرون بقول الشاعر:

طبعت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأكدار والأقذار

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار.[٤]

وأما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقال فيها السبحاني: "إذ لم تزل حياة إبراهيم وولده مقرونة بالتعب والوصب، إذ ولد وقد أمضى صباه في الغاب خوفا من بطش الجهاز الحاكم، وبعد ما خرج منها وله من العمر ١٣ سنة أخذ يكافح الوثنيين وعباد الاجرام السماوية، إلى أن حكم عليه بالرمي في النار والاحراق، فنجاه الله سبحانه، فلم يجد بدا من مغادرة الوطن

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٤٣ – ٤٤٦، الأقسام للسبحاني، ص ١٦١ – ١٦٤ وينظر: التبيان لأبن قيم: ص ٢٢.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١/ ١٨٣.

(٣) الميزان للطباطبائي، ٢٠/ ٢٩١ وينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٤٤٦، الأقسام للسبحاني: ص ١٦٤.

(٤) ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي، لعلي بن محمد التهامي أبو الحسن (ت ٤١٦ هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الربيع، مكتبة المعارف، بيروت، ص ١٤٤.

والهجرة إلى فلسطين ولم يزل بها حتى أمر بإيداع زوجه وابنه في بيداء قاحلة لا ماء فيها ولا زرع، يحكي سبحانه تلك الحالة عن لسان إبراهيم (عليه السلام) ويقول: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾[١]".[٢] قال ابن قيم الجوزية: "أقسم بالوالد وما ولد وهو آدم وذريته، وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان وأصل السكان فمرجع البلاد إلى مكة ومرجع العباد إلى آدم".[٣]

٢. قال تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ * لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ * ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾.[٤]

المطلب الثالث: القسم بالأجرام السماوية

أقسم سبحانه في آيات عدة بالأجرام السماوية وحركاتها التي تبين ما جعل الله من المنفعة الجليلة لكلّ الناس وتدعو البشر إلى التأمل والتفكر فيما في ذلك من النعمة الرحمانية والحكمة، وهذه الأجرام السماوية هي وحدات من المجموعة الشمسية التي هي المجموعة الوحيدة من بين آلاف المجموعات التي يتألف منها الكون والتي يمكن القول باننا نعرف عنها بعض الحقائق لأننا نعيش فيها ولان الله سبحانه اشار الى بعضٍ منها في آياته ذكرها السبحاني في توضيح ايات القسم بها وتذكرها الباحثة على النحو الآتي:

١ – القسم بالشمس والقمر في سور (الشمس والمدثر والأنشقاق)

١. قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا * وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا * قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[٥].[٦]

٢. قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ * كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ * وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ * وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ

---

(١) سورة أبراهيم، الآية / ٣٧.
(٢) مفاهيم القرآن: ٩ / ٤٤٦، الأقسام للسبحاني: ص ١٦٤.
(٣) التبيان لأبن قيم، ص ٢٣.
(٤) تم تناولها في الفصل الثالث / المبحث الثالث / المطلب الثاني / ص٣٠٣-٣٠٩.
(٥) سورة الشمس، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠.
(٦) تم تناولها في الفصل الثالث / المبحث الثالث / المطلب الثاني / ص٣٢٠-٣٢٧ .

* إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾[١]. [٢]

٣. قال تعالى: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ * فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾[٣]. [٤]

٤. قال تعالى: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [٥]. [٦]

حَسُن القسم بالشمس لما فيها من عجيب الحكمة، ولا شك أن مصالح العالم السفلي مرتبطة بسير الشمس فيدل ذلك على أن لها صانعاً حكيماً إذ "بها يكون البخار فيصير سحابا فمطرا فيكون النبات والحيوان، إن الفحم الحجري المطمور تحت الأرض من مئات ألوف السنين قد خزنت فيه حرارة الشمس وها هو الآن تجري به المركبات وتسرع الحركات، بالشمس كانت الرياح اللآتي تجري بها السفن والمطاحن؛ لان الأنهار نفسها سببها الشمس وغيرها مما لاتعد تلك النعم ولم تكتشف لحد الآن".[٧] "إن القسم بالقمر جاء للتأكيد على عظمته، فهو أقرب الاجرام السماوية للأرض وأقل حجما منها، يدور حول الأرض مرة كل شهر، وجاذبية القمر مع جاذبية الشمس هي سبب المد والجزر. وتبلغ درجة حرارة جانب القمر المواجه للشمس ١٢٠ درجة مئوية، أي أعلى من درجة غليان الماء، ودرجة حرارة الجانب المظلم أقل من درجة تجمد الماء بقدر يبلغ ١٥٠ درجة. وأن سطحه صحاري وقفار تتناهض فيها البراكين الخامدة، وجباله ضخمة عظيمة يبلغ ارتفاعها ٤٢ ألف قدم بزيادة تقرب من ١٣ ألف قدم عن أعلى جبل على الأرض، وفوهات البراكين هائلة العظمة يبلغ قطر أكبرها ١٠٠ ميل، وجباله أقدم بكثير من سلاسل الجبال الأرضية بملايين السنين".[٨] وأنه "تابع للأرض يدور حولها مرة في كل شهر قمري، والأرض تدور في نفس الوقت حول الشمس، وتبلغ سرعة القمر أثناء دورته حول الأرض ٣٣٠٠ ميلا في الساعة، وتبلغ كتلة الأرض ٨٠ مرة قدر كتلة القمر، ويبعد القمر عن

---

[١] سورة المدثر، الآيات/ ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧.

[٢] تم تناولها في الفصل الثالث/ المبحث الثالث/ المطلب الثاني/ ص ٣٠٩-٣١١.

[٣] سورة الأنشقاق، الآيات / ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١.

[٤] تم تناولها في التمهيد، ص١٧-١٩ .

[٥] سورة الشمس، الآيات/ ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠.

[٦] تم تناولها في الفصل الثالث، المبحث الثالث / المطلب الثاني / ص٣٢٠-٣٢٧.

[٧] الجواهر في تفسير القرآن الكريم، لطنطاوي جوهري (ت ١٣٥٨ هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر، ١٣٤٨ هـ، ١٤ / ٦٠.

[٨] الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل،ص٢٧ وينظر :مفاهيم القرآن: ٣٩٩/٩، الأقسام للسبحاني: ص١٤١.

الأرض بمقدار ٢٤٠٠٠٠ كيلومتر، ويستخدم الرادار في قياس أبعاد الأجرام السماوية القريبة فقط: مثل القمر وذلك بمعرفة الزمن الذي تقطعه الموجة اللاسلكية في الذهاب إلى القمر والعودة منه، ويدور القمر حول محوره ببطئ شديد، ولذا كان يومه أطول من يومنا كثيرا، فيستغرق كل من الليل والنهار أسبوعين، أي أن الشهر القمري نصفه نهار على وجه من القمر، ونصفه ليل على وجهه المقابل".[١]

٢ – القسم بالكواكب والنجوم والطارق (في السور التكوير والبروج)

١. قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ *ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ *وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ *وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ *إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ *ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ *مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴾ [٢].[٣]

٢. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ *وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ *وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ *قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ *ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ *إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ *وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ *وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾.[٤]

مهّد السبحاني عند تفسيره الآيات بالحديث عن القسم فيها وهو أربعة أركان، ثم فصل في المعاني التي استتبعتها قائلاً: "حلف سبحانه في سورة البروج **بأمور أربعة: أ:** ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴾: المنازل. **ب:** ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴾: القيامة. **ج:** ﴿ وَشَاهِدٖ ﴾. **د:** ﴿ وَمَشۡهُودٖ ﴾. فأقسم سبحانه بالعالم العلوي وهو السماء وما فيها من المنازل التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها، والمراد هنا مواضع الكواكب من السماء أو منازل النجوم على وجه الأطلاق"،[٥] وذهب أغلب المفسرين الى: أنها النجوم، اي السماء ذات النجوم،[٦] وذهب بعض المفسرين الى:"أنها السماء ذات منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجا، فمسير القمر في كل برج منها يومان وثلث، فذلك ثمانية وعشرون منزلا، ثم يستسر ليلتين، ومسير الشمس في كل برج منها شهر".[٧]

---

(١) القرآن واعجازه العلمي لمحمد اسماعيل، ص ٧٥.

(٢) سورة التكوير، الآيات / ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١.

(٣) تم تناولها في الفصل الثالث / المطلب الثاني: ص ٣١١– ٣١٥.

(٤) سورة البروج، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٢٨ – ٤٢٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٤٧ وينظر: التبيان لأبن قيم: ص ٥٦.

(٦) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٥٤١، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥ / ١١٤، تفسير القرآن للسمعاني: ٦ / ١٩٤، التفسير العظيم لعبد السلام: ٣ / ٤٣٦.

(٧) جامع البيان للطبري: ٣٠ / ١٦٠ وينظر: التبيان للطوسي ١٠ / ٣١٥، مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٣١٥، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥ / ٤٧٢، التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي: ٢/ ٤٦٧.

ثم أتم السبحاني المقسم به قائلاً: "ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها الذي هو مظهر ملكه وأمره ونهيه وثوابه وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه والحكم بينهم بعلمه وعدل، واليوم الموعود عطف على السماء وهو يوم القيامة الذي وعد الله سبحانه أن يجمع فيه الناس ويوم الفصل والجزاء الذي وعد الله به على ألسنة رسله وفيه يتفرد ربنا بالملك والحكم. وقد وعد الله سبحانه به في القرآن الكريم غير مرة وقال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.[١] وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾.[٢] إلى غير ذلك من الآيات التي سمى الله سبحانه فيها ذلك اليوم بوعد الله"،[٣] وهو ما أجمع المفسرون عليه أي إنه يوم القيامة.[٤] وأختلف المفسرون في تفسير الشاهد والمشهود، إذ قال السبحاني: "أقسم بكل شاهد ومشهود – إذا كان اللام للجنس – فيكون المراد كل مدرك ومدرك وراع ومرعي، والمصداق البارز له هو النبي الذي سمي شاهدا. و أن المصداق البارز للمشهود هو يوم القيامة، وشاهد ومشهود، اللفظان معطوفان على السماء والجميع قسم بعد قسم، وأما ما هو المقصود؟ فالظاهر أن الشاهد هو من عاين الأشياء وحضرها، وأوضحه مصداقا هو النبي (ﷺ) لأنه سبحانه وصفه بكونه شاهدا، قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾.[٥] نعم تفسيره بالنبي الخاتم (ﷺ) من باب الجري والتطبيق على أفضل المصاديق وإلا فله معنى أوسع، يقول سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.[٦] فقد عد المؤمنين شهودا على الأعمال، فإن الغاية من الرؤية هو الشهود. وتدل الآيات على أن نبي كل أمة شاهد على أمته، قال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾.[٧] وأما المشهود فالمراد منه يوم القيامة، لأنه من صفات يومها، قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾.[٨] والمراد به ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾

---

(١) سورة يونس، الآية / ٤٨.
(٢) سورة الكهف، من الآية / ٢١.
(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٢٨، الأقسام للسبحاني، ص ١٤٦.
(٤) وينظر: تفسير القرآن للصنعاني: ٣ / ٣٦١، الكشف والبيان للثعلب: ١٠ / ١٦٤، التبيان للطوسي: ١٠ / ٣١٥، مجمع البيان للطبرسي: ١٠ / ٣١٥، القسم لعبد العاطي: ص ١٥٨، زبدة التفاسير لفتح الله: ٧ / ٣٨٢.
(٥) سورة الأحزاب، الآية / ٤٥.
(٦) سورة التوبة، ١٠٥.
(٧) سورة النساء، الآية / ١٥٩.
(٨) سورة هود، من الآية / ١٠٣.

أي يجمع فيه الناس كلهم الأولون والآخرون منهم للجزاء والحساب والهاء في له راجعة إلى اليوم ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي يشهده الخلائق كلهم من الجن والإنس وأهل السماء وأهل الأرض أي يحضره ولا يوصف بهذه الصفة يوم سواه وفي هذا دلالة على إثبات المعاد وحشر الخلق".[١] وتشير الباحثة الى الأقوال الآخرى أشارةً خوفاً من الأطالة والتكرار، إذ ذكر الطبرسي ثمانية أقوال،[٢] وذهب أبن الجوزي الى أربعة وعشرين قولاً،[٣] وذكر مغنية ثمانية وأربعين قولاً.[٤]

ترى الباحثة بعد الأطلاع على أغلب التفاسير: إن الآية عامة تشمل جميع الأقوال ولا تختص بأحدها دون غيره، ويبقى الشاهد هو كل ما يمكن أن يشهد على الأنسان من رسول أو أمام أو ملك أو يوم أو وقت أو مكان أو مشهد أو جارحة أو غيرها في يوم مشهود وهو يوم القيامة.

إما المقسم عليه فقد أختلف فيه المفسرون الى أقوال عدة **تذكر الباحثة** بعضاً منها:

-**الأول:** إنه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ وفسره بقوله: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ أي أصحاب الأخدود هم أصحاب النار التي لها من الحطب الكثير ما يشتد به لهيبها، ويكون حريقها عظيما، ولهيبها متطايرا. ثم أشار إلى وصف آخر لهم ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أي أحرقوا المؤمنين بالنار وهم قاعدون حولها يشرفون عليهم وهم يعذبون بها ويوضحه قوله في الآية اللاحقة: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي أولئك الجبابرة الذين أحرقوا المؤمنين كانوا حضورا عند تعذيبهم يشاهدون ما يفعل بهم، وفي هذا إيماء إلى قسوة قلوبهم، كما فيه إيماء إلى قوة اصطبار المؤمنين وشدة جلدهم ورباطة جأشهم.[٥]

-**الثاني:** إنه يمكن أن يكون جواب القسم، قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾.[٦] فالله سبحانه يوعد الكفار ويعد المؤمنين، وهذان الرأيان ذهب

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٢٩ – ٤٣٠، الأقسام للسبحاني،ص ١٤٧– ١٤٨ وينظر:التبيان للطوسي: ٣١٦/١٠.

(٢) ينظر: مجمع البيان للطبرسي: ١٠ / ٣١٥ – ٣١٦.

(٣) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٨ / ٢١٥.

(٤) ينظر: التفسير الكاشف لمغنية: ٧ / ٥٤٥.

(٥) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٦ / ١٩٨، معالم التنزيل للبغوي: ٤ / ٤٧٠، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١٩ / ٢٨٦، البحر المحيط لأبي حيان: ٨ / ٤٤٢.

(٦) سورة البروج، الآيتان / ١٠، ١١.

اليهما السبحاني وآخرون.[١] ومنهم من ذهب الى أنه قد يكون: "الجواب محذوفا يدل عليه قوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾، كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء إنهم ملعونون يعنى كفار قريش كما لعن أصحاب الأخدود، وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة".[٢]

وتؤيد الباحثة: القول بأن جواب القسم هو القول الثاني وللأسباب الآتية:

الأول: إن الخطاب للنبي (ﷺ) للربط بين ما يلاقيه المؤمنون في عهده وما حدث لأهل الأخدود، فهذه الآية تشير الى أن العقاب ليس خاصاً بأهل الاخدود فقط، وانما لكل من يؤذي المؤمنين في كل زمان ومكان؛ فالآية تفيد العموم.[٣]

الثاني: إن هناك نماذج أخرى لافتتان المؤمنين من غير أهل الأخدود، كما حدث من تعذيب قوم موسى (عليه السلام) على يد فرعون إذ قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾،[٤] أي ان الله (عز وجل) لا يترك الذين يعتدون على عباده ويعذبون بلا عقاب، في الدنيا أو في الآخرة.[٥]

الثالث: لان هذا الجواب فيه أشارة الى أن الفرصة ما زالت سانحة لكل من عذب المؤمنين والمؤمنات ليتوبوا الى الله، "وإنما شرط عدم التوبة، لأنهم لو تابوا لما توجه إليهم الوعيد، وإن لم يتوبوا توجه إليهم الوعيد بقوله: ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾يعني في الآخرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ في الدنيا: لما خددوا للمؤمنين الأخاديد وطرحوا فيها النار وطرحوا فيها المؤمنين ارتفعت النار عليهم فأحرقتهم فرق الأخاديد ونجا المؤمنون".[٦]

الرابع: الظاهر أن قوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ دعائية، لأن معنى قتل لعن. والدعائية لا تكون جوابا للقسم.[٧]

---

(١) ينظر:مفاهيم القرآن: ٩/٤٣١-٤٣٢، الأقسام للسبحاني: ص ١٤٩-١٥٠، القسم لعبد العاطي: ص ١٧٦.

(٢) الكشاف للزمخشري: ٤ / ٢٣٧ وينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥ / ٤٧٢، اللباب في علوم القرآن لابن عادل: ٢٠ / ٢٤٧، زبدة التفاسير لفتح الله: ٧ / ٣٨٥.

(٣) ينظر: التفسير المحيط لأبي حيان: ٨ / ٤٤٤، معاني القرآن وإعرابه، أبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، دار المصرية، مصر، ط ١، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨م، ٣ / ٣٥٣، إرشاد العقل السليم لابي السعود: ٥/ ٥٠٧.

(٤) سورة البروج، الآيات / ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.

(٥) ينظر: القسم لعبد العاطي: ص ١٧٨.

(٦) التبيان للطوسي، ١٠ / ٣١٩.

(٧) ينظر: فتح القدير للشوكاني: ٥ / ٤١٢.

وأما الصلة بين المقسم به والمقسوم عليه، فقال فيها السبحاني: "هي انه سبحانه حلف بالسماء ذات البروج والبروج آية الدفاع إذ كان أهل البلد يدافعون من البروج المبنية على سور البلد عن بلدهم، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾،[١] فحلف سبحانه بالسماء ذات البروج في المقام مبينا بأن الله الذي يدفع بالبروج عن السماء كيد الشياطين كذلك يدفع عن إيمان المؤمنين كيد الشياطين وأوليائهم من الكافرين. ثم أقسم باليوم الموعود الذي يجزي فيها الناس بأعمالهم فهو يجزي أصحاب الأخدود بأعمالهم، وأقسم بالشاهد الذي يشاهد أعمال الآخرين، وأقسم بمشهود أي كل ما يشهده الشاهد وهو انه سبحانه تبارك وتعالى يعاين أعمالهم ويشاهدها".[٢] "بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته فأقسم بالعالم العلوي وهي السماء وما فيها من البروج، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرا الذي هو مظهر ملكه وأمره ونهيه وثوابه وعقابه ومجمع أوليائه وأعدائه والحكم بينهم بعلمه وعدله ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله وهو الشاهد والمشهود وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه وهم شهود على ما يفعلون بهم والملائكة شهود عليهم بذلك والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم وأيضا فالشاهد هو المطلع والرقيب والمخبر والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد فمن نوع الخليقة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين، كما أقسم باليوم الموعود وهو المقسم به وأيضا فيوم القيامة مشهود، فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل، والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب لأن القصة التنبيه على المقسم به وأنه من آيات الرب العظيمة".[٣] "ففي هذا القسم وجوابه ربط بين مشهدين: "فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة، واليوم الموعود وأحداثه الضخام، والحشود التي تشهد والأحداث المشهودة فيه. . تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة".[٤] إذ "يناسب القسم بالسماء في علوها وبروجها علو المؤمنين بإيمانهم"،[٥] وهذا **ماتذهب اليه الباحثة** وتؤيده.

---

(١) سورة الحجر، الآيتان / ١٦، ١٧.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٣٢، الأقسام للسبحاني، ص ١٥٠.

(٣) التبيان لأبن قيم، ص ٥٦ – ٥٧.

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب، ص ٦ / ٣٨٧٢– ٣٨٧٣.

(٥) القسم لعبد العاطي، ص ٢١٩.

٣. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴾.[١]

عند تفسيـــر السبحاني لهذه الآيــات الكريمة وبعد تمهيده المعنى اللغوي والتعريف الاصطلاحي،[٢] لم يقف على تفسير واحد للنص بل ذكر أكثر من تفسير (للنجم الثاقب) على وفق فهم المفسرين له بقوله: "حلف سبحانه **بأمرين:** بالسماء والطارق، ثم فسر الطارق بالنجم الثاقب، حلف بهما بغية دعوة الناس إلى الاذعان بأن لكل نفس حافظ"،[٣] وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين [٤]: "هذه السماء التي أقسم اللّه بها هي المعروفة. والطارق فسره اللّه هنا بأنه النجم الثاقب وهو يطلع ليلا ومعنى الثاقب: المضيء أو المرتفع. و جواب القسم معناه: أن كل نفس من بني آدم عليها حافظ يكتب أعمالها".[٥]

أختلف المفسرون في المراد ﴿ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ الى أقوال عدة **تذكر الباحثة** بعضاً منها:

-**الأول:** إنه زحل، وهذا ما ذهب اليه بعض المفسرين ومنهم السبحاني إذ قال: "هو كوكب زحل، فإنه من أبعد النجوم في مجموعتنا الشمسية التي يمكن رويتها بالعين المجردة وقيل لزحل عشرة أقمار يمكن روية ثمانية منها بالناظور العادي. ولا يمكن روية الآخرين إلا بالنواظير الكبيرة ".[٦]

-**الثاني:** إنه الثريا، وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٧]

-**الثالث:** إنـــه اسم جنس النجوم، وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين وأيده السبحاني إذ قال:

---

(١) سورة الطارق، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤.

(٢) "الطارق" في اللغة: هو من الطرق ويسمى السبيل طريقا، لأنه يطرق بالأرجل أي يضرب. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٠ / ٢١٥، مادة (طرق). اما "الطارق" في الأصطلاح: عرفه السبحاني بأنه: "خص في العرف بالآتي ليلا، فقيل انه طرق أهله طروقا، وعبر عن النجم بالطارق لاختصاص ظهوره بالليل". مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٣٣، الأقسام للسبحاني، ص ١٥١. "الثاقب" في اللغة: ثاقب الشئ الذي يثقب بنوره وإصابته ما يقع عليه. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ١/ ٣٨٢، مادة (ثقب). "لما"في اللغة: هي بمعنى (إلا). ينظر: العين للخليل الفراهيدي: ٨ / ٣٢٢، مادة (لم)، مفاهيم القرآن: ٩/ ٤٣٤: الأقسام للسبحاني، ص ١٥٢.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٣٤، الأقسام للسبحاني، ص ١٥٢.

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠ / ١٧٧، بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٥٤٦، مدارك التنزيل للنسفي: ٤ / ٣٣٠، مجمع البيان للطبرسي: ١٠ / ٣٢٠، التبيان لأبن قيم: ص ٦٣، القسم لعبد العاطي: ص ١٦٠.

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل لأبن الجزي، ٢/ ٤٧١.

(٦) مفاهيم القرآن، ٤٣٤/٩، الأقسام للسبحاني، ص١٥٢ وينظر: تنوير المقباس للفيروزآبادي: ص ٥٠٧، جواهر الحسان للثعالبي: ٥ / ٥٧٤.

(٧) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ١٧٧، معالم التنزيل للبغوي: ٤ / ٤٧٣.

"الظاهر أن المراد مطلق النجم الذي يثقب ضوؤه وإن كان زحل من أظهر مصاديقه".[١]

أما المقسم عليه فقد أختلف المفسرون فيه على **قولين، الأول:** هو قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين ومنهم السبحاني إذ قال فيه: "المراد من حافظ هم الموكلون على كتابة أعمال الانسان حسنها وسيئها، يحاسب عليها يوم القيامة ويجزى بها فالحافظ هو الملك والمحفوظ هو العمل، ويحتمل أن يراد من حافظ هو القوة الحافظة للانسان من الموت وفساد البدن، والقوى الظاهرية والمادية والمعنوية التي هي من جنود ربنا والتي وكلت لحفظ الانسان من الشر إلى أن ينقضي عمره، هم الحفظة، ولكن المعنى الأول هو الأنسب"،[٢] "أي ما كل نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها وقولها وفعلها، ويحصي ما يكتسبه من خير وشر"،[٣] ومنهم من قال ان الحافظ هو الله سبحانه.[٤] **الثاني:** هو قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾،[٥] وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٦]

وتؤيد الباحثة: القول الأول وتستبعد الثاني وذلك لان جملة جواب القسم جملة أسمية مؤكدة ب (ان) لتأكيد النفي بأن تكون هناك نفس خلقت بلا حافظ ايا كان هذا الحافظ، ومجئ كلمة (نفس) نكرة يفيد العموم إذ جاء قبلها ما يؤكد هذا العموم، أي أنه لا توجد نفس بلا حافظ، "يحفظ عليه عمله ويحصيه فلا يضيع منه شيء ثم نبه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ على بعثه لجزائه على العمل الذي حفظ وأحصى عليه فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته فمبدؤه محفوظ عليه ونهايته الجزاء عليه"،[٧] إذ أن "الحافظ يراقبها، ويحصي عليها، ويحفظ عنها، وهو موكل بها بأمر الله، ويعين النفس لانها مستودع الأسرار والأفكار، وهي التي يناط بها العمل والجزاء. ليست هناك فوضى إذن و لا هيصة، والناس ليسوا مطلقين في الأرض هكذا بلا حارس. و لا

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٣٤، الأقسام للسبحاني، ص١٥٢ و ينظر: مدارك التنزيل للنسفي: ٤/ ٣٣٠، المحرر الوجيز لابن عطية:٥/ ٤٦٤، مفاتيح الغيب للرازي: ٣١/ ١٢٧، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥/ ٥٧٦.

(٢) مفاهيم القرآن، ٤٣٣/٩ – ٤٣٤، الأقسام للسبحاني، ص ١٥١ – ١٥٢ وينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٥٤٦/٣، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥ / ١١٧، التبيان للطوسي: ١٠ / ٣٢٢، التفسير الأصفى للفيض الكاشاني: ٢/ ١٤٢٩، الميزان للطباطبائي: ٢٠ / ٢٥٩.

(٣) مجمع البيان للطبرسي، ١٠ / ٣٢٢.

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٤ / ٢٤١، مقتنيات الدرر للحائري: ١٢/ ١١٨،

(٥) سورة الطارق، الآية / ٨.

(٦) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لأبن عادل: ٢٦١/٢٠، الدر المصون للسمين الحلبي: ٧٥٢/١٠، البحر المحيط لأبي حيان: ٤٤٩/٨.

(٧) التبيان لأبن قيم، ص ٦٦.

مهملين في شعابها بلا حافظ، ولا متروكين يفعلون كيف شاءوا بلا رقيب. إنما هو الإحصاء الدقيق المباشر، والحساب المبني على هذا الإحـــصاء الدقيق المباشر".[١] وأما الصلة بينهما، فقال فيها السبحاني: "إن السماء العالية والنجوم التي تتحرك في مدارات منظمة دليل النظم والحساب الدقيق، فليعلم الانسان بأن أعماله أيضا تخضع للحساب الدقيق، فان هناك من يحفظ أعماله ويسجلها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وانها لمسؤولية عظيمة يحملها الانسان، إذ ما من أحد إلا وهو مراقب، تكتب عليه كل أعماله من المهد إلى اللحد، فليس من شئ يضيع في هذه الدنيا أبدا"،[٢] "واعلم أنه تعالى لما أقسم على أن لكل نفس حافظاً يراقبها ويعد عليها أعمالها، فحينئذ يحق لكل أحد أن يجتهد ويسعى في تحصيل أهم المهمات، وقد تطابقت الشرائع والعقول على أن أهم المهمات معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، واتفقوا على أن معرفة المبدأ مقدمة على معرفة المعاد"،[٣] "وليست مخلوقة بلا محاسبة مما يدعو الى حسن العمل وتقديم ما ينفع يوم الحساب".[٤] ثم أضاف السبحاني قائلاً: "وأما إذا فسرت من يحفظ الانسان من الحوادث والمهالك، فالصلة بالنحو التالي: وهو ان للنفوس رقيبا يحفظها ويدبر شؤونها في جميع أطوار وجودها حتى ينتهي أجلها، كما أن للسماء مدبرا لشؤونها بما تحتويه من أنظمة رائعة ومعقدة، فالفضاء الكوني فسيح جدا تتحرك فيه كواكب لا حصر لها، بسرعة خارقة، بعضها يواصل رحلته وحده، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى، ومنها ما يتحرك في شكل مجموعات، والكواكب على كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى، إن هذا الكون يتألف من مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم تسمى مجاميع النجوم، وكلها تتحرك دائما وتدور في نظام رائع".[٥]

ختم السبحاني قوله بأدلة على حركة النجوم قائلاً: ومع هذا الدوران تجري حركة أخرى وهي ان هذا الكون يتسع من كل جوانبه، كالبالون المتخذ من المطاط، وجميع النجوم تبتعد في كل ثانية بسرعة فائقة عن مكانها، هذه الحركة المدهشة تحدث طبقا لنظام وقواعد محكمة بحيث لا يصطدم بعضها ببعض ولا يحدث اختلاف في سرعتها. [٦]

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب، ٣ / ٨٧٨ وينظر: القسم لعبد العاطي: ص ١٨٣.

(٢) مفاهيم القرآن،٩/ ٤٣٤- ٤٣٥، الأقسام للسبحاني،ص١٥٢- ١٥٣ وينظر: الأمثل للشيرازي:٢٠/ ١٠٧.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ٣١ / ١٢٩.

(٤) القسم لعبد العاطي، ص ٢٢١.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٣٥، الأقسام للسبحاني، ص ١٥٣.

(٦) ينظر: الاسلام يتحدى مدخل علمي الى الايمان، لوحيد الدين خان، تعريب: ظفر الاسلام خان، تحقيق: عبد الصبور شاهين، مكتبة الرسالة، طرابلس: ص ٥٨، مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٣٥، الأقسام للسبحاني، ص ١٥٣.

وتضيف الباحثة: "إن أبعاد النجوم عنا، وعن بعضها البعض، في مجرتنا، وفي كل المجرات، ولأنها كلها تتحرك، فان الحديث عن مواقعها يصير أيضا حديثا على مداراتها، وحركاتها الأخرى العديدة، وسرعاتها، وعلى علاقاتها بالنجوم الأخرى، وعلى القوى العظيمة والحسابات المعقدة، التي وضعت كل نجم في موقعه الخاص به وحفظته، في علاقات متوازنة، دقيقة، محكمة، فهي لا يعتريها الاضطراب، ولا تتغير سننها وقوانينها، وهي لا تسير خبط عشواء أو في مسارات متقاطعة أو متعارضة بل هي تسير كلها بتساوق وتناغم وانسجام وانتظام تامين دائمين، آيات على قدرة القادر سبحانه"،[١] هذا كله في الكواكب او النجوم المتحركات. وأما "الثوابت إنما سميت ثوابت لأسباب: **أحدها:** كونها بطيئة لأنها بإزاء السيارة تشبه الساكنة. **وثانيها:** السيارة تتحرك إليها وهي لا تتحرك إلى السيارة فكأن الثوابت ثابتة لانتظارها. **وثالثها:** عروضها ثابتة على مقدار واحد لا يتغير. **ورابعها:** أبعاد ما بينها ثابتة على حال واحد لا تتغير الصورة المتوهمة عليها من الصور الثماني والأربعين. **وخامسها:** الأزمنة عند أكثر عوام الأمم منوطة بطلوعها وأفولها بحيث لا يتفاوت إلا في القرون والأحقاب"،[٢] "أن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم، ما يمكن رويته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم كوكب بآخر إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد وبعيد جدا، إن لم يكن مستحيلا".[٣] "لا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السماوات العلى إلا ويغضي إجلالا ووقارا، إذ يرى ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة، ويراقب سيرها في أفلاكها وتنقلها في أبراجها، وكل نجم وأي كوكب، وكل سديم وأي سيار، إنما هو دنيا قائمة بذاتها، أكبر من الأرض وما فيها وما عليها وما حولها".[٤]

٣ – القسم بالأرض (في سورة الشمس)

---

(١) اسرار الكون بين العلم والقرآن، لعبد الدائم الكحيل، سوريا، ط١، ٢٠٠٦ م، ص ١٩٢ وينظر: مفاهيم القرآن: ٩ / ٣٦٤، الأقسام للسبحاني: ص ٨٢.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ٤ / ٢٠٩.

(٣) الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل: ص ٢٤ وينظر: الوسيط للطنطاوي: ١٤ / ١٨٢.

(٤) الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل، ص٢٥ وينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٤٢٣، الأقسام للسبحاني: ص ١٤١.

-قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[١].[٢]

المطلب الرابع: أقسام أخرى

جذبت أقسام القرآن الأنظار بسبب كثرتها وغرابتها وخروجها عن المعتاد. وأثارت الأنتباه والتعجب الى تشريفها وتعظيمها من المقسم بها، إذ أقسم سبحانه بكل الموجودات الدالة على قدرته، المرئي منها وغير المرئي. وتذكر الباحثة أقساماً آخرى متفرقة وهي:

١- القسم بالقلم وما يسطرون (في سورة القلم)

بدأ السبحاني توضيح أركان القسم قائلاً: "حلف سبحانه بالقلم وما يسطرون معا مرة واحدة، وقال: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.[٣] وقبل تفسير الآيات نقدم شيئا وهو أن لفظة ﴿ نٓ ﴾ من الحروف المقطعة وقد تقدم تفسيرها، وأنه ليس مقسم به كالقلم ولو كان كذلك فينبغي أن يجر أن كان علما، فإن كان مؤنثاً منع الصرف، أو مذكراً صرف، وإن كان جنساً أعرب، ونون ليس فيه شيء من ذلك فضعف القول به. وبذلك يعلم وجه تجريد (ن) عن اللام واقتران القلم بها".[٤]

أتم السبحاني توضيح أركان القسم قائلاً: "حلف سبحانه بالقلم، وقال: ﴿ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ وهل المراد منه جنس القلم الذي يكتب به من في السماء ومن في الأرض، قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.[٥] فَمَنَّ سبحانه وتعالى بتيسير الكتابة بالقلم، كما منَّ بالنطق، وقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾.[٦] فالقلم والبيان نعمتان كبيرتان، فبالبيان يخاطب الحاضرين، كما أنه بالقلم يخاطب الغائبين فتمكن بهما تعريف القريب والبعيد بما في قرارة ذهنه"،[٧] "فإن القلم أخو اللسان ونعمة من الله عامة".[٨] وذهب بعض المفسرين

---

(١) سورة الشمس، الآيات / ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠.

(٢) تم تناولها في المبحث الثالث، المطلب الثالث / ص٣٢٠-٣٢٧ .

(٣) سورة القلم، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤.

(٤) مفاهيم القرآن: ٩/ ٣٨٥، الأقسام للسبحاني، ص ١٠٣ وينظر: الكشاف للزمخشري: ٤ / ١٤١، مفاتيح الغيب للرازي: ٣٠ / ٧٧، البحر المحيط لأبي حيان: ٨ / ٣٠٢.

(٥) سورة العلق، الآيات / ٣، ٤، ٥.

(٦) سورة الرحمن، الآيتان / ٣، ٤.

(٧) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٨٦، الأقسام للسبحاني، ص ١٠٤.

(٨) البحر المحيط لأبي حيان، ٨ / ٣٠٢.

الى القول: إن المراد هو القلم المعهود الذي جاء في الخبر: إن أول ما خلق الله هو القلم.[١] وأستبعده السبحاني قائلاً: "ولكنه تفسير بعيد عن أذهان المخاطبين في صدر الاسلام الذين لم يكونوا عارفين بأول ما خلق الله ولا بآخره".[٢]

وذهب أغلب المفسرين ومنهم السبحاني الى: إنه سبحانه حلف بـ ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، وما مصدرية فيكون المراد وسطرهم فيكون القسم بنفس الكتابة، ويحتمل أن يكون المراد المسطور والمكتوب، وعلى ذلك حلف سبحانه بجنس القلم وبجنس الكتابة، أو بجنس المكتوب، كأنه قيل: أحلف بالقلم وسطرهم أو مسطوراتهم.[٣]

أضاف السبحاني قائلاً: "إن في الحلف بالقلم والكتابة والمكتوب إلماعا إلى مكانة القلم والكتابة في الاسلام، وأن في قوله سبحانه: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ إشارة إلى ذلك، والعجب أن القرآن الكريم نزل وسط مجتمع ساده التخلف والجهل والأمية، وكان من يجيد القراءة والكتابة في العصر الجاهلي لا يتجاوز عدد الأصابع"،[٤] إذ "أن عهد قريش بالكتابة لم يكن بعيدا، بل كان حديثا وقريبا بعهد رسول الله (ﷺ)".[٥] أتم السبحاني تفسيره قائلاً: "ومع ذلك يعود القرآن ليؤكد بالحلف بالقلم على مكانة القلم والكتابة في الحضارة الاسلامية، وجعل في ظل هذا التعليم أمة متحضرة احتلت مكانتها بين الحضارات. وليس هذه الآية وحيد نسجها في الدعوة إلى القلم والكتابة بل ثمة آية أخرى هي أكبر آية في الكتاب العزيز، يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ﴾.[٦] وأن النبي (ﷺ) حث على كتابة حديثه الذي هو المصدر الثاني بعد القرآن الكريم ففي رواية عن عبد الله بن عمرو، قال: كنت أكتب كل شئ أسمعه من رسول الله (ﷺ)، أريد حفظه فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كل شئ تسمعه ورسول الله (ﷺ) بشر يتكلم في

---

(١) ينظر: القرآن العظيم لأبي حاتم: ٣٣٦٤/١٠، تفسير القرآن للسمعاني:١٧/٦، معالم التنزيل للبغوي:٤/ ٣٧٥.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٨٦، الأقسام للسبحاني، ص ١٠٤.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢٩ / ٢٢، الكشاف للزمخشري: ٤ / ١٤٠، مفاتيح الغيب للرازي: ٣٠ / ٧٨، التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٩ / ٦٠، القسم في القرآن الكريم لشوقي ضيف: ص ٥٨ – ٥٩، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٨٦ – ٣٨٧، الأقسام للسبحاني، ص ١٠٤ – ١٠٥.

(٤) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٨٧، الأقسام للسبحاني، ص ١٠٥ وينظر: فتوح البلدان، لأحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (ت ٢٧٩هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨ م: ص ٤٥٧.

(٥) مقدمة أبن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولي الدين (ت ٨٠٨ هـ)، تحقق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ص ٤١٨.

(٦) سورة البقرة، من الآية / ٢٨٢.

الغضب والرضا ؟ فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله (ﷺ) فأومأ بإصبعه إلى فيه، وقال: ((اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حقا)).[١] وفي رواية آخرى عن أبي هريرة، قال: كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي (ﷺ) فيسمع من النبي (ﷺ) الحديث فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبي (ﷺ)، فقال: يا رسول الله إني أسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه، فقال رسول الله (ﷺ): ((استعن بيمينك وأومأ بيده للخط)).[٢] هذا كله حول المقسم به"،[٣] "وفيه تنويه وأشادة بالعلم والمعرفة، وحث عليهما، ودعوة لتحكيم العلم في كل شيء".[٤]

وأما المقسم عليه فهو قوله سبحانه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.أختلف المفسرون فيه على أقوال عدة: إذ ذهب أغلب المفسرين ومنهم السبحاني الى أن: المراد من النعمة النبوة والايمان، والباء للسببية أي لست أنت بسبب هذه النعمة بمجنون، ردا على من جعل نبوته ونزول القرآن عليه دليلا على جنونه، قال سبحانه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [٥]،[٦] "أي: ما أنت بإنعام ربك عليك بالإيمان والنبوة بمجنون".[٧]

وذهب البيضاوي الى: أن يكون المراد من النعمة كلما تفضل عليه سبحانه من النعم وراء الايمان والنبوة كفصاحته وبلاغته وعقله الكامل وخلقه الممتاز، فان هذه الصفات تنافي حصول الجنون.[٨] وذهب بعض المفسرين: أن يكون جملة ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾مقطوعة عما قبله وما بعده، وان وزانها وزان بحمد الله في الجمل التالية: أنت – بحمد الله – عاقل. أنت – بحمد الله – لست بمجنون. أنت – بنعمة الله – فهيم. أنت – بنعمة الله – لست بفقير. وعلى هذا التقدير يكون معنى الآية ما أنت – في ظل نعمة ربك – بمجنون.[٩] وهناك احتمال رابع: جعل الباء

---

(١) مسند أحمد، ٢ / ١٦٢، (مسند عبد الله بن عمرو....)، سنن أبي داود، ٢/ ١٧٦، كتاب (العلم)، باب (في كتاب العلم)، رقم الحديث (٣٦٤٦)، وهو حديث متواتر.

(٢) سنن الترمذي، ٤ / ١٤٥، أبواب (العلم)، باب (في الرخصة في كتابة العلم)، رقم الحديث (٢٨٠٤)، بحار الأنوار للمجلسي، ٢/ ١٥٢، كتاب (العقل والجهل. . .)، باب (كتابة الحديث وروايته. . .).

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٨٧ – ٣٨٨، الأقسام للسبحاني، ص ١٠٥ – ١٠٦.

(٤) التفسير المقارن للناصري، ٨ / ٢٢٢.

(٥) سورة القلم، الآيتان / ٥١، ٥٢.

(٦) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٤٥٨، الكشف والبيان للثعلبي، ١٠ / ٩، زاد المسير لابن الجوزي، ٨ / ٦٥، مقتنيات الدرر للحائري: ١١ / ٢٠٩، الميـــــزان للطباطبائي: ١٩ / ٣٦٨، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٨٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٠٧.

(٧) زاد المسير لابن الجوزي، ٨ / ٦٥ وينظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٠ / ٩.

(٨) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥ / ٣٦٩ ، الميزان للطباطبائي: ١٩ / ٣٦٨.

(٩) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٥ / ٣٤٦، مفاتيح الغيب للرازي، ٣٠ / ٧٩، التسهيل لعلوم التنزيل لابن الجزي: ٢ / ٣٩٨.

حرف القسم، وعلى ذلك يكون الحلف مقرونا بالدليل، وهو: إن من أنعم الله عليه بهذه النعم الإلهية كيف يتهمونه بالجنون، وهذا ما ذهب اليه الزمخشري وآخرون إذ قال: "يتعلق الباء في ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ بمجنون منفيا كما يتعلق بعاقل مثبتا في قولك أنت بنعمة الله عاقل مستويا في ذلك الإثبات والنفي".[١] ذكر السبحاني **دليلين** على نفي الجنون عن النبي (ﷺ): **احدهما:** "فضلاً إلى أن لك في الآخرة لأجرا غير ممنون، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ والممنون مشتق من مادة من بمعنى القطع أي الجزاء المتواصل إلى الأبد. و**الثاني:** ثم إنه سبحانه يستدل بدليل آخر على نزاهته من هذه التهمة، وهي قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فمن كان على خلق يعترف به القريب والبعيد فكيف يكون مجنونا؟! فقد تجسم في شخصية الرسول العطف والحنان إلى القريب والبعيد، والصبر والاستقامة في طريق الهدف، والعفو عن المتجاوز بعد التمكن والقدرة، والتجافي عن الدنيا وغرورها، إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق، وبذلك ظهر ان الحلف صار مقرونا بالدليل"،[٢] "وهما معطوفتان على جواب القسم"،[٣] "أي غير مقطوع بل هو دائم مستمر ونكر الأجر تنكير تعظيم وإنما كان التنكير للتعظيم لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير ثم قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته لمن منحه الله فهما ولقد سئلت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) عن خلقه (ﷺ) فأجابت بما شفى وكفى فقالت: ((كان خلقه القرآن))[٤]".[٥]

تخلص الباحثة: بديهة ان الأجر يقاس بنتائج الأعمال وآثارها، ولا تزال آثار نبينا محمد (ﷺ) ودعوته وعظمته قائمة إلى اليوم في شرق الأرض وغربها، وستبقى إلى آخر يوم من هذه الدنيا شامخة للقاصي والداني رغم مزاعم الحاقدين والمنكرين والكافرين، فلا بدع إذا ظفر من ربه بالعقبى الدائمة، والكرامة الخالدة بوصفه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾. ما وصف

---

(١) الكشاف للزمخشري، ٤ / ١٤١ وينظر: مجمع البيان للطبرسي: ١٠ / ٨٥، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ١٨ / ٢٢٦، التفسير الكاشف لمغنية: ٧ / ٣٨٦.

(٢) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٨٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٠٧ وينظر: الامثل للشيرازي: ١٨ / ٥٢٣.

(٣) أرشاد العقل السليم لابي السعود، ٥ / ٣٧٠.

(٤) مسند أحمد، ٦ / ٩١، (حديث السيدة عائشة (رضي الله عنها))، فتح الباري لابن حجر، ٦ / ٤١٩، كتاب (آحاديث الأنبياء)، باب (صفة النبي. . .)، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، لمحمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ)، تحقيق: مرتضى العسكري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٢، ١٤٠٤ هـ – ١٣٦٣ ش، ٣ / شرح ص ٢٣٦، باب (ما نص الله عزوجل ورسوله. . .).

(٥) التبيان لأبن قيم، ص ١٣٥.

سبحانه أحدا من رسله بهذا الوصف إلا محمدا (ﷺ)، ويتلخص معناه بقول الرسول الأعظم (ﷺ): ((أدبني ربي فأحسن تأديبي))[١] "أي ان اللّه قد اتجه بأخلاق محمد (ﷺ) إلى نفس الهدف الذي خلقها اللّه من أجله".[٢]

وأما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقال فيها السبحاني: " إن القلم والكتابة آية العقل والدراية، فحلف به لغاية نفي الجنون عن النبي (ﷺ)"،[٣] "أقسم ربنا بالقلم وما يسطر به من الكتب: ان محمدا الذي أنعم الله عليه بنعمة النبوة ليس بمجنون كما تدعون، وكيف يكون مجنونا والكتب والأقلام أعدت لكتابة ما ينزل عليه من الوحي؟!"،[٤] إذ"هو ربط بين العلم ومن أرسله الله به؛ فالقسم بالقلم وما يكتبه إشارة الى العلم الذي ينفع الناس"،[٥] "فهناك مناسبة بين المنطوق (ن) والمكتوب بالقلم، وبين الملموس الذي رآه الكفار وعايشوه من أخلاق الرسول (ﷺ) ورجاحة عقله، وبصبره عليهم سينال الأجر العظيم، وسيرون ذلك يوم القيامة عندما يحاسبون على أقوالهم وأعمالهم".[٦]

٢- القسم بما تبصرون وبما لا تبصرون (في سورة الحاقة)

-قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ * وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.[٧]

في مطلع حديثه عن تفسير الآيات الكريمة أوضح السبحاني أركان القسم قائلاً: "حلف سبحانه بما يبصر وبما لا يبصر، وقوله: ﴿ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ يعم ما سوى الله لأنه لا يخرج عن قسمين مبصر وغير مبصر، فيشمل الدنيا والآخرة والأجسام والأرواح والأنس والجن والنعم الظاهرة والباطنة، ويشمل الخالق والمخلوق، فان الخالق داخل في قوله: ﴿ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾،

---

[١] بحار الأنوار للمجلسي، ٢١٠/١٦، كتاب (أحوال سيدنا ونبينا خاتم الانبياء....)، باب (مكارم أخلاقه وسيره وسننه....).

[٢] التفسير الكاشف لمغنية، ٧ / ٣٨٧.

[٣] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٩٠ – ٣٩١، الأقسام للسبحاني، ص ١٠٨ – ١٠٩.

[٤] تفسير المراغي للمراغي، ٢٩ / ٢٧.

[٥] القسم في القرآن الكريم لشوقي ضيف، ص ٥٨ – ٥٩.

[٦] القسم لعبد العاطي، ص ٣٠٣.

[٧] سورة الحاقة، الآيات / ٣٨ ،٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣.

وعلى هذا الوجه فقد حلف سبحانه بعالم الوجود وصحيفته".[١] وتعددت تفاسير المفسرين للآيات وجميعها تصب في المعنى نفسه الذي ذهب اليه السبحاني، وتذكر الباحثة بعضاً منها: "ما اظهر الله للملائكة والقلم واللوح وما لا تبصرون مما اختزن عن خلقه الذي لم يجر القلم به ولم تشعر الملائكة بذلك وما اظهر الله للخلق من صفاته وأراهم من صنعه وأبدى لهم من علمه في جنب ما اختزن عنهم إلا كذرة في جميع الدنيا والآخرة ولو اظهر الله من حقائق ما اختزن لذابت الخلائق عن آخرهم فضلا عن جملها"،[٢] أقسم بما ترون، وما لا ترون، فأراد جميع الموجودات"،[٣] "هذا أعم قسم وقع في القرآن فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة وما يرى وما لا يرى ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس والعرش والكرسي وكل مخلوق وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته وهو سبحانه يصرف الأقسام كما يصرف الآيات ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى ومالا يرى آية ودليل على صدق رسوله وأن ما جاء به هو من عند الله وهو كلامه لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن".[٤]

أضاف السبحاني قائلاً: "لقد أقسم سبحانه بشئ يخص البصر دون سائر الحواس، وقال: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ هو أقسم بما نبصر وما أقله، وأقسم بما لا نبصر وما أكثره وأعظم خطره. أقسم الحق سبحانه هذا القسم العظيم بما له علاقة بالبصر ولم يقسم بغيره مما هو محسوس، ذلك لأنه رغم كونه يعطينا أوسع إحساس وأبعده وأسرعه بما يحيط بنا فإنه رغم ذلك لا يصلنا منه إلا أقل القليل"،[٥] "بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق ويكفي الانسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه ومبدأ خلقه ونشأته وما يشاهده من أحواله ظاهرا وباطنا ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب وثبوت صفاته وصدق ما أخبر به رسوله وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الايمان قلبه".[٦]

تخلص الباحثة الى: أن عموم وسعة مفهوم هاتين العبارتين يمنع من تحديدهما. لذلك فإن كل ما يدخل في دائرة المشاهدة وما هو خارج عنها مشمول للقسم به.

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٩٢، الأقسام للسبحاني، ص ١١٠ وينظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٣٠ / ١١٦.
(٢) حقائق التفسير للسلمي، ٢ / ٣٤٨ وينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ٣٢.
(٣) زاد المسير لابن الجوزي، ٨ / ٨٦.
(٤) التبيان لأبن قيم، ص ١١٠.
(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٩٣، الأقسام للسبحاني، ص ١١١.
(٦) التبيان لأبن قيم، ص ١١٠ وينظر: القسم لعبد العاطي: ص ٤٣٠.

وأما المقسم عليه، فهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ * وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، إذ أختلف المفسرون فيه، فذهب بعضهم الى أنه يشير الى القرآن الكريم لنفي أن يكون القرآن الكريم قول شاعر أو كاهن، ومنهم السبحاني إذ قال: "فالمقسم عليه مركب من **أمور إيجابية** أعني كونه: قول رسول كريم وانه تنزيل من رب العالمين، **وسلبية** وهو أن القرآن ليس بقول شاعر ولا كاهن"،[١] وأغلب المفسرين ذهبوا الى أن المراد منه هو رسول الله (ﷺ)،[٢] وهذا **ماتؤيده الباحثة**، وهو ما أحتمله السبحاني إذ قال: "يحتمل أن يراد منه النبي (ﷺ)، وذلك لأنه وصفه بقوله: ليس بقول شاعر ولا كاهن والقوم كانوا يصفون محمدا بالشعر والكهانة ولا يصفون جبرئيل بهما. والغرض المتوخى من عزو القرآن إلى رسول كريم هو نفي كونه كلام شاعر أو كاهن"،[٣] ومنهم من ذهب الى أنه جبرائيل(عليه السلام)،[٤] ومنهم من ذهب الى أنه أشارة الى قول الله حقيقة إذ قال: "هو قول الله على الحقيقة، وإنما الملك وجبرائيل والرسول يحكون ذلك، وإنما أسنده إليهم من حيث أن ما يسمع منهم كلامهم ولما كان حكاية كلام الله قيل: هو كلام الله على الحقيقة في العرف"،[٥] وهذا ما ايد صحته السبحاني إذ قال: "لا ينافي ذلك أن يكون القرآن كلامه سبحانه، وفي الوقت نفسه كلام أمين الوحي وكلام النبي (ﷺ)، لصحة الإضافة إلى الجميع، فالقرآن كلامه سبحانه لأنه فعله، وهو الذي أنشأه، وكلام جبرئيل، لأنه هو الذي أنزله من جانبه سبحانه على قلب سيد المرسلين، وفي الوقت نفسه كلام النبي (ﷺ) لأنه أظهره وبينه للناس، ويكفي في النسبة أدنى مناسبة".[٦]

وأما الصلة بين المقسم به والقسم عليه، فقال فيه السبحاني وهو ما ذهب اليه الطباطبائي إذ قال: "وفي اختيار ما يبصرون ومالا يبصرون للأقسام به على حقية القرآن ما لا يخفى من المناسبة، فان النظام الواحد المتشابك أجزاؤه الجاري في مجموع العالم يقضي بتوحده تعالى، ومصير الكل إليه، وما يترتب عليه من بعث الرسل وإنزال الكتب، والقرآن خير كتاب سماوي يهدي إلى الحق في جميع ذلك وإلى طريق مستقيم".[٧]

---

(١) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٩٣، الأقسام للسبحاني، ص ١١١ وينظر: جامع البيان للطبري ٢٩/ ٨١، الكشاف للزمخشري: ١٥٤/٤، أنوار التنزيل للبيضاوي:٢٤٢/٥، زبدة التفاسير لفتح الله: ١٧٠/٧.

(٢) ينظر: حقائق التفسير للسلمي:٣٧٥/٢، زاد المسير لابن الجوزي:٨٦/٨،دقائق التفسير لابن تيمية:١٨٣/٢، القرآن العظيم لابن كثير:٣٦٦/٣، فتح القديرللشوكاني:٢٨٦/٥.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٩٤، الأقسام للسبحاني، ص١١٢.

(٤) ينظر:مفاتيح الغيب للرازي:٢٢٦/٢، نور الثقلين للحويزي:٤١٠/٥، أضواء البيان للشنقيطي:٤٦٦/٧.

(٥) التبيان للطوسي، ١٠ / ١٠٨.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٩٤، الأقسام للسبحاني، ص ١١٢.

(٧) الميزان للطباطبائي، ١٩ / ٤٠٣، مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٩٤، الأقسام للسبحاني، ص ١١٢.

أضاف السبحاني تعبيرا آخراً قائلاً: "إنه سبحانه تبارك وتعالى حلف بعالم الغيب والشهادة – أي بمجموع الخليقة والنظام السائد على الوجود الامكاني على وجود هدف مشترك لهذا النظام، وهو صيرورة الانسان في هذا الكوكب إنسانا كاملا مظهرا لأسمائه وصفاته، ولا يتم تحقيق ذلك الهدف إلا من خلال بعث الرسل وإنزال الكتب، والقرآن كتاب سماوي أنزل إلى الانسان. ثم إنه سبحانه دعم حلفه بالبرهان على المقسم عليه، فان المقسم عليه عبارة عن كون القرآن كلام رسول كريم أخذه من أمين الوحي، وهو من الله سبحانه وليس من مبدعاته ومتقولاته وإلا لعمه العذاب فورا، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾.[١] فإذا حالف الرسول النجاح في الدعوة إلى رسالته والتفت حوله طوائف كثيرة فهو أوضح دليل على أنه غير كاذب في دعوته وصادق في عزوها إلى الله وإلا لما أمهله الله سبحانه هذا المقدار من الزمان"،[٢] "إذ أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئا من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة فإن كذبا على الله ليس ككذب على غيره ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلا عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه".[٣]

٣- القسم بالقيامة وبالنفس (في سورة القيامة)

-قال تعالى: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾.[٤]

بدأ السبحاني توضيح أركان القسم قائلاً: "حلف سبحانه في سورة القيامة **بأمرين:**

١. يوم القيامة.

٢. النفس اللوامة.

اختلف المفسرون في كلمة (لا) على أقوال: **الأول:** إن لا أقسم كلمة قسم وان العرب تزيد كلمة لا في القسم، كقولك لا والله، والتقدير اقسم بيوم القيامة، وهذا ما ذهب اليه أغلب

---

[١] سورة الحاقة، الآيات / ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧.

[٢] مفاهيم القرآن، ٩/ ٣٩٥، الأقسام للسبحاني، ص ١١٣.

[٣] التبيان لأبن قيم، ص ١١٥ وينظر: القسم لعبد العاطي: ص ٤٤٢.

[٤] سورة القيامة، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦.

المفسرين [١]: "إنها صلة، أي: زائدة على ما هو مذهب كلام العرب". [٢] **الثاني:** إن لا نافية، فهم لما أنكروا البعث، قيل لهم ليس الامر على ما ذكرتم، ثم أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة إن البعث حق، وهو ما ذهب اليه بعض المفسرين.[٣] **الثالث:** إنها للنفي، على معنى اني لا أعظمه بأقسامي به حق إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من هذا، وهو يستحق فوق ذلك، وهو ما ذهب اليه بعضهم. [٤] استبعد السبحاني القول الأول ورجح القولين الآخرين إذ قال: "فعلى المعنى الأول لا زائدة، ولكنه بعيد في كلام رب العزة، والمتعين أحد المعنيين الأخيرين". [٥]

وتذهب الباحثة: الى ما ذهب إليه الرازي في ترجيح القول الثالث إذ قال: "إن لا ههنا لنفي القسم كأنه قال: لا أقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس ولكني أسألك غير مقسم أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك".[٦] أما المقسم به، فقد أختلف المفسرون فيه على **قولين: الأول:** إنه أمران(يوم القيامة، **و** النفس اللوامة)، وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين ومنهم السبحاني إذ قال: "إما المقسم به فهو **أمران: أ:** يوم القيامة. **ب:** النفس اللوامة، أما **الأول:** فهو يوم البعث الذي يجمع الله فيه الناس على صعيد واحد، وإنما سمي يوم القيامة لأجل انه يقوم به الحساب، قال سبحانه حاكيا عن إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾.[٧]وانه يوم يقوم به الاشهاد، قال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾.[٨] وانه يوم يقوم فيه الروح، وانه يوم يقوم الناس لرب العالمين، إلى غير ذلك من الوجوه التي توضح وجه تسمية اليوم بالقيامة، إذ جاء يوم القيامة في القرآن سبعين مرة، فلم تستعمل القيامة إلا مضافة إلى يوم. واما **الثاني:** أي النفس اللوامة صيغة مبالغة من اللوم، وهي عدل الانسان بنسبته إلى ما

---

(١) ينظر: الحجة في القراءات السبع لابن خالوية: ص٣٢٩، تفسير القرآن العزيز لان زمنين: ٥ / ٦٣، الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ٨١، الوجيز للواحدي: ٢/ ١١٥٣، مدارك التنزيل للنسفي: ٤ / ٢٩٩، التفسير الصافي للفيض الكاشاني: ٥ / ٢٥٤.

(٢) تفسير القرآن للسمعاني، ٦ / ١٠٢ وينظر: معالم التنزيل للبغوي: ٤ / ٤٢١.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري: ٢١٧/٢٩، المحرر الوجيز لأبي حيان: ٥ / ٤٠١، تفسير القرآن الكريم لشبر: ص ٢٤.

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٤ / ١٩٠، مفاتيح الغيب للرازي: ٣٠ / ٢١٥.

(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٠٠، الأقسام للسبحاني، ص ١١٨.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٣٠ / ٢١٥.

(٧) سورة أبراهيم، الآية / ٤١.

(٨) سورة غافر، الآية / ٥١.

فيه لوم، قال سبحانه: ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾.[١] إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها اللوم وما اشتق منه".[٢] واختلف المفسرون في المراد من النفس اللوامة على **أقوال** أذكر منها مثلاً: **الأول:** هي نفس آدم التي لم تزل تتلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة. وهذا ما ذهب اليه القلة من المفسرين.[٣] **الثاني:** مطلق النفس، إذ ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها يوم القيامة إن كانت عملت خيرا قالت: هلا ازددت، وإن كانت عملت سوءا قالت: يا ليتني لم أفعل، وهو ما ذهب اليه أغلب المفسرين ومنهم السبحاني إذ قال: "الظاهر أن القول الثاني هو المتعين، أي مطلق النفس التي تلوم صاحبها سواء أكان لأجل فوت الخير أو ارتكاب الشر".[٤] **الثالث:** وربما تختص بالنفس الكافرة الفاجرة.[٥] **الرابع:** عكس ذلك، والمراد نفس المؤمن التي تلومه في الدنيا على ارتكاب المعصية وتحفزه على إصلاح ما بدا منه.[٦] وعلى كل حال فالآية تحكي عن المنزلة العظيمة التي تتمتع بها النفس اللوامة إلى حد أقسم بها سبحانه وإلا لما حلف بها".[٧] **وتختصر الباحثة** النفس اللوامة بكلمتين: **(الضمير الأخلاقي).** **أما القول الثاني:** إنه أقسم بأمر واحد هو **(يوم القيامة)**، ولم يقسم بالنفس اللوامة،[٨] "وهذا ضعيف، لأنه يخرج عن تشاكل الكلام. والأولى أن يكونا قسمين، وهو قول الأكثرين".[٩]

وأما المقسم عليه، فقال فيه أغلب المفسرين ومنهم السبحاني: إنه محذوف وتقديره لتبعثن،[١٠] أو إنكم تبعثون، فيكون المعنى: لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة أنكم تبعثون يوم القيامة وتجزون ما كنتم تفعلون،[١١] إذ أنه "لم يذكر لأن في الكلام دليلا عليه،[١٢]

---

[١] سورة أبراهيم، من الآية / ٢٢.

[٢] مفاهيم القرآن، ٤٠١/٩-٤٠٢، الأقسام للسبحاني، ص١١٩-١٢٠ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله:٢٥٣/٧.

[٣] ينظر: تفسير القمي للقمي: ٢ / ٣٩٦، بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٤٩٨، نور الثقلين للحويزي: ٥ / ٤٦١.

[٤] مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٠٢، الأقسام للسبحاني، ص ١٢٠ وينظر: جامع البيان للطبري: ٢٩ / ٢١٨، الكشف والبيان للثعلبي: ١٠ / ٨١، التبيان للطوسي: ١٠ / ١٩٠، مجمع البيان للطبرسي: ١٠ / ١٩٣، التفسير الصافي للفيض الكاشاني: ٥ / ٢٥٤.

[٥] ينظر: حقائق التفسير للسلمي: ٢ / ٣٦١.

[٦] ينظر: القرآن العزيز لأبن زمنين: ٦٣/٥، تفسير القرآن للسمعاني: ١٠٢/٦، الميزان للطباطبائي: ١٠٣/٢٠.

[٧] مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٠٢، الأقسام للسبحاني، ص ١٢٠.

[٨] ينظر: تفسير القمي للقمي:٣٩٦/٢، التبيان للطوسي١٨٩/١٠، الإتقان للسيوطي: ٢/ ٩٥.

[٩] مجمع البيان للطبرسي، ١٠ / ١٩٣.

[١٠] ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ٤٩٨/٣، مدارك التنزيل للنسفي: ٢٩٩/٤، الكشاف للزمخشري: ١٩٠/٤، زاد المسير لابن الجوزي: ١٣٤/٨، الميزان للطباطبائي: ١٠٤/٢٠، مفاهيم القرآن: ٤٠٢/٩، الأقسام للسبحاني: ص١٢٠.

[١١] ينظر: الوجيز للواحدي: ٢ / ١١٥٣، الأمثل للشيرازي: ١٩ / ٢٠٣.

[١٢] بحر العلوم للسمرقندي، ٣ / ٤٩٨ وينظر: الوجيز للواحدي: ٢ / ١١٥٣.

"وإنما حذف للدلالة على تفخيم اليوم وعظمة أمره."[١] وذهب البعض الى: أن ﴿ بَلَىٰ ﴾ هو جواب القسم، وعليه وقع القسم.[٢]

وأما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقال فيها السبحاني: "هي ظهور اللوم من هذه النفس (النفس اللوامة) يوم القيامة، فان نفس الكافر لا تلومه في الدنيا إلا قليلا، في حين يتجلى اللوم ويتجسد يوم القيامة أكثر فأكثر عند البعث. وأما كرامة النفس اللوامة فواضحة جدا، لأنها تردع الانسان عن اقتراف الذنوب، ولا يمكن خداعها، وهي يقظة تزجر الانسان دائما عما عمله وقصده. ثم أضاف السبحاني قائلاً: ان الانسان إذا بعث يوم القيامة يلوم نفسه لأجل ما اقترف من المعاصي، إذ في ذلك الموقف الحرج تتكشف الحجب ويقف الانسان على ما اقترف من المعاصي والخطايا، فيندم على ما صدر منه قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾،[٣] وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.[٤] وبالجملة فيوم القيامة يوم الندم والملامة، ولات حين مناص"،[٥] "أن أحوال القيامة عجيبة جداً، ثم المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفوس اللوامة. أعني سعادتها وشقاوتها، فقد حصل بين القيامة والنفوس اللوامة هذه المناسبة الشديدة"،[٦] "ومن الظريف أن القسم جاء بيوم القيامة على وجود يوم القيامة، وذلك لأنه إلى درجة من الوضوح والبداهة أنه يمكن القسم به حتى في مقابل المنكرين".[٧]

٤ – القسم بالتين والزيتون (في سورة التين)

–قال تعالى: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ

---

(١) الميزان للطباطبائي، ٢٠ / ١٠٤.
(٢) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني، ٦ / ١٠٢.
(٣) سورة يونس، الآية / ٥٤.
(٤) سورة سبأ، الآية / ٣٣.
(٥) مفاهيم القرآن، ٩/ ٤٠٢ – ٤٠٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٢٠ – ١٢٧.
(٦) مفاتيح الغيب للرازي، ٣٠ / ٢١٦.
(٧) الأمثل للشيرازي، ١٩ / ٢٠٣.

رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.[١]

٥- القسم في سورة العاديات (القسم بالخيل)

-قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾.[٢]

للسبحاني رأي في القسم هنا، أوضحه بعد المعنى اللغوي لبعض مفردات[٣] آياته قائلاً: "حلف سبحانه في هذه السورة بأمور ثلاثة: العاديات، الموريات، المغيرات. ومعنى الآية أقسم بالخيل التي تعدو وتضبح ضبحا و تخرج النار بحوافرها حين ضربها الأحجار، وأقسم بالخيل المغيرة على العدو بغتة في وقت الصبح وإثارة الغبار حين العدو، لما في الاغارة على العدو بالخيل من إثارة الغبار. ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾، أي صاروا في وسط الأعداء بما ان هجومها كان مباغتا خاطفا استطاعت في بضع من اللحظات أن تشق صفوف العدو وتشن حملتها في قلبه وتشتت جمعه. وعلى كل حال فالآيات تحلف بالخيول التي تسرع إلى ميدان الجهاد بسرعة حتى تضبح ويتطاير الشرر من تحت حوافرها باستدامة ضرب الحافر للأحجار، وعند انجلاء الصبح تشن هجوما شديدا يثير الغبار في كل جانب ثم تتوغل إلى قلب العدو وتشتت صفوفه. وهذا يعرب ان الجهاد له منزلة عظيمة إلى حد استحق أن يقسم بخيوله والشرر التي تتطاير من حوافرها والغبار الذي تثيره في الهواء"،[٤] وهذا ما ذهب اليه أغلب المفسرين[٥]: "أقسم بالخيل العادية في سبيل الله، (وضبيحها) صوت أنفاسها عند العدو. وهي تقدح الأحجار بحوافرها، فتورى النار، فأغارت حين أصبحت. فأثرن الغبار فوسطن جمع العدو".[٦] وذهب بعضهم: إن

---

(١) تم تناولها في الفصل الثالث / المبحث الثالث / المطلب الثاني / ص٣٠١- ٣٠٧.

(٢) سورة العاديات، الآيات / ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨.

(٣) "العاديات": من العدو وهو الجري بسرعة. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٥ / ٣٢، مادة (عدو). "ضبحا": هو صوت أنفاس الخيل عند عدوها. ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن زكريا: ٣ / ٣٨٥، مادة (ضبح). "الموريات": هي إخراج النار. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٥ / ٣٨٩، مادة (روي). "قدحا": هي الضرب، يقال: قدح فأورى: إذا أخرج النار بالقدح. ينظر: العين للفراهيدي: ٣ / ٤٠، مادة (قدح). "المغيرات": هي الاغارة: الهجوم على العدو بغتة بالخيل. ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٥ / ٣٦، مادة (غار). "النقع": هي الغبار. ينظر: الصحاح للجوهري: ٣ / ١٢٩٢، مادة (نقع)، مفاهيم القرآن: ٩ / ٤٦٧، الأقسام للسبحاني: ص ١٨٥.

(٤) مفاهيم القرآن: ٩/ ٤٦٧ – ٤٦٨، الأقسام للسبحاني: ص ١٨٥ – ١٨٦.

(٥) ينظر: جامع البيان للطبري: ٣٠/ ٣٤٥ – ٣٥٢، بحر العلوم للسمرقندي: ٣ / ٥٨٣، القرآن العزيز لأبن زمنين: ٥/ ١٥٤، التبيان للطوسي: ١٠/ ٣٩٥ – ٣٩٧، معالم التنزيل للبغوي: ٤/ ٥١٧، مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٤٢٣.

(٦) تفسير القرآن للسمعاني، ٦ / ٢٧٠ وينظر: زبدة التفاسير لفتح الله: ٧ / ٤٩٣.

العاديات هي الأبل: "إنما ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴾من عرفة إلى المزدلفة، فإذا أدوا إلى المزدلفة أوروا إلى النيران ﴿ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴾ من المزدلفة إلى منى فذلك جمع وأما قوله: ﴿ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴾ فهو نقع الأرض حين تطؤه بخفافها وحوافرها".[١]

وترى الباحثة: إن هذا القول مردود لوجوه: **أحدها:** إن سياق الآيات يدل على أن العاديات هي الخيل، **والثاني:** إن صوت الضبح خاص بالخيل إذ تضج في عدوها وهو غير صهيلها، وغير الحمحمة.[٢] **والثالث:** "لا يكون الإيراء، وهو قدح الشرر، الإ لسنابك الخيل، اما الخف ففيه لين واسترخاء".[٣]

أما جواب القسم، فهو قوله: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴾. قال فيه السبحاني بعد التعريف اللغوي لمفردة (الكنود)[٤]: "يطلق الكنود على الانسان الكافر والبخيل، فكأنه جبل على نكران الحق وجحوده وعدم الاقرار بما لزمه من شكر خالقه والخضوع له. يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾،[٥] وهو اخبار عما في طبع الانسان من اتباع الهوى والانكباب على الدنيا والانقطاع بها عن شكر ربه، وفيه تعريض للقوم المغار عليهم، بأنهم كانوا كافرين بنعمة الاسلام، وهذا على وجه يشهد الانسان على كفران نفسه، كما يقول: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴾. ثم إنه يدلل شهادته على ذلك بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ والمراد من الخير المال."[٦] "ولا يبعد أن يكون المراد بالخير مطلقه ويكون المراد أن حب الخير فطري للانسان ثم إنه يرى عرض الدنيا وزينتها خيرا فتنجذب إليه نفسه وينسيه ذلك ربه أن يشكره"،[٧] و"أن الإنسان يعجز أحيانا عن معرفة نفسه، وبذلك يخدع ضميره، وتصبح الصفات الذميمة – بتسويل الشيطان وتزيينه – حسنة ممدوحة لديه. ولكن صفة الكنود وهي الكفران والبخل واضحة إلى درجة لا

---

(١) القرآن العظيم لأبي حاتم، ١٠ / ٣٤٥٧ وينظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٨ / ٢٦٤.

(٢) ينظر: القسم في القرآن الكريم لشوقي ضيف: ص ٤١، القسم لعبد العاطي: ص١١٨.

(٣) التفسير البياني للقرآن الكريم لعائشة عبد الرحمن، ١/ ١٠٤.

(٤) "الكنود": اسم للأرض التي لا تنبت شيئا. ينظر: الصحاح للجوهري: ٢ / ٥٣٢، مادة (كند)، مفاهيم القرآن: ٩ / ٤٦٨، الأقسام للسبحاني: ص ١٨٦.

(٥) سورة الحج، من الآية / ٦٦.

(٦) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٦٨ – ٤٦٩، الأقسام للسبحاني، ص ١٨٦ – ١٨٧ وينظر: جامع البيان للطبري: ٣٥٣ – ٣٥٥، التبيان للطوسي: ١٠ / ٣٩٧، مدارك التنزيل للنسفي: ٤ / ٣٥٣، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥ / ٥٢١، الميزان للطباطبائي: ٢٠ / ٣٤٦.

(٧) الميزان للطباطبائي، ٢٠ / ٣٤٧.

يستطيع أن يخدع ضميره وأن يغطي عليها. وإنه شديد الحب للمال والمتاع وهذا الانشداد المفرط بالمال والثروة هو سبب هذا البخل والكفران". [١]

أضاف السبحاني قائلاً: "إن هذه الآيات لا تنافي ما دلت عليه آية الفطرة، قال سبحانه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.[٢] وجه عدم التنافي ان الانسان كما جبل على الخير جبل على الشر أيضا، فكما ألهمها تقواها ألهمها فجورها، وكما أنه هداه إلى النجدين، ولكن السعادة هو من يستخدم قوى الخير ويتجنب قوى الشر. والحاصل ان الآيات القرآنية على صنفين: فصنف يصف الانسان بصفات سلبية مثل قوله: ﴿ لَيَئُوسٌ ﴾،[٣] ﴿ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾،[٤] ﴿ عَجُولًا ﴾[٥] ﴿ هَلُوعًا ﴾،[٦] إلى غير ذلك من الصفات السلبية الواردة في القرآن الكريم. وصنف آخر يصفه بصفات إيجابية تجعله في قمة الكرامة والعظمة. إذ بلغت به الكرامة انه صار مسجودا للملائكة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾،[٧] مخلوقا بفطرة الله: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾،[٨] إلى غير ذلك من الآيات التي تصف الانسان بصفات إيجابية. ولا منافاة بين الصنفين من الآيات، وذلك لان تلك الكرامة إنما هي للانسان الذي تمتع بكلا الوصفين، فهو عندما يلبي نداء العقل والشرع ينل كرامته العليا، ويكون مظهرا لقوله: ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾،[٩] ولو خضع لدعوة النفس والهوى، يكون مظهرا للصفات السلبية، كفورا يؤوسا هلوعا كنودا إلى غير ذلك من الصفات الذميمة. فالكمال كل الكمال لإنسان تكمن فيه قوى الخير والشر فيقوي إحداهما على الأخرى بإرادة واختيار دون أي وازع، فلو جبل على إحدى القوتين دون الأخرى لما استحق المدح ولا اللوم دون ما إذا كان فيه أرضية الخير والشر فيعالج أرضية الشر بتوجيهها نحو الخير والكمال،

---

(١) الامثل للشيرازي، ٢٠ / ٣٩٩.
(٢) سورة الروم، الآية / ٣٠.
(٣) سورة هود، من الآية / ٩.
(٤) سورة أبراهيم، من الآية / ٣٤.
(٥) سورة الأسراء، من الآية / ١١.
(٦) سورة المعارج، من الآية / ١٩.
(٧) سورة الأعراف، من الآية / ١١.
(٨) سورة الروم، من الآية / ٣٠.
(٩) سورة الأسراء، من الآية / ٧٠.

ولذلك نرى أنه سبحانه يستثني بعد الحكم على الانسان بقوله: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾،[١] الفئة المؤمنة العاملة بالصالحات ويقول ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[٢]"،[٣] إذ أن الإنسان له بعدان وجوديان. ولذلك يستطيع في منحناه الصعودي أن يرتقي إلى أعلى عليين، وفي منحناه النزولي إلى أسفل سافلين. إذا خضع للتربية الإلهية واستلهم نداء العقل، وبنى نفسه كان مصداقا لقوله سبحانه: ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾. وإذا أعرض عن الإيمان والتقوى، وخرج عن خط أولياء الله كان موجودا ظلوما كفارا ويؤوسا وكفورا وهلوعا وكنودا. من هنا فلا تناقض بين هذه الآيات، وكل منها يشير إلى واحد من بعدي وجود الإنسان. نعم، في داخل فطرة الإنسان تمتد جذور كل الحسنات والمفاخر والفضائل، وإن فيه استعدادا لما يقابل هذه الفضائل. ولذلك لا يوجد في عالم الخلقة موجود يفصل بين قوسه الصعودي وقوسه النزولي هذا القدر من البون الشاسع".[٤]

أما الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقال فيها السبحاني: "إنه سبحانه بعث الأنبياء لهداية الناس، فمنهم من يهتدي بكتابه وسنته، فهذه الطائفة تكفيها قوة المنطق، وثمة طائفة أخرى لا تهتدي، بل تثير العراقيل في سبيل دعوة الأنبياء، فهداية هذه الطائفة رهن منطق القوة، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾،[٥] فهذه الآية مؤلفة من فقرتين: الفقرة الأولى: التي تتضمن البحث عن إرسال الرسل بالبينات وإنزال الكتب والميزان راجعة إلى من له أهلية للهداية فيكفيه قوة المنطق. الفقرة الثانية: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ فهي راجعة إلى من لا يستلهم من نداء العقل والفطرة ولا يهتدي بل يثير الموانع فلا يجدي معهم سوى الحديد الذي هو رمز منطق القوة. وبذلك يعلم وجه الصلة بين إنزال الحديد وإرسال الكتب، وبهذا تبين أيضا وجه الصلة بين الأقسام والمقسم عليه، ففي الوقت الذي كان النبي (ﷺ) يعظ ويبعث رجال الدعوة لارشاد الناس، اجتمعت طائفة لمباغتة المسلمين والهجوم على المدينة والإطاحة بالدولة الاسلامية الفتية، فبعث النبي(ﷺ) عليا مع سرية، فأمر أن تسرج الخيل في ظلام الليل وتعد

---

(١) سورة التين، الآية / ٥.

(٢) السورة التين، الآية / ٦.

(٣) مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٦٩ – ٤٧١، الأقسام للسبحاني، ص ١٨٧ – ١٨٩ وينظر: جواهر الحسان للثعالبي: ٥ / ٦١٩، تيسير الكريم للسعدي: ص ٩٣٣.

(٤) الامثل للشيرازي، ٢٠ / ٤٠٣.

(٥) سورة الحديد، من الآية / ٢٥.

إعدادا كاملا، وحينما انفلق الفجر صلى بالناس الصبح وشن هجومه وباشر وما انتبه العدو حتى وجد نفسه تحت وطأة خيل جيش الاسلام، فهذه الطائفة لا يصلحهم إلا العاديات والموريات والمغيرات التي تهاجمهم كالصاعقة"،[١] "إذ يكون الارتباط في هذه السورة أن القرآن يقول: ثمة أفراد من بني الإنسان يضحون على طريق الجهاد ويبذلون النفس والنفيس في سبيل الله، فكيف والحال هذه يستولي على بعض الناس البخل والكفران، فلا يؤدون فريضة شكر النعم ولا يبذلون في سبيل الله؟! صحيح أن القسم في الآيات بالخيل، لكن الخيل إنما اكتسبت أهميتها لأنها مركب المجاهدين. فالقسم إذن بجهاد المجاهدين"،[٢] "هذه الصورة الرائعة التي جسدها الله (ﷻ) في صورة حركية لخيل الغزاة تشبه صورة الإنسان في سعيه في الدنيا، إذ إنه لا يسأم من السعي الحثيث في صورة تشبه عدو الخيل وأوارها للنيران وإثارة الغبار".[٣]

٦- القسم بالشفع والوتر في سورة (الفجر)

-قال تعالى: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ * وَلَيَالٍ عَشۡرٍ * وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ * هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾. [٤]

---

[١] مفاهيم القرآن، ٩ / ٤٧١ – ٤٧٢، الأقسام للسبحاني، ص ١٨٩ – ١٩٠.

[٢] الأمثل للشيرازي، ٢٠ / ٤٠١.

[٣] القسم لعبد العاطي، ص ١١٩.

[٤] تم تناولها في الفصل الثالث/ المبحث الثالث/ المطلب الثاني/ ص٣١٣-٣١٨.